

محمد عطية الابراشي

روح الإسلام

الأعمال

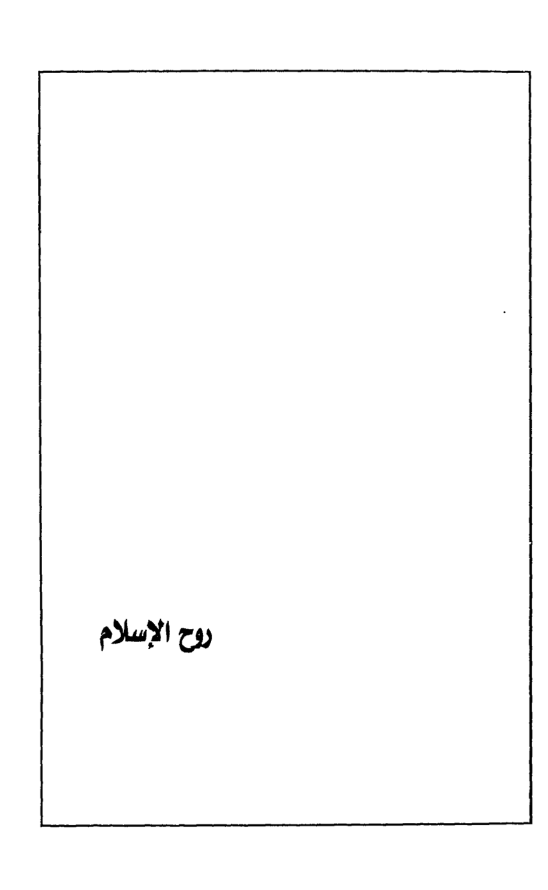


الدينية

اهداءات ٢٠٠٤

أسرة المخرج / إبراهيم الصحن

القاهرة



روح الإسلام

روح الإســلام

محمد عطية الإبراشى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الدينية)

إشراف : عادل النحاس

روح الإسلام

محمد عطية الإبراشى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنـان : محمـود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د.سميـر سرحـان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقـافـة
وزارة الإعـلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشـبـاب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سمير سرحان

الإهداء

إلى كل مسلم ومسلمة فى الأمة الإسلامية كلها ، وإلى المنصفين الذين يريدون الوصول إلى الحق ، ويبغون معرفة الإسلام ومبادئه ومثله العليا أهدى هذا الكتاب .

محمد عطية الابراشى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبجلالته أستعين

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله حمداً كثيراً ، وأصلي وأسلم على أعظم رسله ، وخاتم أنبيائه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، كلما ذكره الذاكرون ، وغَفلَ عن ذكرِه الغافلون .

وبعد فمنذ عشرات السنين كنت أقرأ باللغة الإنجليزية ما كتبه عن الإسلام أعداؤه من المحترفين ، المحرِّفين للحقائق ، المشوِّهين لها ، الذين يجعلون الحق باطلا ، والنور ظلاماً ، والحسن قبيحا .

وكنت أرجو من الله أن يوفقني في يوم ما ، في الرد على هؤلاء المتعصبين ، بالكتابة عن الإسلام ، وتصويره على حقيقته الناصعة البيضاء ، معتمدا على العقل والمنطق والتاريخ .

ولله وحده كل الشكر ؛ فقد يسَّر لي تحقيق ما كنت أرجوه ، للدفاع عن الإسلام ، ورسول السلام ، فظهر لي من الكتب باللغة العربية في السنوات الأخيرة :

(١) التربية الإسلامية . (٢) روح الإسلام .

(٣) عظمة الرسول (طبعة ثانية) (٤) عظمة الإسلام (جزء أول) .

(٥) عظمة الإسلام (جزء ثان) في المطبعة وينتهي طبعه بعد أسبوعين .

وآمل أن تترجم قريباً إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية ؛ كي يعرف العالم والمتعصبون الإسلام على حقيقته .

وقد انتهت الطبعة الأولى من «روح الإسلام» ولله الحمد . وسيجد القارئ الكريم في الطبعة الثانية فصولا جديدة ، وزيادات كثيرة في كل فصل منه .

وكان هدفى دائماً الوصول إلى الحقيقة ، والبعد عن التعصب والهوى ؛ حتى يتبين الرشد من الغى ، والحق من الباطل ، ويعرف العالم حق المعرفة أن الإسلام هو الدين الحق ، والدين الكامل ، ودين المستقبل ، دين رب العالمين .

وكانت الأمانة العلمية رائدى فى كل بحث كتبته فى هذا الكتاب وغيره .

واليوم أقول للمسلمين فى العالم الإسلامى كله — إن الاستعمار قد أبعدنا عن روح الإسلام ، وفرّق بيننا حتى ضعفنا بعد أن كنا أقوياء ، وتأخرنا بعد أن كنا سادة العالم وقادته فى العلوم والآداب والفنون فى صدر الإسلام . وقد انتصرنا على أكبر دولتين فى العالم — وهما الفرس والروم — حينما كنا متحدين فى أقوالنا وأفعالنا ، متمسكين بديننا ، محافظين على كتاب الله وسنة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

وأعتقد أن روح الإسلام ومثله العليا مازالت ترفرف على المسلمين ، وتناديهم بالمحافظة على دينهم ، والتمسك بوحدتهم ؛ كى يعود إليهم مجدهم القديم ، وتعود إليهم العظمة الإسلامية ، والقوة الروحية ، التى كانوا يتمتعون بها فى العصور الذهبية للإسلام .

« إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . »

أسأل الله الهداية والتوفيق . إنه سميع مجيب .

محرم سنة ١٣٨٩ هـ
مارس سنة ١٩٦٩ م

محمد عطية الابراشى

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد النبى الأمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد فقد درست التوراة [1] والتَّلمود [2] والمِشنا وغيرها فى ديانة موسى ، فى أثناء دراستى للغة العبرية وآدابها بمعهد اللغات الشرقية بلندن ، ودرست الإنجيل والديانة المسيحية فى أثناء دراستى للغة السريانية بكلية الملك بجامعة لندن ، كما درست قبلهما الدين الإسلامى والفقه والحديث ، والتفسير والتوحيد بتوسع فى الأزهر الشريف ، وفى دار العلوم . وبهذه الوسيلة أتيحت لى الفرصة للموازنة بين هذه الأديان السماوية الثلاثة . وكانت هوايتى القراءة والبحث طول حياتى .

وقد قرأت كثيراً من الكتب الإنجليزية عن الإسلام والرسول ، والقرآن الكريم ، فلمست التعصب الدينى فى معظمها ، وتشويه الحقائق والتضليل فى أكثرها ، ورأيت الحق يصور بصورة الباطل ، والنور يحول بالدعاية الكاذبة إلى الظلام الحالك . فتأثرت مما قرأت ، وتألمت لهذا التعصب الأعمى ، من كتَّاب زعموا أنهم دينيون ، والحق أن الكاتب أو الباحث يجب أن يكون منصفا نزيها ، بعيدا عن التعصب الدينى ،

---

(١) التوراة : هى الكتب الخمسة التى أنزلها الله على سيدنا موسى ، وهى سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر اللاويين ، وسفر العدد ، وسفر التثنية .

(٢) التلمود : من أهم الكتب الدينيـة التى يعتمد عليها علماء بنى إسرائيل ، وبه كثير من القوانين والبحوث الدينيـة ، وأحوال اليهود وأخلاقهم ، وتقاليدهم وعاداتهم وتاريخهم . ويحتوى التلمود على عنصرين هما : المتن والشرح ، ويسميان : « المشنا » أى ما يحفظ عن ظهر قلب ، وتشتمل على أحكام دينية خاصة (ارجع إلى كتاب : الآداب السامية للمؤلف) .

والتأثر بالأهواء الطائفية ، أمين الضمير ، متوخِّياً [١] الحقيقة ، يبحث عنها أنَّى وجدها ، مبعدا نفسه وبحثه عن الروح التبشيرى الذى يمليه التعصب ، وضيق العقل ، مجرِّدًا نفسه عن الميول الشريرة ، والنزعات الخبيثة ، واهبا عقله وقلبه وعاطفته ، وقلمه ولسانه ، للحق والحقيقة ، حبا للإنصاف والنزاهة ، والبعد عن الهوى والغرض ؛ لإعطاء كل ذى حق ، حقه والسير بالدراسة العلمية الدينية فى طريق العلم ؛ للوصول إلى الحقيقة الثابتة البعيدة عن الأغراض ؛ حتى يدرك الباحث المدقق سمو روح النبى العربى وعظمته ، ويفهم حياة أعظم إنسان قد بعثه الله رحمة للعالمين ، من خير أمة أخرجت للناس .

ويجب على الكاتب أن يبحث عن الحق للحق ذاته ، وعن المعرفة للمعرفة نفسها ، مراعيا الدقة فى البحث ، والتمحيص فى الاستنباط ، والأمانة فى الحكم ؛ حتى لا تكون أقواله مشوبة بالشكوك والشبهات والأغراض والأكاذيب .

وإنى أريد من الناقدين الدقة فى النقد ، والنزاهة والأمانة والعدالة والإخلاص فى الحكم . أريد من العلماء أن يبتعدوا عن التعصب للدين أو الجنس أو اللغة أو اللون ، ويكون الحق رائدهم ، والحقيقة ضالتهم ، والصدق حليفهم ، والإخلاص دَيْدَنهم ؛ حتى تصل كتابتهم إلى القلوب ، وتطمئن لها النفوس .

وقد افترى المتعصبون من المستشرقين على محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يمحصوا ما كتبوه عنه تمحيصا علميا بريئا ، بل اعتمدوا على ما دسّه الإسرائيليون فى كتب السيرة النبوية ، من أحاديث مكذوبة ، وروايات ملفقة غير صحيحة ؛ لذلك كتبوا أشياء عن الرسول الكامل بعيدة كل البعد عن الحق ، وكان التعصب ظاهراً فى كتابتهم ، غير أن هناك قليلين من الغربيين قد أنصفوا الإسلام ، ورسول السلام ، مثل : « تُوماس كارْلَيل [٢] » فى كتابه : « الأبطال وعبادتهم » ، والأستاذ المستشرق

---

(١) توخى : تحرى وقصد .

(٢) توماس كارليل (١٧٩٥ — ١٨٨١) : كاتب إنجليزى ، ومصلح اجتماعى ، وهو أول من اعترف من الإنجليز لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالبطولة والإخلاص ، وقال إنه بطل ، وإنسان مثالى غير عادى أى رسول . ومن أحسن كتب كارليل : الثورة الفرنسية .

المنصف « إدوارد . ج . براون[1] » فى كتابه : « التاريخ الأدبى لفارس » ، « والسير توماس أرنُولد » فى كتابه : « دعوة الإسلام[2] » ، وغيرهم من المؤلفين المخلصين ؛ فقد أشادوا بعظمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وإخلاصه ، وصدقه وأمانته فى رسالته ، واعترفوا ببطولته ؛ لأنهم أحرار فى تفكيرهم ، عادلون فى أحكامهم ، منصفون فى آرائهم ، أمناء فى ضمائرهم .

وقد تعجب إذا سمعت أن إمبراطور ألمانيا السابق قد قام بطبع كتاب أبى ذر ابن محمد بن مسعود الُخشَنِىّ الذى شرح كتاب السيرة لابن هشام . وهذا يدل على أن أهل الأديان الأخرى قد عُنوا بالبحث عن تاريخ هذا النبى الأمى العربى ، الذى غيَّر وجه التاريخ ، وطبعوا سيرته ونشروها ؛ كى يسهل على المستشرقين منهم فهم ما يلتبس عليهم من مفرداتها وأسلوبها وعباراتها .

وأرجو مخلصا من الباحثين من رجال الدين فى كل أمة ـ مهما تختلف دياناتهم ـ أن يترفعوا عن التعصب ، ومحاربة الإسلام بالباطل ، والتجنى على العلم والتاريخ . أرجو منهم الأمانة العلمية ، والنقد العلمى المنطقى البرىء ، لا النقد القائم على التحريف المشوه ، والادعاء الباطل . أرجو منهم أن يجردوا أنفسهم من الحقد على الإسلام ، والكيد لنبى الإسلام ، حتى يصير بحثهم علميا خالصا ، لا حقد فيه ولا تعصب . إننى أريد الحقائق كاملة خالية من الأهواء والأباطيل ، غير متأثرة بالنزعات التبشيرية ، والميول الشخصية . أريد منهم أن ترتبط النتائج بالمقدمات ؛ حتى تبرز الصورة واضحة المعالم ، مبينة للحقائق .

وإن من يطلع على ما كتبه المتعصبون والمبشرون فى القرون الوسطى يجد أن أكثرهم متأثرون بنزعتهم الدينية ، وميولهم الطائفية ، بعيدون كل البعد عن العقل والمنطق والتفكير الراقى ، والتاريخ الصحيح . فادعوا أن محمدا ساحر ماهر ، يسحر

(1) A Literary History of Persia by Edward G. Browne.

(2) The Preaching of Islam, by Thomas Arnold.

من يتصلون به بما أوتى من بلاغة وفصاحة ، وأن القرآن من عنده ، مع أنهم كانوا يعلمون حق العلم أنه قبل البعثة صادق فى كل أقواله ، أمين فى كل أفعاله ، أمىٌّ لم يتعلم القراءة والكتابة . وزعموا أنه مبتدع للدين الإسلامى ، مولع باللهو والملاذ ، والله يعلم إنهم لكاذبون ، وأن الرسول لا ينطق عن الهوى ، والقرآن كتاب الله ، المنزل على رسوله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد : « ولو كان من عِندِ غيْرِ اللهِ لَوَجدوا فيهِ اختلافاً كثيراً »[1] . وقد عجز الفصحاء والبلغاء من قريش أن يأتوا بسورة من مثله . ولم يستطيعوا أن يأتوا بآية واحدة تشبه أى آية منه .

وقد شجع الاستعمار وأعوانه التبشير والمبشرين من الغربيين فى البلاد الإسلامية — التى تحكموا فيها ، وسيطروا عليها بالخداع والدهاء والوهم والحيل الكاذبة ، والمؤامرات المضللة — على النيل من الإسلام ورسوله ؛ كى يضللوا المسلمين ، ويؤثروا فى نفوسهم ، ويغيروا عقيدتهم ، ولكنهم — على الرغم مما بذلوا من دعاية وجهد ومال — لم يصلوا إلى أغراضهم ؛ لأن العقيدة الإسلامية راسخة فى القلوب ، متمكنة من الأرواح ، ثابتة فى العقول . ولن يستطيع أحد من أعداء الإسلام تغييرها أو التأثير فيها . ولو جرد هؤلاء المبشرون — من أمثال (زويمر) فى كتابه : « بلاد العرب مهد الإسلام[2] » — أنفسهم من التعصب الأعمى لأدركوا الإسلام على حقيقته ، ولآمنوا بالقرآن الكريم ، وإعجازه ، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم لغلبة الهوى عليهم لا يعقلون ، ولا يدركون كنه الإسلام وحقيقته ، وعظمته الحقة .

وفى الوقت الذى نرى فيه التعصب من المبشرين ضد الإسلام نجد التسامح روح المسلمين ؛ فالإسلام يعترف بالتوراة ورسالة موسى ، ويقرّ بالإنجيل ونبوة عيسى ، وطهارة مريم . وقد تسامح المسلمون كل التسامح مع أهل الكتاب ، وعاملوهم معاملة

---

(١) سورة النساء ٨٢ .

(٢) Arabia, the Cradle of Islam.

كريمة عادلة إنسانية تدل على النبل والمروءة فى الماضى ، وما زالوا يعاملونهم معاملة الإخوة والأصدقاء فى الحاضر .

ولتعصبهم قد ادعوا خطأ أن الإسلام هو السبب فى وحشية المسلمين ، وتأخرهم وضعفهم ، وأنه قام على حد السيوف وأسنة الرماح ، وأنه مخدر لهم ، يلهيهم عما هم فيه من بؤس وشقاء ، وجهل وفقر ومرض ، وسوء حال . ولو درسوا مبادئ التاريخ لعرفوا أن المسلمين فى العصور الأولى للإسلام ، قد فتحوا العالم بالإيمان والعقيدة ، والرجوع إلى العقل والمنطق ، وورثوا مجد الفرس والروم فى أقل من قرن ، ونشروا الإسلام فى زمن وجيز لا يذكر ، وقادوا العالم قرونا طويلة فى العلوم والآداب والفنون ، ونشروا الحضارة والمدنية ، فى العصور الذهبية . وكانوا يمثلون الإنسانية الكاملة فى معاملاتهم لغيرهم من الذميين ، ومحافظتهم على عهودهم ومواثيقهم . ولم يتأخروا مطلقاً بسبب الإسلام ، ولكنهم تأخروا وضعفوا بسبب الاحتلال ؛ فقد أبعدهم عن دينهم ، ونشر الجهل والفقر والمرض بينهم ، ولم يكتف بهذا ، بل قسم بلادهم وجزأها إلى دويلات صغيرة ، وبث روح التفرقة والتنازع والحزبية ، والاختلافات الطائفية بين المسلمين ؛ حتى يستطيع أن يتحكم فيهم ، ويسيطر عليهم ، وتكون له السلطة والسيادة على تلك البلاد ؛ لينهب ما فيها من خيرات ، ويأخذ ما بها من مواد أولية ، ليحتكرها ويستغلها اقتصاديا وسياسيا لمصلحته الخاصة ، عملا بالحكمة الاستعمارية المعروفة : « فرِّق تسُدْ » .

وإن من يعرف المبادئ الإسلامية يدرك تمام الإدراك أن الإسلام قد حارب الجهل ، وجعل التعليم واجبا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضةٌ على كل مسلم ومسلمة . » وقوله : « من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم . » .

وقد حارب الفقر بفرض الزكاة على الأغنياء والقادرين ؛ لإنفاقها على المعوزين والمصالح العامة . ونادى بالصدقة والإحسان لرفع مستوى الفقراء والمساكين . قال تعالى : « إنَّما الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ والمساكِينِ والعَامِلِينَ عَلَيها ، والمؤَلَّفَةِ قلوبُهم ، وفِي الرِّقَابِ ،

والغَارِمينَ ، وفى سَبيلِ اللهِ ، وابن السَّبيل ، فريضةً من الله[١] » .

وقد حث على الرعاية الصحية ، فى قوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ لِبدنِكَ عَليكَ حقًّا » . وقوله : « المؤمنُ القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيفِ » .

وأمر بالتعاون والوحدة فى قوله جل شأنه : « واعتَصِموا بحبلِ[٢] اللهِ جميعاً ولا تفرَّقوا[٣] . » وقوله: «وَتعاَوَنوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى وَلَا تعاوَنوا علَى الإثمِ وَالعُدوانِ[٤] .».

والحق أن الإسلام دين قد بلغ النهاية العليا فى السمو، ومصدر قوته الإيمان، والحق، والعدالة ، والإخلاص ، والسهولة ، واليسر ، والتسامح ، والتفكير العقلى السليم . وإن ما أخذه المتعصبون من المستشرقين والمبشرين على الإسلام ورسوله أكبر دليل على حقدهم وتضليلهم . والحاقدون المضللون كثيراً ما ينكرون الشمس فى رابعة النهار ؛ لأنهم لا يسلكون سبيل الحق والصراط المستقيم ، فيصعب عليهم رؤية الحقيقة الواضحة وإدراكها ، والحق منهم برىء .

لهذا كله قد عزمت فى نفسى منذ وقت ليس بالقصير — على أن أكتب فى الدفاع عن الإسلام ، وإبراز روحه ومبادئه، وأهدافه ودعائمه، وتبيان عظمة الرسول وشخصيته؛ لأنى أومن بالإسلام عن عقيدة قوية ، وأحب الرسول حبًّا جمًّا .

واليوم أفى بوعدى ، وأحقق ما كان فى نفسى من رغبة وإيمان ، وما كان فى قلبى من عزيمة وإخلاص ، فأقدم لمن يريدون الحقائق ناصعة بيضاء ، لا تعصب فيها ولا التواء — خلاصة ما قرأت وما درست فى تلك الفترة الطويلة من الحياة ، لا فى كتاب واحد ، بل فى كتب ، هى : «روح الإسلام» ، و « عظمة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم » وعظمة الإسلام[٤] . وقد استعرت اسم الكتاب الأول من كتاب « روح الإسلام » للمرحوم السيد أمير على القاضى الهندى ، وانتفعت حقًّا بآرائه السديدة ، التى تدل على سعة الاطلاع ، وغزارة المادة ، وتمسكه بالإسلام، وحبه للرسول . وهو خير كتاب ألف باللغة الإنجليزية عن الإسلام والرسول عليه الصلاة والسلام .

(١) سورة التوبة : ٦٠ .
(٢) بعهد الله ، أو بدينه ، أو بالقرآن .
(٣) سورة آل عمران : ١٠٣
(٤) سورة المائدة : ٢

وإننى أقول بكل إخلاص ، بعد هذه الدراسة الطويلة ، والموازنة العادلة : لو كلفت أن أختار الدين الذى أومن به إيمانا ثابتا عن عقيدة راسخة فى القلب ــ ما اخترت غير الإسلام دينا ؛ لأنه دين الفطرة السليمة ، والطبيعة السمحة ، دين العقل والمنطق ، دين الدنيا والآخرة ، دين الحق والسلام ، دين (الديمقراطية) والعدالة الاجتماعية ، دين التضامن والتعاون والتكافل الاجتماعى ، دين الحرية والإخاء والمساواة ، دين العطف والرحمة والإنسانية، دين الصفح والعفو عند المقدرة ، دين الإنسانية والمشاركة الوجدانية، دين الإحسان والإيثار ، والوفاء والإخلاص ، دين الأخلاق والآداب المثالية ، دين يلائم كل العصور والبيئات ، دين المستقبل ، دين الله الواحد الأحد ، القائل فى محكم كتابه :

« إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ (١) » .

« وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ (٢) . » .

« ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا (٣) . » .

وقد راعيت فى بحثى الدقة العلمية ، وتذرعت بالطرق العقلية فى التفكير ، ووازنت بين الآراء والأقوال بعيدا عن الأهواء والنزوات ، متجرداً جهد الطاقة من التعصب الدينى ، متمسكا بحرية الفكر ، ونزاهة الحكم ، وأمانة الضمير ، معتمدا على العقل والمنطق؛ للاهتداء إلى الحق ، والوصول إلى الحقيقة الخالصة من التعصب والهوى .

وفى الرد على المبشرين لم آت ببراهين من الكتاب أو السنة ؛ لأنهم لا يعتقدون فيهما، بل جعلت الحكم بينى وبينهم ماورد فى العهد القديم والعهد الجديد، واعتمدت فى البرهنة على الفكر السليم ، والرأى الملموس ، والبحث العلمى ، والتاريخ الثابت الصحيح ؛ حتى يتبين الحق من الباطل ، وتظهر الحقائق واضحة ناصعة لا لبس فيها ولا غموض ، وتبدو

---

(١) سورة آل عمران : ١٩ (٢) سورة آل عمران : ٨٥ (٣) سورة المائدة : ٣ .

للجميع عظمة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، والروح الإسلامى على حقيقته .

ولو اتبع المسلمون اليوم قواعد الإسلام ، ومبادئه السامية ، وأخلاقه النبيلة ، ومثله العليا لارتفع مستواهم فى معيشتهم وأحوالهم ، ونظُم حياتهم ، وعاشوا عيشة حرة كريمة ، كما كان يعيش أجدادهم الأحرار الكرماء .

ولو نفذت الأحكام الإسلامية لوجد الجاهل ضالته من العلم ، والفقير حاجته من العيش ، والمريض حقه من العلاج والدواء ، ولاستعدنا المجد الإسلامى التليد ، والحضارة الإسلامية الخالدة ، وهيأنا وسائل المعيشة الشريفة للأمة الإسلامية العظيمة . ولا عجب ؛ فالإسلام نصير العلم والتربية والتعليم ، والمدافع عن الفقراء والمحتاجين ، والمساعد للعجزة والمقعدين ، والمؤاسى للشيوخ واليتامى ، والضعفاء والمرضى والمساكين .

ومن السهل أن نعيد المجد الإسلامى، والعصر الذهبى للمسلمين، مادام لدينا مصلحون يؤمنون بالإسلام ورسالته ، ويعملون بإرادة قوية ، وعزيمة ثابتة ، وإخلاص وإقدام ، وصبر وإيمان ؛ للنهوض بالعالم الإسلامى علميا وعمليا ، وخلقيا وروحيا ، واقتصاديا وصناعيا ، واجتماعيا وصحيا .

وأرجو من العلماء والقادة العمل بما أوتوا من قوة لتوجيه الشبان من المسلمين ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم ، وبث الروح الدينى فى نفوسهم ، والأخلاق الإسلامية فى قلوبهم ؛ حتى يتخذوا من المبادئ الروحية العالية دستوراً لهم ، فى أقوالهم وسلوكهم وأعمالهم، ويكونوا قدوة حسنة لغيرهم. فقد أهملت الناحية الروحية فى الشباب كل الإهمال ، وأصبح العالم ماديا لا يفكر إلا فى المادة ، ولا يريد إلا المادة والمال .

وإن فى سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ـ الذى بعثه الله للناس كافة ـ هدى وعظة للمتقين ، وآيات واضحة المحجة ، قوية الحجة ، ترشد السالك إلى أوضح المسالك ، وتهدى الضال ، وتنير الطريق المظلم ، وتنبه الغافل ، وتردع الجاهل ، وتجلى الحق حقا ، والباطل باطلا .

وقد أنزل الله القرآن الكريم ، على رسوله الأمين ، وخاطب النبى الناس جميعا ليترسموا خطاه ، ويهتدوا بهداه ، ويتعظوا به . فكم فى السيرة النبوية من عظة ، وكم فيها من عبرة . وما أكثر مايجده الباحث المدقق فى سطورها من الحكم البالغة ، والدروس العالية ، التى تنير بصيرته ، وتهذب نفسه ، وتطهر روحه ، وتدعوه إلى تَوَخى الحق ، ومناصرة الفضيلة ، والتضحية بالنفس والمال . وبهديها ينتفع الخاصة والعامة فى تدبير شئونهم ، وتربية بنيهم ، والبر بذويهم ، وعشرة أصدقائهم .

وقد تعمدت سهولة الأسلوب والعبارة فيما كتبت ، وضبطت الألفاظ الصعبة ، وشرحت ماخفى منها ، كى لا يجد القارئ أى صعوبة فيما يقرأ . وفسَّرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تفسيراً سهلا واضحا ؛ حتى يمكن فهم المراد منها .

ومن الموضوعات التى ذكرتها فى الكتاب الأول : روح الإسلام ، والأخلاق الإسلامية تمثل روح الإسلام ، وعظمة الإسلام تبدو فى مبادئه وآدابه المثالية ، والسلام روح الإسلام ، والتسامح فى الإسلام ، والإسلام يدعو إلى الحرية ، والإسلام ضد الرق ، وحقوق الإنسان وكيف كفلها الإسلام ، و (الديمقراطية) ونظام الحكم فى الإسلام ، والمشاورة والعدالة والمساواة فى الإسلام ، والتكافل الاجتماعى فى الإسلام ، والوحدة بين المسلمين ، وكيف يعامل الإسلام اليتامى والفقراء ، والإحسان وتنظيمه فى الإسلام ، والإسلام يدعو إلى العمل وكسب الرزق . . . الخ

ومن الموضوعات التى بحثتها فى الكتاب الثانى – وهو « عظمة الرسول » – العرب قبل الإسلام ، مولد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، عظمة محمد قبل الرسالة ، التنبؤ برسالة محمد قبل أن يرسل ، عظمة الرسول فى أداء الرسالة ، عظمة الرسول فى صبره على أدائها ، هجرة الرسول العظيم إلى المدينة ، عظمة الرسول طول حياته ، جوانب العظمة المحمدية ، عظمة الرسول فى نظر المنصفين من المستشرقين ، عظمة الرسول فى تبليغ الرسالة ، عظمة الرسول فى أخلاقه المثالية ، عظمة الرسول فى فصاحته ، عظمة الرسول فى إنسانيته ،

عظمة المصطفى فى تواضعه ، عظمة الرسول فى صراحته ، عظمة الرسول فى مثله العليا ، لماذا تزوج النبى أكثر من واحدة ؟ مرض المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وأرجو أن أكون بهذا المجهود المتواضع ـ قد قمت ببعض الواجب نحو دين أومن به كل الإيمان ، ونبى عظيم أحبه كل الحب بكل قلبى ، وأعتقد أنه المثل الأسمى للعالم كله ، وخير قدوة لمن يبغى الكمال من بنى الإنسان . وإن حياة الرسول الأعظم تحتاج حقا إلى أكثر من كتاب . ومن يقرأ هذه الحياة يجد العظمة والبطولة والإنسانية الكاملة ممثلة فيها .

ولكى أصل فى تلك البحوث الإسلامية إلى الدرجة التى آملها أرجو من السادة القراء موافاتى بكل مايعنُّ لهم من نقد وآراء للاسترشاد بها ؛ لأن الكمال لله وحده .

واليوم أتقدم للعالم الإسلامى ، والمستشرقين فى العالم الأوروبى والأمريكى ، بهذا المجهود الصامت ، راجيا أن أكون قد وفقت فى إظهار الإسلام فى صورته الحقة، والدفاع عنه بالحجة والمنطق .

ويجب أن أعترف لصديقى الوفى ، الأستاذ العالم التقى ، إبراهيم محمد والى ، بالفضل فى مراجعة الأصول ، وتحقيق النصوص التى وردت فى كتابى روح الإسلام ، وعظمة الرسول قبل تقديمهما للطبع . فإليه أقدم أجزل الشكر ، وأوفر الثناء . وأسأل الله أن يجزيه أحسن الجزاء .

« ربَّنا عليك توكَّلنا ، وإليك أنَبْنا ، وإليك المصير . »

جزيرة الروضة { ١٠ من شوال سنة ١٣٨٣ هـ
٢٤ من فبراير سنة ١٩٦٤ م

محمد عطية الابراشى

الفصل الأول

روح الإســــلام

روح الإسلام :

إن الإسلام دين الفطرة والطبيعة ، دين العقل والمنطق ، دين يصلح لكل عصر وزمان ، وكل قطر ومكان . ولكل شيء فيه حكمة ، فقد فرض الإيمان بالله وحده لأنه « لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا » (1) . وفرضت الصلاة لقوله تعالى : « إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ » (2) . ووجبت الزكاة لقوله جل شأنه : « خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا » (3) . ونادى بالحج « لِيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ (4) . » وكتبَ عليهم الصيام ؛ كي يصلوا إلى التقوى وطهارة الجسم والنفس والروح « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (5) .

والحكمة فى القصاص تبدو فى قوله جل شأنه : « وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (6) » بإقامة العدل بين الناس ، ومنع اعتداء بعضهم على بعض . وقد حرم الخمر والميسر لما يحدث للإنسان من الضرر بسببهما : « إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ (7) ؟ »

---

(1) سورة الأنبياء : ٢٢ — (2) سورة العنكبوت : ٤٥ — (3) سورة التوبة : ١٠٣ .
(4) سورة الحج : ٢٨ — (5) سورة البقرة : ١٨٣ — (6) سورة البقرة : ١٧٩
(7) سورة المائدة : ٩١

وفى روح الإسلام تجد كثيراً من اليسر والتيسير على المسلمين ، قال تعالى : « يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ، وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ [١] . » وقال عز شأنه : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » .

ويبدو روح الإسلام فى قوله تعالى : « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » [٢] ، « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ، وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ [٣] . » وقوله صلى الله عليه وسلم : « الناسُ سَواسيةٌ كأسنانِ المُشْطِ . ولا فَضْلَ لعرَبِيٍّ عَلَى عجَمِىٍّ إلا بالتَّقوَى » .

الإسلام دين الوفاء بالعهد :

الإسلام دين الوفاء بالعهد ، قال تعالى : « وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ [٤] . » وقال عليه الصلاة والسلام : « فى العُهودِ وفاء لا غَدرٌ . » « لا تَخُنْ مَن خَانَكَ . » فالإسلام يطالب بالوفاء والأمانة ، وينهى عن الغدر والخيانة ، ونقض العهد .

نقض العهد ليس من الإسلام :

وفى عدم الوفاء بالعهد يقول تبارك وتعالى : « إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ ، وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ [٥] » .

وقد نزلت فى يهود بنى قريظة من المدينة ؛ فقد عاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا ضده ، ثم نقضوا العهد ، وأعانوا المشركين بالسلاح ، واعتذروا ، ثم عاهدهم بعد ذلك ، فنكثوا العهد ، وكانوا مع المشركين ضده يوم الخندق . وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة ، فحالف المشركين على محاربة الرسول صلى الله عليه

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥ (٢) سورة الحجرات : ١٠ (٣) سورة الحجرات : ١٣
(٤) سورة النحل : ٩١ (٥) سورة الأنفال : ٥٥ ـ ٥٦

وسلم . فهم شر الدواب فى حكم الله ؛ لتماديهم فى الكفر ، ورسوخهم فيه . ولذا قال تعالى « فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » .

الإسلام ضد الغدر والخداع والنفاق :

إنّ الإسلام ضد الغدر والخداع ، والكذب والرياء ، ضد الخيانة والنفاق والمِراء . قال عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ . » وقال تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً (١) » .

الدرْك : هو الطبقة من المكان الذى له طبقات ، بعضُها فوق بعض . إن المنافقين المُرائين فى المكان الأسفل من النار ، ولن تجد لهم مانعا من العذاب .

وقال عز وجل : « بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٢) » أى أخبر يامحمد المنافقينَ بأنَّ لهم عذاباً مؤلما هو عذاب النار .

وقال عز من قائل : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ ، يُرَاءُونَ النَّاسَ ، وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً . مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ ، لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً (٣) . »

يخادعون الله : يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

وهو خادعهم : مجازيهم على خداعهم فيفتضحون فى الدنيا بإطلاع الله نبيه على ما أبطنوه ، ويعاقبون فى الآخرة .

وإذا قاموا إلى الصلاة مع المؤمنين قاموا متثاقلين ، يراءون الناس بصلاتهم مع المؤمنين ، ولا يصلون إلا رياء .

مذبذبين: مترددين بين الكفر والإيمان ، لامنسوبين إلى الكفار ولا إلى المؤمنين. ومن يضلله الله فلن تجد له طريقاً إلى الهدى .

(١) سورة النساء : ١٤٥ (٢) سورة النساء : ١٣٨ (٣) سورة النساء : ١٤٢ ، ١٤٣

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المِراء، وإن كان محقا ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب ، وإن كان مازحاً ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه . »

الزعيم : الكفيل . رَبَض الجنة : ماحولها .

وقال : « ألَا إنه يُنصَب لكل غادرٍ لواء يوم القيامة بقدر غدرته . ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة . »

الغدر : ترك الوفاء ، وقد ورد أيضاً بمعنى الظلم .

الإسلام دين العلم والنور :

الإسلام دين العلم والنور ، دين التربية والتعليم ، لا دين الجهل والظلمة . قال تعالى: « ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ [1] . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ، عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [2] . » « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ [3] ؟ »

وقال صلى اللهُ عليه وسلم : « طلبُ العلمِ فريضةٌ عَلَى كلِّ مُسلمٍ ومُسلمةٍ » .

وقال : « مَن أرادَ الدُّنيا فعليهِ بالعِلم ، ومَن أراد الآخرةَ فعليه بالعلم ، ومَن أرادهما معاً فعليهِ بالعلم » .

ويتمثل روح الإسلام فى قول أبى بكر رضى الله عنه بعد أن بويع بالخلافة : « أيها الناس ، إنى قد وُلِّيت عليكم ولستُ بخيركم ، فإنْ أحسنْتُ فأعينونى ، وإنْ أسأتُ فقوِّمُونى [4] ، الصِّدقُ أمانة ، والكذبُ خيانة ، والضعيفُ فيكم قوىٌّ عندى حتَّى آخذَ الحق له ، والقوىُّ فيكمْ ضعيفٌ عندى حتى آخذَ الحق مِنْه ... أطيعونى ما أطعتُ الله ورَسُوله ، فإنْ عَصيْتُ الله ورَسوله فلا طاعة لى عليكم » .

---

(١) من دم جامد . (٢) سورة الفلق : ١ ــ ٥ (٣) سورة الزمر : ٩
(٤) هذبونى .

كما يتمثل فى قول عمر بن الخطاب حينما ولى الخلافة : « من رأى منكم فىَّ اعوجاجاً فليقوِّمه » . فقال له أحد المؤمنين : « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوَّمناه بسيوفنا » .

فالإسلام دين الوفاء والحرية ، دين العدالة (والديمقراطية) ، دين التسامح والإنسانية ، دين المحبة والمودة ، دين يقول فيـــه رسول الله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » .

الإسلام دين العقيدة والإخلاص والإحسان :

الإسلام دين العقيدة والإيمان ، والإخلاص والإحسان ، قال جل شأنه : « من جاء بالحسَنةِ فلَه عَشْرُ أمثالها ، ومن جاء بالسَّيئةِ فلا يُجزَى إلا مثلَها »[1] .

الإسلام دين الرحمة :

الإسلام دين الرحمة والتراحم ، دين الرفق والعطف ، دين العفو والصفح .

«الراحمون يرحمهم الرحمٰنُ» . «من لا يرحم لا يُرحَم» . « ارحموا مَن فى الأرض يرحمْــكم مَن فى السماء » .

« فأمَّا اليتيمَ فلا تَقهرْ[2] ، وأما السائلَ فلا تَنهرْ[3] » . « وأنْ تعفُو أقربُ للتقوى » . « فاعفُ عنهم واصفحْ » .

الإسلام دين الأخلاق والنبل والإيثار :

الإسلام دين الأخلاق والـكمال، دين النبل وإنـكار الذات ، دين يفـكر فيه المسلم فى المصلحة العامة ، ويعمل للجماعة ، ولا يفـكر فى نفسه ، ولا يعمل لذاته . انظر إلى ما كتبه خالد بن الوليد ، سيف الإسلام ، بعد أن أمرَه أبو بكر رضى الله عنه بالمضى إلى الشام ، ومقابلة أبى عبيدة بن الجراح ، وتولى رياسة الجيش بدلا من أبى عبيدة ، وكان ذلك كله مراعاة للمصلحة العامة .

---

(١) سورة الأنعام : ١٦٠ (٢) فلا تستذله ولا تحتقره .

(٣) فلا تزجره ، ولا تغلظ له القول ، ولا تعبس فى وجهه ، بل أجب طلبه بقدر استطاعتك .

وهذا ما كتبه خالد بن الوليد إلى أبى عبيدة بن الجراح .

« أتانى كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يأمرنى بالمسير إلى الشام ، وبالمقام على جندها ، والتَّولِّى لأمرها . والله ما طلبتُ ذلك ولا أردْتُه ، ولا كتبتُ إليه فيه . وأنت — رحمك الله — على حالك التى كنتَ فيها ، لا يُعصَى أمرُك ، ولا يُخالَفُ رأْيك ، ولا يُقطعُ أمرٌ دونكَ ؛ فإنك سيدٌ من سادات المسلمين ، لا يُنكرُ فضلكَ ولا يُستغنىَ عن رأيك . . . والسلام عليك ورحمة الله » .

فخالد البطل يتعهد لأبى عبيدة القائد العظيم ، بأنه لن يعصى له أمراً ، ولن يخالف له رأيا ، ولن ينفذ أمراً دون أن يستشيره ، مع أن خالدا بأمر أبى بكر هو القائد العام المسئول عن أمور الجيش فى قتال الروم بالشام .

ثم انظر إلى ما كتبه أبو بكر رضى الله عنه الذى نصر الإسلام بإيمانه وإخلاصه ، ونفسه وماله ، إلى أبى عبيدة بن الجراح :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإنى وليتُ خالدا قتال الروم بالشام ، فلا تخالفه ، واسمع له ، وأطع أمره ، فإنى وليتُه عليك وأنا أعلم أنك خير منه . ولكن ظننتُ أن له فطنة فى الحرب ليست لك . أراد الله بنا وبك سبل الرشاد . والسلام عليك ورحمة الله » .

فبماذا تحكم على أبى بكر ؟ وماذا تقول عنه ؟ إنه يمثل روح الإسلام ، روح النبل والإخلاص ، روح الخليفة الذى لا يفكر إلا فى المصلحة العامة ، روح الإيمان والكمال .

قال المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[1] : « إنما هو (الإسلام) دين قويم الأصول ، محكم القواعد ، شامل لأنواع الحكم ، باعث على الألفة ، داع إلى المحبة ، مزك للنفوس ، مطهر للقلوب من أدران الخسائس ، منور للعقول بإشراق الحق من مطالع قضاياه ، كافل لكل ما يحتاج إليه الإنسان من مبانى الاجتماعات البشرية ، وحافظ وجودها ، وينادى بمعتقديه إلى جميع فروع المدنية » .

ويتجلى روح الإسلام فى قوله تعالى للرسول الكريم : « وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا

(١) ارجع إلى كتابه : « المسلمون والإسلام » ص ٨٨ .

ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ . وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » (١) .

أى لا يستوى الخير والشر . فادفع من أساء إليك بالإحسان إليه ، وقابل الإساءة بالإحسان . فإذا الذى بينك وبينه عداوة يتحول من عدو إلى ولى حميم، وصديق قريب . وإن هذه الفعلة الكريمة ، والخصلة الشريفة لا يوهبها إلا الذين صبروا وكظموا غيظهم ، واحتملوا أذى غيرهم ، وما يوهَبها إلا ذو حظ عظيم ، ونصيب وافر من الخير .

وفى قوله عليه الصلاة والسلام: « لا يؤمنُ أحدُكُم حتى يحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه».
أى لا يؤمن أحدكم إيمانا كاملا إلا إذا أحب لأخيه ما أحب لنفسه ، من غزارة علم ، وكرم خلق ، وسمو مكانة ، وعلو مركز ، وتوفيق فى الزوجة والأبناء والبنات ، وكره له ما كره لنفسه من جهل وفقر ، وضعة ، وحرمان ، فإذا لم يحب لأخيه ما يحب لنفسه كأن يحقد عليه أو يحسده فليس بمؤمن إيمانا كاملا .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « أوصانى ربى بتسع أوصيكم بها : أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصدِ فى الغنى والفقر ، وأن أعفوَ عمن ظلمنى ، وأُعطِىَ من حَرَمَنى ، وأصِلَ من قطعنى، وأن يكون صمتى فِكراً ، ونطقِى ذِكْراً ، ونظرى عبراً » .

وفى هذه الوصية يتمثل روح الإسلام ، فقد أوصى الله رسوله بتسع صفات هى : الإخلاص فى السر والجهر، والعدالة فى حالتى الرضا والغضب ، والاقتصاد والتوسط فى النفقة ، وفى الغنى والفقر ، والعفو عمن ظلمك ، وإعطاء من حرمك ، وصلة من قطعك ، والتفكير فى خالق الكون وقت صمتك ، وذكر الله عند نطقك ، ونظرك فيه عظات وعبر لغيرك .

روح الإسلام روح حرية وإخاء ومساواة :

وإن من يدرس الدين الإسلامى يجد أن روحه روح حرية ، وروح إخاء ، وروح

(١) سورة فصلت : ٣٤ و ٣٥ .

مساواة . وفى استطاعتنا أن نقول إن الإسلام قد نادى بهذه المبادئ الإنسانية منذ أكثر من ١٣٨٩ سنة ، وسبق المدنية الحاضرة ، والأمم المتحضرة فى النداء بها .

وسنبرهن على أن الدين الإسلامى دين الحرية ، ودين الإخاء والمساواة :

١ — الإسلام دين الحرية :

لا يشك أحد فى أن الدين الإسلامى دين حرية لا دين رق وعبودية ، فهو ضد الاسترقاق[1] والاستعباد . ولم يفتح البلاد التى فتحها إلا لنشر الدين والمبادئ الإسلامية. وقد تكلمنا عن الرق فى الفصل السادس من هذا الكتاب ، ولكننا نقول هنا بإيجاز إن فى كثير من الآيات القرآنية آيات ضد الاسترقاق ، وكلها تحث على تحرير العبيد والأرقاء . وقد عرف الرق من قديم الزمان عند اليونان والرومان واليهود ، وكان الإنسان يباع ويشترى كأى سلعة من السلع . وكان يعامل معاملة تأباها الإنسانية ، فكان هناك سادة وعبيد ، فقضى الإسلام على هذا ، قال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم . » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . » .

فالدين الإسلامى لم يفرق بين الأبيض والأسود ، ولم يفرق بين لون وآخر ، وقضى على التفرقة العنصرية ، والرق والعبودية ، ونادى بالحرية . قال عمر بن الخطاب لعمرو بن العاص : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ »

وكان الرسول الكريم يرغب المسلمين فى تحرير من لديهم من العبيد .

وقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه أكثر من مرة بأن العتق وتحرير العبيد ، وجعلهم أحرارا من أجلِّ العبادات وأكثرها قبولا عند الله . وقد استوصى الرسول عليه الصلاة والسلام خيرا بالأرقاء ، فحرم على السيد أن يطالب عبده بما لا يستطيع من عمل ، أو أن يناديه باحتقار وازدراء .

---

(١) سنتكلم عن الرق فى الفصل السادس من هذا الكتاب تحت عنوان : « الإسلام ضد الرق » .

٢ — الإسلام دين الإخاء :

الدين الإسلامى دين الإخاء ، فالمسلم أخو المسلم . قال جل شأنه : « إنما المؤمنون إخوةٌ فأَصلِحوا بَيْنَ أَخَوَيكُمْ » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يؤمِن أحدكم حتى يحب لأخيهِ ما يُحبُّ لنفسِه . »

وقال : « المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده » .

فروح الإسلام يدعو إلى الإخاء ، يدعو إلى أن يفكر المسلم فى أخيه المسلم ، ويحب له ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لنفسه ، بحيث يضع نفسه موضع غيره دائما ، ويعامله المعاملة التى يحب أن يعامل بها . يقول الرسول الكريم فى خطبة الوداع :

« أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة ، ولا يَحِلُّ لامرئ مال أخيه إلا عن طيبِ نفسه . فلا تَرجِعُنَّ بعدى كفاراً ، يضرب بعضكم رقابَ بعض، فإنى قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى ـ كتابَ الله ـ . أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . » .

وإن من يفكر فى هذا الحديث يجد أن روح الإسلام روح أخوة ، فالمؤمنون فى الإسلام إخوة فى الدين ، يشعرون شعورا واحدا ، ويفكر كل منهم فى غيره ، يفرح لفرحه ، ويحزن لحزنه ، ويشاركه شعوره ، ولا يحل لأحد منهم مال أخيه ، بل يحرم عليه أن يتعرض له ، أو يعتدى عليه، إلا إذا أعطاه بنفس راضية ، فإن الاعتداء يؤدى إلى الشقاء ، ويؤدى إلى الظلم والعداء .

وقد ترك الرسول كتاب الله وسنته ، وهما خير دليل نسترشد بهديهما ، وفى الحديث أيضا نداء (بالديمقراطية) : فرب الجميع واحد ، وأبو الجميع واحد ، وكلهم من آدم ، فالجميع إخوة متساوون فى الحقوق ، وأكرمهم عند الله أكثرهم تمسكا بالدين ، وأكثرهم صلاحا وتقوى ، ولا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى والصلاح، وأداء ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه .

وفى الصلاة يقف المسلمون فى المسجد من غير تفرقة بين غنى أو فقير، ورفيع أو وضيع، وعربى أو أعجمى . ويقفون فى بيت الله الحرام فى أثناء الحج كما يقف الإخوة ، من غير تفرقة بين أمير وصغير ، ومن غير تفاوت بين أوروبى أو أسيوى أو أفريقى .

٣– الإسلام دين المساواة :

إن دين الإسلام دين المساواة ، دين العدالة ؛ فهو يعامل الجميع معاملة واحدة ، وينظر إلى الجميع نظرة واحدة ، ويعطى كل ذى حق حقه ، فهذا عمر بن الخطاب يشكو إليه رجل مصرى سوء معاملة ابن عمرو بن العاص له ، وضربه إياه ، وقوله له : أنا ابن الأكرمين ، فيدعوه عمر بن الخطاب ، ويدعو ابن العاص ، ويأمر المصرى أن يضرب ابن الأكرمين كما ضربه، ويأمر بضرب عمرو بن العاص إذا كان قد ضربه، فيمتنع المصرى: لأن ابن العاص لم يضربه ، ثم ينظر عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص ويقول له قولته المشهورة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتْهم أمهاتهم أحرارا ؟ »

وإن روح الأخوة والإخاء والمساواة فى الإسلام يبدو فى كثير من الأحكام .

ففى الصلاة تجد المصلين من المسلمين فى صفوف متساوية ، لا فرق بين غنى وفقير ، وأبيض وأسود ، ورفيع ووضيع ، فى صلاة الجماعة ، وصلاة العيدين . فهم إخوة أحرار متساوون أمام الله ، يعبدونه ، ويستغفرونه ، ويطلبون منه المعونة بقلوب خاشعة ، وأفئدة صافية ، لا يفكرون فى الحياة المادية ، ولكنهم يفكرون فى الحياة الروحية .

وفى الحج تجد جميع المسلمين بلباس واحد ، ورءوسهم عارية ، لا يلبسون ملابس مخيطة . وهم خاضعون لله ، إياه يعبدون ، وإياه يستعينون ، هم جميعاً إخوة يتمتعون بالإخاء والمساواة ؛ له يركعون ويسجدون ويسبحون ، ويلبُّون قائلين : لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْك[1] .

وفى العقوبة ترى المسلمين سواسية فى الأحكام الإسلامية . قال جل شأنه :

(١) أنا مقيم على طاعتك ، مجيب لدعوتك .

« وكتبنا عليهمْ فيها أنَّ النفْسَ بالنَّفْس ، والعَيْنَ بالعينِ ، والأنفَ بالأنفِ ، والأذُنَ بالأذُنِ ، والسِّنَّ بالسِّنِّ والجُروحَ قِصَاص[1] » .

ولا عجب ؛ فالمساواة هى روح الإسلام فى السلم والحرب . ولا فضل لمسلم على آخر إلا بالبر والتقوى ، والعمل الصالح ، وإطاعة الله ، والإيمان به إيماناً كاملا .

وفى الصيام تجد الصائمين متساوين أمام الخالق جل شأنه حينما يصومون حقاً فى شهر رمضان المكرم ، من وقت الإمساك قبيل الفجر إلى غروب الشمس .

ولا نبالغ إذا قلنا إن الذميين المعاهدين كانوا يتمتعون بالمساواة فى البلاد الإسلامية ، تنفيذا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا » . وقوله عليه الصلاة والسلام : « من آذى ذِمِّيا فأنا خصمه يوم القيامة » .

فهل هناك تسامح كتسامح الإسلام ، ومساواة كالمساواة فى الإسلام ؟

وإن روح الإسلام يتمثل فى الأخوّة والإخاء ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسِه » . كما يتمثل فى الإيثار وهو أن تفضل غيرك على نفسك ، وتعطى أخاك ما أنت فى شدة الحاجة إليه ، عملا بقوله عز وجل : « ويُؤْثِرُون عَلَى أنْفُسِهم وَلو كان بهم خَصَاصةٌ »[2] : فقرٌ وحاجة .

ففى الإسلام تبدو الإنسانية الكاملة ، والأخلاق النبيلة ، والصفات الفاضلة ؛ لأنه يطالب المسلم بأن يفكر فى غيره كما يفكر فى نفسه ، ويضع شخصه موضعه ، ويؤثره على نفسه ، ويقدم له الرغيف الذى لا يملك سواه ، وأولاده فى حاجة إليه ليزيلوا به ما يحسونه من ألم الجوع ، يقدمه بنفس راضية مؤمنة كلها أخوة وإخاء وإيثار . هذا هو روح الإسلام ، وهذا ما ينادى به الإسلام .

ولو انتشر هذا الروح الإسلامى فى العالم لساد السلم والسلام ، والمودة والإخاء ، وما كانت هناك حروب ومنافسات بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، وما كان

---

(١) سورة المائدة : ٤٥ .   (٢) سورة الحشر : ٩

هناك استعمار واحتلال ، وانتداب واستغلال ، وقتل نفوس أبرياء ، واغتصاب لأرض الضعفاء ؛ لأن الإسلام ضد التفرقة العنصرية بين البيض والسود ، ضد التمييز بين طبقة وأخرى ، ضد الامتيازات التى يختص بها الأجانب .

ولا عجب ، فهو دين المساواة ، ولا فضل فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح .

وإن ما نراه اليوم من المنافسات والمنازعات ، والمشاحنات والاعتداءات فى العالم ــ نتيجة للروح المادى المنتشر بين العالم الغربى ، ذلك الروح الذى سيُفنى البشرية ، وسيقضى على الإنسانية ؛ لأنه مثير للحرب ، مولد للنزاع ، معكر للسلام فى العالم .

ولن نصل إلى السلام العالمى ما دامت الأثَرَة ومحبة النفس ، والروح المادى والاستعمار منتشرة وسائدة فى عالم اليوم .

إن الإسلام يدعو إلى الإيمان ، وتطهير النفوس والقلوب من الشرور والآثام ، وتغذية العقول بالمبادئ الإنسانية النبيلة ؛ مبادئ المساواة والأخوة والإخاء ، والبر والتقوى والعمل الصالح والإيثار .

وفى استطاعة الإنسان أن يكون سعيداً كل السعادة إذا تمسك بالروح الإسلامى الحق ، ومبادئه المثالية السامية .

ولو تمسك المسلمون بدينهم ، وعملوا بروحه ومبادئه ومثله العالية لكانوا اليوم جميعاً أحراراً مستقلين سعداء ، بعيدين عن كل نزاع وشقاء .

إن الإسلام ينادى بالمساواة والأخوة والإخاء ، ويصرح بأن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وأن المؤمنين إخوة ، وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وأن الناس سواسية كأسنان المشط ، لا عنصرية ولا تفرقة بين الشرقى والغربى ، ولا فرق بين الأوروبى والأفريقى ، ولا تمييز بين الأمريكى والآسيوى .

فالدين الإسلامى دين حرية وإخاء ومساواة ، دين مدنية وحضارة ، دين إنسانية وعدالة ، دين أخلاق وعزة نفس ، وقد وحد الإسلام بين الأمم الإسلامية جميعها . مهما اختلفت البلاد ، واختلفت البقاع ، واختلفت الأجناس ، لم يفرق بين مسلم ومسلم . لم يفرق بين جنسية وأخرى . لم يفرق بين أمة بيضاء وأخرى سوداء . مهما اختلفت اللغات ، وتعددت الألسن ، فقد جمعهم الإسلام ، وألغى الفروق بينهم، وجعلهم إخوانا ؛ قال جل شأنه : « إنما المؤمنون إخْوَةٌ[1] » . وقال صلى الله عليه وسلم : « ليس مِنَّا مَن دعَا إلى عَصَبيَّةٍ ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبيةٍ ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبيةٍ » .

الإسلام يدعو إلى الوحدة الشاملة وعدم التفرقة :

فالدين الإسلامى لا يدعو إلى العصبية والطائفية ، ولكنه يدعو إلى الأخوّة العامة ، والوحدة الشاملة بين المسلمين ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، وتجاهل الفوارق بينهم ، قال تعالى : « إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً[2] » . وقال عز وجل : « وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُواْ[3] » . فالأمة الإسلامية أمة واحدة ، مهما اختلفت شعوبها ، واختلفت بلادها .

فالإسلام يدعو إلى الوحدة والتعاون وعدم التفرقة ، سواء أكان فى الشرق أم فى الغرب ، ويجمع المسلمين فى جامعة واحدة هى جامعة الإسلام ، سواء أكانوا فى الهند أم فى السند ، فى أفريقية أم آسيا أم أوروبة ، سواء أكانوا فى الصين أم فى السودان .

وفى الحث على التعاون :

قال الخبير الحكيم : « وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ[4] » . والمعنى وتعاونوا على فعل البر

---

(١) سورة الحجرات ١٠

(٢) سورة الأنبياء : ٩٢ .

(٣) سورة آل عمران . ١٠٣ .

(٤) سورة المائدة : ٢ .

والخير ، وترك ما نهيتم عنه ، ولا تتعاونوا على ارتكاب المعاصى ومخالفة ما أمر الله به ، واتقوا الله ، وخافوا عقابه بأن تطيعوه ، إن الله شديد العقاب لمن خالفه .

وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « والله في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عون أخيه[١] » .

فالدين الإسلامى دين لا تعصب فيه ، دين حرية وإخاء ومساواة ، دين عدالة وديمقراطية . قال تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِئِينَ[٢] مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[٣] » .

فالمؤمنون واليهود والنصارى والصابئون إذا آمنوا بالله واليوم الآخر ، وعملوا عملا صالحًا ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

فالدين الإسلامى دين تسامح ، دين سهولة ويسر ، لا تعصب ولا تعقيد فيه ، دين بساطة وسهولة .

لهذا الروح الذى نراه فى الدين الإسلامى نرى أن الدين الإسلامى قد انتشر بمبادئه الإنسانية فى أفريقية وأوروبة وآسيا ، وانتشر بمبادئه المثالية لا بقوة السيف . انتشر بمبادئه السامية ، وآرائه الحديثة التى تتفق مع العقل والمنطق ، وكل زمان ومكان ، وتتفق مع الحضارة والمدنية . انتشر بمبادئه التى تلائم الطباع ، وتلائم النفوس ، وتتفق مع الإنسانية ، وقد أبطل وأد البنات ، وعبادة الأصنام ، وحرم أكل لحوم الإنسان ، ونشر بين المسلمين العزة والإيثار ، والكرم والإحسان ، والصدقة على الفقراء والمساكين ، والعفو والصفح عند المقدرة ، والإحسان إلى المسىء .

وبهذه المبادئ الإسلامية انتشر الإسلام ، واعتنق كثيرون الإسلام ؛ فقد قضى

(١) بقلبه أو ماله أو بدنه . (٢) جنس من أهل الكتاب .
(٣) سورة البقرة : ٦٢ .

على الفروق بين الطوائف والأجناس ، ونشر الحرية والإخاء والمساواة بين المسلمين ، فى جميع أنحاء العالم الإسلامى .

ولو تمسك المسلمون بدينهم لحافظوا على حقوقهم ، وفى استطاعتهم أن يعودوا إلى مجدهم العظيم إذا رجعوا إلى الأخلاق الإسلامية ، وتمسكوا بالروح الإسلامى .

وفى الوقت الذى نرى فيه الاختلاف فى معاملة الإنسان الأصفر والملون والأسود فى البلاد المتحضرة المتمدنة فى أفريقية وأوروبة والولايات المتحدة بأمريكا نجد الدين الإسلامى ينظر إلى المسلمين نظرةً واحدة من غير تفرقة بين أبيض وأصفر وأسود ، من غير تفرقة بين عظيم وحقير ، وكبير وصغير . فلا عجب إذا اعتنق الناس الدين الإسلامى زرافاتٍ [1] ووحدانا فى جميع بقاع العالم .

ومن السهل أن يستعيد المسلمون عظمتهم الماضية إذا تمسكوا بالإسلام ، وعملوا بتعاليم دينهم ، وتمسكوا بروح الحرية والإخاء والمساواة .

فالروح الإسلامى روح نبل وعظمة ، روح كلها إنسانية ، روح تبشر بالخير . ونرجو أن يأتى اليوم الذى يستعيد فيه المسلمون عظمتهم ومجدهم ، ويعيدون مجدهم الإسلامى ومبادئهم الإسلامية بين المسلمين جميعاً ، فليس العيب عيب الإسلام ، ولكن العيب عيب المسلمين الذين تركوا دينهم ، وتركوا مبادئه ، وأصبحوا مسلمين بأسمائهم ، بعيدين عن الإسلام بأعمالهم .

« أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ؟ [2] » فلو تدبر المسلمون القرآن الكريم ، والسنة المحمدية ، والمبادئ الإسلامية لكان فينا اليوم عدد كبير من أمثال الغزالى وابن سينا وابن رشد والفارابى والرازى وابن البيطار والقرطبى ، وكان فينا كثيرون من العلماء والأدباء والمخترعين والفلاسفة والأبطال كما كان فى صدر الإسلام .

ولو عرف الإنسان نفسه مافخر سيد على عبده ، لو عرف نفسه لأحب أخاه محبته لنفسه . قال أبو العلاء المعرى :

---

(١) جماعات . (٢) سورة محمد : ٢٤

لو يعرف الإنسان مقداره   لم يفخر المولى[1] على عبدهِ
لولا سجاياه وأخـــلاقه   لـكان كالمعدوم فى وجدهِ

فالأمم (الديمقراطية) التى تفخر بالحرية والإخاء والمساواة قد سبقهـا الإسلام بمئات السنين فى المطالبة بالحرية والإخاء والمساواة ، والتمسك بها .

ويتحقق روح الإسلام فى قوله تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَـدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [2] » .

قال ابن مسعود : « هذه أجمع آية فى القرآن لخير يُتمثَّل ، ولشر يُجتَنب » ؛ ففيها يأمر الله بالأخلاق الكريمة ، وينهى عن الأخلاق القبيحة .

روح الإسلام يتمثل فى وصية الرسول :

كما يتحقق فى قوله عليه الصلاة والسلام : «أَوصانى ربِّى بتسعٍ أُوصيكم بها : أَوصانى بالإخلاصِ فى السرِّ والعلانيةِ ، والعَدْلِ فى الرِّضا والغضَبِ ، والقصدِ فى الغِنَى والفقْرِ ، وأَن أعفوَ عمَّنْ ظلَمنى ، وأُعطِىَ مَن حرَمَنِى ، وأَصِلَ مَن قطَعَنى ، وأن يـكونَ صَمتى فِـكراً ، ونُطقى ذِكراً ، ونظَرى عِبراً » . وسنشرح مايستحق الشرح منها فنقول :

الإخلاص فى القول والعمل والسر والعلانية :

إن الإخلاص فى القول والعمل ، والسر والعلانية عماد النجاح فى كل أمر دينى أو دنيوى ، وقد أمر الإسلام بالإخلاص فى كثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية . قال تعالى : « وَمَا أُمِرُوا إلا لِيعبُدوا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ » . فالعبادة يجب أن تـكون صادرة بإخلاص ، وبدون رياء أو نفاق ، خالصة لله وحده . قال عز وجل : فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أحداً . »

(١) السيد . والمولى : المعتق ، والمعتق أى السيد والعبد ، وابن العم . والناصر ، والجار والحليف .
(٢) سورة النحل : ٩٠ .

الإخلاص الذى يتطلبه الإسلام :

إن الإخلاص الذى يتطلبه الإسلام هو الصدق فى القول ، والأمانة فى العمل ، هو المروءة ، هو أن تعمل فى السر ما لا تستحيي منه فى العلانية . هو البعد عن الكذب والرياء والنفاق .

فسِرِّى كإعلانِى ، وتلك خليقتى وَظُلمةُ لَيلى مثلُ ضَوءِ نَهارِيَا

فالإخلاص يُظهر ما فى العقل والقلب من التفكير والوجدان، من غير زيادة أو نقص، أو مبالغة أو رياء أو كذب . وحينما ينتفى الإخلاص من الشخص تراه يغير الحقائق ، ويجعل الحق باطلا ، والباطل حقا ، والبعيد قريبا ، والقريب بعيدا . وليس هذا من الإخلاص فى شىء . وإن تظاهر الإنسان بغير الحقيقة ينشأ عن عدم الإخلاص ؛ لأن فيه تشويهًا للحقائق، وتضليلا لغيره ، بالكذب حينا، والمبالغة المقوتة حينا آخر . ولا يتظاهر بالعلم إلا من يشعر بالجهل . ولا يتظاهر بالغنى إلا الفقراء . ولا يدَّعى القوة إلا الضعفاء .

ويبدو الإخلاص فى دعاء عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ حيث يقول : « اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله كله لوجهك خالصا . ولا تجعل لغيرك فيه شيئا » .

فعمر يسأل الله أن يكون عمله كله صالحا، خالصا لله تعالى وحده . وهذا هو الإخلاص عينه فى عبادة الله ، ابتغاء مرضاة الله .

الإسلام يندد بالنفاق والمنافقين ، والرياء والمرائين :

إن الإسلام ضد النفاق والمنافقين ، والرياء والمرائين ، ضد التآمر والمتآمرين ، ضد ذى الوجهين الذى يمدحك فى حضورك ، ويذمك فى غيابك . قال تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ[1] مَقْتًا[2] عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ[3] . ». والمعنى : قد عظم كرها لكم عند الله قولكم ما لا تفعلون.

وقال عز وجل : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى

(١) عظم وبشع . (٢) هو أشد أنواع البغض . (٣) سورة الصف : ٢ـ٣ .

ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ ، يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ، وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ، لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ. وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا[١] ».

والمعنى : إن المنافقين يخـادعون الله بإظهارهم خلاف ما أبطنوه من الـكفر ، وهو مجازيهم على خداعهم . وإذا قاموا إلى الصلاة مع المؤمنين قاموا كسالى متثاقلين، يراءون الناس بصلاتهم ، ولا يُصَلون إلا رياء ونفاقا ، مذبذبين مترددين بين الـكفر والإيمان ، لا منسوبين إلى الـكفار ، ولا منسوبين إلى المؤمنين . ومن يضلل الله فلن تجد له طريقا إلى الهـــدى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربعٌ مَن كنَّ فيه كان منافقا خالصًا، ومَن كانت فيه خَصلةٌ[٢] منهنَّ كانت فيـه خَصلةٌ من النفاق حتى يدعَها[٣] : إذا اؤتُمِنَ خانَ[٤] . وَإذا حدَّث كذَبَ . وَإذا عاهدَ غدَرَ[٥] . وَإذا خاصمَ فَجَر[٦] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « تجدون النـاس معادِن[٧] ، خيارُهم[٨] فى الجاهلية خيارُهم فى الإسلام إذا فَقُهُوا[٩] . وتَجدون خيار الناسِ فى هذا الشأن[١٠] أشدَّهم كراهيةً له. وتجدون شر الناس ذا الوجهين ، الَّذى يأتى هؤلاء بوجهٍ[١١] ، وهؤلاء بوجهٍ[١٢] .

فالإسلام يحث على الإخلاص، وينادى به ، ويشجع عليه ، ويمقت النفاق والمنافقين، والرياء والمرائين ، والخداع والمخادعين ، والتضليل والمضللين .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنمَّا الأعمالُ بالنيَّاتِ ، وإنمَّا لِـكُلِّ امرِئٍ ما نوَى ، فَمنْ كانَتْ هِجرَتُه إلى اللهِ ورَسولِهِ ، فَهِجرَتُه إلى اللهِ ورَسولِهِ ، ومَن كانَتْ هِجْرَتُه إلى دُنيا يُصيبُها أَو امرأَةٍ يَنكِحُها ، فَهِجرتُه إِلَى ما هاجرَ إِلَيهِ . »

---

(١) سورة النساء : ١٤٢ ـ ١٤٣ . (٢) صفة ، خلة . (٣) يتركها .
(٤) لم يف بما اؤتمن عليه وخالف الشريعة . (٥) فعل خلاف ما عهد إليه أن يفعله .
(٦) مال عن الحق وظلم . (٧) من ذوى أصول يتفاخرون بها . (٨) أشرفهم .
(٩) فهموا أحكام دينهم . (١٠) فى الحكم . (١١) يوهم أنه منهم وليس من أعدائهم .
(١٢) غير الوجه الذى لقى به الأولين ، إلا إذا كان غرضه الإصلاح بين طائفتين من المسلمين ، فحينئذ يكون عمله محمودا .

وقال : « إنَّ اللهَ لا يَنظرُ إلَى أجسامِكم ولاَ إلَى صُوَرِكم ، ولكن يَنظرُ إلى قلوبِكم . »

وقد قيل إن رجالا ثلاثة دخلوا غاراً للمبيت فيه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّته عليهم ، فقالوا : لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم .

فدعا أحدهم الله أن يفرج عنهم بإخلاصه فى خدمة أبويه ، وكانا شيخين كبيرين حتى كان لا يتناول هو وأحد أطفاله طعاماً أو شرابا قبلهما ، مهما يجد فى هذا من تعب وعناء ، فانفرجت الصخرة وفتحت قليلا .

ودعا الثانى الله بأنه كان يحب ابنة عمه حبًّا شديداً ، حتى إذا قدر عليها أخيراً ، وكان فى استطاعته أن ينال منها ، ذكَّرته بالله تعالى، فتركها ابتغاء مرضاة الله، وهى أحب الناس إليه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لم يستطيعوا الخروج منها .

ودعا الأخير الله بأنه كان لديه عمال قاموا له ببعض الأعمال، فأعطاهم أجرهم إلا واحداً ترك أجره وذهب ، فثمَّرَ أجره حتى زاد كثيرا ، فاشترى له به إبلا وبقراً وغنماً . ولما جاء بعد سنين طويلة يطلب أجره ، أعطاه ذلك كله ؛ لأنه فعل ما فعل فى استثماره وتنميته مخلصاً لله وحده . فانفرجت الصخرة ، وبعدت عن موضعها ، حتى خرجوا من الغار يمشون وهم أحياء ، بعد أن استولى عليهم اليأس .

فبإخلاصهم لله نجوا من الموت ، ونعموا بالحياة . ولا عجب ؛ فالإخلاص فى السر والعلانية من روح الإسلام ، وهو سر النجاح فى كل عمل .

من الإسلام الإخلاص فى النصيحة :

روى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان ، نوع قيمة كل حلة منه أربعمائة درهم ، ونوع قيمة كل حلة منه مائتا درهم . فذهب إلى الصلاة ، وترك ابن أخيه فى حانوت التجارة . فجاء أعرابى وطلب حلة بأربعمائة درهم ، فعرض عليه حلة من الحلل التى ثمنها مائتان ، فاستحسنها الأعرابى وقبلها واشتراها ، فذهب بها ، وهى على يديه .

فاستقبله يونس فعرف حلته ، فقال للأعرابى : بكم اشتريت هذه الحلة ؟

فأجاب الأعرابى : بأربعمائة درهم .

فقال يونس : إنها لا تساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردها .

فقال الأعرابى : هذه فى بلدنا تساوى خمسمائة درهم ، وأنا راض بها .

فقال له يونس : تعال ، فإن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم ردّه إلى الحانوت ، وردّ له مائتى درهم ، وعاقب ابن أخيه بسبب ذلك .

وقال له : أما استحييت ؟ أما اتقيت الله ؟ تربح مثل الثمن ، وتترك النصح للمسلمين .

فقال ابن أخيه : والله ما أخذها إلا وهو راض بها .

قال يونس : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟

ولا عجب ؛ فقد قال الرسول : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه . »

العدل فى الرضا والغضب :

ومن روح الإسلام العدل فى الرضا والغضب ، بحيث يكون العدل بين جميع الناس من غير تفرقة بين قريب أو بعيد ، غنى أو فقير ، صديق أو عدو . فقد أمر الإسلام بالعدالة ، ونهى عن الجور والظلم ، والاعتداء بغير حق[(١)] .

قال تعالى فى سورة المائدة : « يأَيُّها الذينَ آمنوا كُونوا قَوَّامِينَ لِلهِ ، شُهَدَاءَ بالقسطِ[(٢)] ، ولا يَجْرِمَنَّكُم[(٣)] شَنَآنُ[(٤)] قَومٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا ، اعدِلُوا هُوَ[(٥)] أَقرَبُ لِلتَّقْوَى »[(٦)] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اتقُوا الظُّلمَ ، فإنَّهُ ظُلماتٌ يومَ القيامةِ . » .

وقال : « إن اللهَ عزَّ وجلَّ لَيُملِي[(٧)] للظالِم حتَّى إذا أَخَذه لم يُفْلِتْهُ[(٨)] » ثم قرأ قوله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » [(٩)] .

---

(١) سنتكلم عن العدالة فى الإسلام بالتفصيل ، فى الفصل السابع من هذا الكتاب .

(٢) العدل . (٣) يحملنكم . (٤) بغض وعداوة . (٥) العدل .

(٦) آية ٨ . (٧) يمهل ويطيل له . (٨) يتركه ويهمله . (٩) سورة هود : ١٠٢

وقد قيل إن غلاماً من المهاجرين ضرب غلاماً من الأنصار ، فقال الأنصارى : ياَللأَنصار ، وقال المهاجر : يا لَلمهاجرين !

فخرج الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « ما بال دعوى الجاهلية [1] ! » فلما ذكر له ما حدث قال : « دعوها فإنها مُنتِنَة » أى قبيحة كريهة مؤذية . ثم قال : « ولْيَنصُر الرجلُ أخاه ظالماً أو مظلوماً « فإن كان ظالماً فَلْيَنْهَه ، فإنَّه له نَصرٌ . وإن كانَ مظلوماً فَلينصُرْه . »

الاعتدال فى الغنى والفقر :

ومن روح الإسلام : القصد أى الاعتدال والتوسط فى الغنى والفقر ، بحيث لا يكون هناكَ إسراف أو تقتير ، وخير الأمور الوسط . قال تعالى فى وصف المؤمنين : « وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ، وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا [2] . » . أى وسَطا . فخير الإنفاق التوسط بين التبذير والتقتير .

العفو والصفح عن المسىء بدوام الإحسان إليه :

قال الغفور الرحيم : « وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُواْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُواْ ، أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ؟ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [3] » .

(ولا يأتَلِ) : وَلا يحلف . وَآلَى على نفسه : أقسَم .

(أولو الفضل) : أصحاب الفضل . (والسَّعة) : الغنى وكثرة الرزق .

(أن يؤتوا) : ألاَّ يؤتوا : ألا يعطوا .

(والمهاجرين فى سبيل الله) : نزلت هذه الآية فى أبى بكر الصديق ، فقد حلف ألا ينفق على مسطح ، وهو ابن خالته من المساكين والمهاجرين ، حينما خاض فى حديث

---

(١) كان العربى فى الجاهلية متعصباً لأهله وقبيلته ، ينصر أخاه بحق وبغير حق .

(٢) سورة الفرقان : ٦٧ . (٣) سورة النور : ٢٢ .

الإفك ، بعد أن كان ينفق عليه ، وفى ناس من الصحابة قد أقسموا ألا يتصدقوا على من تكلم بشيء من حديث الإفك .

(وليعفوا وليصفحوا) : عنهم فى ذلك . وهذا من النبل فى الإسلام .

(والله غفور رحيم) للمؤمنين .

قال أبو بكر : بعد أن سمع قوله جل شأنه : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم ؟ » بلى ، أنا أحب أن يغفر الله لى . ورجع إلى ابن خالته ، وأعاد إليه ما كان ينفقه عليه . وفى هذه الآية حث على العفو والصفح عمن يسيء إلى من أحسن إليه ، بالإحسان إليه . ولهذا يقال فى تفسير : (اتق شر من أحسنت إليه) بدوام الإحسان إليه .

وهذه هى العظمة الإسلامية والإنسانية ، المثالية فى الإسلام .

الصفح عن المسيء من النبل الخلق فى الإسلام :

قال العَفُوُّ القدير : « ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ [1] . »

أى ادفع أذى الكفار لك بالصفح والإعراض عنهم ، فنحن أعلم بما يكذبون وما يقولون ، فنجازيهم عليه .

ومن روح الإسلام : لا تغضب :

قيل : قدمَ عيينةُ بنُ حِصن فنزلَ على ابن أخيه الحرِّ بن قيسٍ ، وكان من النَّفَرَ [2] الذين يُدنِيهم [3] عمرُ رضيَ الله عنه ، وكان القُراءُ أصحابَ مجلس عمر رضى الله عنه ومشاورته ، كهولاً كانوا أو شبَّانًا .

فقال عُيَينةُ لابنِ أخيه : يا ابن أخى ، لك وجهٌ [4] عند هذا الأمير ، فاستأذِنْ لى عليه ، فاستأذن ، فأذنَ له عمرُ .

فلما دخلَ قال : هِي يا ابنَ الخطاب ، فوالله ما تُعطينا الجَزْلَ [5] ، ولا تحكمُ فينا

(١) سورة المؤمنون : ٩٦ . (٢) الجماعة ، ما دون العشرة . (٣) يقربهم .
(٤) وجه مقبول . (٥) العطاء الكثير .

بالعـدل ، فغضب عمرُ رضى الله عنه ، حتى همَّ [1] أن يعاقبه لسوء أدبه ، وقلة ذوقه ، واتهامه عمر بالظلم .

فقال له الحرُّ بن قيس: يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: « خُذِ العَفْوَ [2] ، وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ [3] ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ [4] . » وإن هذا من الجاهلين . واللهِ ما جاوزَهَا عمرُ حين تلاها ، وكان وَقّافاً عند كتاب الله تعالى ، ممتثلاً لأوامره ، وعفا عنه .

فالرجل كان أحمق ، قاسيا فى اتهامه عمر المعروف بالعدالة التى يضرب بهـا المثل ، ولـكن عمر صفح عنه ؛ لجهله ، ولم يعاقبه على سوء أدبه ، عملا بالآية الـكريمة ، وبقوله صلى الله عليه وسلم، حينما جاء رجل، وقال للنبى أوصنى. فقال الرسول الحليم: «لا تغضَبْ» فردَّد مرارًا ، فقال : « لا تغضب » . وهى خير وصية يجب أن نتحلى بها .

وقد أوصى رسول الله بالعفو عمن ظلمك ، والصفح عنه ، واحتمال الأذى .

قال تعـالى : « وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ، أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَـكُمْ ؟ » وقال جل شأنه : « وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّـكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ . ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ [5] فِى ٱلسَّرَّآءِ [6] وَٱلضَّرَّآءِ، وَٱلْـكَٰظِمِينَ [7] ٱلْغَيْظَ، وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ، وَٱللهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ [8] . »

وقال عزَّ وجلَّ : « وَلَمَن صَـبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ [9] . »

فالصبر على الإساءة ، والمغفرة عند القـدرة من الروح الإسلامى النبيل ، وتحتاج هذه المنزلة من الخلق الـكريم إلى إرادة قوية ، وعزيمة ثابتة ، ونفس عالية . ولا يكتفى

---

(١) أراد . (٢) تمسك بالعفو والصفح والحلم . (٣) بالمعروف . (٤) لا تقابل الجهلة سفههم ، وحمقهم . سورة الأعراف : ١٩٩ . (٥) يتصدقون . (٦) السراء : الرخاء . والضراء : الشدة . (٧) الضابطين الشعور والنفس . (٨) سورة آل عمران : ١٣٣ .
(٩) من الأمور التى تحتاج إلى عزيمة ، ويتطلبها الإسلام . (سورة الشورى: ٤٣ .

الإسلام بالعفو والصفح عن المعتدى، بل يحث على الإحسان إلى المسىء، وهو غاية الرفعة والنبل، قال تعاظم وارتفع: « وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ، ٱدْفَعْ[1] بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ، فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ[2]. وَمَا يُلَقَّىٰهَآ[3] إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ، وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ[4]. »

وقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام خير قدوةٍ؛ فقد أوذى كثيراً، واحتمل الأذى سنوات طويلة. وكان يعفو ويصفح عن المسيئين إليه، ملتمسا لهم المعذرة، قائلا: « اللّهمَّ اغفِرْ لِقومى فإنّهم لايعلمون ». وحينما دخل صلى الله عليه وسلم مكة، وانتصر على الكفار من قريش خافوا واعتقدوا أنه سينتقم منهم. فقال لهم: « ما تَظُنون أَنِّى فاعلٌ بكم » ؟

قالوا: خيراً؛ أخ كريم، وابن أخ كريم.

فقال: « اذهبُوا فأنتمُ الطُّلَقاء[5]. »، وأطلق سراحهم، وعفا عنهم.

ومن روح الإسلام أن تعطى من حرمك، وتصل من قطعك، وأن يكون سكوتك تفكيراً فى الله، ونظرك عبرة وعظة.

الإيثار روح الإسلام:

ومن الفضائل التى امتاز بها الإسلام عن غيره من الديانات: الإيثار، وهو أن يجود الإنسان بماله مع حاجته إلى ذلك المال، كأن يجود بما فى جيبه وليس لديه سواه، أو يجود بطعامه وهو جائع، وليس عنده شىء يأكله. والإيثار أرفع درجات السخاء.

وليس بعد الإيثار درجة فى السخاء. قالت السيدة عائشة أم المؤمنين – رضى الله عنها – ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا. ولو شئنا لشبعنا، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا.

---

(١) أى ادفع السيئة بالحسنة والإحسان إلى من أساء إليك.
(٢) قريب.
(٣) أى لا يؤتى هذه الفضيلة إلا الصابرون السعداء الحظ.
(٤) سورة فصلت: ٣٤.
(٥) الأحرار.

وذات يوم نزل لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف ، فلم يجد عند أهله شيئا يقدمه له . فدخل على المصطفى رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله . ثم وضع بين يديه الطعام . وأمر امرأته بإطفاء المصباح . وجعل المضيف يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ، مع أنه لا يأكل ، حتى أكل الضيف الطعام .

الإيثار من أخلاق الرسول :

قال موسى عليه السلام : يا ربِّ أرِنى بعض درجات محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

فقال : يا موسى إنك لن تطيق ذلك ، ولكن أريك منزلة من منازله جليلة عظيمة، فضلته بها عليك وعلى جميع خلقى . فكشف له عن ملكوت السموات ، فنظر إلى منزلة كادت تتلف نفسه من أنوارها وقربها من الله تعالى .

فقال : يا رب ، بماذا بلغت به إلى هذه الكرامة ؟

قال الله تعالى : بخلق اختصصته به من بينهم وهو الإيثار(١) . يا موسى لا يأتينى أحد منهم قد عمل به وقتًا من عمره إلا استحييت من محاسبته ، وبوأته(٢) من جنتى حيث يشاء .

فالإيثار خلق من أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، حتى سماه الله تعالى عظيما، فقال جل شأنه : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . »(٣)

جزاء الإيثار :

قيل : خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة(٤) له ، فنزل على نخيل قوم وعند النخيل غلام أسود يعمل فيه . وأحس الغلام بالجوع فأتى بطعامه ليتناوله . وإذ ذاك أقبل كلب ودنا(٥) من الغلام ، يريد الطعام . فرمى إليه الغلام قرصا(٦)، فأكله الكلب . ثم رمى إليه قرصين آخرين كانا أمامه . فأكلهما ، ولم يبق للغلام طعام .

---

(١) الإيثار : هو أن يجود الإنسان بماله مع حاجته إلى ذلك المال . (٢) بوأ له منزلا ، وبوأه منزلا : هيأه ومكن له فيه . (٣) سورة القلم : ٤ . (٤) عقار له ، وقيل : النخل والكرم والأرض . (٥) قرب . (٦) القرص : من الخبز ، وجمعه : قرص .

وقد حدث كل هذا وعبد الله بن جعفر ينظر إليه وهو ساكت . فقال : يا غلام ، كم قوتك[1] كل يوم ؟

قال : ثلاثة قرص .

قال عبد الله : فلمَ آثرتَ[2] هذا الكلب وأعطيته طعامك ؟

قال : إن هذه الجهة ليس فيها كلاب ، وقد جاء هذا الكلب من مسافة بعيدة وهو جائع ، فكرهت أن أشبع وهو جائع .

قال عبد الله : فماذا أنت صانع اليوم ؟

قال : أجوع يومى هذا ، وأنتظر إلى غد بغير طعام .

فقال عبد الله : إن هذا الغلام لأسخى منى . واشترى النخيل والغلام ممن يملكهما . وأعتق[3] الغلام ، ووهبه النخيل وما حولها من الآلات .

هذا هو الإيثار فى الإسلام :

قال عمر رضى الله عنه : أهدَى إلىَّ رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة .

فقال عمر : إن أخى (فلانا) كان أحوج منى إليه . فبعث برأس الشاة إلى أخيه (وهو أحد الصحابة) . فلم يزل كل واحد من الصحابة رضى الله عنهم يبعث برأس الشاة إلى آخر منهم ، حتى تداول الرأس سبعة بيوت ، من بيوت الصحابة . ورجع رأس الشاة إلى الأول .

فكان كل منهم يؤثر أخاه على نفسه . وهذا هو روح الإسلام .

وبات على كرم الله وجهه على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولبس ثوب النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم نام مكانه ، وفداه بنفسه ، وآثره بالحياة . وقد حفظ الله عليا من أعداء الإسلام ، وحفظ المصطفى من مؤامراتهم ، لينشر الدين الحق على الناس

---

(١) القوت : ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام . (٢) فضلت . (٣) جعله حرا .

كافة . وفى إيثار علىّ أنزل الله قوله تعالى : « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى[1] نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ[2] . »

أى ومن الناس من يبيع نفسه لله طلبا لثوابه ، والله رءوف بعباده .

هكذا كان المسلمون الأولون :

وعن أبى الحسن الأنطاكى أنه اجتمع عنده أكثر من ثلاثين نفسا ، وكانوا فى قرية من القرى ، ولهم أرغفة معدودة ، لا تُشبع كلهم . فكسروا الرغفان إلى أجزاء صغيرة ، وأطفئوا السراج ، وجلسوا جميعا للطعام . فلما رُفِع بعد انتهاء المدة العادية لتناول الأكل ، فوجئوا بأن الطعام بحاله كما هو . ولم يأكل أحد منهم شيئا منه ، إيثارا لصاحبه على نفسه .

وهكذا كان المسلمون الأولون ، كل منهم يؤثر غيره على نفسه ، ويقدم كل ما لديه للفقراء والمحرومين والضيوف ، ويحرم نفسه وأهله .

وقال حذيفة العدَوى : انطلقت يوم اليرموك أسأل عن ابن عم لى لأقدم له شيئا من الماء كان معى ، وقلت فى نفسى : إن كان به رمق سقيته هذا الماء ، ومسحت به وجهه . فإذا أنا به . فقلت له : اسمح لى أن أسقيك .

فأشار إلىّ بقوله: نعم اسقنى . فإذا رجل يتأوه ويقول: آه . فأشار إلىّ ابن عمى قائلا : انطلق إليه بالماء . فذهبت إليه ، فإذا هو هشام ابن العاص .

فقلت له : أسقيك .

فسمع هذا الحديث رجل آخر . فتأوه وقال : آه .

فأشار هشام إلىّ وقال : انطلق بالماء إليه .

فإذا هو قد مات . فرجعت إلى هشام بن العاص ، فإذا هو قد مات .

فرجعت إلى ابن عمى ، فإذا هو قد مات . وهكذا كان المسلمون الأولون ، رحمة الله عليهم أجمعين .

---

(١) يشرى : يبيع (٢) سورة البقرة : ٢٠٧ .

فمن روح الإسلام أن يفضل الإنسان غيره على نفسه ، ويعطيه الشيء وهو محتاج إليه، وليس فى غنى عنه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأشعَرِيِّين إذا أرمَلوا[1] فى الغَزوِ أو قلَّ طعامُ عِيالِهم ، جَمَعوا ما كانَ عِندَهم فى ثوبٍ واحدٍ، ثمَّ اقتَسموه بينهم فى إناءٍ واحدٍ بالسَّويَّةِ ، فهم منِّى وأنا منهم » . فبعضهم كان يفضل غيره على نفسه ، ويؤثره ببعض ما يحتاج إليه ، ولهذا مدحهم النبي بقولهم : هم مِنِّى وأنا منهم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « طعامُ الواحدِ يَـكفى الاثنين ، وطعامُ الاثنين يَـكفى الأربعةَ ، وطعامُ الارْبَعةِ يَـكفى الثمانيةَ . »

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى عام المجاعة : « لن يهلك النـاسُ على نصف بطونهم » .

وقد جاءت امرأة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ببردةٍ[2] منسوجة ، فقالت : نسجتها بيدى لِأَكْسُوَكَهَا . فأخذها الرسول وهو محتاج إليها ، ثم لبسها وخرج بها ، فجاء إليه شخص وقال له : اكسنيها ، ما أحسنها !

فقال الرسول عليـه الصلاة والسلام : « نعم » . ثم جلس النبى وطواها ، وأرسل بها إلى من سأله .

فقال القوم للسائل : ما أحسنت ، فقد لبسها صلى الله عليه وسلم وهو محتاج إليها ، ثم سألته ، وعلمت أنه لا يردُّ سائلا .

فقال : إنى والله ما سألته لألبسها ، وإنما سألته لتـكون كفنى ، فـكانت كفنه .

وقد حدث أن رجلا أتى إلى رسول الله صلى الله عليـه وسلم فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهـد أى الجوع ، فأرسل الرسول إلى نسائه ، فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال : « ألا رجل يُضيفه الليلة ؟ رحمه الله » .

فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله .

---

(١) فرغ ما لديهم من الطعام . (٢) هى كِساء أسود مربع صغير تلبسه الأعراب ، والجمع بُرد بفتح الراء.

فذهب به إلى أهله ، وقال لامرأته : ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تدخرى عنه شيئاً .

فقالت : والله ما عندى إلا قوت الصِّبية .

فقال: إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وأطفئى السراج ، وأريه أنا نأكل . فأكل الضيف ، وبات الأنصارى وامرأته طاوِيَيْنِ جائعين .

فلما أصبح الأنصارى ذهب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى : « لَقَد عجِبَ الله من صنيعِكُما بِضَيفِكما الليلة » وأنزل : « وَيُؤْثِرون عَلَى أنفسِهم ولَو كانَ بهم خصَاصَةٌ »[1] أى حاجة شديدة لما يقدمونه لغيرهم .

فالإيثار من روح الإسلام ، وروح المؤمنين الذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم .

السيدة عائشة تؤثر الفقراء على نفسها :

قيل : بعث معاوية بن أبى سفيان إلى السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ ثمانين ومائة ألف درهم ، فطلبت طبقا كبيرا ، وأخذت تقسم المال بين الناس حتى قسمته كله على الفقراء .

فلما جاء المساء قالت لخادمتها : هاتى فطورى . وكانت صائمة فى ذلك اليوم .

فجاءتها الخادمة بخبز وزيت لتفطر عليهما فى صيامها . وقالت لها : ألم تستطيعى مما تبرعت به اليوم أن تشترى لنا بدرهم واحد لحما نفطر عليه ؟

فقالت السيدة عائشة : لو كنت ذكَّرتنى لفعلت .

وهذا هو الإيثار فى الإسلام ، بأن تحرم نفسك وتفضل غيرك عليها . وقد أفطرت السيدة عائشة على خبز وزيت ، وفضلت أن تتصدق بالمال كله على المحرومين والمساكين . وحرمت نفسها شراء قطعة من اللحم تفطر عليها هى وخادمتها .

---

(١) وقيل إن هذه الآية نزلت تصف علياً كرم الله وجهه بالإيثار .

إيثار على كرم الله وجهه :

ذات يوم بكى على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

فقيل له : ما الذى يبكيك ؟

فأجاب : لم يأتنى ضيف منذ سبعة أيام . وأخاف أن يكون الله قد أهاننى .

فعلى كان جوادا كثير الكرم والإحسان . ومع فقره كان يؤثر الفقراء ، ويقدم لهم ما لديه ، ويحرم نفسه وأهله .

الحسن بن على يؤثر الفقير على نفسه :

وسأل رجل الحسن بن على – رضى الله عنهما – حاجة .

فقال له : يا هذا ، إن حق سؤالك إياى يعظم لدى ، ومعرفتى بما يجب لك تكبر علىّ ، ويدى تعجز عن إعطائك ما تستحقه . والكثير فى ذات الله قليل . فإن قبلت الميسور ، ورفعت عنى مئونة الاحتمال والاهتمام لما أتكلفه من واجب حقك فعلت .

فقال الرجل : يا ابن بنت رسول الله أقبل ، وأشكر العطية ، وأعذر على المنع .

فدعا الحسن وكيله ، وجعل يحاسبه حتى استقصى ما أنفقه ، فقال : هات الباقى من ثلاثمائة ألف درهم .

فأحضر وكيله خمسين ألف درهم . ثم سأله الحسن : ماذا فعلت بالخمسمائة دينار ؟

قال : هى عندى .

فقال الحسن : أحضرها .

فأحضرها ، فدفع كل ما عنده من الدنانير والدراهم إلى الرجل، وقال لوكيله : هات من يحملها له .

فأتاه بحمالين ، وأعطى الحسن رداءه للرجل أجرة للحمالين .

فقال له وكيله : والله لم يبق عندنا درهم واحد فى البيت .

فقال الحسن : أرجو أن يكون لى عند الله الأجر العظيم .

الوفاء روح الإسلام :

وقد أمر الله بالوفاء فى كثير من الآيات القرآنية، منها قوله تعالى : «وَأَوْفُوا بالعَهدِ ؛ إنَّ العَهدَ كان مسئولاً »[١] .

وقوله : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ[٢] .

فالإسلام يأمر بالوفاء بالعهود والعقود التى تعقد بين الأفراد والأمم ، ويحرم الغدر ، وهو ضد الوفاء . قال صلى‌الله عليه وسلم : « أربعٌ مَنْ كُنَّ فيه كانَ مُنافقاً خالصاً ، ومَن كانت فيه خَلةٌ[٣] منهنّ كانت فيه خَلّة مِن النِّفاقِ حتى يدَعَها : إذا حدَّث كذَبَ ، وإذا عاهدَ غدَر[٤] ،وإذا وَعدَ أخلفَ ، وإذا خَاصمَ فَجَر[٥] » .

فالوفاء روح الإسلام ، وقد عرف المسلمون منذ أربعة عشر قرنا تقريباً بالوفاء فى عهودهم ومعاهداتهم ، فى حين أن الغدر ، وخلف الوعود ، ونقض العهود من صفات الدول التى لا تدين بالإسلام كالدول الغربية اليوم .

وقد حدث أن حذيفة بن اليمان خرج هو وصاحب له يريدان الرسول بالمدينة فأخذتهما قريش ، وقالوا لهما : إنكما تريدان محمدا .

فقالا : ما نريده ، ولا نريد إلا المدينة؛ فتركوهما بعد أخذ العهد عليهما ألا يقاتلا معه.

ولما بلغا المدينة أتيا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخبراه بما حدث ، فقال لهما : « انصَرِفا ، نَفِي بعهدِكم ، ونستعينُ اللهَ عليهم » .

وذات يوم جيء بالهُرمُزان أسيرا إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان الهرمزانُ من كبار رجال فارس الذين أساءوا إلى العرب والمسلمين ، فقال له عمر : تكلم.

فقال الهرمزانُ : أكلامَ حى أم كلام ميت ؟

فقال عمر : تكلم ، لا بأس .

وبعد انتهاء الحديث أراد عمر أن يقتله جزاء من قتلهم من المسلمين.فقال له الحاضرون

---

(١) سورة الإسراء : ٣٤ (٢) سورة المائدة : ١ . (٣) خصلة . (٤) لم يفِ بعهده .
(٥) كذب وفسق ومال عن الحق .

من الصحابة : ليس إلى قتله من سبيل ؛ إذ قلت له : لا بأس . فهذه الكلمة التى قالها عمر عدَّت أماناً له . فخلى عمر سبيله ، فأسلم .

وقيل إن المسلمين قد حاصروا حصنا فى بلاد الفرس حتى أوشكوا أن يقتحموه ، ولكن حدث أن عبدا مسلما كتب من نفسه — دون أن يدرى أحد — أماناً لأهل الحصن ، ورمى به إليهم فى سهم ؛ فقال المسلمون : ليس أمانه بشىء ، وقال أهل الحصن: لسنا نعرف الحر من العبد .

فكتب المسلمون بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فكتب عمر إلى أبى عبيدة بن الجراح — وكان قائد الجيش — يقول : « إن الله عظم الوفاء ، فلا تكونون أوفياء حتى توفوا لهم . وانصرفوا عنهم ! »

وبهذه الإجابة وفى المسلمون بما وعد به العبد ، ونفذوا أمانه . وهذا روح الإسلام الحق ، روح الوفاء النادر ، والعظمة الخلقية الإسلامية .

روح الإسلام يتطلب :

التفكير فى الرعية ومساعدة من يحتاج إلى المساعدة :

لقد حدث أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقوم بأمور عجوز عمياء فى جهة من المدينة ليلاً . وكان كثيراً ما يأتى فيجد شخصا آخر قد سبقه إلى ذلك . فانتظره عمر ليعرفه. فوجده أبا بكر خليفة المسلمين . فقال عمر : أنت هو لَعَمْرِى[1] .

وخرج عمر ذات ليلة : ليطوف كعادته ، فرأى خيمة مضروبة ، فاقترب منها ، وعندئذ سمع امرأة تئنُّ من الوجع ، وشاهد رجلا قاعدا بالقرب من المرأة ، فتقدم إليه عمر ، وسأله عن حاله وحال المرأة ، ومم تئن ؟

فقال الرجل : أنا رجل غريب ، قدمت إلى أمير المؤمنين عمر ؛ لأنال من فضله ما يجود به عَلَىَّ .

فقال عمر : ولكن ما هذا الأنينُ الذى يُسْمع من الخباء ؟

(١) وحياتى .

فقال الرجل : هو أنين امرأتى ، فقد أتاها المخاض[1] .

فقال عمر : وهل عندها أحد ؟

فقال الرجل : كلا يا سيدى .

فذهب عمر إلى منزله مسرعا ، وأيقظ زوجه أم كلثوم بنت على بن أبى طالب .

وقال لها : هل لك فى أجر ساقه الله إليك ؟

فقالت : وما هو يا عمر ؟

فقال : امرأة أتاها المخاض ، فهى تلد الآن ، وليس عندها من يعينها .

فقالت : إن شئت ذهبت .

فقال عمر : إذًا نخذى معك ما يصلح للمرأة من ملابس ، وَأْتِنِى بِقِـــدر وشحم ، ودقيق وبعض الطعام .

فأحضرت زوجه القدر والشحم والدقيق والملابس ، فحملهـا عمر ، ومشت امرأته خلفه حتى الخيمة ، فقال لزوجه : ادخلى إلى المرأة ، ثم قال للرجل : أوقد لى نارا . ففعل ، فوضع القدر بما فيها على النار ، وجعل عمر ينفخ فى النار ، والدخان يخرج من خلال لحيته الطاهرة ، حتى أنضج الطعام وولدت المرأة .

فقالت أم كلثوم : بَشِّر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام ، فلما سمعها الرجل تقول : يا أمير المؤمنين اضطرب ، واعتراه الذهول والخوف ، ولـكنه ملك نفسه فقال : أهكذا تفعل بنفسك يا أمير المؤمنين ؟

فقال عمر : يا أخا العرب ، إن من ولى شيئا من أمور المسلمين ينبغى له أن يطلع على أمورهم : صغيرها وكبيرها ، فإنه عنها مسئول . ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة . ثم قام عمر ، وحمل القدر إلى حيث كانت تنتظره زوجه أم كلثوم على باب الخباء[2] .

فأطعمت المرأة ، وما زالت بها تعنى بشئونها ، حتى اطمأنت وارتاحت . وعندما

(١) الألم الذى يسبق الولادة . (٢) الخيمة المصنوعة من الوبر والصوف .

خرجت أم كلثوم من الخباء قال عمر للرجل : قم إلى زوجك ، وكُلْ ما بقى فى البرمة (القدر) . فإذا جاء الغد فَأْت إلينا .

فلما أتى الصباح ذهب الرجل إلى عمر فجهزه بما أغناه .

أرأيت تفكيراً فى الرعية وتواضعاً أكثر من هذا ؟ أمير المؤمنين وامرأته يقومان معاً بخدمة فرد من أفراد الرعية فى جوف الليل الذى يأوى فيه الناس إلى الراحة . لقد يعز على بعض الأطباء فى عصرنا ــ وهم رسل الإنسانية المعذبة ــ أن يقوموا بإنقاذ مريض قد استبدَّ به المرض ، وألحَّ عليه الألم فى سكون الليل ، وذلك على الرغم مما قد يتناولون من فادح الأجر . أما الخليفة عمر ، وهو أعظم خليفة فى الأرض ، فيخفُّ مسرعا إلى نجدة من هو فى حاجة إلى النجدة ، ولا يبغى من وراء ذلك جزاء ولاشكورا .

التيسير روح الإسلام :

قال الله تعالى : « طه . مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى[(١)] » .

وقال عز وجل : « يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ[(٢)] » .

وقال عز من قائل : « يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ[(٣)] . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ . » قالها ثلاثًا . رواه مسلم . والمتنطعون : هم المتشددون فى الدين ، المتعمقون ، المُشَدِّدون فى غير موضع التشديد . وعن أبى عبد الله جابر بن سمرةَ رضى الله عنهما قال : « كنتُ أُصلِّى معَ النبى صلى الله عليه وسلم الصلوات ، فكانت صلاتُه قصدًا ، وخطبتُه قصدًا . » أى كانت صلاته وخطبته بينَ الطول والقصر ، متوسطة ، لا طول فيها ولا قصر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم ، فسأل عنه ، فقالوا : أبو إسرائيل نذَرَ أن يقومَ فى الشمس ، ولا يقعُدَ ، ولا يستظلَّ ، ولا يتكلمَ ، ويصومَ . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : مُرُوهُ فَلْيتكلمْ ، ولْيَستظِلَّ ، ولْيَقعُدْ ، وَلْيُتِمَّ صَومَهُ . » فالإسلام دين كله يسرٌ ، ولا مشقةَ فيه .

---

(١) لتتعب نفسك . (٢) سورة البقرة : ١٨٥ . (٣) سورة النساء : ٢٨ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ الدينَ يُسرٌ ، وَلَن يُشَادَّ الدينَ أحدٌ إلاَّ غلَبه[١] ، فسَدِّدوا ، وقارِبوا ، وأبشِروا ، واستعينوا بالغُدوةِ[٢] ، والرَّوحَةِ[٣] ، وشىءٍ منَ الدُّلجة[٤] . »

ومعناه : استعينوا على طاعة الله عز وجل بالأعمال فى أوقات نشاطكم ، وفراغ قلوبكم ، بحيث تجدون لذة فى العبادة ، ولا تسأمون ، وتبلغون مقصدكم ، وتصلون إليه ، كما أن المسافر الحاذق الحكيم كان يسير أول النهار وآخره ، وآخر الليل ، ويستريح هو ودابته فى غير هذه الأوقات ، فيصل إلى مقصوده بغير تعب .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذَا صَلَّى أحدُكم لِلنَّاسِ[٥] فَلْيُخَفِّفْ[٦] ؛ فإنَّ فيهمُ الضعيفَ والسَّقيمَ والكبيرَ . وإذا صلَّى أحدُكم (لنفسه)[٧] فَلْيُطَوِّلْ ما شاء . »

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لَيَدَعُ[٨] العملَ وهو يحبُّ أن يعملَ به خَشيَةَ أن يعملَ بهِ الناسُ فيُفرَضَ عليهم . »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنِّى لأقومُ إلى الصلاةِ ، وأريدُ أن أطَوِّلَ فيها ، فأسمعُ بكاءَ الصبىِّ ، فأتجوَّزُ[٩] فى صلاتى كراهيةَ أن أشُقَّ علَى[١٠] أمِّه . »

التيسير على الراغبين فى الإسلام :

روى البخارى عن أم عطية أنها قالت :

« بايَعنا صلى الله عليه وسلم ، فقرأ علينا ألاَّ يشركْنَ بالله شيئا ، ونهانا عن النِّياحة[١١] ، فقبضت امرأة يدها فقالت : أسعدتنى فلانة فأريد أن أجزيها . فما قال لها صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلقت ورجعت فبايعها .

وفى رواية النسائى أنه عليه الصلاة والسلام ، قال : فاذهبى فأسعديها .

---

(١) إلا غلبه أى غلبه الدين ، وعجز ذلك الشاد عن مقاومة الدين لكثرة طرقه .

(٢) الغدوة : السيرُ أول النهار . (٣) الروحة : السيرَ آخرَ النهار . (٤) الدلجة : آخر الليل .

(٥) إماماً . (٦) بأن يقتصر على ثلاث مرات فى التسبيح فى الركوع والسجود . (٧) مخففا أو مطولا .

(٨) ليترك . (٩) فأخفف . (١٠) بالتطويل فى الصلاة .

(١١) ناحت المرأة زوجها وعليه نَوحاً ونُواحاً ونياحاً ونياحة .

فذهبت فساعدتها ، ثم جاءت فبايعت[1]

فالرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يرغب المشركين فى الإسلام ، فيسر لهم السبيل، حتى يعتادوا أداء الواجبات الإسلامية ، فيؤدوها بقلوبهم .

وأسهلُ مثلٍ على أن الإسلام يُسرٌ ولا عُسر ، ولا تعقيد ولا تكلف فيه ـ أن من قال : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ـ عُدَّ مسلماً .

لا يكلف اللهُ نفسًا إلا وُسعَها :

قال عز وجل : « لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا[2] لَهَا مَا كَسَبَتْ[3] وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ[4] رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا[5] رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا[6] كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا[7] ، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ[8] لَنَا بِهِۦ ، وَٱعْفُ عَنَّا[9] وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا[10] فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ[11] ٱلْكَٰفِرِينَ[12] » .

---

(١) ارجع إلى كتاب « اجتهاد نبي الإسلام » لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر .
(٢) ما تطيقه قدرتها . (٣) لها ثواب ما تفعله من خير . (٤) عليها عقاب ما تفعله من شر .
(٥) تركنا الصواب . (٦) أمراً يثقل علينا حمله . (٧) من بنى إسرائيل .
(٨) ما لا قوة لنا به من التكاليف والبلاء . (٩) امح عنا ذنوبنا . (١٠) سيدنا وناصرنا ومتولى أمورنا . (١١) بإقامة الحجة والغلبة فى قتالهم . (١٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

الفصل الثانى

الأخلاق الإسلامية تمثل روح الإسلام

« إنَّ هذا القرآنَ يَهدِى لِلَّتى هِىَ أقوَمُ[1] » . وإن من يتتبع القرآن الكريم والأحاديث النبوية يجد كثيراً من الأخلاق الإسلامية الكريمة، التى تؤدى إلى الإنسان الكامل . وسنذكر فيما يلى بعضاً من الآيات والأحاديث الخلقية ، التى تتعلق بالآداب الإسلامية ، والأخلاق المحمدية .

وصية لقمان عليه السلام لابنه فى الأخلاق :

قال تعالى : « يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ . وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ[2] . » .

ففى هذه الآيات الكريمة نجد خير وصية من أب حكيم لابنه، وهو أحب الناس إليه . وفى تلك الوصية يوصيه بإقام الصلاة فى أوقاتها المحددة لها ؛ لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وينصح له بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، بإرشاد الخلق إلى ما يصلح حالهم ، وينظم شئونهم ، ويقوِّم ما اعوج من أخلاقهم ، والصبر على أذى الناس ، وتحمل المشقات والآلام ، التى تحدث لمن يأمر بالفضيلة ، وينهى عن الرذيلة .

« ولا تُصَعِّر خَدَّكَ للناسِ » : لا تُعرِض بوجهك عنهم إذا حدثتهم أو حدثوك، استكباراً عليهم ، واحتقارا لهم ، بل تواضع للصغير منهم والكبير ، وكن لين الجانب معهم ؛ حتى يتبعوا ما تأمرهم به ، ويجتنبوا ما تنهاهم عنه .

« ولا تَمشِ فى الأَرضِ مَرَحاً ، إنَّ اللهَ لا يُحبُّ كلَّ مُختَالٍ فَخورٍ ، وَاقْصِدْ

---

(١) سورة الإسراء : ٩ . (٢) سورة لقمان : ١٧ ـ ١٩ .

فى مَشيِك، واغضُضْ مِنْ صَوتِكَ ، إنَّ أنكرَ الأصواتِ لَصَوْتُ الحمِيرِ . »

والمعنى المراد: إذا سرت فى الطريق فلا يكن سيرك خيلاء ؛ فإن الله لا يحب كل مختال متكبر فخور . ولا تبطئ فى مشيك ولا تسرع ، بل توسط ؛ فخير الأمور الوسط . وإذا تكلمت فاخفض صوتك ، ولا ترفعه زيادة عن الحاجة ، حتى لا تؤذى السامع ، ولا يكون صوتك منكرا قبيحا مثل صوت الحمير .

النهى عن الاستهزاء بالناس ، وذكر عيوبهم ، وسوء الظن :

قال تعالى : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ [1] . »

ففى هذه الآيات الكريمة كثير من الآداب الإسلامية ، والمثل العالية فى الأخلاق ، منها ألا يسخر إنسان من آخر ، أو يستخف به ويحتقره ؛ فقد يكون هذا المحتقَرُ خيرا عندالله ممن يستهزئ به ، ويسخر منه. فلا تحتقر أحدا لأنه رث الهيئة ، أو فقير أو مريض ، أو ذو عاهة ؛ فقد يكون طاهر القلب ، نقى الضمير ، مقربا عند الله ، سواء أكان من الرجال أم النساء .

« ولا تَلْمِزُوا أنفُسَكم » : ولا يَعِبْ بعضكم بعضا بقول أو فعل أو إشارة ، لأن الناس كنفس واحدة ، فمتى عاب الإنسان أخاه فكأنما عاب نفسه . وهذا أدب إسلامى أدب الله به عباده ، ليزيد الألفة بينهم ، ويربط قلوبهم بكل مودة ومحبة .

« ولا تنَابَزُوا بالألْقَابِ .... » فى هذه الآية نهى عن أن يدعو أحد أخاه بلقب يكرهه ؛ لأن ذلك يغرس الحقد والضغينة والبغض فى القلوب . ولذا سمى الله التنابز بالألقاب فسقا .

---

(١) سورة الحجرات : ١١ و ١٢ .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ . »
فالله قد نهى عن كثير من سوء الظن بأحد من الناس ، وهو التهمة المجردة التى لا دليل عليها ؛ لأن بعض الظن إثم محض . فليجتنب الكثير منه احتياطا .

« وَلَا تَجَسَّسُواْ » : لا تبحثوا عن عورات الناس وعيوبهم ، فإن فى ذلك فضيحة لهم وتعرضا لما لا يفيد .

« وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ؟ »
أى لا يذكر أحد أخاه بما يكره فى غيبته ، سواء أكان ذلك بالقول أم بالفعل ، بالإشارة أم بالكتابة ؛ فقد نهى الله عن الغيبة ، حتى جعل من يغتاب غيره كأنه يأكل لحم أخيه ميتا ، وهو أمر مستبشع .

من خطبة للرسول فى حسن الأخلاق :

ومن خطبة له صلى الله عليه وسلم (صبح الأعشى ١ : ٢١٣) :
« طُوبَى[١] لِمَن شَغَله عيبُه عن عيوب النـاس ، طُوبى لمن أنفق مالاً اكتسبه من غير معصية ، وجالَس أهل الفقه والحكمة ، وخالَط أهلَ الذل والمَسكَنة . طوبَى لمن زَكَت[٢] وحَسُنَت خَليقَتُه[٣] ، وطابَت سريرَتُه ، وعَزَلَ عن الناس شرَّه . طوبَى لمن أنفق الفضلَ[٤] من ماله ، وأمسكَ الفضلَ مِن قوله ، ووسِعَتْه السنة ، ولم تَستَهوِهِ البِدعةُ » .

فالرسول الكامل يبشر بالخير من يشغل نفسه عن عيوب النـاس بإصلاح ما لديه من عيوب ، ويبشر من ينفق ماله فى أوجه الخير والبر ، ومن يجالس العلماء والحكماء ، ويخالط الفقراء ، ويشجع من طهرت سريرته ، وحسنت سجيته وأخلاقه ، ومنع شره عن الناس ، وتصدق على المحتاجين بمـا زاد من ماله ، وقال خيرا أو سَكَت ، وتمسك بالسنة ، وترك البدعة ، وهى الحَدَث فى الدين بعد الإكمال .

حسن الخُلق من المبادئ الاسلامية :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن خِيارَكُمْ أَحْسَنُكُم أَخلاقًا . » فخير المسلمين

---

(١) مؤنث أطيب ، والحسنى والخير .   (٢) طهرت .   (٣) طبيعته وسجيته وخلقه .
(٤) تصدق بالزائد من ماله .

أحسنهم خُلقا، وشرهم أقبحهم خلقا . ومن الأخلاق الإسلامية الحسنة : الوفاء ، والصدق، والأمانة ، والإيثار ، والشجاعة ، والكرم ، والإحسان، والعفة ، والصبر ، والرحمة ، والزهد ، والتواضع ، والإخلاص ، والحلم ، والحكمة،وضبط النفس، والعفو عند المقدرة.

ومن الصفات القبيحة التي ينكرها الإسلام : الغدر ، والكذب، والخيانة ، والبخل ، والجبن ، والغيبة ، والنميمة ، والحقد ، والشره ، والكبر،والغضب، والحمق،والانتقام...

قال عليه الصلاة والسلام : « إن مِن أَحبِّكم إلَيَّ ، وأَقربِكم منِّى مجلساً يومَ القيامةِ أَحسنَكُم أَخلاقاً . » .

فالإسلام دين الخلق الكريم ، وقد خاطب الله محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله : « وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (١) . »

وقد تخلق الرسول بأخلاق القرآن الكريم وآدابه ، ولهذا كان يقول : « إِنَّما بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارمَ الأخلاقِ. »من شهامة،وإباء،وعزة نفس،وعلو همة،وإقدام،ونزاهة،وقناعة...

حسنُ الخلُق وأثره :

إن حسن الخلُق يؤدى إلى الألفة والمحبة ، وسوء الخلُق يؤدى إلى الكره والحسد . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثر ما يُدخِل الناس الجنة تقوى الله ، وحسن الخلُق . »

وقد سئل رسول الله : ما خيرُ ما أُعطِيَ الإنسان ؟ فقال : « خلُق حسن . »

فخير صفة يتحلى بها الإنسان هى حسن الخلُق . وقال صلى الله عليه وسلم:« أثقل ما يوضع فى الميزان خلُق حسن . » وقال عليه الصلاة والسلام : « ما حسن الله خلْقَ امرئ وخلقه فيطعمه النار . » وقال صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ، عليك بحسن الخلُق .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : وما حسن الخلق يا رسول الله ؟

قال : « تصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك . » فحسن الخلق فى رأى المصطفى صلى الله عليه وسلم هو النبل ، فالإنسان الذى يصل من قطعه ، ويعفو عمن يظلمه ، ويعطى من يحرمه يعد نبيل الأخلاق مؤمنًا حقًّا .

---

(١) سورة القلم : ٤ .

من الأخلاق الإسلامية :

بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب :

قال تعالى: « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ، وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ، وَلَا تَنْهَرْهُمَا ، وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ، وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ، وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا[1] . »

« وقَضَى ربُّك »: أى أمر وحكم أن يُعبد وحده ، وقرنَ هذا الأمر بالإحسان إلى الوالدين، وبرهما . فإذا كبر أحدهما أو كلاهما ، أو حصل منهما أى شيء يكرهه الابن ، فلا يجوز أن يقول الابن لهما أى قول يكدر خاطرهما، حتى التأفف، وهو أدنى مراتب التضجر والتضرر .

« ولا تنهرهما » : ولا تغضبهما، وقل لهما قولا لينا طيباً ، مع الأدب والاحترام والتعظيم .

« واخفض لهما جناح الذل » : وتواضعْ لهما، وتذلل لهما ؛ لأنهما قد صارا محتاجين إليك بعد أن كنت محتاجاً إليهما . فهما أولى بكل شفقة ورحمة وعطف . وادع الله أن يرحمهما رحمة دائمة كتربيتهما إياك وأنت صغير .

فللأبوين على الإنسان حقوق يجب أن تؤدى ، وواجبات يجب أن تقضى ، منها الطاعة واجتناب ما يضرهما ، واحترامهما ، والإنفاق عليهما ، والعمل على إرضائهما بكل وسيلة من الوسائل ، والاستغفار لهما بعد وفاتهما ، وتنفيذ عهدهما ، وإكرام صديقهما .

وقال عزوجل . « وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ، وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا، وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ، وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ، وَٱلْيَتَـٰمَىٰ، وَٱلْمَسَـٰكِينِ، وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ، وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ، وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا[2] . »

فبين أنواع البر ، من عبادة الله وحده لاشريك له ، والإحسان إلى الوالدين والأقارب واليتامى ، والمساكين ، والجار القريب ، والجار البعيد ، والصاحب بالجنب وهو : الرفيق

---

(١) سورة الإسراء : ٢٣ ـ ٢٤ .　　(٢) سورة النساء : ٣٦ .

بالجنب فى طلب العلم ، أو تعلم صناعة ، أو مرافقة فى سفر ، ومواساة المسافر الفقير وهو ابن السبيل، والشفقة بالعبيد والأرقاء ، والإحسان إليهم. إن الله لا يحب المتكبر الفخور بنفسه .

وقال جل شأنه : « وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ، وَحَمْلُهُ وَفِصَـٰلُهُ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ، حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ ، وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ، إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ ، وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ ، وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ، وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ [١] . »

فقد بين الله تعالى ما يجب على الإنسان من بر الوالدين وخاصة أمه ؛ فقد تعبت كثيراً فى حمله ووضعه ورضاعه وفطامه، والسهر عليه فى مرضه . ولذلك كان برها أوجب من بره .

وقد جاء رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، هل بقى علىّ من برِّ أبوىَّ شىء أبرهما به بعد وفاتهما ؟

قال: « نعم، الصلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما ، وإنفاذُ [٢] عهدهما، وإكرامُ صديقِهما، وصلةُ الرحِم التى لا تُوصَلُ إلا بهما . »

وقال سيد الأنبياء صلى الله عليه وسلم . « رِضَا الربِّ فى رضا الوالدين ، وسُخطُهُ فى سُخطِهما » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن مِن أكبرِ الكبائرِ أن يَلعَنَ الرجلُ والديه .
قيل : يارسولَ الله، وكيفَ يَلعنُ الرجلُ والديْه ؟ قال : « يسُبُّ الرجلُ أبا الرجل، فيَسُبُّ أباه ، ويَسُبُّ أمَّه . »

فسب الرجل والديه من أكبر الذنوب ، وأقبح الكبائر . ففى الوقت الذى ننتظر فيه من الابن أن يحسن إلى أبويه ويكون بارا بهما ــ نجد أنه يسىء إليهما، ويجحد نعمتهما، وينسى تربيتهما له، وعطفهما عليه، وعنايتهما به ، ورعايتهما له . وهذا يدل على دناءة نفسه،

(١) سورة الأحقاف : ١٥ ــ ١٦ . (٢) تنفيذ ما وعدا وتعهدا به .

وخسة طبعه . وإن الرجل الذى يسىء إلى أبويه ، ويكون عاقًّا لهما لا يرجى منه الإحسان إلى أى إنسان ؛ لأنه مصدر فساد ، ومبعث شر ، ذنبه عظيم ، وإثمه شديد

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُنَبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ ؟ أَلَا أُنَبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ ؟ ألا أُنَبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ ؟

قالوا : بلَى يا رسول الله .

قال : الإشراكُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدين . وجلس ، وكان متكئًا فقال : ألا وقولُ الزورِ . فما زال يكررها حتى قلنا : ليتَه سكتَ . »

فأكبر الكبائر :

(١) الإشراك بالله ، وعبادة الأوثان والأصنام .

(٢) وعقوق الوالدين وإيذاؤهما بالعمل والقول . ومن العقوق أن يشتمهما الابن أو يسبهما أو يقول لهما أف ، أو يعصى لهما أمرا ، أو يتلكأْ فى قضاء ما يريدانه ، أو يمد يده إليهما بسوء .

(٣) قول الزور ، وهو الباطل الذى ينافى الحق .

عن عبدالله بن مسعود قال: سألت النبى صلى الله عليه وسلم: أىُّ العمل أحبُّ إلى الله؟

قال : « الصلاةُ لوقتها . »

قال : ثم أىٌّ ؟

قال : « برُّ الوالدين . »

قال : ثم أى ؟

قال : « الجهاد فى سبيل الله . »

ويؤخذ من هذا الحديث أن أحب الأعمال وأفضلها وأرفعها درجة عند الله الصلاة فى أول أوقاتها المحددة . ويليها فى المرتبة بر الوالدين . وبرهما يكون بإطاعة أمرهما ، والعناية بمصالحهما ، وحسن معاملتهما ، والإنفاق عليهما ، وقولك: « ربِّ ارحَمْهما ، كما رَبَّيَانِى صَغيراً » ، فقد ربَّيَاك ، وعطفا عليك ، وأحباك ، وتعبا كثيراً فى سبيل راحتك ،

وسهرًا لتنام ، وشقيًا لتكون سعيداً . وهذه الأمور كلها يجب أن تقابل بالبر لا بالجحود والكفران .

ويلى بر الوالدين فى المنزلة : الجهاد فى سبيل الله ، وفى سبيل دينه وهو الإسلام .

ويكون الجهاد ببذل كل ما يستطيعه الإنسان من نفس ومال ، ومركز وجاه ، وتفكير وقلم ولسان ، لإعلاء كلمة الدين ، والمحافظة عليه ، ونشر تعاليمه بين الشعوب ، والدفاع عن المسلمين ضد الاستعمار أو الاحتلال الذى لا يرعى إلا[1] ولا ذمة .

من الأخلاق الإسلامية : صلة الرحم .

إن الإسلام يحث على صلة الرحم ، وهى صلة الأقارب ، بإطعامهم إذا جاعوا ، وتأمينهم إذا خافوا ، وقضاء ما عليهم من دين ، وتفريج الغم عنهم ، والقيام بما يحتاجون إليه ، وزيارتهم ، وعمل كل ما يجلب محبتهم .

وقد حث الله جل شأنه على صلة الرحم ، ورغب فيها ، وحذر من قطعها ، وأعد الجنة لمن وصلها ، والنار لمن قطعها .

قال تعالى: « وأُولُو الأرحامِ بَعضُهم أَوْلَى بِبَعْضٍ فى كِتَابِ الله[2] . » أى أن الأقارب أولى من غيرهم بالصلة والعطف والصدقة والمودة .

وقال عز وجل فى الحث على صلة الرحم ، والنهى عن قطعها : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا[3] . »

فأمر بتقوى الله ، وعبادته وحده ، وحث على صلة الرحم ، وعدم قطعها ، فإن قطعها من أكبر الكبائر ، وصلتها تزيد فى العمل ، وتبارك فى الرزق . ولذا وصل عز وجل صلة الرحم بتقواه ، والله رقيب مطلع ، عليم بمن يمتثل أمره ومن لم يمتثل .

وقال جل شأنه : « ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ[4] . »

(١) عهداً . (٢) سورة الأنفال : ٧٥ (٣) سورة النساء : ١ . (٤) سورة الرعد : ٢٠ .

« وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ، وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ، أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ، وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ[1] . »

فوضح سبحانه وتعالى ما أعده من الخير الجزيل لمن اتصفوا بهذه الصفات الحميدة ، والأخلاق الكريمة ، من الوفاء بالعهد ، وعدم نقض الميثاق ، ومن صلة الرحم التى أمر الله بها أن توصل .

وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم صلة الرحم سبباً فى سعة الرزق، وزيادة الخير، حيث قال: « إنَّ أَعجلَ الطاعةِ ثواباً صلةُ الرحمِ؛ حتى إنَّ أهلَ البيتِ ليَكونونَ تُجاراً فتنمو أموالُهم ، ويَكثرُ عددُهم إذا وصَلوا أَرحامَهم . »

وقال عليه الصلاةُ والسلام : « مَن سرَّهُ أن يُمَدَّ لَه فى عمرِه ، ويُوَسَّع له فى رزقِه فَلْيَتّقِ اللهَ ، ولْيَصِلْ رَحِمَهُ » .

وقال عليه الصلاة والسلام: « الصدقة على المسكينِ صدقة ، وعَلى ذِى الرحمِ ثِنتان : صدقةٌ وصِلةٌ . » فصلة الرحم تطيل العمر ، وتوسع الرزق .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى: أنا الرحمن . وهذه الرَّحِمُ[2] شَقَقْتُ لها اسماً من اسمى . فمن وصلَها وصَلته ، ومن قطعها بَتَتُّه[3] . »

وقال عليه الصلاة والسلام : من سرَّه أن يُنْسَأَ له[4] فى أثرِه ، ويوسَّعَ له فى رزقه ، فَلْيَصِلْ رَحمه . وفى رواية أخرى : من سرَّه أن يُمدَّ له فى عمره ، ويوسَّعَ له فى رزقه ، فليتَّقِ اللهَ ، ولْيَصِلْ رَحِمَه . »

فصلة الرحم تكون بالزيارة والعطف ، والسؤال عن الأقارب ، والكتابة إليهم للاستفسار عنهم إذا كانوا فى جهة بعيدة ، وتذكرهم فى الأعياد والمواسم ، وإرسال بعض الهدايا لهم ، ومساعدتهم عند الحاجة . وهى واجبة فى الإسلام ، وثوابها كثير عند الله .

وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى الناس أفضل ؟

قال : أتقاهم لله ، وأوصلهم لرحمه ، وآمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر . »

---

(١) سورة الرعد : ٢٥ . (٢) الرحم : القرابة . (٣) قطعته .

(٤) نسأه : أخره . يُنسأ له فى أثره : يطول له فى عمره .

فأفضل الناس فى نظر المصطفى، أكثرهم فى تقوى الله، وصلة الرحم، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر .

وقال أبو ذر الغفارى : أوصانى خليلى[١] عليه السلام بصلة الرحم وإن أدبرتُ[٢] ، وأمرنى أن أقول الحق ، وإن كان مُرًّا .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الرحمَ معلَّقةٌ بالعرش . وليس الواصِل المكافئَ ، ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها . »

فالرسول النبيل يحث على أن تكون الصلة بين الأقارب مستمرة ، فإذا قطعها أحدهم لسبب من الأسباب كالغيرة والحقد والنزاع المالى .. وصلها المسلم الكامل . فالصلة لا تكون بالمكافأة المالية فحسب ، ولكنها تكون بالعمل على بقائها ، وإزالة ما يحدث من نزاع أو خلاف . فأكثر الطاعات ثوابا صلة الأقارب ، والعطف عليهم .

وقالت أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما : قدمت على أمى ، فقلت يا رسول الله ، إن أمى قدمت علىّ وهى مُشرِكة . أَفَأَصِلُها ؟ وفى رواية أخرى : أفأعطيها ؟

قال : نعم صِلِيها .

فالرسول يأمر بصلة الأم، ولو كانت مشركة . وهذه هى الإنسانية والنبل فى الإسلام.

ولما أراد أبو طلحة أن يتصدق بحائط[٣] كان له يعجبه ، عملا بقوله تعالى : « لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقوا مِمَّا تُحِبُّونَ[٤] . » قال : يا رسول الله ، هو فى سبيل الله ، وللفقراء والمساكين .

فقال عليه الصلاة والسلام : « وجبَ أجرُكَ على الله ، فاقسمه فى أقاربك ؛ » لأن الأقربين أولى بالمعروف .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أفضل الصدقة على ذى الرحم الكاشح[٥] . »

فالرسول يحث على التصدق على القريب الذى يضمر لك العداوة ، ويُعَد ذلك أفضل الصدقة . وهذا هو النبل حقا . ولا عجب ؛ فقد حث عليه الصلاة والسلام على صلة من

---

(١) صديقى وحبيبى . (٢) وإن كنت بعيدا . (٣) بناء . (٤) سورة آل عمران : ٩٢

(٥) الكاشح : الذى يضمر لك العداوة .

ابتعد عنك ، وقاطعك ، وإعطاء من حرمك ، والصفح عن الظالم الذى ظلمك، فى قوله : « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتصفح عن ظلمك . »

وروى أن عمر رضى الله عنه كتب إلى عماله[1] : مُرُوا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا .

ونعتقد أن هذه حكمة بالغة ، فالتزاور يؤدى إلى المحبة ، والتجاور يؤدى إلى التزاحم على الحقوق ، والنزاع والخلاف ، والمنافسة ، والغيرة ، وقطيعة الرحم .

كل إنسان مسئول عن رعاية المتصلين به :

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كلُّكم راعٍ ، وكلُّكم مسئولٌ عن رَعيتِه ، الإمامُ راعٍ ومسئول عن رعيتِه ، والرجلُ راعٍ فى أهلِه وهو مسئولٌ عن رعيتِه، والمرأةُ راعيةٌ فى بيتِ زوجِها ومَسئولةٌ عن رعيتِها، والخادمُ راعٍ فى مالِ سيدِه ومَسئولٌ عن رعيتِه . قال : وحَسِبتُ أن قد قال: والرجلُ راعٍ فى مالِ أبيهِ وهو مسئولٌ عن رعيتِه ، وكلُّكم راعٍ ومسئولٌ عن رعيتِه. »

والراعى هو من يُترك إليه تدبير الشىء وحفظه ورعايته ، والرعية كل ما يشمله حفظ الراعى ونظره . وحسِبتُ : ظننت .

والمعنى المراد : كل فرد منكم مسئول عن إجادة عمله وإتقانه ، مسئول عما ترك إليه من نفوس وأعمال ، ومصالح وأموال . كل رجل مسئول عن مرءوسيه ، والعمل الذى يقوم به كل منهم .

فالإمام أو الرئيس مسئول عن أمته ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، مسئول عن كل فرد فيها ، وعن كل شىء يتعلق بمصالحها . والرجل مسئول عن أسرته وزوجته وأبنائه وبناته ، وإخوته وأخواته ، مسئول عن تأديبهم وتهذيبهم والإنفاق عليهم ، والتفكير فى شئونهم ، وحسن رعايتهم .

والزوجة مسئولة عن بيت زوجها ، وتربية أولادها ، وإرشادهم إلى ما يجب عليهم، مسئولة عن تنظيم بيتها ، وإدارة مملكتها الصغيرة ، والعناية بشئونها .

---

(١) الذين اختيروا ليكونوا حكاما فى البلاد الإسلامية .

والخادم مؤتمن على مال سيده ، ورعاية أهله وأولاده .

والولد راع فى مال أبيه ، مسئول عن استثماره وتنميته ، فلا يبذره ولا يبدده .

وكل فرد منا راع ومسئول عن رعيته .

إنسانية الإسلام فى مراعاة حقوق الجار :

ليس حق الجوار كف الأذى عن الجار فحسب، بل احتمال أذاه . ولا يكفى فى الإسلام احتمال أذى الجار ، بل لا بد من الرفق به ، والعطف عليه ، وإسداء الخير والمعروف إليه، ومشاركته فى شعوره ، وزيارته إذا مرض، والسؤال عنه إذا غاب، والتسليم عليه عند لقائه، وتعزيته فى المصيبة، والقيام معه فى العزاء ، وتهنئته فى الفرح، والصفح عن زلاته وهفواته إذا أخطأ ، ولا يتطلع من النوافذ أو السطح إلى عوراته ، ولا يضايقه فى وضع الجذع على جداره ، ولا يضيق طريقه إلى داره ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ، ويستر ما ينكشف له من عوراته ، ولا يظهر شيئا من عيوبه ، ولا يغفل عن ملاحظة بيته عند غيبته ، ويستدعى له الطبيب إذا احتاج إليه ، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة ، ولا يغتابه ، ولا يذكره بسوء ، ولا يسمع عليه كلاما من أحد ، ويغض بصره عن زوجته وبناته وأخواته ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف بالتحدث مع أولاده ، ويرشده إلى ما يصلح أمر دينه ودنياه ، ويساعده وقت الحاجة ، ويقف بجانبه عند الشدة ؛ إذ يقال إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغنى يوم القيامة ، فيقول : يا رب ، سل هذا لِمَ منعنى معروفه ، وسد بابه فى وجهى .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما حق الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استنصرك[1] نصرته ، وإن استقرضك[2] أقرضته ، وإن افتقر عدت[3] عليه ، وإن مرض عدته[4] ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستعل[5] عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه . وإذا اشتريت

(١) استنصرك : طلب منك النصر والمساعدة . (٢) طلب منك قرضا وسلفة .
(٣) عدت عليه : عطفت عليه ونفعته . (٤) زرته . (٥) لا تبن بناء يضره .

فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرًّا . ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده . ولا تؤذه بقُتار[1] قِدرك إلا أن تغرف له منها . ثم قال : أتدرون ما حق الجار ؟ والذى نفسى[2] بيده لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله .

إن إنسانية الإسلام تبـدو فى حقوق الجوار . فللجار حق ، يُضاف إلى ما تقتضيه الأخوة الإسلامية من حقوق .

وفى الخبر : الجيران ثلاثة : جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق. فالجار الذى له ثلاثة حقوق (هو) الجار المسلم ذو الرحم؛ فله حق الجوار ، وحق الإسلام، وحق الرحم . وأما الذى له حقان فالجار المسلم ، له حق الجوار ، وحق الإسلام . وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك .

فانظر كيف أن الإسلام أثبت للمشرك حقا بمجرد الجوار . وهذه هى الإنسانية التى لا يدركها أعداء الإسلام ، ولا يصلون إليها بعقولهم؛ لأنهم فى الغالب مبشرون، مأجورون والتبشير حرفتهم . فهم يفكرون فى الوسيلة التى بها يصلون إلى معيشتهم ، ولو كان فيها طعن بالافتراء على الإسلام .

قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : أحسن مجاورة من جاورك تـكن مسلما .

وقال عليه الصلاة والسلام : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

وقال صلى الله عليه وسلم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليـكرم جاره .

وقال عليه الصلاة والسلام : لا يؤمن عبد حتى يأمن جارُه بوائقَهُ[3] . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنةَ من لا يأمنُ جارُه بَوَائقَه . »

ويروى أن رجلا جاء إلى ابن مسعود رضى الله عنه ، فقال له : إن لى جارًا يؤذينى ويشتمنى ، ويضيِّق علىّ .

فقال : اذهب ، فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه .

---

(١) رائحة الطعام . (٢) أقسم بمن حياتى فى قدرته . (٣) ظلمه وغشمه ، أو غوائله وشره . (جمع بائقة وهى الداهية) .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وتؤذى جيرانها .

فقال صلى الله عليه وسلم : « هى فى النار . »

وجاء رجل إليه عليه الصلاة والسلام يشكو جاره ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : اصبر . ثم قال له فى الثالثة أو الرابعة : اطرح متاعك فى الطريق . فجعل الناس يمرون به ، ويقولون (له) مالك ؟

فيقال : آذاه جاره . فجعلوا يقولون : لعنه الله .

فجاءه جاره ، فقال له : رُدّ متاعك ، فوالله لا أعود .

ويعد المسكن حسنا إذا كان ذا سعة ، حسن الجيران . ويعد قبيحا إذا كان ضيقا ، سيئ الجيران .

وقد بلغ ابن المقفع أن جارًا له يبيع داره بسبب دين عليه، وكان يجلس فى ظل داره .

فقال : ما قمت إذًا بحرمة ظل داره إن باعها وهو معدم . فدفع إليه ثمن الدار ، وقال له : لا تبعها .

وشكا بعضهم كثرة الفئران فى داره ، فقيل له : اقتنِ هرًّا للتخلص منها .

فقال : أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر ، فيهرب إلى دور الجيران ، فأكون قد أحببت لهم ما لَا أحب لنفسى .

قال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر ، وغلام له يسلخ شاة ، فقال : يا غلام ، إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى ، حتى قال ذلك مرارًا . فقال له مجاهد : كم تقول هذا ؟

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار ، حتى خشينا[1] أنه سيورِّثه.

وقال هشام: كان الحسن لا يرى بأسًا أن تطعم الجار اليهودى والنصرانى من أضحيتك .

وقال أبو ذر رضى الله عنه : أوصانى خليلى صلى الله عليه وسلم وقال : إذا طبخت قدرًا فأكثر ماءها ، ثم انظر بعض أهل بيت فى جيرانك ، فاغرف لهم منها .

---

(١) خفنا .

وقالت عائشة رضى الله عنها : قلت : يا رسول الله، إن لى جارين : أحدهما مقبل علىّ ببابه ، والآخر ناء ببابه عنى . وربما كان الذى عندى لا يسعهما . فأيهما أعظم حقاً ؟

فقال : المقبِلُ عليك ببابه .

ومعنى هذا أن الجار القريب أولَى وأحق من الجار البعيد بالصدقة .

وقد رأى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ابنه عبد الرحمن وهو يناصى[1] جارًا له ، فقال : لا تُناصِ جارك ، فإن هذا يبقى ، والناس يذهبون .

وروى الزّهرى أن رجلا أتَى النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، فجعل يشكو جاره ، فأمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يُنادى على باب المسجد : « ألاَ إن أربعين دارًا جارٌ . » قال الزهرى: أربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا ، وأربعون هكذا . وأومأ[2] إلى أربع جهات .

فكأن جيران الإنسان أربعون دارًا من الجهة الشرقية ، وأربعون دارا من الجهة الغربية ، وأربعون من الناحية البحرية ، وأربعون من الناحية القبلية . وسكان هذه الدور ـ وهى مائة وستون دارا ـ لهم حقوق الجوار فى الإسلام ، وكلها حقوق تمثل الإنسانية المطلقة فى أعظم معانيها .

وقال الحسن بن عيسى النيسابورى سألت عبد الله بن المبارك ، فقلت : الرجل المجاور (لى) يأتينى ، فيشكو غلامى ، (ويدّعى) أنه أتى إليه أمرًا ، والغلام ينكره ، فأكره أن أضربه ، فلعله برىء ، وأكره أن أدعَه ، فيجدُ[3] علىّ جارى . فكيف أصنع ؟

قال ابن المبارك : إن غلامك لعله أن يحدث حَدَثًا[4] يستوجب فيه[5] الأدب ، فاحفظه[6] عليه . فإذا شكاه جارك فأدبه على ذلك الحدَث ، فتكون قد أرضيت جارك ، وأدبته على ذلك الحدَث . وهذا تلطفَ فى الجمع بين الحقين : حق الجار ، وحق الغلام .

وقالت عائشة رضى الله عنها : خِلال[7] المكارم عشر، تكون فى الرجل ولا تكون

---

(١) يقبض على ناصيته . (٢) أشار . (٣) فيغضب . (٤) حادثة ، يرتكب خطأ .
(٥) بسببه . (٦) حاسبه وعاقبه عليه . (٧) صفات .

فى أبيه ، وتكون فى العبد ، ولا تكون فى سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أحب : صدق الحديث ، وصدق الناس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع[١] ، وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذمم[٢] للجار ، والتذمم للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء .

وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « يا نساء المسلمين ، لا تحقِرَنَّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسِنَ[٣] شاة . »

وقال عليه الصلاة والسلام : إن من سعادةِ المرءِ المسلم المسكنَ الواسع ، والجارَ الصالح ، والمركب الهنىء[٤] . »

وقال رجل : يا رسول الله ، كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ؟ قال : إذا سمعت جيرانك يقولون : قد أحسنت ، فقد أحسنت . وإذا سمعتهم يقولون : قد أسأتَ ، فقد أسأت .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كانت له أرض فأراد أن يبيعها فليعرضها على جاره . » فالجار أحق بالشُّفعة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من كان له جارٌ فى حائط ، أو شريك ، فلا يَبِعْه حتى يعرضه عليه . »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يمنعن أحدكم جاره أن يضع خشبة فى جداره » فالجار للجار ، ولا ضرر من وضع الخشبة فى الجدار .

فالإسلام أكرم الجارَ كل الإكرام ، وأوصى عليه سواء أكان قريبا أم بعيدا ، مسلما أم غير مسلم . وهذا هو النبل كله .

قال المصطفى : « واللهِ لا يؤمِن ! والله لا يؤمن ! والله لا يؤمن ! »

قيل : من يا رسول الله ؟

قال : « الذى لا يأمن جارُه بوائِقَهُ[٥] » .

---

(١) جمع صنيعة وهى : المعروف . (٢) الاستنكاف . (٣) الفِرْسِنُ للبعير : كالحافر للدابة .

(٤) الذى لا يتعب الراكب . (٥) البائقة : الداهية ، وجمعها بوائق .

ومن المسلمين الصالحين عدى بن حاتم الطائى ، الذى كان يضع للنمل خبزا مفتوتا ، ويقول : « إنهن جارات ولهن حق . » وهذا مثل لمراعاة حق الجار والرحمة فى الإسلام .

الإسلام يدعو إلى التربية الخلقية

إن الغرض الأسمى من التربية هو تربية الخلق، وحسن السلوك ، وتهذيب الإرادة، وتمييز الغَث[1] من السمين ، والحسن من القبيح ، واختيار الفضيلة ، وتجنب الرذيلة .

والغرض من التربية الخلقية تكوين رجال كريمى الأخلاق، أقوياء العزيمة، مهذبين فى أقوالهم وأفعالهم، نبلاء فى تصرفاتهم وخلقهم ، ديدنهم[2] الحكمة والفضيلة ، والأدب والإخلاص والطهارة ، فروح التربية والحياة ، وروح البيت والمدرسة ينبغى أن يوجه إلى تربية الأخلاق .

ولا نبالغ إذا قلنا إن التربية هى الوصول إلى المثل العالى من الخلق الكامل ، فى العادات والأحوال والآداب فى هذه الحياة . وقد أجمع علماء التربية وفلاسفتها على أن الغرض الخلقى الذى يجب أن يرمى إليه المربى هو الغرض الحقيقى من التربية التى يصح أن يطلق عليها ذلك الاسم . وليس معنى هذا أن نقلل العناية بالتربية الجسمية أو العقلية ، بل معناه أن نعنى بالناحية الخلقية وتكوين الخلق ، كما نعنى بالناحية الجسمية والناحية العقلية والعلمية ، فالإنسان فى حاجة إلى قوة فى الجسم ، وسلامة فى العقل، وكمال فى الخلق، بحيث يعنى بجسمه ، ويفكر بنفسه ، ويبحث وراء الحقيقة ، ويقدر بحق جمال العالم الذى يحيط به ، ويقول الحق ، ويدافع عن الحق ، ويخلص فى عمله ، ويراقب الله وضميره ، ويضحى بمصلحته فى سبيل المصلحة العامة ، ويقوم بالواجب ويشعر به . ولله در شوقى حيث يقول :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هُمُو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإننا نأسف أشد الأسف إذا قلنا إن التربية الخلقية مهملة فى البيت ، مهملة فى المدرسة، مهملة فى المجتمع ، فى الوقت الذى قرر فيه المربون والمصلحون أن سعادة الأمم لا تتوقف

---

(١) الهزيل . (٢) خلقهم وعادتهم .

على كثرة دخلها ، ولا على قوة حصونها أو جمال مبانيها ، ولـكنها تتوقف على عدد المهذبين من أبنائها ، وعلى رجال التربيـة والعلم والأخلاق فيها . فهنا تـكون سعادتها وقوتها ومقدرتها الحقة . ولا يمكننا أن ندعى أن المدرسة وحدها تستطيع أن تقوم بتربية النشء تربية خلقية كاملة ، فهناك شركاء يشتركون مع المدرسة ، ولهم أثر كبير فى التربية كالبيت والمجتمع . فلـكى نصل إلى المثل العالى من التربية الخلقية للرجل والمرأة يجب أن يقوم البيت بواجبه نحو التربية الخلقية ، ويجب أن يكون المجتمع كاملا لا يهدم ما يؤسسه البيت أو تبنيه المدرسة .

الشكوى من فساد الأخلاق :

لقد انتشرت المفاسد ، وكثرت الشكوى من سوء الأخلاق ، والاستهتار والإلحاد بين الشباب ، ولو اتبعنا روح الإسلام ومبادئه ومثله العليا ، لسُدنا العالم اليوم ، كما كنا نسوده فى الصدر الأول للإسلام . ولا وسيلة لإنقاذ العالم إلا بالرجوع إلى الإسلام ، والعمل بمبادئه ، وشريعته .

لقد أصبحت الأمة الإسلامية الـكبرى متنافرة متنازعة متفرقة ، بعـد أن كانت متحدة فى القلوب ، مؤتلفة فى الأرواح ، متعاونة مترابطة ، فاستهان بهـا المستعمرون ، وفرّق بينها أعداؤها، فضعفوا بعد أن كانوا أقوياء ، وتحكم فيهم غيرهم بعد أن كانوا سادة العالم ، وانتصروا على قيصر الروم،وأخضعوا ملك الفرس . ولو تمسكوا بالمبادئ القرآنية، والسنة النبوية ما ضعفوا وما استكانوا . قال الله تعالى : « إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ، وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا [١] . »

إن روح الإسلام يتطلب الإيمان بالله واليوم الآخر والملائـكة والـكتاب والنبيين، ومناجاة الله فى الصلاة ، والصيام شكرا لله ، والزكاة إقرارا بنعمة الله ، والحج ابتغـاء مرضاة الله ، والوفاء بالعهد ، والصبر فى الشدة . قال عز من قائل : « لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ، وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ

(١) سورة الإسراء : ٩ .

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّينَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ ، وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ، وَٱلسَّآئِلِينَ ، وَفِى ٱلرِّقَابِ ، وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ ، وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ، وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ، وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ، وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ، أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ، وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (١) . »

الأخلاق الكاملة روح الإسلام :

إن روح الإسلام يستدعى من المسلم أن يخاف الله فى السر والعلانية ، فى كل عمل يفكر فيه ، أو يقدم عليه ، ويتقى الله حق تقواه ، ويفكر دائما فى النواحى الإنسانية ، والأغراض النبيلة الإسلامية، ويبتغى فى كل عمل إرضاء الله ، ويدعو إلى الخير ، ويستنكر كل شر ، ويعين أخاه المسلم ، ويتعاون معه على البر والتقوى ، ولا يتعاون على الإثم والعدوان، ويخلص فى أقواله وأفعاله الإخلاص كله . قال العزيز الحكيم : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (٢) » .

إن روح الإسلام يتطلب الإيمان الكامل بالله ، والاتجاه إلى الله بالقلب واللسان ، والعمل الصالح ، وتطهير النفس، وترك الأمور كلها لله ، والثقة التامة به . قال عز من قائل: « بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ، وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ، وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣) . »

وقال الحكيم الخبير : « مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ، وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا . وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (٤) . وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا (٥) . »

ولا نستطيع أن ننسى أن المدرسة قد أنشئت لغرض خاص هو تربية النشء تربية حقة . فهى تعمل باستمرار للوصول إلى هذا الغرض المقدس ، وهو تربية الفرد بطريقة خاصة

(١) سورة البقرة : ١٧٧ . (٢) سورة آل عمران : ١٠٢ . (٣) سورة البقرة : ١١٢
(٤) هو الموضع المنخفض فى ظهر نواة التمرة . (٥) سورة النساء : ١٢٣ ـ ١٢٥ .

للوصول إلى غرض معين ، وهو تكوين الخلق، وتقوية الجسم ، وتربية العقل، وتهذيب اليد والقلب ، أما البيت والبيئة فيؤثران عرَضا فى فترات خاصة فى تربية الطفل . وليس من السهل أن نتجاهل هذا الأثر ، وذلك التأثير ؛ فقد يكون حسناً ، وقد يكون سيئاً ، وقد يكون نافعاً ، وقد يكون ضاراً . ففى استطاعة المدرس أن يقوم بما يعجز الآباء عن القيام به ، فيساعد المتعلم فى معرفة نفسه ، وفهم العالم وما فيه ، ويفتح الأبواب والآمال فى وجهه ، ويمكِّنه من الانتفاع بمواهبه ، ويوحى إليه كثيراً من الأخلاق الفاضلة : كالصدق فى القول ، والأمانة فى العمل ، والعدالة فى الحكم ، والصراحة والشجاعة ، والإخلاص ، ويبث فى نفسه حب العظمة والبطولة ، والابتكار والاختراع . وإذا لم يستطع البيت والمجتمع القيام بواجبهما نحو التربية الخلقية فعلى المدرس أن يقوم بواجبه ، ويصلح ما أهمله البيت والمجتمع . وإن التعليم الذى لا يؤدى إلى التربية والأخلاق لا يستحق أن يسمى تعليما .

وليس الغرض من التعليم حشو أذهان التلاميذ بالمعلومات ، بل الغرض تهذيب الأخلاق ، مع العناية بالصحة والتربية البدنية ، والعقلية ، والوجدانية ، والعلمية ، وإعداد النشء للحياة .

ولا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إن الغرض الجزئى والكلى من التربية والتعليم يمكن أن يلخص فى كلمة واحدة هى: الفضيلة، بإيجاد حياة طاهرة مقدسة، ملؤها الإخلاص والطهارة .

وإن التربية الحديثة توجب علينا أن نذكر دائماً أننا لسنا فى حاجة إلى العلم فحسب ، ولكننا فى حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة . وقد قال الرسول الكامل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . » وقد خاطب الله الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : « وإنك لعلى خُلُق عظيم » قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه للرسول الكريم : « لقد طفت العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما رأيت ولا سمعت مثلك أحدا . فمن أدبك ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وكما أن الوقاية خير من العلاج فى عالم الطب، فالمحافظة على الأخلاق خير من إصلاحها

فى عالم الأخلاق . ومن المحافظة على الأخلاق منع الأبناء من الاتصال بالأشرار ، والاختلاط بأصدقاء السوء ، واللعب معهم ومجالستهم، والمعيشة فى البيئة الفاسدة . ولا نقصد بالتربية الخلقية أن نلقن التلميـذ الفضائل ومحاسنها ، والرذائل ومساوئها ، بل نريد التفـكير فى تهذيب أخلاق النشء حينما تبدو الفرصة عرضاً فى حجرة الدراسة ، أو فى فناء المدرسة، أو فى ملعب الألعاب الرياضية ، أو فى المنزل ، أو الحديقة ، أو فى أى مكان يحل به .

نريد العمل على تقويم المعوج من الأخلاق بالقدوة الحسنة ، والتفاهم ، والتـكلم على انفراد ، فيـكون مَثَلُ المربى، من أب وأم ومدرس ومدرسة مثل الطبيب الذى لا يعطى الدواء إلا عند المرض ، والأم الحـكيمة التى لا تقـدم لابنها الغذاء إلا فى وقتـه حينما يشعر بالجوع .

ولقد صرح « بستالوتزى السويسرى[1] » بأن الطفل الذى تعلم الصّلاة والتفـكير والعمل هو أكثر من نصف متعلم ، وأنه لم يكن غرضه من تعليم الطفل أن يعلمه من العلم ما لم يعلم ، بل يعلمه الآداب والأخلاق وحسن المعاملة ، والاعتماد على النفس ، ومراعاة العدالة فى كل أمر ، والمثابرة على العمل ، ويمرنه على البر والتقوى ، والصدق فى القول ، والوفاء بالوعد ، والإخلاص فى العمـــل ، وأداء الواجب ، ومساعدة الضعيف ، والمحافظة على الوقت .

وقد سئل أحد الفلاسفة ذات مرة : هل تُعلَّم الفضيلة ؟

فقال : لا . يقصد بذلك أن دراسة الفضيلة لا تستلزم التمسك بها ، ولـكنها تشجع على التزامها والتحلى بهـا ، إذا كانت النفس مستعدة لها . وكانت الإرادة والعقل والعاطفة فى جانبها .

وقد سئل فيلسوف آخر هذا السؤال عينه وهو : هل تُعَلَّم الفضيلة ؟

قال : نعم ، إن الفضيلة تُعلَّم ، يريد بذلك أن بعض الناس يرتـكبون الرذيلة أحيانا

(١) هو (يوحنا هنرى بستالوتزى السويسرى) ولد سنة ١٧٤٦ م فى مدينة زيورخ، وتوفى سنة ١٨٢٧م وهو من أعظم أئمة التربية المصلحين .

جهلا منهم بأنها رذيلة . فأمثال هؤلاء لو عرفوا الفضيلة والرذيلة لساعدتهم هذه المعرفة فى التحلى بالفضيلة، واجتناب الرذيلة، وبخاصة إذا كانت النفس كريمة طاهرة تميل إلى الخير، وتنفر من الشر ؛ إذ لا تنفع العظة فى أرض سبخة ، أو نفوس شريرة .

والغرض من التربية الخلقية تكوين الأخلاق وتربية الروح ، ويجب أن يضع المربى هذا الغرض نصب عينيه دائما ، فكل أب يجب أن يفكر فى الأخلاق ، وكل أم يجب أن تفكر فى التربية والأخلاق ، وكل مدرس يجب أن يكون مدرس أخلاق ، وكل درس يجب أن يكون درس أخلاق ، وكل ناظر يجب أن يفكر فى الأخلاق قبل أى شىء آخر ، بحيث يفكر البيت والمدرسة معاً فى الأخلاق .

ولكى تثمر العظة يجب أن يكون المربى قدوة حسنة للنشء ، ومثلا عالياً للأخلاق الكريمة . وإننا نعتقد أن أكبر أمر يجب أن نفكر فيه فى كل وقت هو إيجاد رجال مهذبين ، وسيدات مهذبات ، وتكوين شعب مهذب مثقف ، كريم الأخلاق ، للوصول بالمجتمع إلى الكمال الخلقى الذى نرجوه وننشده ، فليست مشكلاتنا هى الجهل والفقر والمرض فحسب . ولكن مشكلة المشكلات هى الأخلاق وتهذيبها بين أطفال اليوم ، ورجال الغد .

وينبغى أن تبتدئ التربية الخلقية فى البيت أولاً ، وفى المدرسة ثانيا ، لكى تبنى المدرسة على أساس متين من الأخلاق . ولا يكفى أن تقوم المدرسة بهذا النوع من التربية منفردة ، بل يجب أن يتعاون البيت والمدرسة معاً فى سبيل تربية الطفل تربية كاملة يشعر معها بأن الأخلاق عماد التربية ، وأن الغرض من الحياة هو الأخلاق . وعلى المربى أن يذكر دائماً أن الطفل يحاكى كل ما يراه ويسمعه ، وما يفعل أمامه من تلقاء نفسه ، فواجب المربين أن يكونوا جميعاً قدوة طيبة للطفل .

وإن المثل السامى فى التربية الإسلامية والتربية الحديثة هو تكوين مجتمع كامل مكون من سيدات كاملات ، ورجال مهذبين ذوى شخصيات كبيرة ، ونفوس أبية ،

وأخلاق عالية ، يعرفون الواجب، ويقدرون حقوق الإنسانية ، ويحبون الخير ، ويكرهون الشر ، ويفكرون فى غيرهم كما يفكرون فى أنفسهم .

فإذا أرادت الأمة العربية أن تنهض وتعيد مجدها القديم ، وتتبوأ مكانها اللائق بها ، فعليها أن تفكر أولاً فى التربية ونشرها، والأخلاق وتهذيبها . ولله در شوقى حيث يقول :

وليس بعامرٍ بنيانُ قومٍ   إذا أخلاقُهم كانت خرابا

فالأمم لا ترقى بالمال أو الحصون ، ولكنها ترقى بالعلم والتربية والأخلاق . فبالعلم والتربية ، وحسن الخلق ، نستطيع أن نعيد مجد العرب القديم ، وحضارتهم الخالدة ، وعظمتهم التالدة ، ونتبوأ مركزنا اللائق بنا تحت الشمس . وإن الأمة التى ضعفت الأخلاق فيها ، وصار كل فرد فيها يفكر فى نفسه وفى شئونه الخاصة ، ولا يفكر فى أمته وشئونها العامة — أمة لا تستطيع تحقيق مثلها العليا التى تنشدها . ولا أبعد عن الحقيقة إذا قلت إن بالتربية والأخلاق تستطيع كل أمة أن تصل إلى قمة المجد والعظمة . وبالعلم والأخلاق والمثابرة والصبر والتعاون والاتحاد والتفكير فى المصلحة العامة ، نستطيع أن نصل إلى ما نريد من الكمال . فالعلم قوة دونها كل قوة ، والأخلاق النبيلة أكبر وسيلة للوصول إلى القوة والعظمة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَكْثَرُ ما يُدْخِلُ الناسَ الجنةَ تقوَى اللهِ وحسنُ الخلقِ . »

وقال : « أَحسنُ الحسنِ الخلقُ الحسَنُ » . وقال : « أقربُكم منِّى مجلساً أحاسِنُكم أَخلاقاً ، الموَطَّئُونَ [1] أَكنافاً ، الَّذِينَ يأْلَفون ويُؤْلَفونَ . »

وقال : « المؤمِنُ إِلْفٌ مَأْلوفٌ . ولا خيرَ فيمن لا يأْلَفُ ولَا يُؤْلَفُ . »

وقال : « أَكمَلُ المؤمنينَ إِيماناً أَحسنُهم خُلُقاً ، وأَلطفُهم بأَهلِه . »

---

(١) الموطأ الكنف : السهل فى خلقه .

عظمة الإسلام تبدو فى مبادئه وآدابه المثالية

وسنكتفى بذكر شىء منها فنقول :

أدب الحديث فى الإسلام

كثيراً ما أدى اللسان إلى المصائب ، وجر الإنسان إلى المهالك . لهذا قد علّمنا الإسلام كيف نخاطب الناس ، وكيف نتحدث معهم ، وكيف نحيّيهم ، وكيف نسألهم ، وكيف نجيبهم . وأرشدنا أن نعقل اللسان إلا عن حق يوضحه ، أو باطل يدحضه[1] ، أو حكمة ينشرها ، أو نعمة يذكرها ، ولا يتكلم به إلا بقدر الضرورة ، وأن يقتصر فى التكلم به على قدر ما يقيم به حجته ، ويبلغ حاجته . وإذا سئل غيره فلا يجيب عنه . وأن يكلم كل إنسان بما يليق به ؛ ويخاطب الناس على قدر عقولهم . وألا يتكلم إلا إذا دعا داع إلى الكلام . وأن يجتنب فى محادثته ثلاثة أشياء ، وهى أبغض الأشياء لله ، وأقبحها عند الناس ، وهى : الكذب والنميمة ، والغيبة ، وألا يتكلم إلا فيما يعنيه ، وأن يضع الكلام فى موضعه . وألا يرفع صوته فوق صوت من هو أكبر منه سنا .

وإن عقل المرء مخبوء تحت لسانه . قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لسان العاقل وراء قلبه ، وقلب الأحمق وراء لسانه .

وقال تعالى فى النهى عن التكلم فيما لا يعنى ، والسؤال عما لا يضر ولا يفيد : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ[2] . »

فأرشدت الآية الكريمة إلى بيان تأديب الله تعالى عباده ، وتعليمهم الأدب معه ومع رسوله ؛ إذ نهاهم عن أن يسألوا عن وجوب ما لم يجب ، أو حرمة ما لم يحرم ؛ كى لا يكلفوا ما لا يطيقون . وهذا ما يؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم لسراقة بن مالك حين سأله عن وجوب الحج فى كل عام : « وَيحكَ[3] ، وما يؤمنك أن أقولَ نعَم ، والله لو قلتُ نعم لوَجبَت ، ولو وَجبَت ما استطعتم . ولو تركتُم لكفرتُم . فاتركونى ما تركتكم .

(١) يبطله . (٢) سورة المائدة : ١٠١ . (٣) كلمة رحمة .

فإنما هلكَ مَن كانَ قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم . فإذا أمرتكم بأمرٍ فخُذوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه . »

وقال عز وجل فى الحث على التكلم مع الناس بالحسنى ، واللين ، والرفق ، ومُجانبة الفظاظة فى القول ، والغلظة فى الحديث : « وَقُولوا للنَّاسِ حُسْنًا . » أى كلموهم كلاماً طيباً عند محادثتكم لهم ، ومخاطبتكم إياهم . وليكن حديثكم معهم هيناً ليناً ، ليس بالمرتفع فيمج ، ولا بالمنخفض فيطلب المستمع إعادته .

وقد أرشدنا الله إلى حسن الأدب فى الكلام والمحادثة ، والمجاملة فى التخاطب ، واجتناب الخشونة فى الحديث . حيث قال جل شأنه : « وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ[1] بَيْنَهُمْ ، إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا[2] . »

فقد أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يذكر لعباد الله أن يقولوا فى محادثاتهم الكلمة الطيبة ، والكلام الحسن الذى لا خشونة فيه ؛ فإنهم إن لم يفعلوا ألقى الشيطان بينهم العداوة والبغضاء .

وقال تعالى فى الحث على خفض الصوت عند المحادثة : « وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ[3] . »

وقال جل شأنه : « وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ، مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ[4] . »

فبيَّن اجتناب المجالسة والمحادثة مع من لا خلق لهم من الناس ، وعدم طاعتهم فى كل ما يقولون . فهذه سبعة أوصاف كلها مثالب ومعايب نهى الله نبيه عن طاعة المتصفين بها . والحكمة فى النهى أن :

الحلاَّف — وهو الشخص الكثير الحلف ، سواء فى الحق أو فى الباطل — قلما يتحرَّى الصدق فى أيمانه ، فهو عُرضة للكذب والخطأ فيها .

---

(١) يفسد بينهم . (٢) سورة الإسراء : ٥٣ . (٣) سورة لقمان : ١٩

(٤) سورة ن أى القلم : ١٠ ــ ١١ .

والمَهين : هو حقير الرأى والتدبير . وإن طاعته ربما أوردته المهالك ؛ لأنه يريد أن ينفع فيضر ، فطاعته مضرّة .

والهمّاز : هو العَيَّاب الذى يعيب الناس كثيرا ، فهو اليوم لهم ، وغدا عليهم؛ لخسة فى أصله ، ولؤم فى طبعه .

والمَشَّاء بالنميم : هو النقّال للحديث من قوم إلى آخرين ليفسد بينهم . لا همّ له إلا الإيقاع بين الناس ، وإلقـاء بذور الشقاق فيما بينهم . ومثل هذا تحرم طاعته ، وَتُـكره مجالسته ؛ لأن فى طاعته ضررا ، وفى مجالسته خطرا . فـكثيراً ما هلك وأهلك ، وأراق الدماء بين الناس ....

والمنَّاع للخير : هو البخيل الممسك الذى لا خير فى صحبته وطاعته .

والمعتدى : هو الظالم الذى لا يؤمن شره ، ولا يؤمّل خيره . فهو أولى بالاجتناب ، وأحرى بنبذ طاعته سدا للباب .

والأثيم : هو كثير الإثم والمعصية ، لم يبال المجاهرة بمعصية خالقه ، فلا يبالى أن يجاهر صاحبه بعداوته . ومثل هذا تنبذ طاعته ، وتجتنب مخالطته .

وقال عز وجَل فى النهى عن الـكذب فى القول : « قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْـكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [1] . » فبين قبح الـكذب ، وذمّ فاعله ، وأخبر عن الـكذابين بأنهم لا يفلحون ، ولا ينجحون .

ومن الآداب الإسلامية الـكريمة : التحية الحسنة ، والسلام ، قال تعالى : « وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَـآ أَوْ رُدُّوهَـآ [2] . »

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُسَلِّمُ الراكبُ علَى الماشى ، والماشى على القاعِد ، والقليلُ على الـكثير . »

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً سأل النبى صلى الله عليه وسلم : أىُّ الإسلام خيرٌ ؟

---

(١) سورة يونس : ٦٩ . (٢) سورة النساء : ٨٦ .

قال : « تُطعمُ الطعامَ ، وتقرأُ السلامَ على مَن عَرفْتَ وعَلى مَن لَمْ تَعرِفْ . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « ليسَ مِنَّا مَن لطَمَ الخدودَ ، وشَقَّ الجُيوبَ ، ودَعَا بدعوَى الجاهِلية . »

وكان رسول الله لا يحب المظاهر ، ولا يحب أن يمدحه أحد ، ولا أن يقف لمجيئه أحد . وكان يقول : « لا تُطْرونى[1] كما أَطْرتِ النصارَى ابن مريم ، إنما أنا عبدُ الله ، فقولوا عبد الله ورسوله . »

أدب المجالسة فى الإسلام

إن من آداب الإسلام أن يوسع الإنسان لجليسه إذا أقبل عليه ، ويلتزم معه الأدب والوقار إذا كان أكبر منه سنا، وخاصة إذا كان أبا أو أستاذا له، وألا يبصق ولا يتمخط إلا فى منديل مواريا وجهه عن جليسه ، وأن يضع يده على فمه إذا تثاءب ، ولا يحدث صوتا عند تثاؤبه . وقد أشار الله إلى بعض هذه الآداب فى قوله تعالى : « يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ[2] . »

أى إذا قدم عليكم جماعة من الناس فوسعوا للقادمين مسرعين ، سواء أكان المجلس مجلس تعليم أم عبادة ؛ لأن ذلك يكون سبباً للتواد والتحاب .

وليس للقادم أن يقيم أحدا من مجلس ليجلس مكانه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يُقيمُ الرجلُ الرجلَ من مجلسِه ، ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا . »

والغرض من التوسعة فى المجلس للقادم الحفاوة به ، والعناية بشأنه . لهذا حث الله على النهوض بسرعة للتوسعة للقادم ، فقال : « وإذا قِيلَ انشزُوا[3] فانشُزوا ، يَرفعِ اللهُ الذينَ آمَنوا مِنكم ، والذينَ أُوتُوا العِلمَ دَرجاتٍ ، واللهُ بما تَعملُونَ خبيرٌ[4] . »

والمعنى : وإذا قيل لكم انهضوا للتوسعة للقادمين عليكم فى المجلس فانهضوا وأسرعوا ، ولا تتثبطوا ؛ فإنكم إن فعلتم ذلك يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أعطوا العلم درجات عظيمة ، جزاء امتثالهم لأمر الله تعالى فى توسعتهم لإخوانهم فى مجالسهم . ولا تخفى

---

(١) لا تمدحونى . الإطراء : المدح. (٢) سورة المجادلة : ١١ . (٣) انهضوا للتوسعة أو للخروج

(٤) سورة المجادلة : ١١ .

على الله خافية من أعمالكم ، فيجازيكم بالخير خيرا ، وبالشر شرا . وفى الآية أيضاً ما يدل على فضل العلم والعلماء .

وقد نهى الرسول عليه الصلاة والسلام أن يجلس الرجل بين الرجلين إلا بإذنهما . ومما ورد فى آداب المجالسة فى الإسلام قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا كُنتمْ ثلاثةً فلا يَتناجَ رجلانِ دون الآخَرِ ، حتّى تختلِطوا بالنّاسِ ، أجَلْ ، إنَّ ذلِكَ يُحزِنُه . »

والحديث صريح فى أن المناجاة — أى الكلام سرا بين الاثنين دون الآخر — منهى عنها ؛ لأن التسار يدخل على قلب الجليس الثالث الوحشة والريبة ، فيتألم ويحزن . ومن هذا القبيل أن يتكلم اثنان جهرة بصوت مرتفع بلغة يجهلها الثالث ، مع اشتراكهم جميعاً فى معرفة لغة أخرى .

هذا هو روح الإسلام ، ويبدو فيه الأدب الجميل ، والذوق الرفيع ، الذى نادى به الإسلام منذ أربعة عشر قرنا تقريبا .

انظر إلى نبل الرسول العظيم فى حديثه النبوى : « يُسلِّمُ الصغيرُ علَى الكبيرِ ، والمارُّ على القاعِدِ ، والقليلُ على الكثيرِ ، والراكِبُ علَى الماشى . » تجد فيه كل نبل وذوق ، وأدب فى المعاملة ، ولا مثيل لهذه الآداب الرفيعة فى أى دين من الأديان .

وذات يوم جاء الرسول فقام له أصحابه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تَقوموا كمَا تَقومُ الأعَاجِمُ يعظِّمُ بعضهم بعضا . »

من الآداب المثالية فى الإسلام

لقد قصد الإسلام أن يكون الإنسان مثلا صالحا ، محمود الخصال ، شريف الشمائل ، كريم الأخلاق ، إن تكلم صدق ، وإن وعد وفى بوعده ، وإن اؤتمن فى أمر أدّى الأمانة ولم يخن ، وإن تمكن من عمل محرم كان عفيفا ، وامتنع عنه . وإن رأى أمرا منكرا غيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . وإن تكلم غض من صوته ، وإن مشى لم يكن مختالا فى مشيته . وإن رأى كبيرا وقره . وإن مر بلَغوٍ من القول أو الفعل تجنبه ، وهكذا من كل خصلة حميدة ، وصفة حسنة جميلة .

قال صلى الله عليه وسلم : « أَدَّبنى ربى فأَحسنَ تأْديبى » وقال:« وَإِنَّما بُعِثْتُ لأُتمِّمَ مكارمَ الأخلاقِ . » وقد خاطبه الله بقوله : « وإنكَ لَعَلى خُلُقٍ عظيمٍ . »

ومن الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الآتية تبدو الآداب المثالية فى الإسلام :

« وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ[1] » . أى توسط فى مشيك ، فلا تسرع ولا تبطئ . وإذا تكلمت فلا ترفع صوتك .

« إنَّ اللهَ لا يُحبُّ مَن كانَ مُختَالاً فَخُوراً . » المختال : المتكبر المتعاظم على غيره .

« وَالْعَصْرِ ، إنَّ الْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ (أى ضلال وهلاك ونقص) إِلَّا الَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّـٰلِحَـٰتِ ، وَتَوَاصَوْاْ[2] بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ . »

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِالْمَنِّ[3] وَالْأَذَىٰ[4] . »

« آيةُ المنافقِ ثلاثٌ : إذا حدَّثَ كذبَ ، وإذا وَعدَ أَخلفَ ، وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ . »

« أَدِّ الأمانةَ إلَى مَنِ ائْتمنَك ، ولا تَخُنْ مَن خانَك . »

« مَن رأى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيدِه ، فإن لَمْ يَستَطِعْ فَبِلسانِه ، فإن لم يَستَطِعْ فبِقَلْبِه ، وذلك أَضعفُ الإيمانِ . »

« لا يُقيمُ الرجلُ الرجلَ من مَجْلسِه ثمَّ يَجلسُ فيهِ ، ولكنْ تفَسَّحُوا وتوَسَّعُوا . »

« إذا نَظرَ أَحدُكم إلَى مَنْ فُضِّلَ عليهِ فى المالِ والخلْقِ فَلْينظرْ إلى من هو أَسفَلُ منه ؛ » حتى تستريح نفسه ، ويهدأ باله ، ولا يحقد على أحد .

وقال تعالى : « ولَوْ كُنْتَ فَظًّا[5] غليظَ القلبِ لانْفَضُّوا مِنْ حوْلِكَ . »

وقال : « هَلْ يَستَوى الذينَ يَعلَمُونَ وَالذينَ لا يَعْلَمونَ ؟ »

وقال : « وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ . لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ ، وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ[6] . »

---

(١) سورة لقمان : ١٩ . (٢) أوصى بعضهم بعضاً بالإيمان ، والصبر على الطاعة ، وعن المعصية

(٣) بذكر ما أعطيت ، وامتنانك على غيرك . (٤) سورة البقرة : ٢٦٤ .

(٥) الفظ : الغليظ القاسى فى معاملته . (٦) سورة النساء : ٣٢ .

وقال : « لا يَسْتَوِى الْخَبِيثُ والطَّيِّبُ ، ولَوْ أَعجبَكَ كَثرةُ الْخبيثِ . »

وقال : « وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ؛ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ [1] . »

وقال : « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم . » فإذا أراد المسلمون أن يستعيدوا مجدهم الماضى فليعودوا إلى المثل العليا فى الإسلام ، والأخلاق الإسلامية .

وقال : « ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ ، أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ [2] . »

وقال : « قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [3] . »

عن عائشةَ رضىالله عنها قالت : « سُئل رسولُ اللهِ صلىاللهُ عليه وسلم : أَىُّ الأعمالِ أَحبُّ إلى اللهِ تعالى ؟

قال : « أَدوَمُها وإن قَلَّ . »

وعن جابر رضىالله عنه قال: « ما سُئل النبىُّ صلىاللهعليهوسلم عن شىء قط فقال لا . »

وعن أَنَس رضى الله عنه قال : خدَمتُ النبى صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سنينَ ، فمَا قال لى أُفٍّ ، ولا لِمَ صَنَعْتَ ، ولا أَلاَ صَنعْتَ . »

« لا تَباغَضُوا ، ولا تحاسَدوا ، ولا تَدابَرُوا ، وكونوا عِبادَ اللهِ إخواناً . ولا يَحِلُّ لمسلمٍ أَن يَهْجُرَ أَخاه فوقَ ثلاثةِ أيام . »

« مَثَلُ المؤمنينَ فى توَادِّهِم وتَراحُمِهم وتعاطفِهم مَثَلُ الجسَدِ ، إذا اشتكى منهُ عضوٌ تداعَى لهُ سائرُ الجسدِ بالسهَرِ والحمَّى . » أى إذا شكا منه عضو ، مرض بسبب مرضه بقية أعضاء الجسم ؛ لتشارك العضو المريض فى أَلمه .

قال عليه الصلاة والسلام : « يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا ، وبَشِّرُوا ولا تُنفِّرُوا . »

وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قالوا يا رسولَ الله ، أَىُّ الإسلام أَفضلُ ؟

---

(١) سورة لقمان : ١٨ ـ ١٩ . (٢) سورة البقرة : ٢٧ . (٣) سورة يونس : ٦٩ .

قال : « مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لِسانِه ويَدِه . »

قال صلى الله عليه وسلم : « أَنزلوا الناسَ مَنازلَهم . » أى ضعوا كل إنسان فى الدرجة التى يستحقها .

« ارحَمُوا عزيزَ قوْمٍ ذَلَّ ، وغَنيَّ قَوْمٍ افْتقَرَ . » وهذا هو النبل فى الإسلام .

« مَن لم يرْحَمْ صغيرَنا ، ويَعرِفْ حقَّ كَبيرِنا فَليسَ مِنَّا . » وهنا تبدو العظمة الإسلامية .

وقال : وَقِّرُوا عُلماءَ[1] أُمَّتى ؛ فإنَّهم نجُومُ الأرضِ . »

وقال : « أَكملُ المؤمنينَ إيماناً أَحسنُهم أخلاقاً . »

وقال : « مكارمُ الأخلاقِ مِنْ أَعمالِ أهلِ الجَنَّةِ . »

وقال : « أَحسنُ الُحْسنِ الُخلقُ الحَسَنُ . »

وقال : « أَكثرُ ما يُدْخِلُ الناسَ الجَنَّةَ تقوَى اللهِ ، وحسنُ الخلُقِ . »

وقال : « لا تزَالُ أُمَّتى بخَيرٍ ما لَم ترَ الأمانةَ مَغنَماً[2] ، والصدَقةَ مَغرَماً[3] . »

وقال : « إذا أَرادَ اللهُ بعبدٍ خيراً جَعلَ له واعظاً من نَفْسِه . »

وقال : « اليدُ العُلياَ خيرٌ منَ اليدِ السُّفْلَى . وابْدَأْ بمنْ تَعولُ . »

أى اليد المتصدقة خير من اليد الآخذة ، وابدأ بمن تلزمك نفقته من عيالك .

وقال : « ثلاثٌ مُنْجيَاتٌ ، وثَلاثٌ مُهلِكاتٌ : فأَمَّا المُنجياتُ فخَشيةُ اللهِ تعالَى فى السِّرِّ والعَلانيةِ ، والاقتصادُ فى الغِنَى والفَقرِ ، والُحكمُ بالعَدْلِ فى الرِّضاَ والغَضبِ . وأَما المُهلِكاتُ ، فَشُحٌّ مُطاعٌ ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنَفْسِه . »

« أَلاَ أُخبِرُكم بِشَرِّ عبادِ اللهِ ؟ الفَظُّ المستكبرُ . أَلاَ أُخبِرُكم بخَيْرِ عبادِه اللهِ ؟ الضعيفُ المستضعَفُ[4] ، ذو الطِّمرينِ[5] لا يُؤْبَهُ[6] له ، لو أَقسمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ[7] . »

---

(١) العاملين بعلمهم ، المتمسكين بدينهم . (٢) غنما وربحا . (٣) خسارة وغرماً .
(٤) المستضعف : من يتجبر عليه الناس لضعفه وفقره . (٥) الطمر : الثوب الخلق .
(٦) لا يهتم به . (٧) لحقق له رغبته ، وصدقه في حلفه .

وقال : « قد أَفلحَ مَن أَخلصَ قلبَه للإيمانِ ، وجَعلَ قلبَهُ سليماً ، ولسانَه صادقاً ، ونَفْسَه مُطمئِنَّةً ، وخَليقتهُ مستقيمة . »

وقال : « شَرٌّ ما فى الرَّجل شُحٌّ هالِعٌ (١) ، وجُبنٌ خالِعٌ (٢) . »

وقال : « أَربعٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كانَ مُنافقاً خالصاً . ومَنْ كانَتْ فيهِ خَصلَةٌ منهنَّ ، كانت فيـه خَصْلَةٌ من النِّفَاقِ حتَّى يَدعَها : إذا اؤتُمِن خانَ . وإذا حدَّث كَذَبَ . وإذا عاهدَ غَدَرَ (٣) . وإذا خاصمَ فَجَرَ (٤) . »

وقال : « مَنْ كانَ يُؤْمنُ باللهِ واليوْمِ الآخرِ فلْيُكْرِمْ ضَيْفَه . ومَن كان يُؤْمنُ باللهِ واليوْمِ الآخرِ فلْيُحْسِنْ إلى جَارِهِ . ومَنْ كانَ يُؤْمنُ باللهِ واليوْمِ الآخرِ فليقُلْ خيراً أَو ليصْمُتْ . » فالمصطفى صلى الله عليه وسلم يحث على إكرام الضيف ، والإحسان إلى الجار ، والتكلم بخير أو السكوت .

وعن أبى هريرة قال : قال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « تجِدُ مِنْ شِرارِ الناسِ يَوْمَ القيامةِ عند اللهِ ذا الوَجهَينِ ، الَّذى يَأْتِى هٰؤلاءِ بوَجْهٍ ، وهٰؤلاءِ بوَجهٍ . »

وذو الوجهين هو المنافق . وأكبر عيب نلمسه اليوم النفاق والمنافقون .

وعن حُذَيفَةَ قال: سمعتُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم يَقولُ : « لا يَدخلُ الجَنَّةَ قَتَّاتٌ ، وفى رواية : نَمَّامٌ . » والقتَّاتُ هو النمَّامُ ، والنمام الذى ينقل حديث الناس بعضهم إلى بعض للوشاية والسعاية والإفساد .

وقال: « الحياءُ لا يأْتِى إلاَّ بخيرٍ . » لأن الحياء من الإيمان . ومن لا حياء فيه لا خير فيه.

وقال : « لا يُلدَغُ المؤْمنُ مِن جُحْرٍ مَرَّتَينِ . » فالإنسان يجب أن ينتفع بالتجربة .

وقد بينَ جل شأنه أكمل الآداب التى يجب على الرجال والنساء التخلق بها ، والتحلى بحلاها ، فأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، وعدم التبرج ، وعدم فعل أى شىء من دواعى الميول الحيوانية ، أو إثارة الفتنة ، سواء أكان ذلك للرجال أم كان للنساء .

---

(١) مفزع . (٢) شديد . (٣) خالف عهده ونقضه . (٤) فسق ، وكذب .

قال تعالى : « قُلْ للمؤمنينَ يَغُضُّوا مِنْ أبصارِهم ، ويَحفَظُوا فرُوجهم ، ذلك أزكَى لهَم ، إن اللهَ خبيرٌ بما يَصنَعون . »

فأمر الرجال بغض أبصارهم عن النظر إلى الأجنبيات ، وحفظ فروجهم من التعدى على عرض غيرهم ؛ لأن النظر بالعين يزرع فى القلب الشهوة المهلكة لصاحبها . ولهـذا كان حفظ العين من الأمور الهامة الدالة على قدر الإنسان .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكُم والجُلُوسَ فى الطرُقاتِ . »

قالوا : يا رسول الله ، لا بدَّ لنا منْ مجالِسنا نقعدُ فيها .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فإنْ أبيتمْ إلاَّ المجَالسَ فأعطُوا الطَّريقَ حقَّها . »

قالوا : وما حقُّ الطريق يا رسول الله ؟

قال : « غَضُّ البَصرِ ، وكَفُّ الأذَى ، ورَدُّ السلامِ ، والأمرُ بالمعروفِ ، والنَّهْىُ عن المُنكَرِ . » وهذه من الآداب الإسلامية العامة .

الآداب الإسلامية الخاصة بالنساء :

وقد بُيِّنت الآداب الخاصة بالنساء فى قوله تعالى : « وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[1] . »

ومن هذه الآيات الكريمة يؤخذ أن الآداب الإسلامية الخاصة بالنساء هى أن يغضضن أبصارهن ، ويمنعنها النظر إلى غير أزواجهن ، ولا يظهرن شيئا من زينتهن للأجانب

(١) سورة النور : ٣١ .

إلا ما ظهر منها ولا يمكن إخفاؤه كالثياب الظاهرة ، وأن يلقين على صدورهن ونحورهن مقانع ليسترنها عن أعين الناظرين ، حتى لا يروا منها شيئاً . ولا يظهرن زينتهن إلا لأزواجهن ، أو آبائهن ، أو آباء أزواجهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء أزواجهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن المختصات بخدمة أو صحبة ، أو ما ملكت أيمانهن من الإماء . — أما الذكور فلا يجوز إبداء الزينة لهم — والأُجَراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ولا حاجة لهم إلى النساء ، أو الأطفال الذين لا يميزون — فهؤلاء لا بأس من ظهور الزينة أمامهم .

وإن الحكمة فى عدم إبداء الزينة ما يترتب على ذلك من المفاسد والمضار حتى نهى الشارع المرأة أن تضرب الأرض برجلها ، ليعلم ما خفى من زينتها . « وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ » .

المثل العالية فى الآداب الإسلامية

إن من يتتبع القرآن الكريم والأحاديث النبوية يجد كثيراً من المثل العليا فى الأخلاق الإسلامية . فالإسلام يدعو إلى السمو والنبل فى الخلق ، وحسن المعاملة ، والتسامح فى غير ضعف ولا ذلة ، والعفو عند المقدرة ، وكظم الغيظ ، وضبط النفس ، والصبر عند الشدائد ، والترفع عن النقائص ، والعدالة فى الحكم ، والإحسان إلى المحتاجين ، والتعاون على البر والتقوى . وينهى عن الظلم والأثرة والغدر ، والتجسس والغيبة ، وسوء الظن ، وأكل مال اليتيم .

وسنكتفى هنا بذكر أمثلة من الآيات والأحاديث التى تتمثل فيها المثل العليا فى الإسلام :

« ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ[١] . »

« ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ[٢] . »

« والكاظمينَ الغيظَ ، وَالعافينَ عَنِ النَّاسِ ، واللهُ يُحِبُّ المحسنين . »

---

(١) سورة النحل : ١٢٥ . (٢) سورة المؤمنون : ٩٦ .

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّٰبِرِينَ[1] . »

« وبَشِّرِ الصابرِينَ الَّذِينَ إذا أَصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالوا إنَّا للهِ، وإنَّا إليهِ راجعونَ . »

« ويُؤْثِرونَ عَلَى أَنفُسِهِم، ولَو كانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . » أى فقر .

« يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ[2] . »

« قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ . يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ[3] . »

« وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ[4] . »

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا[5] ؟ »

« إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[6] . »

« وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ»[7] .

« لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ[8] . »

---

(١) سورة النحل : ١٢٦ . (٢) سورة البقرة : ٢١٥ . (٣) سورة البقرة : ٢٦٤ .
(٤) سورة المائدة : ٢ . (٥) سورة الحجرات : ١٢ . (٦)سورة النساء : ١٠ .
(٧) سورة الأنعام: ١٥٢ . (٨) سورة آل عمران : ٩٢ .

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[1] . »

« وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ[2] . »

وفى هذه الآيات الكريمة يبدو روح الإسلام ، وتتجلى العظمة الإسلامية ، وتتضح المثل العليا فى الإسلام . وبهذه المثل والمبادئ انتصر الإسلام على قيصر الروم وملك الفرس ، وساد العالم ، وانتشر فيه ، وتكونت خير أمة أخرجت للناس .

---

(١) سورة النحل : ٩٠ . (٢) سورة الشورى : ٤٣ .

الفصل الثالث

الخُلق العظيم

ما حسن الخلق ؟ .

لقد تكلم كثيرون عن حسن الخُلق ، وفوائده ، ولكنهم لم يتعرضوا لكنهه وحقيقته . وحاول كثيرون تعريفه ، ولكنها كلها تعريفات تقريبية ، كما سترى .

قال الحسن : حسنُ الخُلق : بَسطُ[1] الوجه ، وبذل النَّدى[2] ، وكف الأذى .

وقال الواسطى : هوَ إرضاء الخلق فى السراء والضراء[3] .

وقال على رضى الله عنه : حسن الخُلق فى ثلاث خصال : اجتناب المحارم ، وطلب الحلال ، والتوسعة على العيَال .

وقال الحسين بن منصور هو : ألا يؤثر فيك جفاء الخلق ، بعد مطالعتك للحق .

وهذه التعريفات كلها لم تستوعب كل الأخلاق الحسنة ، ولم تتعرض إلا لبعض ثمرات الخلق الحسَن .

ونعتقد أن حسن الخلق هو التوسط والاعتدال فى الأخلاق، بحيث لا يكون هناك إفراط ولا تفريط فى أى خلق ، فكلاهما مذموم .

فمن حسن الخلق الكرم ، وهو وسط بين التبذير والتقتير ، وقد أثنى الله تعالى عليهفقال: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[4] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا[5] .»

وقال عز وجل : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً[6] إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ[7] فَتَقْعُدَ مَلُومًا[8] مَّحْسُورًا[9] . »

فالله ينهى عن البخل والشح والتقتير ، كما ينهى عن الإسراف والتبذير ، بحيث

---

(١) طلاقة الوجه . (٢) الجود والسخاء . (٣) فى السراء والضراء : فى السعادة والشقاء .
(٤) أى يضيقوا أو يشحوا على أنفسهم وعلى ذريتهم . (٥) سورة الفرقان : ٦٧ . قواماً : وسطا بين الإسراف والتقتير . (٦) لا تكن بخيلا . (٧) لا تتوسع فى الإنفاق إلى حد الإسراف .
(٨) فتصير ملوماً نادما مغموما . (٩) سورة الإسراء : ٢٩ .

يلتزم الإنسان الحد الوسط فى معيشته ونفقاته ، ويقتصد شيئا من ماله ؛ لينتفع به وقت المرض أو الحاجة ، ولا يضطر إلى الاستدانة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « خير الأمور أوسطها . »

والشجاعة من حسن الخلق ، وهى وسط بين الجبن والتهور ، بحيث يواجه الإنسان الخطر أو الألم بثبات ، ويعمل كل ما يستطيع للتغلب على الخطر أو الألم الذى يلحقه .

عظمة الخلق :

لقد أثنى الله على نبيه وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم ، مخاطبه بقوله : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . » وكانت أخلاقه مطابقة لما فى القرآن الكريم من الأخلاق الكريمة . كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله خُلقه القرآن . »

وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حسن الخلق ، فتلا قوله تعالى : « خُذِ ٱلْعَفْوَ ، وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ[1] . »

ثم قال صلى الله عليه وسلم : « هو أنْ تصلَ من قطعك ، وتعطىَ من حَرَمك ، وتَعفوَ عمن ظلمك . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « وإنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . »

فالرسول عليه الصلاة والسلام أجاب عن حسن الخلق بقوله جل شأنه : (خُذ العفوَ) أى السهل الذى لا مشقة فيه على الناس ، (وأْمُر بالعُرفِ) وهو ما تعارف عليه الناس من الخير ، (وأَعْرِضْ عن الجاهلين) وهم السفهاء الحمقى من الناس ، ثم زاد صلى الله عليه وسلم قوله : « هو أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . » وإن صلة من قطعك من الناس ، وإعطاء من حرمك منهم ، والعفو عمن ظلمك ، تدل على النبل الإسلامى الذى لا نهاية له ، والخلق الكريم الذى لا مثيل له. وهذا ما يقصده الرسول الكامل من حسن الخلق . ولا عجب ؛ فقد بعث إلى العالم كافة لتتميم مكارم الأخلاق وهداية العالم .

---

(١) سورة الأعراف : ١٩٩ .

وقدجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه، فقال: يارسول الله، ما الدين؟
قال : حسنُ الخلق .

فأتاه من قِبَل يمينه ، فقال : يا رسول الله ، ما الدين ؟

قال : حسنُ الخلُق .

ثم أتاه من قِبَل شماله ، فقال : ما الدين ؟ فقال : حسنُ الخلق .

ثم أتاه من ورائه ، فقال : يا رسول الله ، ما الدين ؟

فالتفت إليه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقال له : أما تَفْقَه[1] ؟ هو ألا تغضب .

حسن الخلق وضبط النفس من روح الإسلام :

فالدين فى رأى الرسول هو حسن الخلق ، هو كرم الخلُق ، ونبله . وقد كان الرسول فى إجابته حليما كل الحلم ، ولم يغضب على السائل ، وفى النهاية فسَّر الدين بضبط النفس، وضبط الشعور ، وقال له : هو ألاَّ تغضب .

وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أَوْصِنى .

فقال : « اتق اللهَ حيثما كنتَ . »

قال : زِدْنى . قال : « أتبِع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُها . »

قال : زِدْنِى . قال : « خالِقِ الناس بخلق حسن . »

فالرسول صلى الله عليه وسلم يوصى بتقوى الله ، والخوف منه فى كل مكان ، فى السراء والضراء ، والتفكير فى إرضاء الله دائما ، والإكثار من الحسنات لمحو السيئات ، ومعاملة الناس معاملة كريمة تدل على الخلق الكريم .

وسئل عليه الصلاة والسلام : أى الأعمال أفضل ؟

قال : خلق حسن .

وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها .

---

(١) الفقه : الفهم . وقد فقه الرجل : فهم .

قال : لا خير فيها ، هي من أهل النار .

فلكي يكون لصيامها وصلاتها وتهجدها أثر يجب أن تحسن معاملة جارها ، القريب أو البعيد ، ولا تلحق به أي أذى .

وقال صلى الله عليه وسلم : إن الله استخلص[1] هذا الدين لنفسه ، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق . ألا فزينوا دينكم بهما .

وقيل يا رسول الله ، أي المؤمنين أفضلهم إيمانا ؟

قال : « أحسنهم خلقا . » فأكمل المؤمنين إيمانا وأفضلهم إيمانا هو أحسنهم خُلُقا .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنكم لن تَسَعُوا الناسَ بأموالكم ، فَسَعُوهم بِبَسْطِ[2] الوجه ، وحسنِ الخُلُق . »

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وجهًا ، وأحسنهم خُلُقا . وكان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه : اللهم حسَّنتَ خَلْقي فحسِّن خلُقي .

وقد كان كاملاً في خلْقه وخُلُقه .

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الدعاء فيقول : « اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخُلُقَ . »

وهو دعاء حكيم ، فالصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى . وحسن الخُلق هو أعظم وسيلة للنجاح في الحياة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أَحَبَّكم إليّ وأقربَكم مني مجلسا يومَ القيامة أحاسِنُكم أخلاقاً . »

فأحب الناس إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم وأقربهم منه يوم القيامة أكملهم أخلاقا . وإن خيرَ ما أُعطِيَ الإنسان هو الخلق الحسن .

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم في افتتاح الصلاة : « اللهم اهدني لأحسنِ الأخلاق ، لا يَهدِي لأحسنِها إلا أنتَ ، واصْرِف[3] عني سيِّئَها لا يَصْرِفُ عني سيِّئَها إلا أنتَ . »

---

(١) استخلصه لنفسه : استخصه . (٢) بسط الشيء : نشره . وبسط الوجه : البشاشة وطلاقة الوجه ، وسعة الصدر . (٣) صرف الله عنك الأذى : أزاله .

كرم الأخلاق من سعادة الإنسان :

وإن من سعادة الإنسان أن يكون كريم الأخلاق ، متجنبا السيئ منها .

وقال عليه الصلاة والسلام لأبى ذر : « يا أبا ذَر ، لاعقل كالتدبير[١] ، ولاحَسَب[٢] كحسن الخلق . »

فالرسول يحث على التفكير فى عاقبة كل أمر ونتيجته ، واختيار الطريق المستقيم للسير فيه ، كما يحث على التمسك بالخلق الكريم ، والابتعاد عن كل قبيح . فحسن الخلق شرف لمن لا حسب له ، ومجدٌ لمن لا نسَب له ، وعظمة تفوق مفاخر الآباء والأجداد .

وقال أنس بن مالك : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن العبد لَيبلُغُ بحسَن خلقه عظيمَ درجاتِ الآخرةِ ، وشرفَ المنازل[٣] ، وإنه لضعيفٌ فى العبادة . »

فبحسن الخلق يصل الإنسان إلى أعظم درجة ، وأشرف منزلة ، حتى ولو كان ضعيفا فى عبادته .

قال الجنيد : أربعٌ ترفع العبد إلى أعلى الدرجات — وإن قلَّ عملُه وعلمُه — الحلم ، والتواضع ، والسخاء ، وحسن الخلُق ، وهو كمال الإيمان .

قال ابن لقمان الحكيم لأبيه : يا أبَتِ[٤] ، أى الخِصال[٥] خيرٌ للإنسان ؟

قال : الدينُ .

قال : فإذا كانت اثنتين ، قال : الدين والمال .

قال : فإذا كانت ثلاثا ، قال : الدين والمال والحياء .

قال : فإذا كانت أربع خصال ، قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق .

قال : فإذا كانت خمسا ، قال : الدين والمال والحياء وحسن الخلق والسخاء .

قال : فإذا كانت ستا ، قال : يابنىَّ ، إذا اجتمعت الخصال الخمس فهو نقىٌّ تقىٌّ ، ولله ولىٌّ ، ومن الشيطان برِىٌّ[٦] .

---

(١) التدبير فى الأمر : النظر إلى ما تئول إليه عاقبته ، والتدبر : التفكر فى الأمر .
(٢) الحسب : ما يعده الإنسان من مفاخر آبائه ، والشرف والمجد . (٣) جمع منزلة وهى المرتبة .
(٤) يا أبى . (٥) الخصلة : الخلة بفتح الخاء . (٦) برىء .

وقال أنس بن مالك : إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة فى الجنة وهو غير عَابد ، ويبلغ بسوء خلقه أسفل دَرْك[1] فى جهنم وهو عابد .

وقيل : حسنُ الأخلاق كنوز الأرزاق .

وقال وهب بن منبه : مَثَلُ السيئ الخلق كمَثَلِ الفخارة المكسورة لا ترقع ، ولا تعاد طيناً .

وقال الفضيل : لأن يصحبنى فاجر[2] حسن الخلُق أحب إلىَّ من أن يصحبنى عابد سيئ الخلق .

وقد صحب ابنَ المبارك رجل سيئ الخلق فى سفر ، فكان يحتمله ويداريه ، فلما فارقه بكى .

فقيل له فى ذلك ، فقال : بكيتُه رحمةً له ، فارقته وخلُقه معه لم يفارقه .

وقال يحيى بن معاذ : سوء الخلق سيئة لا تنفع معها كثرة الحسنات ، وحسن الخلق حسنة لا تضرُّ معها كثرة السيئات .

وقد سئل ابن عباس : ما الكرم ؟

فقال : هو ما بيَّنَ اللهُ فى كتابه العزيز : « إنَّ أكرمَكُمْ عندَ اللهِ أتقاكم . »

قيل : فما الحَسَب ؟

قال : أحسنكم خلُقاً أفضلكم حسَباً .

وقيل : لكل بُنيان أساس ، وأساس الإسلام حسن الخلُق .

وقال عطاء : ما ارتفع من ارتفع إلا بحسن الخلق .

ولم ينل أحد كمال الخلق إلا المصطفى صلى الله عليه وسلم . فأقرب الخلْق إلى الله عز وجل السالكون آثارَه بحسن الخلُق .

التربية أساس الأخلاق :

وقد يولد الإنسان ـ المختار عند الله ـ كامل العقل ، حسن الخلُق ، عالماً بغير تعليم ،

---

(١) درجة ومكان . (٢) فاسق ، كاذب .

مؤدبا بغير تأديب ، كعيسى بن مريم،ويحيى بن زكريا عليهما السلام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وكذا جميع الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

ولكن الإنسان العادى يولد قابلا للخير والشر ، ولكن بالتربية فى البيت والمدرسة والبيئة والمجتمع يعتاد الأخلاق الحسنة إذا وجد من يشجعه عليها ، ومن ينمّها فى نفسه ، ومن يقتدى به قدوة صالحة ، أو يعتاد سوء الأخلاق إذا وجد القدوة السيئة تحيط به من كل جانب ، فى البيت والشارع والمدرسة .

قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهوّدانه أو يُنصِّرانه أو يمجسانه » .

فالطفل يولد قابلا لأن يتأثر بمن يتصل به من الآباء والأمهات ، والإخوة والأخوات ، فإذا كانت البيئة كاملة ، ووجد العناية بتربيته تربية خلقية كاملة نشأ حسن الأخلاق كاملا .

وإذا كانت البيئة فاسدة ،وكانت العناية بالأدب والخلُق معدومة نشأ سيئ الأخلاق.

فبالتعود والتعلم والمحاكاة والتنشئة والتربية تكتسب الأخلاق ، سواء أكانت حسنة أم سيئة .

فبالتربية والعناية والتهذيب ، والقدوة الصالحة ، والبيئة الحسنة نستطيع أن نصل إلى جيل يتحلى بكل خلق كريم .

وقد ينشأ الطفل فى بيت كامل من الناحية الخلقية ، ثم يختلط وهو طالب بالمدرسة الثانوية أو الجامعة ـ بطلبة مستهترين منحرفين غير مكترثين للخلق النبيل ، فيحاكيهم ويقلدهم ، ويتأثر بهم ، وينحرف معهم عن الطريق المستقيم ، ويصير مثلهم من المستهترين بالدين والأخلاق ، ويضل كما ضلوا ، ويسير فى طريق الضلال ، حتى يضيع مستقبله ، ويتخلف عمن هداهم الله من زملائه .

وعلى الآباء أن يبحثوا عمن يختلط بهم أبناؤهم ، ويبعدوهم عن الشبان الفاسدين ،

والوسط الفاسد ، والبيئة المنحرفة ، ويعملوا كل وسيلة لإبعاد أبنائهم عن هؤلاء الذين يقفون عند مداخل الشوارع ، أو يجلسون على الأسوار فى يومى الخميس والأحد عند الأمريكين بشارع ٢٦ يوليو ، فهؤلاء جميعاً متعطلون ، لا عمل لهم إلا الفساد ، منحرفون لا يعرفون للفضيلة معنى . وأمثال هؤلاء يجب أن يؤخذوا فى العطلة الصيفية للعمل فى منظمات الشباب ، وقضاء أوقات الفراغ فى مشروعات نافعة للوطن ، كردم المستنقعات فى الريف ، وإصلاح الأراضى ، وحفر الترع ، وتمهيد الطرق ، لنكون منهم رجالاً يخدمون أنفسهم وبلادهم . « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . « وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلَـٰكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

علامات حسن الخلق وسوئه :

وتبدو علامات حسن الخلق فى قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ [1] . »

(أفلحَ المؤمنون) : نجحوا وفازوا بالنعيم الدائم .

(اللَّغو) : كل مالا يُعتَدُّ به من قول أو عمل .

(ابتغَى) : طلبَ .

(وراءَ ذلك) : غير ذلك .

(العادُون) : المتجاوزون حدود الله .

(راعُون) : مراعون وحافظون .

وقوله عز وجل : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَإِذَا

---

(١) سورة المؤمنون : ١ — ٩ .

تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ، وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ، وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ[1] . »

(وَجِلَتْ) شعرت بالخوف شعورا يحملها على العمل لدفع أسبابه .

(ينفقون) : يتصدقون .

(رزق كريم) : رزق حسن خال من الكدر .

وقوله تباركت أسماؤه : « وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا . وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا . وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ، وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا . وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ، وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ، وَلَا يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ، فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ، وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا . وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا . وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ، وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا . وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ، وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .[2] »

(هَوْنًا) : مشياً هيِّنا ذا وقار ، لا تكبُّر فيه .

---

(١) سورة الأنفال : ٢ ـ ٤ (٢) سورة الفرقان : ٦٣ـ٧٤

(الجاهلون) : السفهاء .

(قالوا سلاماً) : أى سلام متاركة وتجنب ، لا سلامَ تحية .

(غَرَاماً) : لازماً .

(ساءت) : قبُحت .

(مستقرًّا ومُقاماً) : أى أن العذاب لن يخفف عنهم عند طول المدة .

(يَقْتُرُوا) : أى يُضَيِّقوا ويشحوا على أنفسهم وعلى ذريتهم .

(وكان بين ذلك قَواما) : وكان إنفاقهم وسطا بين الإسراف والتقتير .

(أثاماً) : وَبالاً ونَكالاً ، فهو جزاء الإثم وهو الذنب .

(يُضاعَف) : أى يعذب عذابين : عذاباً على الكفر ، وعذابا على إضلاله لغيره .

(يُبدِّل الله سيئاتِهم حسناتٍ) : يجعل مكان أعمالهم السيئة أعمالا صالحة ، فبعد أن كان العبد من الطالحين يصير من الصالحين ، وهذه نعمة كبيرة .

(لا يَشهدون الزورَ) : لا يحضرون مجال الباطل ؛ لأن مشاهدة الباطل كالمشاركة فيه .

(اللَّغو) : الكلام الذى لا فائدة فيه ، وكل مالا يُعتدُّ به من قول أو عمل .

(مَرُّوا كِرَاماً) : معرضين عنه ، مكرمين أنفسهم عن المشاركة فيه .

(لم يَخِرُّوا عليها) : لم يسجدوا عليها ، ولم يسقطوا عليها .

(صمًّا وعُمياناً) : المعنى أن عباد الرحمن هم الذين إذا ذُكِّرهم مذكر بالقرآن أكبُّوا وأقبلوا عليه سامعين مبصرين .

(قرة أعين) : أسباب سرور .

(إماما) : قدوة فى الخير .

فإذا تحققت صفات المؤمن الكامل فى إنسان كان حَسَن الخلُق ، وإذا لم تتحقق فيه كان سيئ الخلق .

وجمع بعض العلماء علامات حسن الخلق ، فقال ، إن حسَنَ الخلُق هو أن يكون كثير الحياء ، قليل الأذى ، كثير الصلاح ، صدوقَ اللسان ، قليل الكلام، كثير العمل، قليل الزلل [١] ، قليل الفُضول [٢] ، برًّا ، وَصُولاً ، وَقوراً صَبوراً ، شَكوراً ، رَضِيًّا، حليما ، رفيقاً ، عفيفا ، شفيقا ، لا لَعَّاناً ولا سَبَّاباً ، ولا نَمّاماً ، ولا مُغتاباً ، ولا عجولا ، ولا حقوداً ، ولا بخيلا ، ولا حسوداً ، بَشاشاً هَشاشاً [٣]، يحب فى الله ، ويبغض فى الله، ويرضى فى الله ، ويغضب فى الله .

فهذا هو حسَنُ الخلُق .

وقال يوسف بن أسباط : علامة حسن الخلق عشر خصال : قلة الخلاف ، وحسن الإنصاف ، وترك طلب العثرات [٤] ، وتحسين مايبدو من السيئات ، والتماس المعذرة ، واحتمال الأذى ، والرجوع بالملامة على النفس ، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره ، وطلاقة الوجه للصغير والكبير ، ولطف الكلام لمن دونه ولمن فوقه .

وينبغى أن يجاهد الإنسان ويبذل كل وسيلة حتى يبلغ درجة حسن الخلُق ؛ فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقرّبون والصدِّيقون . وإن صفات المؤمنين هى حسن الخلُق.

ومن حسن الخلق أن تحب لأخيك ماتحب لنفسك ، وتكرم ضيفك ، وتكرم جارك ، وتقول خيرا أو تَصْمُت ، وتصبر على الأذى . قال صلى الله عليه وسلم : « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقاً » .

وحينما أكثرت قريش من إيذاء المصطفى صلى الله عليه وسلم وضَربه احتمل الأذى

---

(١) الخطأ . (٢) الاشتغال بما لايعنى .

(٣) هَشَّ بِه يَهَشُّ : إذا ارتاحَ لَه ، وخَفَّ إليه .

(٤) الهفوات .

وصبر ، وقال : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون . » ولهذا أنزل الله تعالى فى وصفه :
« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ . »

وقد رُوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوماً يمشى ومعه أنس بن مالك ، فأدركه[١] أعرابى ، فجذبه جَذباً شديداً ، وكان عليه بُردٌ[٢] غليظ الحاشية[٣] . ـ قال أنس رضى الله عنه حتى نظرتُ إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثَّرت فيه حاشية البُرْدِ من شدة جَذبه ـ فقال الأعرابى : يا محمد ، هبْ لى من مال الله الذى عندك .

فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضحك ، ثم أمر بإعطائه ما أراد . ولم يغضب المصطفى الكامل مما فعله الأعرابى الفظ .

وقيل : إن أبا عبد الله الخياط كان يجلس فى حانوته ، وكان له حَرِيفٌ[٤] مجوسى يعامله فى الخياطة ، فكان إذا خاطَ له شيئاً حمل إليه المجوسى دراهم زائفة ، فكان أبو عبد الله يأخذها منه ، ولا يخبره بذلك ، ولا يردها إليه . فحدث يوماً أن أبا عبد الله ترك الحانوت وقام لبعض حاجته ، فأتى المجوسى ، فلم يجده ، فدفع إلى غلامه الأجرة ، وأخذ ما قد خيطَ له ، وكانت الأجرة درهما زائفا . فلما نظر إليه الغلام عرف أنه زائف . فردَّه إليه .

فلما عادَ أبو عبد الله أخبره الغلام بما حدث .

فقال أبو عبد الله : بئسَ ما فعلتَ . إن هذا المجوسى يعاملنى بهذه المعاملة منذ سنة ، وأنا أصبر عليه ، وآخذ الدراهم منه ، وألقيها فى البئر ؛ لئلا يغش بها مسلما آخر .

---

(١) لحقه . (٢) البُرْدُ : نوع من الثياب ، جمع بُرودٌ ، وأبرادٌ

(٣) الحاشية : جانب من جوانب الثوب . (٤) فلانٌ حَرِيفِى أى مُعامِلِى .

وقيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم ؟

فقال : من قيس بن عاصم .

قيل : وما بَلَغَ من حلمه ؟

قال الأحنف : بينما هو جالس فى داره إذ أتته جارية له بسَفُّودٍ[١] عليه شِوَاء[٢] ، فسقط السَّفُّود من يدها ، فوقع على ابن صغير له ، فمات فى الحال . فخافت الجارية خوفاً شديداً.

فقال لها قيس : لاتخافى، أنت حرةٌ لوجه الله تعالى .

وقيل : شتم رجل الأحنف بن قيس ، وهو لايجيبه . واستمر الرجل يتبع الأحنف. فلما قرب من الجهة التى يسكنها وقف وقال للرجل : إن كان قد بقى فى نفسك شىء فقله ؛ كى لا يسمعك بعض سفهاء الحىِّ[٣] فيؤذوك .

ورُوى أن عليا كرم اللهوجهه دعا[٤] غلاما له ، فلم يجبه ، فدعاه ثانيا وثالثا فلم يجبه . فقام علىٌّ إليه ، فرآه مضطجعا ، فقال له : أما تسمع يا غلام ؟

قال : بلى .

قال على : فما حملَك على ترك إجابتى ؟

قال : أمِنت عقوبتك ، فتكاسلتُ .

فقال على : امض[٥] ، فأنت حرٌّ لوجه الله تعالى .

وهذا منتهى الحلم والنبل وحسن الخلق .

فحسن الخلق هو الإيمان . وسوء الخلق هو النفاق .

مشكلة الأخلاق اليوم :

إننا نأسف كل الأسف إذا قلنا إن لدينا شبانا فى الجامعات مسلمين بأسمائهم ، لا يعرفون عن الإسلام شيئا ، لا يُصلون ولا يدركون كيف تكون الصلاة . تجدهم

---

(١) السَّفُّود : الحديدة التى يُشْوَى بها اللحم . (٢) لحم مَشوِىٌّ .

(٣) الحىُّ : واحد أحياء العرب : الجهة . (٤) ناداه . (٥) اذهب .

فى مقصف الكلية يدخنون ويأكلون ويشربون ، والمسلمون فى رمضان صائمون . لقد فقد هؤلاء الشبان شعورهم الدينى ، وإحساسهم الروحى ، وصاروا لا يشعرون ولا يحسون . يتشبهون بالنساء فى ترك شَعر رءوسهم ينمو ، فهم أشباه رجال وليسوا برجال . وإذا حدثتهم عن الواجبات الدينية وما يتطلبه الدين أجابوك : « مَا نَفْقَهُ[1] كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ » . ولا تعجب ؛ فقد « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ[2] . » فهم « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ، فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ » . ولا يسمعون ، ولا يتكلمون ، ولا يرون شيئا . « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ[3] مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ، وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ[4] ، وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ[5] . »

« إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى[6] وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا[7] مُدْبِرِينَ[8] » .

وقد كان احتلال البلاد الإسلامية عشرات السنين سببا فى انصراف الشبان عن دينهم ، والتفكير فى الناحية المادية وحدها ، وهجر الناحية الروحية ، والتفكير فى العلوم التى تؤدى إلى كثرة المال ، والكليات العملية التى يجد المتخرج فيها بدلا للتفرغ ، أو بدلًا للعيادة الطبية . فالتفكير اليوم كله موجه نحو المادة والمال ؛ فالمال هو الشغل الشاغل لجيل هذا العصر . فالكل أصبح لا يفكر إلا فى الراتب والعلاوة والدرجة ، والترقيات ، والوسائل التى بها يجمع بين الراتب والمعاش . والمادة حديث الشبان والكهول فى كل مجتمع من المجتمعات . فالحياة الآن مادية ، والتفكير الآن لا يخرج عن المادة والمال . والتربية الدينية تربية اسميّة لا أثر لها بين شباب هذا العصر .

وبإهمال التربية الدينية انهارت الأخلاق وصارت البلاد الإسلامية فى أزمة خلقية ؛ فنحن لا نشكو الجهل والفقر والمرض ، ولكننا نشكو سوء الأخلاق ، فى كل ناحية

---

(١) لا نفهم . (٢) سورة البقرة : ٧ . (٣) أغطية . (٤) صمم لا تسمع ما تقول .
(٥) سورة فصلت : ٥ . (٦) الكفار ، شبهوا بالموتى فى عدم انتفاعهم بالأدلة .
(٧) مبالغين فى الإعراض . (٨) سورة النمل : ٨٠ .

من نواحى الحياة . فقد انتشرت الأَثَرَةُ وحب النفس ، وأصبح كل فرد لا يفكر إلا فى نفسه ، يريد أن يُتْخَم ويموت غيره جُوعاً ، وانتشر الملق والنفاق ، والكذب والغش ، والاحتكار ، والتضليل والرشوة والسرقة والاختلاسات . . . . وانتهى عهد الإيثار ، والتفكير فى الجار ، والإحسان إلى القريب والبعيد ، واليتيم والمحروم ، بحيث لا تعلم شمالك ما أعطت يمينك . انتهى الزمن الذى كان يفعل فيه الخير خالصا لوجه الله ، وابتغاء مرضاته ، وصرنا فى زمن لا يعرف فيه بر الوالدين . فالأب فى أمريكا إذا كبرت سنه أخذه ابنه وسلمه إلى الملجأ ليتعهده . وهذه هى المدنية الأمريكية اليوم .

الفصل الرابع

السلام روح الإسلام

الدعوة إلى الإسلام :

إن صاحب الشريعة الإسلامية هو محمد بن عبد الله الأمى العربى ، الذى أرسله الله تعالى إلى الناس كافةً بشيراً ونذيراً ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيراً ؛ ليجمع بهديه القلوب المتفرقة ، والنفوس القاسية ، ويزيل التنازع بين الناس ، ويأمر بطاعة الله وتوحيده ، وينهى عن معصيته والإشراك به ، ويعرفهم ما يتعلق بحقوق العباد لتقديرها واحترامها ، فيتبعوا فى شأنها شرعه المسموع ، وينقادوا إلى دينه المتبوع ، دين الفطرة والعقل والمنطق والبساطة واليسر .

ولما جاء رسول الله قومه برسالته كان موقفهم منه موقف الأمم السالفة من أنبيائها ورسلها ، فصدقه فريق هداه الله . وكذبه فريق حقّت عليه الضلالة ، وقيل له ما قيل للرسل من قبله . وكانوا حينما بلغهم أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم ، قالوا : لعن الله اليهود والنصارى ، لو أتانا رسول لنكونَنَّ أهدى من إحدى الأمم . « فلمَّا جَاءهم نذيرٌ مازادَهم إلّا نفُوراً ، استِكباراً فى الأرضِ ، ومَكرَ السَّيِّئ » .

وكيف يخضع أبو جهل أو عتبة بن ربيعة أو غيرهما من كبار قريش إلى محمد بن عبد الله ، ذلك الفتى اليتيم الفقير الذى لا يملك كفاف أهله ؟ وكيف يصبحون منقادين إلى شريعته وهم سادة قومهم وقادتهم ، وذوو الكلمة العليا فيهم ، وهو لاجاه له ، ولا مال ولاسلطان ، ولاسليقة فى الشعر ، ولا شيء مما يكسبه المكانة والمهابة حتى يرقى إلى مستوى الآمر الناهى ، الذى يأمر وينهى ؟ وهل يليق بهم أن يتدينوا بدين يسوى

بين الملوك والسوقة ، والأغنياء والفقراء فى الحق ؟ بل عجبوا أن جاءهم فى زمنهم ، واستدلوا بكونه إنسانا من البشر على كذبه فى ادعاء الرسالة ؛ لاعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكا .

ولما تقدم إليهم بمعجزته التى لامثيل لها ـ وهى القرآن الكريم ـ قالوا : « إنْ[1] هذا إلاَّ إفكٌ[2] افتراهُ وأعانَه عليهِ قومٌ آخرونَ . . . » .

وقالوا : « أساطيرُ[3] الأوَّلينَ اكتتَبها ، فَهِى تُملَى عَلَيهِ بُكرةً وَأَصيلاً » .

« وَقالَ الَّذين كَفَروا لِلحقِّ لَمَّا جاءَهم إنْ[4] هٰذا إلاَّ سِحرٌ مُبينٌ » .

« وإذَا قيلَ لهم اسْجُدُوا لِلرحمٰنِ قَالوا : وَما الرحْمٰنُ ؟ أَنَسجُدُ لِما تَأمرُنا ؟ وَزادَهُم نُفوراً » .

وقد تحداهم الرسول الأمين بأن يأتوا بسورة من مثله ، فأعجزهم ، ولم يستطيعوا ، وعلموا حق العلم أن القوة البشرية دون مكانته من البلاغة ، فكان من الواجب عليهم أن يعدوا هذا العجز دليلا على أن القرآن من عند الله ، جاء على لسان رسول الله ، محمد ابن عبد الله ، لكنهم لم يفعلوا ، ولم يعترفوا بإعجاز القرآن ، « بل قالوا أضغاثُ أحلامٍ ، بل افتراهُ ، بل هُوَ شاعر » .

وقد عومل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاملة كلها قسوة وغلظة فى بدء دعوته ، فحماه عمه أبو طالب ، وحمى دعوته . وبعد أن توفى عمه أبو طالب اضطر إلى أن يعرض نفسه على القبائل لإيوائه وحمايته ، حتى أمره الله بالهجرة إلى أهل غير أهله ، ودار غير داره ، بعد أن أجمع أعداؤه من قريش وتآمروا على قتله ، ليستريحوا منه ، فلم يفلحوا . ومع ذلك كله لم تكف قريش عن إيذائه ، وطلبه وتتبعه حيثما كان ، بل غاظهم كثيراً أنه وجد دارا يهاجر إليها ، فأعدوا العدة لقتاله فى دار هجرته ، ليخرجوه منها كما أخرجوه

---

(١) ما هذا . (٢) كذب اختلقه . (٣) الأساطير : الأباطيل . جمع أسطورة .
(٤) إن نافية : بمعنى ما .

من مكة . فما الذى يصنعه رسول الله وموقفهم منه هو هذا ؟ ألا ينبغى عليه ـ وقد صار فى عز وَمنَعة ، ومال وقوة ـ أن يفكر فى العودة إلى مكة ؛ ليخضع قريشا بعد أن أذن الله له فى القتال ، وأمره بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ؟

لكن رسول الله لم يهاجم ، ولم يقف موقف الهجوم ، ولكنه وقف موقف المدافع فقط ، حتى جاءته قريش فهاجمته ، وعند ذلك فقط قام ليدافع عن نفسه وقومه ودعوته . وهذا هو الجهاد المشروع فى الدين الإسلامى . وتتسع دائرته فيكون لحماية الدعوة الإسلامية ، والمستجيبين إليها مطلقا ، ولو كانوا فى السجون بمكة يعذبون ليعبدوا اللات والعزى ، والأصنام والأوثان . « وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا ، وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا[1] » .

وتتسع دائرة الجهاد فى الإسلام فتشمل إزالة العقبات من طريق الدعوة ، حتى تأخذ طريقها المشروع لها ؛ لأن الدعوة الإسلامية دعوة حق وعدل وإنصاف ، يجب ألا يحول بينها وبين الناس حائل . ويمكننا أن نقول : إن موقف المسلمين من مخالفيهم فى العقيدة الدينية لم يكن عدائيا ، ولكنه كان موقف دفاع لا موقف هجوم .

ولم يكن القتال أساساً للعلاقات بين المسلمين وغيرهم ، ولكن السِّلم كان هو الأساس . وإن إذن الله للمسلمين بالقتال لم يكن لإكراه الناس على العقيدة الإسلامية ، بل لحماية الدعوة إلى الإسلام وحماية أصحابها فقط . ولو لم يَثر المشركون من قريش فى وجه الدعوة ، ويؤذوا الرسول ومن تبعه من المسلمين ، ويهاجموا محمدا حيث هو ـ ما شهر عليهم المسلمون سيفا ، ولا أراقوا دما .

أما اليهود من أهل المدينة فقد عاهدهم الرسول عندما دخل المدينة ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ودينهم ، فنقضوا العهد ، وخانوا الميثاق[2] ، وحسدوا رسول الله على

---

(١) سورة النساء : ٧٥ . (٢) العهد .

ما آتاه الله من فضله ، وزعموا أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، فكانوا يريدون أن يكون الرسول منهم ، ولا يصح فى زعمهم أن يكون من غيرهم . ومن أجل ذلك لم يطيقوا كتمان ما أضمروه له من العداوة ، بل جاهروا بالعداء فى مواضع شتى ، فانتهكوا حرمة الدين ، ونقضوا المعاهدة ، فى شخص امرأة باعتدائهم علناً على مسلمة قصدت سوقهم لمصلحة ، وخانوا الميثاق ، فدبّروا مؤامرة لقطع دابر المسلمين فى شخص نبيهم ، وأرادوا اغتياله ، ونقضوا العهد بتحريض الأحزاب ضده ، أو الانضمام إليهم لمحاربة رسول الله .

ومن ذلك يتبين أن القتال فى الإسلام كان تدبيرا وقتيا لأسباب خاصة محدودة ، وأن المسلمين اضطروا إليه اضطرارا ، وحملوه تحميلا . وإن الأسلام يأبى على المسلمين أن يقتلوا من يخالفهم فى العقيدة والدين لمجرد هذه المخالفة ، ويأبى عليهم أن يُكْرِهُوا الناس حتى يكونو مؤمنين .

مبادئ الإسلام فى إقرار السلام :

لقد اعتُدِى على الإسلام فى بدء الدعوة إليه ، مع أنه رسالة من الله ، نزلت لتطهر قلوب الناس من آفات الشرك وعبادة الأوثان . فإذا رماه المتعصبون من خصومه بأنه كيف يشرع الحرب فى الوقت الذى يدعو فيه إلى تخليص القلوب من الميول العدوانية ، فليس لذلك من رد إلا أن الحرب التى شرعها الإسلام دفاعا أو هجوما — كانت أمراً طبيعيا ، تدعو إليه الغاية التى جاء من أجلها ؛ لأنه لم يكن دعوة خاصة كغيره من الأديان ؛ ولأنه جاء لإقرار السلام والطمأنينة فى العالم عن طريق الإيمان بدين واحد ، وهو دين الله الذى ارتضاه لعباده ، فإنه إذا توحدت المذاهب والأغراض والغايات أمن الناس بعضهم بعضا ، وعاشوا جميعا سعداء فى ظل السلام ، والمحبة والوئام .

وليس أدل على ذلك مما عليه العالم اليوم من تناحر ، فهذه كتلة الأمم الشرقية لها مذاهبها ومبادئها ، وهذه الدول (الرأسمالية) ، التى تسير على مبدأ استعمار الشعوب

الضعيفة ، وسلب خيراتها ، ونهب محصولاتها . كتلتان متناقضتان كل التناقض ، والعالم بينهما فى شد وجذب ، وقلق واضطراب ، إحداهما تدعو إلى السلام ، والأخرى تدعو إلى الحرب ، ولن يصلح حال الناس فى الأرض والعالم إلا بسيادة المحبة والسلام .

ومن أجل ذلك جاء الإسلام لينشر مبادئ السلام ، وروح المحبة والوئام . فلما قاومته السلطة المسيطرة على مصاير الناس فى العالم فى ذلك الحين ، وصدته عن سبيله اضطر إلى تحكيم السيف تحقيقا للسلام . فالإسلام لا يعرف الحرب العدوانية القائمة على مبادئ التوحش والبربرية ، وهى التى تقوم بها اليوم دول الاحتلال أو الاستعمار للتحكم فى الشعوب ، والاستيلاء على ما فيها من خيرات وموارد بأبخس الأثمان ، فلم تكن الحرب التى شنها الإسلام من أنواع تلك الحروب الاستعمارية ، التى تفرضها الدول القوية الاستعمارية على غيرها من الأمم الصغيرة الضعيفة ، وإنما كانت حربا تستهدف الإصلاح الاجتماعى الشامل ، وإقرار مبادئ السلام بين الناس ، وصد كل من تحدثه نفسه بالاعتداء على الإسلام ؛ ولذلك رضى الإسلام من أهل الديانات الأخرى أن يظلوا على دينهم ، على أن يدفعوا الجزية ، حتى تكون دليلا على المسالمة ، وعدم التفكير فى الاعتداء .

إن الإسلام دين الحرية والمساواة والسلام ، لأنه ضد الاحتلال ، واستغلال الشعوب الضعيفة لوجود القطن أو الفحم أو (البترول) أو الذهب فيها ، ضد الاستعمار والاستعباد والتفرقة العنصرية ، والحرب ، ولم يحارب فى يوم من الأيام للتحكم فى وطن من الأوطان ، أو السيطرة على شعب من الشعوب ، بل حارب للدفاع عن النفس والوطن ، والحرية الدينية ، والعقيدة الإسلامية ، حارب لجعل كلمة الله — كلمة الحق — هى العليا .

وإن من يتأمل الآيات الشريفة التى نزلت فى تشريع القتال يجد فيها ما يوصى وصاة

مؤكدة بوجوب العدل فى الحرب ، وعدم التمادى فى العدوان وتعقب المهزومين . قال تعالى : « وإن جنحوا [١] للسَّلم فَاجنحْ لهَا ، وتوكَّلْ عَلَى اللهِ » .

وقد روى أن أسامة بن زيد تعقب مهزوما فى إحدى الغزوات، حتى صعد وراءه فى الجبل ، فلما رأى الرجلُ السيف يكاد يهوى عليه نطق بالشهادتين : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » ، ولكن أسامة لم يلتفت إلى إسلام الرجل فى هذا الموقف ، ثم قتله .

وبلغ الخبر النبى صلى الله عليه وسلم ، فاستقدم أسامة ، ولامه لوماً شديدا على ما فعله ، فقال أسامة : يا رسول الله ، إنه نطق بالشهادتين خوفا من السيف ؛ لكى ينجو بنفسه .

فقال النبى منكرا عليه قوله : « يا أسامة ! أشَقَقْتَ عن قلبه ؟ » فهذه الرواية دليل على أن روح الإسلام هى إيثار السلام دائما ، فقد عنف النبى أسامة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى أن مجرد النطق بالشهادتين يعصم دم الرجل .

وشن الإسلام الحرب من أجل احترام العهود والمواثيق ، قال جل شأنه : « وَإِن نَّكَثُوٓاْ [٢] أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ [٣] ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ [٤] » .

لقد كانت حرب الإسلام لتقرير السلام الدائم الذى يسعد الناس فى ظله ، فتنصرف عقولهم إلى الإبداع ، والابتكار والإنتاج من أجل السلام ، والدليل على ذلك أن العالم بعد انتشار الإسلام غمرته موجةٌ من السلام والأمن والطمأنينة ؛ فقد استقرت الأوضاع الاجتماعية فى الأمم ، وتمتع الناس جميعا بحقوقهم المشروعة . ولا ينكر هذه الحقيقة التاريخية إلا كلُّ جاحد مكابر متعصب .

---

(١) جنح : مال . (٢) حنثوا فى أيمانهم ، ونقضوا عهودهم . (٣) صناديده وزعماءه .
(٤) سورة التوبة : ١٢ .

الإسلام يدعو إلى السلام

لم تقم دعوة الإسلام على السيف :

لا يمكن أن يشك إنسان منصف فى أن الدين الإسلامى دين يدعو إلى السلام ، ولم يكن دين حرب وقتال بالمعنى الذى يفهمه أعداء الإسلام ، بدليل أنه حينما دعا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فى مكة كان يعتمد فى دعوته إلى العقل والمنطق والأدلة الإقناعية . وقد سلك الرسول الكريم هذا الأسلوب حينما أمر بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى فى سورة الحجر : « فَٱصْدَعْ[1] بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ[2] . » فأعلن لقومه الدعوة إلى الله وتوحيده ، وأخذ يدعو قومه فى لين ورفق . ويقرأ عليهم القرآن ، ويطالبهم بالدخول فى دين الله ، مبينا لهم أنه دين الحق والفطرة السليمة ، وأن الله تعالى هو الذى خلق الخلق ، وهو القادر على إعادته بعد الموت ، « وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ[3] » أما الأصنام التى تعبدونها فإنها لا تملك لكم من الله شيئا ، ولم يترك صلوات الله عليه بابا من أبواب الإقناع والمجادلة الحسنة إلا طرقه ، ولكن قومه عَمُوا عن الطريق المستقيم ، وصموا عن الحق ، وأصروا على معارضتهم ، واستكبروا استكباراً ، وأمعنوا فى إيذائه بكل الوسائل ، حتى كانت الهجرة من مكة إلى المدينة ، وابتدأ الإسلام ينتقل من عهد إلى عهد ، فأصبح فى المدينة دعوة ودولة معاً .

الإسلام لم ينتشر بالسيف :

لم ينتشر الإسلام بالسيف كما يدعى المدعون . فقد اضطر المسلمون فى صدر الإسلام إلى الهجرة إلى الحبشة فرارا من الاضطهاد والتعذيب ، واضطر الرسول إلى الهجرة إلى المدينة بعد أن لقى كثيرا من الشدائد من أعداء الإسلام ، واحتمل المسلمون كثيرا من الظلم والعذاب .

لم ينتشر الإسلام بالسيف ، بل انتشر بقوته المنطقية ومبادئه الإنسانية ، وصلاحيته لكل زمان ومكان . وليسره وسهولته وتسامحه ، وموافقته للعقل والمنطق والطبيعة .

---

(١) فاجهر بما أمرت به وأظهره . (٢) سورة الحجر : ٩٤ . (٣) سورة الروم : ٢٧ .

انتشر فى الهند وباكستان والصين وأندونيسيا وجزائر جاوه وكثير من البلاد الإفريقية والآسيوية بلا سيف ولا حرب . وسينتشر فى جميع بلاد العالم إن شاء الله .

ولنشر الإسلام لم يحتج المسلمون إلى مبشرين ينتشرون فى القارات للدعاية الكاذبة ، ونشر الأباطيل والأكاذيب ، فانتشر لأنه دين الفطرة والفكر السليم ، والعدالة والمساواة .

ولعبادة الله لا يحتاج المسلم إلى أن يكون فى معبد معين ، ولا يحتاج إلى كاهن يعترف له ، ويطلب منه التوسط له فى العفو والمغفرة من الله . فهو يعبد الله فى أى مكان ، وكل زمان . قال تعالى : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ . »

وقال الرسول : « جُعِلَت لِى الأَرضُ مَسْجِدًا، وَتُربَتُها طَهورًا . »

ففى كل بقعة على وجه البسيطة ، وتحت السماء يستطيع المسلم أن يتجه إلى الله ويعبده فى كل لحظة ، وكل وقت .

ولم يكن الإسلام كغيره من الأديان السابقة كاليهودية مثلا ؛ فقد كانت اليهودية عقيدة دينية ، تعصب لها أهلها ، وكرهوا أن يشاركهم فيها غيرهم .

أما الإسلام فقد نشأ فى وطن عربى يعتز بحريته ، فلا سيطرة لأجنبى عليه . ولم يكن ديناً خاصا ، بل كان دعوة عامة لجميع البشر ، لذلك جاء بالأصول التى لا بد منها لإصلاح معايش الناس ، وإقامة نظام جديد من المعاملات ، تحترم فيه حقوق الناس ، وإنشاء مجتمع يقوم على إقرار دعائم الأمن والنظام ، والحرية والمساواة ، وكان ذلك بعد مدة طويلة من التاريخ مرت بالعالم ضاعت فيها العدالة ، وانتشرت المظالم ، وضاعت الحقوق ، واستعبد الأقوياء الضعفاء من الأمم والأفراد .

لقد اضطر رسول السلام إلى الالتجاء إلى السيف كى ينتصر الإيمان والحق على الباطل . فليس وضوح دعوة الإيمان وسلامتها من الناحية العقلية والمنطقية بكاف فى إلزام العقول المكابرة بالتسليم ؛ لذلك كان لا بد من قتال كفار قريش الذين حاربوا دعوة الرسول ،

وآذوه ، وأكرهوه على الهجرة ، ومن أجل ذلك شرع القتال . وقد بنى القتال فى الإسلام على مبدأين سليمين :

(١) الدفاع عن النفس عند التعدى .

(٢) الدفاع عن الدعوة إذا وقف فى سبيلها معتدٍ أثيم ، أو حاول الاعتداء على من اعتنقوا الإسلام راضين مختارين ، أو منع من يريد الدخول فى الإسلام ، أو وقف فى طريق صاحب الدعوة إلى الحق ، وحال بينه وبين العمل على نشر دعوته .

وإن أول آية نزلت فى الإذن بالقتال والجهاد قوله تعالى فى سورة الحج : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ . ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ[١] . »

ويتضح من هذه الآيات الكريمة أن الله تعالى أذن للمؤمنين فى القتال ، وبيّن السبب فى ذلك ، وهو أن الكافرين قد ظلموهم ، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق ، إلا قولهم ربنا الله ، يعنى أنهم لم يظلموا أهل مكة إلا بسبب اعتقادهم فى الله . ثم أوضحت الآيات بعد ذلك أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت أماكن العبادات على اختلاف أشكالها ونحلها ، من صوامع للرهبان ، وكنائس للمسيحيين ، ومعابد لليهود ، ومساجد للمسلمين يذكر فيها اسم الله كثيراً ، وتنقطع العبادات بخرابها . ولينصرن الله من ينصر دينه وهو الإسلام . ثم وصفت الآيات المؤمنين الذين أذن الله لهم فى القتال بأوصاف ، منها : أنهم هم هؤلاء الذين إذا نصرهم الله أقاموا الصلاة ، وأعطوا الزكاة لمستحقيها ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر .

والآية الثانية قوله تعالى فى سورة البقرة : « وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ

---

(١) سورة الحج : ٣٩ — ٤١ .

وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ. وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ(١) وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ. فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ. ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ(٢). »

وقد أوضحت هذه الآية الكريمة أن القتال الذى أذن الله فيه ، وسمح به ، إنما هو قتال أولئك الكفار الذين بدءوا قتال المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وعملوا على أن يفتنوهم فى دينهم ، بما صبوه عليهم من صنوف الأذى والظلم والتعذيب ، كما بينت أن الغاية من القتال هى أن يكون الدين كله لله ، ومعنى هذا أن يكون الإنسان حرا فى دينه ، لا يدين به إلا لله ، لا خوفا وطمعا ، ووضحت أن الفتنة أشد من القتل ؛ لأن فيها اعتداء على العقيدة والوجدان ، وذلك من شر ما يكون من بنى الإنسان من اعتداء . وقد نهت الآيات عن الاعتداء والظلم ، وبينت أن الله لا يحب المعتدين الظالمين ، وهم الذين يبدءون غيرهم بالشر والعدوان ، كما بينت أن تأديب المعتدى لا ينبغى أن يتجاوز الحد الذى وصل إليه من عدوان ، « فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ». وهذا مثل للعدالة الإسلامية المطلقة . « واتقوا الله » إذا انتصرتم ، ولا تعتدوا على من تنتصرون عليهم

ومن الواضح أن الله أمر رسوله الكريم بقتال قريش ، كما يظهر واضحا من آيات سورة الحج ، فلما انضم يهود المدينة الذين نقضوا عهودهم ، وخرجوا عليها ، أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين واليهود معاً ، يقول الله تعالى فى سورة التوبة :

« قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

(١) وجدتموهم . (٢) سورة البقرة : ١٩٠ — ١٩٤ .

وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ[١] وَهُمْ صَٰغِرُونَ[٢] . »

ولما اتفق أعداء الرسول جميعاً من مشركى مكة والقبائل العربيــة التى تظاهر أهل مكة ــ على محاربة المسلمين أمر الله تعالى الرسول صلى الله عليــه وسلم والمسلمين جميعاً أن يقاتلوا المشركين كافة . قال تعالى : « وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً . وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ . » فالعلة فى الأمر بالقتال هنا هى اتحـادهم على المسلمين ، ووقوفهم فى نشر الدعوة الإسلامية .

ومما تقدم يتضح كل الوضوح أن القتال لم يشرع لإكراه الناس على اعتناق الإسلام، بدليل تلك الآيات الـكثيرة التى وردت فى القرآن الـكريم ، وتدل فى صراحة على النهى عن الإكراه فى الدين ، وتحث على اتباع الأساليب السليمة فى نشر الدعوة الإسلامية.

قال جل شأنه يخاطب الرسول المصطفى : « ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ[٣] . » وقال تعالى :

« ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ[٤] . »

وقال : « لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ[٥] » . أى قد اتضح الحق من الباطل ، والنور من الظلام .

وقال تعالى : « فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ » .

وقال : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[٦] . »

وقال : « مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ[٧] . »

وقد وصفت الآيات المـكية ما تحمله الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أذى شديد،

(١) قدرة . (٢) سورة التوبة : ٢٩ . (٣) سورة النحل : ١٢٥ .
(٤) سورة فصلت : ٣٤ . (٥) سورة البقرة : ٢٥٦ . (٦) سورة المائدة : ١٠٥ .
(٧) سورة الروم : ٤٤ .

وما تذرع به صلوات الله عليه من صبر طويل ؛ رجاء أن يهتدوا ، وأن يدخل الإيمان فى قلوبهم ، ولكنهم كانوا يقابلون هذا الصبر الجميل ، والتسامح الكثير ، والعفو والمغفرة ، والصفح عن الأذى بالمبالغة فى العدوان والإيذاء .

فمنطق الآيات المكية يوضح أن منهج الرسول الكريم فى دعوة قومه إلى الحق كان قائماً فى أول الأمر على الأخذ بالعفو ، والأمر بالعرف ، والإعراض عن الجاهلين . وقد حاول كفار مكة أن يعرضوا على الرسول نوعا من المصالحة ، فقد قالوا : يا محمد ، تعبد آلهتنا سنة ، ونعبد إلهك سنة ، فرفض الرسول إجابتهم إلى طلبهم فى رفق . يقول الله تعالى فى سورة الكافرين : « قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ . لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ » .

وفى هذا ما يدل دلالة قاطعة على أن منطق الدعوة إلى الدين الإسلامى كان قائماً على البرهان والإقناع بالدليل والمجادلة الحسنة ، لا بالسيف والحرب . وغنى عن التعريف أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان لا يعتمد فى دعواه إلا على العقل والمنطق ، والإقناع بالحكمة والموعظة الحسنة .

فالمنصفون من الباحثين يرون أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ، ولم يأمر بإراقة الدماء ، كما يتضح من الآيات القرآنية المتعددة . وعجيب أن يدعى المتعصبون انتشاره بالسيف ، مع أن الرسول حين دعا إلى الدين الإسلامى كان وحيداً لا أحد معه ، ولا سلطان له ، وقد عاداه وآذاه أقرب الناس إليه . ولكنه صلى الله عليه وسلم صبر وثابر ، واستمر يدعو الخلق إلى الطريق المستقيم ، وإلى الدين الحق بالحسنى ، وأثبت لهم بالعقل والمنطق محاسن الإسلام ، ومُثله العليا ، فأقبل من هداهم الله على دينه طائعين مختارين ، واثقين مؤمنين ، لم يُخِفهم أحد ، ولم يُرهبهم شىء .

ولم يدخل محمد فى حرب إلا مضطرًا . وقد روى عن عائشة رضى الله عنها : « ما خُيِّرَ

رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرَهما ، ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعدَ الناس عنه». وقد بين الله ذلك فى قوله: «وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ[١]».

ومما يدل على أن الإسلام قد انتشر بقوة الإقناع ، والرجوع إلى العقل والمنطق ، والمجادلة بالحسنى قوله تعالى : « وَلَا تُجَادِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ[٢] وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ[٣] مُسْلِمُونَ[٤] . »

فالإسلام لم يمسك السيف إلا لمحاربة الظلم ، والدفاع عن الحق والنفس، والمظلومين . ولم ينتشر إلا بالإيمان والصبر وإنكار الذات .

المبادئ التى أقرها الإسلام لتوطيد أركان السلام

كان الإسلام حريصاً كل الحرص على تضمين جميع تعاليمه الحكيمة ، ومبادئه السامية — العمل على نشر ألوية السلام فى العالم . ومن يتأمل آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ، وما أثر عن السلف الصالح يدرك كل الإدراك أن الإسلام لم يكن داعيا إلى الحرب ، وإنما جاء يدعو إلى السلام والمحبة ، فهؤلاء العرب قبل أن يدينوا بالإسلام كانوا فى اضطراب شامل ، وحرب مستمرة ، وتقاطع وتدابر ، وأحقاد وفتن. وكانت الجزيرة العربية مسرحاً للمعارك الدامية ، والمذابح المستمرة ، فما كادوا يدينون بالإسلام حتى استحالت حالهم فى الجزيرة من نزاع مستحكم ، وسلب ونهب ، إلى حال من السلام والوئام ، والاتحاد والألفة . وقد كان ذلك لأن الدين الإسلامى جمع قلوبهم على الإخلاص والمودة والألفة والحب والسلام ، بما اشتملت عليه أصوله ومبادئه من حب الخير للناس، والصفح عنهم ، وعدم ظلمهم ، والعفو عن سيئاتهم ، والسعى فيما يصلح أمورهم ، حتى يكونوا جماعات متعاونة متآلفة ، متحدة غير متخالفة .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٥ . (٢) بأن حاربوا المسلمين ، وأبوا أن يقروا بالجزية .
(٣) له مطيعون . (٤) سورة العنكبوت : ٤٦ .

يقول الله تعالى فى سورة الأنفال : ٤٦ « وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ . » أى قوتكم .

ويقول فى سورة الحجرات : ١٠ « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ[1] . »

ومن يرجع إلى صحائف تاريخ الأمة العربية يجد ما يؤيد ذلك ، أما فى بقية أجزاء العالم فقد حاول الإسلام إنشاء علاقات بين جميع الأمم، تقوم على أسس من التفاهم والتعاون ، ولكى يصل إلى ذلك أباح التزوج من الكتابية وهى التى تدين بغير الإسلام من الأديان السماوية ، وأمر زوجها المسلم بالإنفاق عليها ، وبألا يمنعها من مزاولة التعبد بدينها .

ولم يفرق الإسلام فى الحقوق الزوجية بين المسلمة والكتابية ؛ فقد نظر إلى الاثنتين نظرة واحدة ، وكان يستهدف من وراء هذه المصاهرة بين المسلمين وأهل الكتاب إيجاد علاقات من النسب تقوى الأواصر[2] بين الفريقين ، وتدعو إلى أنواع من التعاون والمساعدة ، كما أن إطلاق حرية العقيدة من أقوى الأسباب التى تدعو إلى إزالة الأحقاد من الصدور ، والقضاء على الفتن التى هى من أقوى عوامل الحروب .

وقد وقف الإسلام من الأمم التى كان يدعوها إلى اعتناق الإسلام موقفا سليما رائعاً ، كان له أثر عظيم فى قلوب العقلاء من هذه الأمم ، أما ذلك الموقف الحكيم فهو أن الإسلام كان يرضى بمصالحة هذه الأمم على أساس أن تدفع الجزية فى مقابل أن تكون لها الحرية المطلقة فى أن تظل على عقائدها ، وكانت الغاية التى يسعى إليها الإسلام من دعوة غيره من الأمم إلى الدخول فى دين الله هى العمل على إيجاد وحدة دينية متكافلة ، وكتلة سياسية متساندة ، فإن وحدة العقائد والأفكار والمبادئ تؤدى إلى نوع من السلام الدائم فى العالم كله .

وما كان للإسلام أن يرغم الأمم الأخرى على الدخول فى طاعته ، بدليل أنه رضى منهم أن يدفعوا الجزية على أن يستمروا على عقائدهم كما يشاءون . أما الجزية التى فرضها

(١) قد بحثنا ذلك بالتفصيل فى موضوع : التضامن والتعاون فى الإسلام . (٢) الروابط والعلاقات .

فكان الغرض منها أن تكون رباطا لعلاقات الود والصداقة وعدم الاعتداء ؛ ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خاصمته يوم القيامة » .

وإن الإسلام يأبى على المسلمين أن يقاتلوا من يخالفهم فى العقيدة لمجرد هذه المخالفة ، ويأبى عليهم أن يُكرهوا الناس حتى يكونوا مؤمنين ؛ لأنه علمهم أن العقيدة محلها القلب ، ولا سلطان للقهر والإكراه على القلوب . وإنما تبنى العقيدة على الإقناع بالحجة البالغة ، والاقتناع بالدليل والبرهان ، فى طمأنينة وهدوء ، وتفكير حر ، وروية غير مضطربة . وإن إكراه الناس على اعتناق الإسلام والسيوف مُصلَتة على رقابهم ، لا يحدث إلا رفاقا أهل نفاق ، يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم خوفا ليس غير . ومن ذا الذى يرضى أن يكون من شيعته منافقون لا يخلصون له ؟

ولو كان القتال فى الإسلام لحمل الناس على اعتناقه ما نهى رسول الله عن قتل الأطفال والنساء والصبيان ، والشيوخ والمرضى والرهبان . فالقتال كان للدفاع ولم يكن للهجوم .

فقد خاطب الله نبيه الكريم بقوله :

« إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ [1] . »

فالإسلام لم ينشر بالسيف ، ولكنه نشر بالإيمان والعقيدة ، والثقة والتصديق ، وحرر الشعوب المظلومة التى كانت تئن من جراء الظلم والعسف والجبروت . وفى معاملة الأسرى كان الرسول يقول لأصحابه :

« استوصُوا بهم خيراً » .

---

(١) سورة القصص : ٥٦ .

بماذا نستدل على أن الإسلام لم ينشر بالسيف ؟

فى تاريخ الإسلام أدلة ناطقة ، وشواهد كثيرة ، على أن خلفاء المسلمين فى كل عصر ، كانوا يوصون أتباعهم بحسن معاملة غير المسلمين ، واحترام عباداتهم . وكانوا يأمرون جنودهم بالمحافظة على أماكن عباداتهم ، وعدم التعرض للنساء والأطفال ومن فى حكمهم.

كما حث الإسلام الأبناء الذين أسلموا ولم يسلم آباؤهم على ألا يقطعوا صلتهم بآبائهم، وأن يعاملوهم بالمعروف، ويقدموا إليهم المساعدات، وأن يجمعوا بين الاحتفاظ بعقيدتهم، وحسن معاملة آبائهم .

يقول الله تعالى : « وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا ، وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ، ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ، فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .[١] »

ومن هذا كله يتضح أن طبيعة الدين الإسلامى مبنية على التسامح والرفق والرحمة ، وحسن معاملة الأعداء ، وهو يترك أمر الناس فيما يتعلق بسرائرهم وعقائدهم إلى الله سبحانه وتعالى . ومن مبادئه أنه يُجير من استجار به ممن لا يدين بالإسلام ، ويرعاه ويحميه ، ولا يخفى ما فى ذلك من حب الخير للناس، واقتلاع ما فى نفوسهم من عوامل الحقد والعداوة والبغضاء ، حتى يعيش الناس جميعاً فى محبة وسلام ، وصفاء ووئام .

هذا روح الإسلام ، وهذه مبادئه فى إقرار السلام . فإذا تأملت موقف المدنية الغربية اليوم من السلام ، وقد وصلت إلى أعلى قمتها ، تبين لك أن أعرق الدول فيما يسمونه النظام (الديمقراطى) تسخر علماءها وما لديها من موارد فى إثارة حرب عدوانية على الأمم الضعيفة ، لا لنشر مبدأ من المبادئ السامية ، ولا لحماية الأخلاق الفاضلة ، ولكن للاستعمار ، والاستيلاء على خيرات الضعفاء ، واستلاب حريتهم ، والتصرف فى شئون

---

(١) سورة لقمان : ١٥ .

بلادهم . إنهم يشهرون هذه الحرب ، ويهددون بها الأمم الضعيفة فى كل وقت ؛ حتى تسير فى ركبهم خاضعة ذليلة ، يملكون لها مالا تملك لنفسها .

هذه مدنية الدول الغربية اليوم ، وفى مقدمتها إنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة بأمريكا وبلجيكا وهولندا والبرتغال . وذلك موقفها جميعاً من السلام ، تعبئ الأساطيل فى البحار ، وتملأ الجو بالطائرات ، وتبعث بالجيوش الجرارة على الأرض ، لإذلال الناس وإخضاعهم واستعبادهم ، وحرمانهم حقهم فى الحياة والحرية ، يقتلون الشيوخ والشبان ، والنساء والأطفال ، ويعاملونهم معاملة وحشية بربرية ، لا لذنب جنوه ، بل ليكونوا عبيداً للاستعمار والمستعمرين ، (والرأسماليين) والإقطاعيين .

فأين هذه الحروب من حرب الإسلام ؟ كان الإسلام يحارب لإصلاح ما فسد من ضمائر الناس ، ولحماية العقيدة السليمة ، والنظام الاجتماعى الذى يحقق الخير للناس كافة . أما الحرب الحديثة التى تثيرها الأمم الاستعمارية اليوم فهى حرب ظالمة ، لا يقصد منها إلا التقتيل والتخريب ، وحرمان الناس حقوقهم ، وإخراجهم من بلادهم وديارهم ، والاستيلاء على أراضيهم وأملاكهم كما حدث فى فلسطين وإكراههم على السجود أمام قوى العسف والظلم والطغيان .

فهل لهؤلاء الكتاب المتعصبين الذين يرمون الإسلام بأنه دين حرب وقتال أن يرجعوا إلى أممهم الكبرى كأمريكا وإنجلترا وفرنسا وبلجيكا التى تستبيح القتل لاغتصاب الأراضى فى البلاد الصغيرة ، واحتلال ديار المقتولين بعد تعذيبهم وسجنهم وقتلهم ؛ ليسألوها : لماذا تفعل هذا ؟ ولماذا ترتكب هذه الجرائم الوحشية ؟ ثم كيف يفسرون ماحدث فى الجزائر ، وعمان ، والكونجو ، وكوبا ، وفيتنام ؟

وكيف يفسرون العدوان الثلاثى الغاشم على مصر فى ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٥٦ ؟ هل لهذه المجازر البشرية من سند يرجع إلى القانون أو الدين أو الإنسانية ؟ إنهم لن يجدوا إلا سنداً واحداً هو الاستعمار . وبعد ذلك فهل لهم أن يوازنوا بين حرب

الإسلام والحرب التي تريدها الأمم (الديمقراطية) التي تمثل العالم الحر المزعوم ؟

إنهم لو فعلوا ذلك ، وكانوا عادلين مع أنفسهم ، بعيدين عن التعصب لأدركوا كل الإدراك أن الإسلام كان يحارب من أجل السلام ، وإقرار مبادئ العدالة والحرية والأخوة والمساواة ، وأنه كان يشن هذه الحرب على الطغاة والظالمين والمستبدين الذين كانوا يسخرون الناس ويظلمونهم ، ويغرسون بذور الفتن التي تهدد السلام في العالم .

ولا يستطيع أحد أن ينكر موقف الرسول صلى الله عليه وسلم بالنسبة للحرب والقتال ؛ فإنه كان يكره الاعتداء كل الكره . وقد عاش صلوات الله عليه أربعين عاما في بيئة جاهلية تسودها الأحقاد والفتن والحروب ، ولم يعرف عنه في هذه المدة الطويلة من حياته أنه نازل أحداً في قتال ، أو وجه ضربة لأي إنسان . وكيف يكون منه ذلك وهو المفطور بطبيعته على حب السلم ؟ ومما يؤيد هذا الروح السلمى العظيم أنه قبل شروط صلح الحديبية ، وكانت شروطاً مجحفة بالنسبة للمسلمين ، بالرغم من أنه صلى الله عليه وسلم كان على استعداد لمنازلة أعدائه ، ولكنه فضل الصلح على الحرب ، على ما في الصلح من انتقاص لحقوقه . ولم يفعل الرسول ذلك خوفاً من عدوه ، أو ضعفاً منه ، ولكنه أراد أن يضرب المثل لقريش في حبه للتسامح ، وحبه للسلام ، ولكن حينما وجد العدو يستغل تسامحه ، وأن الدعوة أصبحت في خطر ، حمل السلاح للدفاع عن المسلمين ، وقاد أصحابه مرغماً .

ومما لا ريب فيه أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يحب السلم ، ولم يكن حبه له كحب الجبان للدعة والأمن والاطمئنان ، ولكنه كان يحبه لأنه الحالة الطبيعية التي يجب أن تستقر في العالم ، فإذا قاوم أصحاب السيطرة من الطغاة والمستبدين فكرة السلام شنها الرسول الكريم عليهم حرباً شعواء ؛ حتى يعترفوا بحقوق الضعفاء ، وعندئذ يسود السلم العالم كله .

ولا يفوتنا أن نقول إنه بعد فتح مكة أسلم أبو سفيان ، وشهد شهادة الحق بعد

كلام وحوار وجدال ؛ فقال العباس بن عبد المطلب : يارسول الله ؛ إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً .

فقال عليه الصلاة والسلام : « مَن دخلَ دارَ أبى سُفيان فهوَ آمِنٌ ، ومَن أغلق عليه بابَهُ فهو آمِنٌ ، ومَن دخل المسجدَ فهو آمن . »

وهذا مثل يدل على عظمة الرسول ، وأن الدعوة الإسلامية لم تقم على السيف ، ولكنها قامت على الإيمان الكامل ، والعقيدة الراسخة ، والحرية فى النقاش ، والمنطق السليم ، والرغبة القلبية ، والهداية الإلهية .

الدليل على أنه لا إكراه فى الدين الإسلامى :

ومما يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يجبر أحداً على أن يسلم ـ قول الله تعالى له : « إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ، فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ، وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ . [1] »

فالله أنزل القرآن الكريم على المصطفى صلى الله عليه وسلم بالحق ، ليبلغه للناس كافة ، فمن اهتدى وأسلم فاهتداؤه لنفسه ، ومن ضل عن الحق ، ولم يتخذ الإسلام دينا فضلالُه على نفسه. وما أنت عليهم بمهيمن ومسيطر حتى تجبرهم على اعتناق مالايريدون. فلهم الحرية والاختيار ، وليس هناك إكراه أو إجبار على اعتناق الإسلام . فهل هناك دليل أوضح من هذا ؟

(١) سورة الزمر : ٤١ .

الفصل الخامس

التسامح روح الإسلام

الإسلام يدعو إلى التسامح :

إن الإسلام دين يدعو إلى التسامح،والعفو والصفح عند المقدرة . وإن من يتسامح فى حقه ويعفو ويصفح عن المسىء إليه يكون نبيل الخلق ، عظيم النفس ، متسامياً عن الدنايا . انظر إلى قوله جل شأنه :

« ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ، نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (١) »

وقوله تعالى : « وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ، ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ (٢) . وَمَا يُلَقَّىٰهَآ (٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ، وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٤) . »

فالإسلام يقول : إن أساء إليك رجل فاعف عنه واصفح ، وقابل السيئة بالحسنة . وإن ذمك أحد فامدحه ولا تذمه ، وبذلك يصير كأنه صديق قريب إليك ، معتنٍ بأمرك ، مهتم بشأنك . ولا تتاح هذه الخلة الثمينة ولا يعمل بها إلا مَن اتصف بالصبر وقوة العزيمة وثبات القلب ، وكان له نصيب موفور من سعادة الحظ ، وكرم الخلق . فنحن مطالبون بأن نقابل الإساءة بالإحسان ، والذنب بالصفح والغفران ، والغضب بالحلم .

وقال تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ، وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ (٥) . »

---

(١) سورة المؤمنون : ٩٦ .
(٢) قريب .
(٣) أى ولا يقبل هذه الوصية .
(٤) سورة فصلت : ٣٤ .
(٥) سورة النحل : ١٢٦ .

وقال : « وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ »[١] .

فقال الرسول : « بَل نَصْبِرُ » .

وقال عزّ وجلّ : « وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا[٢] » .

فالإسلام يجيز أن ترد السوء بالمثل ، فتعاقب المسيء عقابا مماثلا ، ولكن المثل الأسمى في الإسلام ، أن تُحسن إلى من أساء إليك ، وتضبط شعورك ، وتعفو عمن ظلمك ، وتحيّي من حياك بتحية أحسن منها ، أو مثلها .

قال جل شأنه : « وَجزاء سَيِّئَةٍ سَيئةٌ مثلُها » . ثم قال بعد ذلك :

« فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » «وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَالِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ[٣] » .

فالإسلام يجيز المعاملة بالمثل ، ولكنه يشجع العفو والمغفرة ، وضبط النفس عند المقدرة . وهذا هو النبل وكرم الخلق ، والعظمة الإنسانية ، والتسامح في المعاملة ، وليس في ذلك شيء من الضعف مطلقاً .

تسامح الرسول في معاملة المشركين :

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت : قَدِمَتْ عَلَيَّ أمي وهِيَ مُشْرِكةٌ في عَهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : قَدِمَت عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ راغِبَةٌ[٤] أَفَأَصِلُ أُمِّي[٥] ؟

قال : « نعم ، صِلِي أُمَّكِ » .

فما أعظم تسامحك ونُبلك يا أعظم الخلق ، تأمر الابنة المسلمة بأن تصل أمها المشركة ، ولا تأمر بقطع الرحم عند الشرك .

---

(١) سورة النحل ١٢٧ . (٢) سورة النساء ٨٦ . (٣) سورة الشورى : ٤٣ .
(٤) طامعة فيما عندى تسألني شيئا . (٥) أتصدق عليها مع كفرها .

العفو والصفح عمن يتوب إلى الله :

وقال عز وجلّ يحث على العفو عن المذنب ، والصفح عن التائب من الناس : «وَلَا يَأْتَلِ [١] أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا [٢] أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ ، وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [٣] » .

فبين وجوب صلة الرحم والأقرباء ، والمساكين والمهاجرين ، مهما ارتكبوا من الذنب ، ونهى عن أن يحلف أولو الفضل أن يمنعوهم ما كانوا يحسنون به عليهم ، وأمرهم بالعفو عن المذنب ، والصفح عن التائب منهم ؛ فإن ذلك سبب لعفو الله ومغفرته .

الاستغفار والتوبة :

الاستغفار هو طلب المغفرة من الله سبحانه وتعالى ، بعد التقرب إليه ، والإقبال عليه . قال عز وجل : « ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً [٤] . وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰراً [٥] » .

وباستغفار الله ، والاتجاه إليه ، وعبادته ، والتقرب إليه تكثر رعاية الله للإنسان .

« مَن تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا ، ومن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعاً [٦] ، ومن أتاني يمشي أتيته هَرْوَلةً [٧] » .

قال الغفور الرحيم : « قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ [٨]

---

(١) ولا يحلف . (٢) أن يعطوا . (٣) سورة النور : ٢٢ . (٤) كثيرا متتابعا .
(٥) سورة نوح : ١٠ ـ ١٢ . (٦) الباع : قدر مدّ اليدين . (٧) ما بين المشى والجرى .
(٨) لا تيأسوا .

مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [١] . وَأَنِيبُوا [٢] إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا [٣] لَهُ [٤] » .

والتوبة من الإنسان العادى . الرجوع إلى الله ، والندم على ما حدث من ذنب أو معصية ، والعزم على عدم العودة ، وطلب المغفرة من الله . والله هو الغفور الرحيم . والاستغفار والتوبة من الرسول نوع من العبادة والتقرب إلى الله ، والخضوع له ، فقد نزهه الله وعصمه من كل ذنب أو معصية . قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » . « يأيها الناس توبوا إلى الله ، واستغفروه ، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » .

لين الجانب :

وقد أمر الله نبيه بلين الجانب ، وحسن المعاملة ، والتواضع للمؤمنين لتقويم ما اعوج من أخلاقهم ، كما أمره بالتبرؤ من عملهم إن عصوه ، فيما أرشدهم إليه ، وما حثهم عليه . وهذا هو المراد من قوله تعالى :

« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ [٥] لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ [٦] » .

ولذا يجب أن نعامل الناس جميعا بالرفق واللين والتواضع ، سواء المطيع منهم والعاصى ، والمحسن منهم والمسىء .

نبل المصطفى صلى الله عليه وسلم فى تسامحه :

وحينما استشهد عم النبى وهو حمزة بن عبد المطلب فى غزوة أحد مثّل به المشركون ، وأراد المسلمون أن يمثلوا بمن قُتل من المشركين ، فمنعهم الرسول النبيل

---

(١) سورة الزمر : ٥٣ . (٢) ارجعوا إليه تعالى بالتوبة . (٣) اخضعوا لأمره مخلصين .
(٤) سورة الزمر : ٥٤ . (٥) كن لين الجانب ، وتواضع .
(٦) سورة الشعراء : ٢١٤ — ٢١٥ .

العظيم من التمثيل بهم . ولما آمن قاتل حمزة وهو : وَحشى الحبشى ، عفا عنه النبى ، ولم ينتقم منه ، بل جعله من أصحابه . وقد مثلت هند بجسد عمه حمزة ، وأخرجت كبده ، ولشدة حقدها أرادت أن تأكلها ، ثم جاءت إلى النبى متنكرة واعتنقت الإسلام ، ثم أظهرت وجهها ، فعرفها الرسول ، وصفح عنها ، ولم يعاتبها على ما حدث منها ، تسامحاً ونبلا ؛ لأن التسامح صفة للمصطفى صلى الله عليه وسلم .

التسامح وحسن معاملة الأعداء فى الإسلام

انظر إلى خطبة رسول الله يوم أن فُتحت مكة ، وهو واقفٌ على باب الكعبة يخاطب أهل قريش : « يا معشرَ قريش ، إنّ اللهَ قد أذهبَ عنكم نَخْوَةَ[1] الجاهلية ، وتَعَظُّمَها بالآباء . الناسُ من آدم ، وآدم خُلِقَ مِن تراب » . « يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[2] » .

يا معشرَ قريش ، ما تَظنُّون أنى فاعلٌ بكم ؟

قالوا : خيراً . أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخٍ كريم .

قال : فإنى أقول لكم كما قال أخى يوسفُ : « لا تثريب[3] عليكم اليومَ يَغفرُ اللهُ لكم ، وهوَ أرحمُ الرّاحمينَ » .

ثم قال : اذهبوا فأنتمُ الطُّلَقاء[4] » .

ومن هذه الخطبة ترى العدالة والمساواة والتسامح وحسن معاملة الأعداء فى الإسلام .

---

(١) النخوة : الكبر ، والعظمة والافتخار . (٢) سورة الحجرات : ١٣ .

(٣) التثريب : الشدة فى اللوم ، وتقبيح الفعل .

(٤) الأسرى الذين أطلق سراحهم ، وخلى سبيلهم .

ثم انظر إلى وصية أبى بكر — رضى الله عنه — لأسامة بن زيد[١] وجيشه حينما سَيَّرَه إلى أُبْنَى — وهو موضع بمشارق الشام — حيث يقول : « يأيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تَغُلُّوا[٢] ، ولا تَغْدِروا[٣] ، ولا تُمثلوا[٤] ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تقطعوا نخلا ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ، ولا بقرة ولا بعيراً إلا للطعام . وسوف تمرُّون بأقوامٍ قد فرَّغوا أنفسهم فى الصوامع[٥] ، فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له . وسوف تَقْدَمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شىء ، فاذكروا اسم الله عليها » .

ومن هذه الوصية ترى كيف كان المسلمون يعاملون الأعداء ، وكيف كانوا يعاملون الصغار والشيوخ والنساء ، ويتركون للرهبان والقسس الحرية فى التدين والعبادة . فروح الإسلام ، روح الإنسانية والنبل ، والرأفة والرحمة ، يتمثل فى معاملة المسلمين للأعداء فى أثناء الحرب .

وترى أن الصديق أبا بكر — رضى الله عنه — نهى عن الخيانة ، والحقد ، وفعل أى شىء يستوجب الاعتذار ، وعن تعذيب الأعداء والتمثيل بهم ، وعن قطع النخل وحرقه ، وقطع الأشجار المثمرة ، وعن ذبح الشاة والبقرة والبعير إلا ما يحتاج إليه الطعام . وفى هذه الوصية تتمثل الناحية الإنسانية فى معاملة الأعداء فى أثناء الحرب فى الإسلام .

فى هذه الوصية يبدو روح الإسلام ، وهو التسامح والنبل والعطف والشفقة .

وازن بين ما كان يفعله المسلمون مع الأعداء ، وما ارتكبه الفرنسيون فى القرن العشرين من تعذيب الجزائريين لا لذنب اقترفوه ، أو جرم ارتكبوه ، بل لأنهم

---

(١) أورد العقد الفريد هذه الوصية ، وذكر أنها وصية من أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان .
(٢) لا تحقدوا . (٣) لا تفعلوا شيئاً يجلب المعذرة . (٤) مثل به : كمثل : نكل به وعذبه .
(٥) جمع صومعة ، وهى مكان عبادة للنصارى .

طالبوا بالحرية والاستقلال ، وطرد المغتصبين لبلادهم ، المتمتعين بخيراتها ، وتحرير وطنهم من الفرنسيين والأجانب المعتدين على الأبرياء من عرب الجزائر ، المستغلين لها . لقد عذبوهم بكل ألوان التعذيب ، وقتلوهم من غير ذنب ، وسجنوهم من غير جريمة ، ونفوهم من أرضهم ، ولم يفرقوا فى التعذيب والقتل والسجن بين كبير وصغير ، ورجل وامرأة ، وعذبوهم بطرق قاسية تدل على الإجرام والوحشية ، فى وقت يدّعون فيه أنهم متمدنون ، وأنهم حماة الحرية ، والمدافعون عنها فى العالم الحر ، وهو فى الواقع عالم الاستعمار والطغيان .

وازن بين ما كان يفعله المسلمون مع الأعداء ، وما كان يفعله الإنجليز فى عهد الاحتلال البريطانى لمصر فى مذابح دنشواى ، وفى قتل المتظاهرين من المصريين الذين كانوا ينادون بحرية بلادهم واستقلالها ، وسجن الوطنيين ، وتعذيبهم ، وتشريدهم ، ونفيهم لا لسبب إلا المناداة بتحرير وطنهم من المستعمرين المستغلين المستبدين ، المعتدين على الأبرياء .

ولا عجب ؛ فقد بنيت الدعوة إلى الإسلام على الإقناع بالعقل والمنطق والبرهان ، والموعظة الحسنة ، ولو كان هناك إكراه أو إجبار على التدين بالإسلام ما حرم قتل النساء والصبيان ، والقسس والرهبان ، والشيوخ والعميان ، والمبتلَى والمرضى من الكفار .

قال تعالى : « وَجادِلْهُم بالتى هِىَ أحسنُ » .

وقال جل شأنه : « لا إكراهَ فى الدِّين ؛ قد تبيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَىِّ[1] » . أى اتضح الحق من الباطل ، والنور من الظلام .

وقال عز وجل : « ولَوْ شاءَ ربُّكَ لآمَنَ مَن فى الأَرضِ كُلُّهم جميعاً ، أَفأَنْتَ تُكْرِهُ الناسَ حتى يكونُوا مؤمنينَ[2] » .

فالله سبحانه وتعالى نفى الإكراه على الدين الإسلامى ، وأنكر إكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين .

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

(٢) سورة يونس : ٩٩ .

وإن الأساس فى الدين الإسلامى الإيمان بالقلب والعقيدة . وليس من الممكن تكوين هذا الأساس بالسيف والقهر والإكراه ، بل يكوّن بالحجة والتفكير المنطقى ، والإقناع العقلى . وكيف نكوّن الاعتقاد والإيمان — وهما بالقلب — بالإكراه ؟ وكيف يصل السيف إلى القلوب ؟ فالدعوة إلى الإسلام ، وعبادة الله وحده ، طريقها الحجة والإقناع لا السيف والإكراه .

ولو امتنع الكفار عن إثارة الفتن ضد المسلمين ، وتركوهم أحرارا فى دعوتهم إلى توحيد الله ما حارب المسلمون أحدا ، وما شهروا سيفا على أحد .

فالإسلام لم يقم بالسيف ، ولم يأمر بسفك الدماء ، أو الاعتداء على الضعفاء . وقد شهد علماء الإفرنج بأن الأمة الإسلامية كانت أرحم الأمم بالعجزة والضعفاء ، وأن الإسلام رحمة عامة للعالمين .

ولا يستطيع منصف أن ينكر أن الإسلام دين التسامح والسلام ، دين الرحمة والعفو والعدالة ، لا دين القسوة والغدر والتعذيب والمُثْلَة[١] والإتلاف والظلم والاغتيال والتقتيل .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ألَا مَن ظلمَ معاهَداً[٢] أو كلَّفه فوقَ طاقته ، أو انتقَصَهُ أو أخذَ منه شيئاً بغيرِ طيبِ نَفْسِه فأنا حجيجهُ[٣] يومَ القيامة » .

الإنسانية فى الإسلام

وقد عنى الإسلام بالمرضى والجرحى من الأعداء ، والمحافظة على الأطباء منهم ، ومن يساعدهم من المرضين والممرضات ، ونهى عن قتل الوصفاء وهم المملوكون ، والعُسفاء[٤] وهم المستخدَمون للتمريض وإسعاف الجرحى ، والقيام بتخفيف آلامهم

(١) يقال مثَلْتَ بالقتيل مَثْلا من بابَى قتَل وضرَب : إذا جَدعتَه وظَهرت آثار فعلك عليه تنكيلا ، والتشديد مبالغة . والاسم المُثْلة وزان غرفة . والمَثُلةُ : العقوبة .

(٢) هو من أعطى عهداً وأماناً . (٣) خصمه . (٤) جمع عسيف .

وحاجاتهم فى العلاج . وقد نهى الرسول الكريم عن الغدر وتعذيب العدو ، وقال : « لا تعذبوا عباد الله . » ونهى الإسلام عن قتل العزل ، وإحراق الأحياء أو الموتى بالنار ، وإحراق بيوت الأعداء وأمتعتهم ، وإفساد ثمارهم وحاصلاتهم الزراعية . ونهى عن قطع نخيلهم ، أو تسميم مياههم . فالإسلام لا يسمح بالتعذيب والتمثيل بالعدو ، وإتلاف أى شىء من غير ضرورة .

وقال عمران بن حصين : ما خطبنا رسول الله خطبة إلا أمرنا بالصدقة ، ونهانا عن المُثْلَة » . فالإسلام ضد إزهاق الأرواح ، وتعذيب عباد الله ، والتنكيل بهم . وفى الغزوات والحروب لم يقصد إلا دفع شرور المعتدين ، وحماية المسلمين من العدوان ، وظلم الكفار للمسلمين ، وإخراجهم من ديارهم وأموالهم بغير حق ، فأذن الله للمسلمين بالقتال دفاعا عن أنفسهم .

قال تعالى : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ[١] » .

المساواة بين الذميين والمسلمين أكبر دليل على التسامح

وأكبر دليل على التسامح فى الإسلام أنه قرر المساواة بين الذميين[٢] والمسلمين ، فإن للذميين ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم . وقد كفل الحرية للذميين . وأمر المسلمين أن يتركوهم وما يدينون به من الأديان . وألا يتعرضوا لهم فى العقيدة التى يعتقدونها . وكان اليهود والمسيحيون يقيمون مع المسلمين فى بلادهم ، يبيعون ويشترون ، ويتاجرون ويتساوون معهم فى عقوبة القصاص المأخوذة من قوله تعالى :

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ[٣] » .

---

(١) سورة الحج : ٣٩ . (٢) الذمة : العهد والأمان والضمان . وقد سمى المعاهد ذميا نسبة إلى الذمة بمعنى العهد . (٣) سورة المائدة : ٤٥ .

وكان المسلمون يعاملون غيرهم ممن يخالفونهم فى الدين أحسن معاملة ، ويعاشرونهم أحسن عشرة ، ويعطفون عليهم ، ويحسنون إليهم ، ويعدلون فى الحكم عليهم . وقد أباح الإسلام للمسلمين طعام أهل الكتاب ، وأحل لهم ذبائحهم ، وأباح مصاهرتهم والتزوج منهم .

قال الله تعالى : « وطَعامُ الذينَ أُوتُوا الكِتابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وطَعامُكُم حِلٌّ لهم ، وَالُمحْصَناتُ مِنَ المؤمِناتِ ، والُمحْصَناتُ منَ الّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ منْ قبلِكُمْ »[1] .

وللزوجة التى لا تدين بالإسلام من الحقوق على زوجها ما للزوجة المسلمة . وقد نهى الله عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن .

قال تعالى : « وَلا تُجَادِلوا أَهْلَ الكِتابِ إلّا بالّتى هِىَ أَحسنُ[2] » .

كالدعاء إلى الله بآياته ، والتنبيه على حججه . وللمسلم أن يتبادل مع غير المسلم الهدايا والضيافة ، فينزل الأول ضيفا على الثانى ، والعكس .

وفى البلاد الإسلامية يتمتع غير المسلمين بالحرية فى العقيدة والحرية فى العبادة . فلا يتعرض لهم أحد فيما يعتقدون وما يعبدون . وهم أحرار فى إقامة الشعائر الدينية فى كنائسهم وبِيَعِهِم ومعابدهم .

وقد عاش اليهود والمسيحيون مع المسلمين فى البلاد الإسلامية مئات السنين يتمتعون بالعدالة الإسلامية ، والرحمة الإنسانية ، لا يشكون ظلما ، ولا يحسون ضيما ، ولا يبخسهم مسلم حقا من حقوقهم ، ولا يعتدى عليهم أحد . ولا عجب فروح الإسلام كله تسامح ، وعفو وصفح وعطف ، وعدل ومساواة ، روح تتمثل فيه الإنسانية الكاملة .

تسامح المسلمين :

ولنذكر هنا عهد خالد بن الوليد لأهل دمشق بعد فتحها لترى كيف كان المسلمون متسامحين :

---

(١) سورة المائدة : ٥ . (٢) سورة العنكبوت : ٤٦ .

« بسم الله الرحمن الرحيم : هـذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها ، أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم ، وكنائسهم ، وسُور مدينتهم لا يُهدَمُ ، ولا يُسكَنُ شيء من دُورهم . لهم على ذلك عَهدُ الله وذمةُ [1] رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين ، لا يُعرَضُ لهم إلا بخير إذا أعطَوا الجزية . »

وفى هذا العهد مايثبت وفاء المسلمين وتسامحهم،وحسن معاملتهم ، حتى وجد اليهود والمسيحيون من المسلمين مالم يروه ممن كانوا يدينون بدينهم.فقد عاهدهم خالد أن يطمئنوا كل الاطمئنان على أرواحهم وأموالهم ومعابدهم ، وألا يُهدم لهم بيعة [2] ولا كنيسة ولا دار من دورهم ، ولا قصر من قصورهم ، على أن يعطوا الجزية .

وفى عهده لأهل الحيرة عاهدهم على ماذكر ، وعلى ألا يمنعوا من ضرب النواقيس ، وعلى أن يُضيِّفوا من مرَّ بهم من المسلمين مما يحل لهم من طعامهم وشرابهم ، وشرط عليهم ألا يعينوا كافرا على مسلم سواء أكان من العرب أم من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، وجعل لهم أيما شيخ ضعف عن العمل ، أو أصابته عاهة من العاهات، أو كان غنيا فافتقر ، وصار أهل دينه يتصدقون عليه أعفى من دفع الجزية ، وأعطى إعانة تكفيه وتكفى عياله من مال المسلمين مادام مقيما بدار الإسلام .

ثم انظر إلى ما كتبه عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — إلى أبى عبيدة بن الجراح يوصيه بحسن معاملة المشركين بعد أن هزموا حيث يقول : « وامنع المسلمين من ظلمهم ، والإضرار بهم ، وأكل أموالهم إلا بحقها . ووفِّ لهم بشرطهم الذى شرطت لهم فى جميع ما أعطيتهم . »

فالإسلام يسالم من لايدينون به ماداموا غير معتدين على المسلمين . وينادى بالمساواة بين المسلمين وغيرهم فى الحقوق والحريات ، والبر والعدالة وتبادل الحاجات . ولا يمنع

---

(١) عهد .　　(٢) كنيسة للنصارى .

أى دولة إسلامية من تبادل علاقات تجارية وسفراء ومعاهدات مع دولة غير إسلامية ، مادام العدل سائدا بين الدولتين .

تسامح صلاح الدين الأيوبى :

وانظر إلى مافعله صلاح الدين الأيوبى حينما دخل بيت المقدس .

لقد دخل جيش صلاح الدين بيت المقدس منتصراً على الأعداء ، ولكنه لم يقتل إنسانا ، ولم يأسر أحدا ، ولم تنهب جيوشه بيتا من البيوت ، فقد أمَّنَ الجميع على أموالهم وأمتعتهم ، وعامل الكل بالرأفة والرحمة ، فدهش الأعداء كثيراً لعدله وشفقته ، وحسن معاملته .

وحينما كان ماشيا فى طرقات بيت المقدس تقدم إليه رجل مسيحى كبير السن ، يعلق صليبا ذهبيا فى رقبته ، وقال له :

أيها القائد العظيم ، لقد كتب لك النصر على أعدائك ، فلماذا لم تعذبهم؟ ولماذا لم تنتقم منهم،وتفعل معهم مثل مافعلوا معكم ؟ وأنت تعلم حقا أنهم أَتَوْا كثيرا من الفظائع، ونهبوا الأموال ، وقتلوا النساء والأطفال والرجال ، حينما فتحوا بيت المقدس .

فقال له صلاح الدين : أيها الشيخ ، إن دينى يمنعنى من تعذيب أى إنسان ، وضميرى يمنعنى من الانتقام . ولن أفعل مثل مافعلوا .

فقال له الشيخ : وهل دينكم يمنعكم من الانتقام من قوم بدءوكم بالعداوة ، وعذّبوا قومكم بكل أنواع العذاب ؟

فقال له صلاح الدين : نعم إن ديننا يمنعنا أن نفعل مثل أعدائنا فى عنادهم ، ويأمرنا أن نكون أوفياء بوعودنا ، وأن نعفو عمن أساء إلينا ، ونصفح عمن أذنب عند المقدرة .

فقال الشيخ : نِعمَ الدين دينكم ، وإننى أحمد الله على أن هدانى إلى مافيه خيرى فى أيامى الأخيرة من هذه الحياة . ثم سأل : وماذا يفعل من يريد الدخول فى دينكم ؟

فقال له صلاح الدين : يؤمن بأن الله واحد ، ومحمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسوله، ويفعل ما أمر الله به ، ويبتعد عما نهى الله عنه . عند ذلك أسلم الشيخ ، وحسن إسلامه ، وأسلم معه كثير من أبناء قومه برغبتهم ، ومن تلقاء أنفسهم ، عن إيمان وثقة وعقيدة .

وقد كان من بين الأسرى فى حروب صلاح الدين فتاة فرنسية ، فتقدمت جهة صلاح الدين ، وقالت له : « لقد قتلت أبى فى الحرب ، أيها المجرم القتّال ، وأسَرتَ أخوين لى ، وأخذتَ أملاكا كنا التى كنا نملكها ، فلم يبق لى من ينفق علىَّ ، ولم يبق لى ما آكل منه . وإنك اليوم تمنُّ على بجعلى حرة ؛ لكى يزداد تعبى وعذابى . »

فضبط صلاح الدين نفسه وشعوره ، ولم يتأثر من تلك الشتائم المُرَّة ، بل عفا عنها، وابتسم فى وجهها ، وسألها : ما اسم أخويك ؟ فذكرت له اسميهما .

فأرسل جنديا ليحضرهما ، فحضرا ، وحضر معهما القائد الذى كان الأخَوان من نصيبه ، فطلب إليه صلاح الدين أن يبيعه هذين الأسيرين . [illegible] القائد عن أخذ الثمن عندما عرف غرض سيده ، وتركهما حرين يتمتعان بالحرية . [illegible] ما كانا يمتلكانه من الأموال ، ثم أتى جهة الفتاة وسألها :

هل مازلتِ عند رأيكِ من أننى مجرم قتّال ؟

فقالت الفتاة : عفوا ياسيدى ، فإنما هى شدة الحزن على أبى ، وفقدِ من كان ينفق علىَّ ، وضياعِ مالى ، وخوفى مما تأتى به الأيام ، وما كنتُ أسمعه فى بلادى خطأ عن ظلم المسلمين ، كل هذا جعلنى أنطق بأشياء لا أفهمها . وإننى مع هذا لستُ يائسة من صفحك ، وكرم عفوك . ولما قامت وأرادت الانصراف ، سألها صلاح الدين : إلى أين أنت ذاهبة ؟

فأجابت إلى بلادى .

فسألها : وماذا ستقولين لقومك ؟

أجابت : سأقول للمتعصبين منهم كلمة الحق فى الإسلام والمسلمين ، ثم تركت بيت المقدس هى وأخواها ، بعد أن أسلموا . فلما وصلت إلى قومها أخـذت تدعو الناس إلى الإسلام ، وتذكر لهم محاسنه وعدالته ، وتحـكى مارأته بنفسها من حسن معاملة المسلمين لها ، وشفقة صلاح الدين وعظمته ، ونبله وإنسانيته . فلم تعجبهم هـذه الدعوة من فتاة منهم ، واتفقوا فيما بينهم سرًّا على قتلها، وقتلوها ظلما ؛ لأنها تقول الصدق ، وتدعو إلى الحق ، وتنادى بالإسلام . فماتت شهيدة مجاهدة فى سبيل الله ، وإعلاء كلمته .

وذات يوم كان صلاح الدين جالسا فى خيمته ، يحكم بين الناس بالعدل والإحسان ، فوقفت أمام الخيمة سيدة مسيحية،تصيح والحزن يخنق صوتها ، حتى ارتمت على الأرض، فأبعدها الحراس عن الخيمة ، ولـكن صلاح الدين الطيب القلب ، النبيل الخلق ، سمع صوتها ، فأمر بإدخالها فى الحال . فلما وقفت بين يديه سألها : ماذا أصابك أيتها السيدة الحزينة الباكية ؟

فأجابت : لقـد اختطف اللصوص ولدى ، وأُسِر زوجى فى الحرب ، وهو الذى ينفق علىَّ .

فتألم صلاح الدين ، وحزن كثيراً لحالها ، وأمر فى الحال بإخراج زوجهـا من بين الأسرى ، ثم طلب من جنوده أن يبحثوا عن الغلام المسروق ، فبحثوا عنه حتى وجدوه ، فأحضروه لأمه،ففرحت السيدة حتى بكت من شدة الفرح ، وأخذت تمدح صلاح الدين، وتدعو له بأن يبارك الله فى عمره .

فقال صلاح الدين : نحن لم نفعل أيتها السيدة إلا ما أمرنا به ديننا الـكريم .

قالت السيدة : هل يأمر دينكم يامولاى بالرحمة والعطف على الأعداء ، ومساعدة المنـكوبين والضعفاء ؟

قال صلاح الدين : نعم ياسيدتى ، فالإسلام دين الله فى هذه الدنيا ، وهو رحمة للناس جميعاً ، وسلام لـكل الأمم .

قالت السيدة : وكيف أستطيع ياسيدى أن أكون مسلمة ؛ فإنى قد أحببت هـذا الدين السمح الـكريم من صفاتـكم الجميلة ، وأخلاقـكم النبيلة ؟

قال صلاح الدين : طريقة الإسلام سهـلة ، تشهـدين أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

فنطقت المرأة بالشهادتين . ودخل نور الإسلام قلبها ، ثم تلفتت وراءها ، فوجدت زوجها الذى كان أسيراً يقول مثل قولها . وأسلمت المرأة ، وأسلم معهـا زوجها ؛ لما فى الإسلام من منطق وعدالة وإنسانية ، ورحمة وتسامح ومدنية .

وقد كان الحـكام من المسلمين فى الأندلس متسامحين كل التسامح مع المسيحيين ، فقويت الصلة والعلاقة بين المسيحيين والمسلمين . وسمى المسيحيون أبناءهم وبناتهم بأسماء عربية ، وحلت اللغة العربيـة محل اللغة اللاتينية فى جميع أنحاء أسبانيا ، حتى أهملت اللاتينية ونسيت فى القرن الحادى عشر الميلادى فى تلك البلاد . ولـكثرة المعاشرة والاختلاط بالمسلمين ثابر المسيحيون على تعلم اللغة العربية وآدابها ، لغة القرآن الـكريم والدين . ولهذا لا نعجب إذا رأينا مؤلفاً مثل (ألفار Alvar) معروفاً بعدائه للإسلام ، وتعصبه ضد الدين الإسلامى يعترف بأن لغة القرآن عذبة جميـلة فصيحة جذبت حتى المسيحيين ، فأخذوا يقرءونه ، ويعجبون به كل الإعجاب [1] .

الإسلام يدعو إلى حسن المعاملة

إن الإسلام دين اللين واللطف ، دين الرفق والعطف ، يدعو إلى حسن المعاملة والملاطفة ، والرقة ولين الجانب ، حتى مع الخصوم والأعداء ، قال جل شأنه مخاطباً موسى وأخاه هٰرون عليهما السلام حينما أمرهما بالذهاب إلى فرعون ليدعواه إلى عبادة الله :

« اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَـٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي . اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ .

---

(٢) ارجع إلى كتاب :

The Preaching of Islam, by T. W. Arnold

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ[1] . »

فالله تعالى يقول لنبيه موسى عليه السلام : اذهبْ إلى فرعونَ أنتَ وأخوكَ هرون، وادعواه إلى عبادتى وتوحيدى ، ومعكما آياتى ومعجزاتى . (ولاَ تَنيا) : ولا تُقصِّرا فى ذكرى وعبادتى . (اذهبا إلى فرعون إنه طغى) وتمرد وتجبر ، وادَّعَى أنه رب وإله ، (فقولا له قولا ليناً) لا خشونة فيه ولا عنف ، كله رفق ولين، حتى يطيع ويمتثل ، ويتذكر ويتعظ ، ويخاف الله ، ويؤمن به .

وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لأبى مريم السلولى — وكان هو الذى قتل أخاه زيد بن الخطاب — : « والله إنى لا أحبك حتى تحب الأرض الدم » .

قال السلولى : أفيمنعنى ذلك حقًّا ؟

قال عمر العادل : لا .

قال السلولى : فلا ضَيْرَ ؛ إنما يأسى على الحب النساء .

فانظر إلى حسن المعاملة ، والرفق ، والعدالة المطلقة ، حتى مع الأعداء والعصاة .

وفى الآيات القرآنية الكريمة الآتية قد بين سبحانه وتعالى كيف يكون حسن المعاملة، وكيف يكون سوء المعاملة ، وكيف نعامل الناس بتأدية ما لهم من الحقوق ، ووضح الله ما أعده لمن أحسن هذه المعاملة من النعيم المقيم ، وما أعده لمن لم يحسنها من العذاب الأليم .

« ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ . وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ . وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ[2] بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ . جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ . وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ

---

(١) سورة طه : ٤٢ — ٤٤ .　　(٢) يقابلون السيئة بالإحسان إلى من أساء إليهم .

أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ[١] . »

(لهم عُقبى الدار) : لهم العاقبة الحسنة وهى الجنة .

الميثاق : العهد المؤكد .

(ما أمرَ اللهُ به أن يُوصَل) : ما أمر اللهُ بوصله كالأرحام وغيرها .

(ابتغاء وجه ربهم) : طلب رضاء الله لا للرياء ولا لغيره .

فالله جل شأنه قد بين فى هذه الآيات ما أعده من الثواب الجزيل لمن أحسن المعاملة معه سبحانه وتعالى ، ومع المؤمنين من عباده ، وما أعده من العقاب الشديد لمن لم يحسن معاملة الله والمسلمين .

وقد وضح الله أن حسن المعاملة يكون بسبعة أشياء وهى :

الأول : الوفاء بعهـد الله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . هذا بالنسبة لله . ويكون الوفاء بالنسبة للخلق بإنجاز الوعد ، فإذا عاهد الإنسان أحداً على القيام بأمر من الأمور وفى بعهده . وإذا حدث صدق فى حديثه . وإذا اؤتمن حافظ على أداء الأمانة .

الثانى : صلة ما أمر الله به أن يوصل ، ونهى أن يقطع ؛ بأن يراقب الله دائماً فى السر والعلانية ، ويحسن إلى المحتاجين على قدر طاقته ، ويشفق على المؤمنين ، ويدفع الضرر عنهم ، ويعود المرضى منهم ، ويصل الرحم من أقاربه ، ويطعمهم ، ويساعدهم ، ويقضى عنهم ما عليهم من دين ، ويزورهم ، ويواسيهم ، ويفرج غمهم وحزنهم .

الثالث : الخوف من الله فى جميع الأحوال ، والخوف من سوء الحساب فى الدار الآخرة ؛ حتى يوطن قلبه على طاعة الله ، وإرضائه فى السر والعلانية ، فيما يقول وما يفعل .

الرابع : الصبر عن المحرمات ، ونبذ المنكرات ، واحتمال المشاق فى نصرة الله ودينه . ولا غرض من ذلك سوى طلب مرضاة الله ، وابتغاء وجه ربه .

الخامس : إقامة الصلاة ، وأداؤها فى أوقاتها المحددة لها .

السادس : التصدق مما رزقهم الله فى السر والعلانية على المحتاجين من الفقراء

---

(١) سورة الرعد : ٢٠ ــ ٢٥ .

والمساكين ، والأقارب والمدينين ، والمسافرين ، وعلى كل من تجب لهم الصدقة ، والإنفاق ـ مما تفضل الله به عليهم ـ على الزوجات والأقارب والأجانب .

السابع : درء السيئة بالحسنة أى دفعها بها ؛ فإذا آذاهم أحد قابلوه بالحسنة والجميل ، وصبروا على الإيذاء ، وصفحوا عن المسىء المؤذى . وإن أساء إليهم شخص عفوا عنه ، وإن حدثت منه هفوة أغضوا عنها . وهذا هو المثل السامى فى الأخلاق الإسلامية .

ثم بين سبحانه وتعالى ما يترتب على حسن المعاملة من السعادة الأبدية بقوله :

« أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا . » ويقيمون فيها ، ويخلدون بها ، هم والصالحون من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، وتدخل عليهم الملائكة من كل باب من أبواب الجنة ، ويسلمون عليهم ، ويهنئونهم بما أنعم الله به عليهم من الإقامة فى دار السلام ، جزاء حسن معاملتهم ، وصلتهم بالله وخلقه .

وبعد أن بين جل شأنه حال السعداء ، وما أعده لهم من النعيم المقيم[1] أتبع ذلك ببيان أحوال الأشقياء ، وما أعده لهم من العذاب الأليم ، وهم الذين لم يحسنوا المعاملة مع الله ، ومع عباده فقال :

« وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَٰقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ . »

---

(١) الدائم .

الفصل السادس

الإســـــلام يدعو إلى الحرية

الإسلام كفل الحرية الشخصية للأفراد :

لقد كفل الإسلام للأفراد الحرية الشخصيــة ، وأعطى الإنسان الحرية فى أن يتصرف فى شئونه الخاصة به ، وجعله آمنا من الاعتداء عليه فى نفسه أو ماله أو عرضه أو مسكنه ، أو أى حق من حقوقه ، بشرط ألا يكون فى تصرفه عدوان على غيره .

وإن الإسلام قد منح المسلم الحرية الشخصية بأنواعها المختلفة ، وهى : حرية الفرد ، وحرية المسكن ، وحرية التملك ، والحرية فى الرأى ، والحرية فى العقيدة ، والتعليم ، والحرية السياسية ، والحرية المدنية . فالحرية التى بسط الإسلام لواءها على الناس ـ هى الحرية الكاملة فى أوسع مظاهرها .

ففى حرية الفرد حماه من إيذاء غـيره له ، وجعله مطمئنا على نفسه من أى اعتداء . قال تعالى : « فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ » . فنهى عن العدوان إلا على الظالم . وفى الوقت نفسه قد أمر الله أن يـكون الاعتداء على الظالم مماثلا لاعتدائه بغير زيادة ؛ حتى تتحقق العدالة الإسلامية . وفى هذا يقول جل شأنه : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْـكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْـكُمْ . »

وفى حرية المسكن جعل الإسلام للبيوت التى يقيم فيها المسلمون حرمة وآدابا خاصة ، تؤخذ من قوله تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَـيْرَ بُيُوتِـكُمْ ؛ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا [1] وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ، ذَٰلِـكُمْ خَيْرٌ لَّـكُمْ لَعَلَّـكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَآ

(١) أى حتى تستأذنوا أهل البيت حتى لا يزعجوا .

أَحَـداً فَلاَ تَدْخُلُوهاَ حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَـكُمْ ، وَإِن قِيلَ لَـكُمُ ارْجِعُـواْ فَارْجِعُواْ ، هُـوَ أَزْكَىٰ [١] لَـكُمْ ، وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . [٢] »

وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا استأْذَن أحدُكم ثلاثاً فلمْ يُؤذنْ له فليَرْجِـعْ . »

فآداب الاستئذان ومراعاة حرمة البيوت التى تنادى بهـا المدنية الحديثة فى القرن العشرين قد نادى بها الإسلام منذ أربعة عشر قرنا تقريبا .

ولم يقرر الإسلام عقوبة النفى والإبعاد عن المسكن إلا جزاء لمن يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا .

قال جل شأنه : « إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً [٣] أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ [٤] ، أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ، ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ، وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . [٥] »

وفى حرية التملك قد منح المسلم الحرية فى امتـلاك العين أو الانتفاع بهـا ، أو التصرف فيهـا ببيعها وتأجيرها لغـيره . فهو حر فى أن يتصرف فيما يملك مادام هناك رضا واختيار .

قال تعالى : « « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَـكُم بَيْنَـكُم بِٱلْبَٰطِلِ ، إِلَّآ أَن تَـكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنـكُمْ . [٦] »

(لا تأكلوا أموالـكم بينكم بالباطل) : أى لا يأخذ أحـد منكم مال أحد بطريق غير مشروع ، كالسرقة .

وفى القرآن الـكريم والسنة المحمدية نهى فى عـدة مواضع عن التعدى على ملك الغير بدون حق .

---

(١) هو أطهر ، للبعد عن الريبة .
(٢) سورة النور : ٢٧ ـ ٢٨ .
(٣) مفسدين .
(٤) من جهتين مختلفتين .
(٥) سورة المائدة : ٣٣ .
(٦) سورة النساء : ٢٩ .

قال جل شأنه : « وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ ، وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ ، لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ .[١] »

(وتُدلُوا بِها إلى الحكام) : تدفعونها رشوة .

(فريقاً من أموال الناس) : بَعضا منها .

وقال تعالى : « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ[٢] سَعِيرًا[٣] . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « لايَحِلُّ لأَحدٍ أَن يأْخذَ متاعَ أَخيهِ لاعِباً ولا جادًا . فإِنْ أخذَهُ فليرُدَّهُ عَليْه . »

وقال : « على اليدِ ما أَخذتْ حتَّى تردَّ . »

وقد قرر الإسلام معاقبة السارق ليضمن حرية التملك .

قال تعالى : « والسَّارِقُ والسارِقةُ فاقطَعوا أَيديَهُما . »

ومما يؤيد احترام الملكية تقرير حق الشفعة لدفع الضرر عن الجار من الملاك .

الإسلام وحرية العقيدة :

إن الإسلام قد ترك لكل إنسان الحرية فى اختيار الدين الذى يعتقده ، ويؤمن ويثق به ، على حسب مايميل إليه عقله وتفكيره ، ولم يجبر أحدا على أن يسلم ويعتنق الإسلام .

وقد ترك للناس الحرية فى اختيار الدين الذى يتدينون به . قال جل شأنه : « لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ، قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ[٤] » أى قد تبين الحق من الباطل. وقال تعالى : « أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ؟ » وقال : « لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ » .

(١) سورة البقرة : ١٨٨ . (٢) من صليت اللحم : شويته .
(٣) السعير : النار . (سورة النساء : ١٠) (٤) سورة البقرة : ٢٥٦ .

فالإسلام ينادى بالحرية فى العقيدة ، والإيمان بعد البحث والنظر والتفكير والرجوع إلى العقل والمنطق ، ولا يقول بالمحاكاة والتقليد والإكراه فى الدين . ويؤيد هذا قوله تعالى للرسول الكريم يأمره بالتذكير والموعظة الحسنة ، فى الدعوة إلى الإسلام ، لا بالسيطرة والإجبار : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ »(١) .

وقد حث القرآن الكريم الناس على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله حتى يهتدوا إلى الإيمان الكامل ، والدين الحق ، وهو الإسلام .

قال تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَٱلْفُلْكِ(٢) ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ، وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ ، فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، وَبَثَّ(٣) فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ، لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٤) . »

وقال عز وجل : « أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ(٥) ؟ »

وقال : « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا(٦) ، وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ، وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ، فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ، فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا(٧) وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ(٨) . »

ولكى يبين لهم أن الخالق للسموات والأرض إله واحد لا شريك له . قال تعالى :

---

(١) سورة الغاشية : ٢١ — ٢٢ .
(٢) السفن .
(٣) فرق فى أنحائها .
(٤) سورة البقرة : ١٦٤ .
(٥) سورة الأعراف : ١٨٥ .
(٦) مريحة كالفراش .
(٧) الند : بالكسر ، المماثل .
(٨) سورة البقرة : ٢١ — ٢٢ .

« لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا (١) » .

ولما جاء به الإسلام من الحرية فى العقيدة ، والرجوع إلى العقل والمنطق قد انتشر انتشارا عظيما فى مدة وجيزة .

وقد نعى القرآن الكريم على من يؤمن بطريق محاكاة الآباء فى دينهم من غير نظر وتفكير .

قال جل شأنه : « بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ، وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ (٢) » .

والأمة هى : الملة والطريقة .

مهتدون : فى سيرنا على طريقة آبائنا . ولم نخطئ .

وقد منح الإسلام المسيحيين واليهود الحرية الكاملة فى إقامة الشعائر الدينية فى الكنائس المسيحية ، والمعابد اليهودية . قال عليه الصلاة والسلام فى معاملة الذميين : « لهم مالنا وعليهم ماعلينا . »

وفى جميع العصور الإسلامية كان المعاهَدون من الكفار يعطون العهود على التأمين على أنفسهم وأموالهم ، والحرية فى عقائدهم ، وإقامة شعائرهم .

ومما قيل فى عهد عمر رضى الله عنه لأهل إيليًا : « أعطاهم الأمانَ لأنفسِهم وأموالهم ، وكنائسِهم وسائر ملتهم . لا تُسكن كنائسهم ، ولا يُنقص منها ولا من خيرها ، ولا من صلتهم . ولا يُكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم » .

فلا ريب أن الإسلام قد أعطى كل إنسان الحرية فى البحث والتفكير فى تكوين العقيدة التى يعتنقها ، وترك أصحاب كل دين ومايدينون به . ولم يكره أحدا على اعتناقه ، ولم يحاول الإسلام — ولو مرة واحدة — الحجر على العقول أو التضييق عليها ، بل أفسح

(١) سورة الأنبياء : ٢٢ (٢) سورة الزخرف : ٢٢ .

لها المجال فى التفكير لاختيار العقيدة الدينية التى تثق بها . ومما يدل على احتفال الإسلام بالعقول وإطلاقها من قيودها أنه جعل التفكير فى الكائنات عبادة من أشرف العبادات ، وقد كفل الإسلام الحرية الدينية بصورة لم تتهيأ لدين آخر ، وله فى ذلك مبادئ سامية هى غاية ما وصل إليه التفكير الحر .

فالمبدأ الأول : هو ألا يكره أحد على الدخول فى العقيدة الإسلامية . وذلك بعد أن رسخت قواعد الدين الإسلامى فى النفوس ، وثبتت أصوله فى القلوب . وقد سار المسلمون فى حروبهم على هذا المبدأ ، فحين فتحوا مصر لم يرغموا أهلها من القبط على الدخول فى الإسلام ؛ بل تركوا لهم الحرية الكاملة فى اتباع دينهم، وغاية ما فعلوه أنهم فرضوا الجزية على من لم يدخلوا الإسلام ، ليكون لهم ما للمسلمين من الحقوق ، ومن الأمن على نفوسهم وأرواحهم وأموالهم .

وأما المبدأ الثانى : فهو أمر للمسلمين بمجادلة غيرهم من أهل الأديان الأخرى بالمنطق والعقل ، وبأن يكون عماد المناقشة الحجة البينة ، والعظة الخالصة ، وتلك هى المناقشة الدينية الحرة التى ينطق بها كتاب الله الكريم :

« وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ[1] » . أى لا تجادلوهم إلا بأحسن الطرق للمجادلة .

وأما المبدأ الثالث : فهو أن يكون الإيمان عن اقتناع ظاهر ، لا عن محاكاة ، ولذلك نعى القرآن الكريم على أولئك الذين لا يستعملون عقولهم فى اختيار الدين الصحيح ، واتباع العقيدة السليمة ، والاقتصار على محاكاة آبائهم فى عقائدهم . قال تعالى فى وصف من ضلوا ، وغفلوا عقولهم :

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا[2] عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ[3] » .

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٦ . (٢) وجدنا . (٣) سورة البقرة : ١٧٠ .

الإسلام وحرية الرأى والفكر :

إن الإسلام يؤيد حرية الرأى ، ويقرر حرية التفكير ، ما دام الرأى معتمداً على الأصول الدينية والأدلة الصحيحة . والموضوع الذى يفكر فيه المسلم عادة ، قد يكون غير متصل بالدين ، وقد يكون دينيا متصلا به . فإن كان غير دينى فلكل إنسان الحرية فى أن يبدى رأيه فيه بحسب ما يراه وما يصل إليه تفكيره واستنباطه . وقد حدث فى إحدى الغزوات أن أشار الرسول صلى الله عليه وسلم على من معه أن ينزلوا فى مكان معين وفى جهة حددها لهم فسأله أحد الصحابة : أهذا منزل أنزلكه الله ، أو هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » .

فقال الصحابى للرسول : ليس هذا المكان صالحا للنزول به ، وأشار بإنزال المسلمين فى جهة أخرى عينها لهم . فقبل الرسول رأيه ، وأخذ بمشورته ، وتحول الرسول ومن معه ، واتجهوا إلى المكان الذى نصح به الصحابى . وهذا يدل على أن الرسول العظيم لم يكن مستبدا برأيه مطلقاً ، بل كان المثلَ الأعلى (للديمقراطية) الإنسانية .

إبداء الرأى :

وإذا كان الموضوع دينيا متعلقاً بالشئون الدينية فلكل مجتهد أن يبدى الرأى الذى يراه ويصل إليه باجتهاده ، ما دام رأيه فى حدود أصول الدين ، وقواعده ونصوصه الصحيحة ؛ لأن الإسلام قد جعل القياس مصدراً من مصادر التشريع . والقياس هو أن يلحق المجتهد من العلماء الأشباه بالأشباه ، والنظائر بالنظائر ؛ لاستنباط الأحكام التى لم ينص عليها . وفى هذا الاستنباط مجال متسع للبحث والنظر والتفكير للوصول إلى الرأى الذى يتفق مع الدين كل الاتفاق . وهذا هو الاجتهاد .

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« إذا حكم الحاكمُ فاجتهدَ ثم أصابَ فله أجْرَانِ ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجْرٌ » .

فالحرية الفكرية كانت من المبادئ الأساسية التى قام عليها الإسلام ، بل هى روحه ولبه ، ولذلك لم يرض الإسلام بالإيمان التقليدى ، وحث على التفكير الصحيح لاختيار العقيدة السليمة ، التى لا تنافى العقل .

وقد ورد فى سنة رسول الله أن كل مجتهد مأجور . إن أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران . فالمثوبة على الاجتهاد للوصول إلى الأحكام الشرعية الصحيحة أكبر دليل على أن الإسلام يشجع الحرية فى إبداء الرأى كل التشجيع ، سواء أكانت النتيجة خطأ أم صوابا .

ولقد تمسك المسلمون بالحرية فى الرأى ، تلك الحرية التى حكمت العقل والمنطق فى الدين والإيمان ، وفى كل شىء . قال جل شأنه : « وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ[1] بِمَا لَا يَسْمَعُ[2] إِلَّا دُعَآءً[3] وَنِدَآءً[4] صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ[5] » .

وفى تفسير هذه الآية يقول المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده : « إن الآية صريحة فى أن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين . وإن المرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عَقَلَ[6] دينه ، وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . فمن ربى على التسليم بغير عقل ، والعمل ولو صالحا بغير فقه ، فهو غير مؤمن » .

والحق أن الإسلام قد أحدث طفرة كبيرة فى التفكير ؛ فقد جاء بمبادئ مثالية تتمثل فيها الإنسانية والرجوع إلى العقل والمنطق فى العقائد الدينية ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « الدين هو العقل . ولا دينَ لمن لا عقلَ له » . فالدين هو

---

(١) يصيح . (٢) مالا يسمع : هى البهائم . (٣) صياحاً على القريب منها لتأتى مثلا .
(٤) نداء : صياحاً على البعيد منها . (٥) سورة البقرة: ١٧١ . (٦) فهمه .

العقل نفسه ، ولا يكلف الإنسان شيئا إلا إذا كان عاقلا متصفا بالعقل . والمجنون الذى لا عقل له لا دين له .

الإسلام أطلق الحرية للعقول

فالإسلام قد أطلق الحرية للعقول ، فأباح التفكر فى ملكوت السموات والأرض ، بل حث عليه ، وأغرى به ، ولذلك أثنى القرآن الكريم على المفكرين الذاكرين الذين يستعملون عقولهم ، ونعى على الغافلين الضالين الذين ينسَوْن عقولهم ، فقال تعالى :

« إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ . ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١) » .

ومن الحرية الفكرية : حرية الرأى ، وكانت مكفولة فى الإسلام فى كل عصر من عصوره ، وتتصل حرية الرأى بالحرية العلمية ، ويقصد بها النظر فى ظواهر الطبيعة المختلفة ، من حيوان ونبات وجماد ، وتقرير ما يراهُ العقل ، وما تثبته التجارب ، وتؤيده النظريات ، ولذلك خدمَ الإسلام العلم ؛ وجاء القرآن الكريم حافلاً بكثير من الآيات الشريفة التى فيها إشارة وتلميح إلى كثير من النظريات الكونية ، التى أثبتها العلم الصحيح ، وعلى كل من يمارى فى ذلك أن يطلع على الكتاب الحكيم ، فإنه يراه قد وضع أبلغ دستور علمى للتفكير والبحث ، ويجد القرآن يحترم العقول ، ويكثر من توجيه الخطاب إليها ، ويجعلها أساس التكليف ، ومحطّ الثواب والعقاب .

يقول الله تعالى : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (٢) » . يقرع أولئك الذين لم يفكّوا عقولهم من أغلالها ، ولم يُطلقوها من قيودها .

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ . (٢) سورة محمد : ٢٤

كما يقول جل شأنه : « وَكَأَيِّن مِّنْ ءايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١) » .

كأيّن : كثير .

آية : دليل على وجود صانع عليم قادر حكيم .

ويقول تعالى : « وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢) . »

تبصرون : تنظرون بعين البصيرة .

ويقول تعاظم وارتفع : « أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٣) . »

سطحت : بُسطت ، فيستدلوُن بها على قدرة الله تعالى .

ويقول عز شأنه : « وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ . وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ . وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ . لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤) . »

نسلخ : نفصل . والعرجون القديم : عود الشماريخ الرقيق المتقوّس المصفرّ .

يسبحون : يسيرون .

ويقول عز وجل : « وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ . وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥) » .

---

(١) سورة يوسف : ١٠٥ . (٢) سورة الذاريات : ٢١ . (٣) سورة الغاشية : ١٧ـ٢٠ .
(٤) سورة يس : ٣٧ ـ ٤٠ . (٥) سورة الروم : ٢٢ ـ ٢٤ .

آياته : دلائل قدرته .

ابتغاؤكم : طلبكم .

والقرآن الكريم وهو يخاطب العقول ، حريص فى أسلوبه على ألا يفرض على تلك العقول نظرية معينة ، بل يحثها على التفكير والتأمل فى خلق الله ، وللعقول أن تقرر ما تهتدى إليه من البحث . وعلى هذا النمط من إطلاق الحرية للعقل ، جرى الإسلام فيما يتعلق بالإيمان ، فأطلق للإنسان الحرية فى أن يختار العقيدة الدينية بعد إقناع وبحث .

الاجتهاد فى الإسلام من حرية الرأى :

لقد فصل الأستاذ الجليل المرحوم الشيخ عبد الوهاب خلاف فى كتابه عن مصادر التشريع ـ أحكام الاجتهاد والاستحسان والاستصلاح حيث قال : « إنه إذا عرضت للمكلف واقعة فيها حكم دل عليه نص فى القرآن أو السنة أو انعقد عليه إجماع المجتهدين من المسلمين فى عصر من العصور ، وجب اتباع هذا الحكم . ولا مجال للاجتهاد بالرأى فى حكم هذه الواقعة .

« وإذا عرضت واقعة ليس فيها حكم بنص أو إجماع فى العلة التى بنى عليها حكم النص أو الإجماع فإنه يسوى بين الواقعتين فى حكم النص لتساويهما فى العلة التى بنى عليها . وهذه التسوية هى القياس ، وهو أول طرق الاجتهاد بالرأى ؛ لأن المجتهد يستنبط علة حكم النص باجتهاده برأيه ، ويتحقق من وجودها فى حكم الواقعة المسكوت عنها باجتهاده برأيه .

وإذا عرضت واقعة يقتضى عموم النص حكما فيها أو يقتضى القياس الظاهر المتبادر حكما فيها أو يقتضى تطبيق الحكم الكلى حكما فيها ، وظهر للمجتهد أن لهذه الواقعة ظروفا وملابسات خاصة تجعل تطبيق النص العام أو الحكم الكلى عليها ، أو اتباع القياس الظاهر فيها يفوت المصلحة أو يؤدى إلى مفسدة فعدل فيها عن هذ الحكم إلى

حكم آخر اقتضاه تخصيصها فى العلم أو استثناؤها من الكلى، فهذا العدول هو الاستحسان. وهو من طرق الاجتهاد بالرأى ؛ لأن المجتهد يقدر الظروف الخاصة لهذه الواقعة باجتهاده برأيه ، ويرجح دليلا على دليل باجتهاده برأيه .

« وإذا عرضت واقعة ليس فيها حكم بنص ولا إجماع ، ولا قياس ، ولا يتعارض فيها دليلان ، وظهر للمجتهد أن هذه الواقعة فيها أمر مناسب لتشريع حكم أى أن تشريع الحكم بناء عليه يحقق مصلحة مطلقة ؛ لأنه يجلب نفعا أو يدفع ضررا ، فاجتهد فى تشريع الحكم لتحقيق هذه المصلحة ، فهذا هو الاستصلاح ، وهو من طرق الاجتهاد بالرأى ؛ لأن المجتهد يهتدى إلى الأمر المناسب فى الواقعة برأيه ، ويهتدى إلى الحكم الذى يبنيه عليه برأيه .

فواقعة القياس واقعة ليس فيها حكم بنص أو إجماع ألحقت بواقعة فيها حكم بنص وإجماع . وواقعة الاستحسان واقعة تعارض فى حكمها دليلان، وعدل المجتهد فيها عن حكم أظهر الدليلين . لسند استند إليه فى العدول . وواقعة الاستصلاح واقعة بكر لا حكم فيها بنص ولا إجماع ولا قياس ، وشرع فيها المجتهد الحكم لتحقيق مصلحة معينة . »

هذا ما قاله المرحوم الشيخ خلاف

وقد روى الإمام أحمد بسند مرفوع إلى أصحاب معاذ من أهل حمص فقال :

« إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن قال :

كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟

قال : أقضى بما فى كتاب الله .

قال : « فإن لم يكن فى كتاب الله ؟ »

قال : فبسنة رسول الله .

قال : «فإن لم يكن فى سنة رسول الله ؟»

قال : أجتهد رأيى لا آلو[1] .

---

(١) لا أقصّر ، وفعله ألَا ، يأْلُو : قصَّر ، يُقصِّر .

قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

وروى عن عمرو بن العاص أنه جاء خصمان يختصمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

يا عمرو اقض بينهما .

قال : أنت أولى بذلك منى يا نبى الله .

قال : وإن كان .

قال : على ماذا أقضى ؟

قال : « إن أصبتَ القضاء بينهما فلك عشر حسنات . وإن اجتهدت فأخطأتَ فلك حسنة . »

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا حكمَ الحاكمُ فاجتهدَ ثم أصابَ فلَهُ أجْرانِ ، وإذا حَكمَ واجتَهدَ فأخطأَ فلَه أجرٌ . »

اجتهاد عمر :

لقد اجتهد الفاروق عمر رضى الله عنه ، فأصدر أحكاما عادلة لم تصدر قبل خلافته .

فقد سرق غلمان لحاطب بن أبى بلتعة ناقة لرجل من مزينة ، وأقروا بالسرقة .

فقال عمر لكثير بن الصَّلت : اذهب فاقطع أيديهم .

ولمح فى وجوههم شحوبا[1] ، فأمر بردهم وقال :

أما والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم[2] وتجيعونهم ، حتى إن أحدهم أكل ما حرم الله عليه حوله ـ لقطعت أيديهم .

وأيمُ[3] الله إذ لم أفعل لأغرمنك غرامة[4] توجعك . ثم قال : يا مزنى ! بكم أريدت منك ناقتك ؟

قال : بأربعمائة .

---

(١) اصفرارا وتغيراً . (٢) تستخدمونهم ، وتجهدونهم فى أعمالهم . (٣) صيغة قسم .
(٤) ما يلزم أداؤه .

قال عمر : اذهب ، فأعطه ثمانمائة . . .

وسئل الإمام أحمد بن حنبل : أتعمل به ؟

قال : إى[١] ، لعمرى[٢] . لا تقطع يد السارق إن حملته الحاجة على ذلك ، والناس فى مجاعة شديدة .

ورفعت إلى عمر قصة رجل قتلته امرأة أبيه وخليلها ، فتردد عمر : هل يقتل الكثير بالواحد ؟

فقال له على : أرأيت لو أن نفرا اشتركوا فى سرقة جَزُور[٣] ، فأخذ هذا عضوا ، وهذا عضوا أكنت قاطعهم ؟

قال : نعم .

قال : فكذلك .

فعمل عمر برأيه ، وكتب إلى عامله أن اقتلهما ، فلو اشتركت فيه أهل صنعاء كلهم لقتلتهم[٤] .

وذات مرة قد عرض على عمر مسألة توفيت فيها امرأة عن زوج وأم وإخوة لأم ، وإخوة أشقاء ، فكان عمر يعطى الزوج النصف ، والأم السدس ، والإخوة لأم الثلث ، فلا يبقى شىء للإخوة الأشقاء . فقيل له : هب أن أبانا كان حمارا ، ألسنا من أم واحدة ؟ فعدل عمر عن رأيه ، وأشرك بينهم .

وقيل : كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله ، فإن وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به ، وإن لم يكن فى الكتاب وعَلِمَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك الأمر سنة قضى بها ، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين وقال : أتانى كذا وكذا ، فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى فى ذلك قضاء ؟ فربما اجتمع عليه النفر[٥] كلهم يذكر فيه عن رسول الله قضاء . . . فإن أعياه أن يجد فيه سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم ، فإن أجمع رأيهم على شىء قضى به . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك ، فإن أعياه[٦] أن يجد فى القرآن والسنة نظر هل كان

---

(١) بلى . (٢) وحياتى . (٣) الجزور : من الإبل ، يقع على الذكر والأنثى .
(٤) أعلام الموقعين لابن القيم ، جـ ١ ص ٢٥٦ . (٥) النفر بفتحتين : عدة رجال من ثلاثة إلى عشرة . (٦) أعجزه .

فيه لأبى بكر قضاء ، فإن وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به ، وإلا دعا رءوس الناس ، فإذا اجتمعوا على أمر قضى به .

وعن سعيد بن المسيب عن علىّ قال : قلت : يا رسول الله ، الأمر ينزل بنا لم ينزل فيه قرآن ، ولم تمض فيه منك سُنة .

قال : اجمعوا له العالِمِينَ أو قال العابدين من المؤمنين ، فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد .

وعن الشعبى قال : كانت القضية ترفع إلى عمر رضى الله عنه فربما يتأمل فى ذلك شهرا ، ويستشير أصحابه ، واليوم يفصل فى المجلس مائة قضية .

وعن شريح قال : قال لى عمر بن الخطاب أن اقض بما استبان[1] لك من قضاء رسول الله ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله فاقض بما استبان لك من أئمة المهتدين ، فإن لم تعلم فاجتهد برأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح .

وروى عن عبدالله بن مسعود أنه قال : إنى لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم .

الإسلام وحرية التعلم :

إن الإسلام دين علم ونور ، لا دين جهالة وظلمة ؛ فأول آية نزل بها الوحى فيها أمر للرسول بالقراءة ، وتنويه بشأن العلم والتعليم ، نلمسه فى إسناد التعليم إلى الله تعالى : « ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ[2] . ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » . وقوله تعالى مخاطباً نبيه محمدا : « وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا » .

وقد نوه القرآن الكريم بشأن العلماء ، وما لهم من منزلة رفيعة ، ومكانة سامية ، فقال : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ[3] . » وقال : « يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ . »

---

(١) اتضح وظهر . (٢) دم جامد . (٣) سورة الزمر : ٩ .

فالعلم مقدس فى نظر الإسلام ، وهو أسمى شىء فى الحيـاة لدى المسلمين . وللعلماء العاملين منزلة فى الإسلام تلى منزلة الأنبياء . قال الرسول الـكريم :

« العلماء ورثة الأنبياء » .

وقد دعا الرسول صلى الله عليـه وسلم إلى التعليم وأوجبه ، فقال : « علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانـكم » .

ولم يفرق الإسلام فى طلب العلم بين الأبناء والبنات ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » من غير تفرقة بينهما .

فالإسلام يطالب المسلم والمسلمة بالتعلم ، وطلب العلم ، والعمل به ، ويدعو إلى الاستمرار فى التعلم والبحث والاطلاع .

قال الرسول : « لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم ، فإذا ظَنَّ أنه قد علِمَ فقـد جهل » .

وكان صلى الله عليه وسلم يشجع التعليم بعمله وقوله ؛ فقد كان يطلق سراح الأسرى المتعلمين من الـكفار إذا علموا بعض المسلمين القراءة والـكتابة ، حرصا منه عليه الصلاة والسلام على ذيوع التعليم ونشره بين جميع المسلمين .

ولم يفته أن يعطى المرأة حظها ونصيبها فى تعلم القراءة والـكتابة ؛ فقـد سأل الشفَّاء العدوية أن تقوم بتعليم زوجه السيدة حفصة القراءة والـكتابة ، ضاربا بذلك أحسن الأمثال لأمته فى وجوب تعليم البنات والسيدات .

وحسبك أن العلم فى نظر الرسول الـكريم قوام الدنيا ، وقوام الدين ، حيث قال : « من أراد الدنيـا فعليـه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم » .

فالإسلام يشجع لنشر العلم والتعليم ، وتقبل العلوم المختلفة . وإن ما ترجم إلى العربية

من علوم الفرس واليونان فى عهد المنصور والرشيد والمأمون دليل على تقدير الإسلام لحرية العلم وتأييده للتعليم .

فالإسلام ينادى بحرية العلم ، ويفرضه على كل مسلم ومسلمة .

قال صلى الله عليه وسلم :

« يُبعَثُ العالم والعابد ، فيقال للعابد : ادخل الجنــــة ، ويقال للعالم : اتّئِدْ حتى تشفعَ للنــاسِ » .

الإسلام والحرية السياسية :

إن الحرية السياسية قد كفلها الإسلام حين قرر مبدأ الشورى فى الحــكم ، فقال تعالى مخاطباً نبيــه الــكريم : « وشاوِرْهم فى الأمر » . وسنتــكلم بإسهاب فى هذا الــكتاب عن « المشاورة فى الإسلام » على أنهــا أساس هام من أسس (الديمقراطية) الإسلامية .

والحرية المدنية هى التى يقصد بها أن يكون الشخص كامل الأهلية لأن يباشر بنفسه جميع الالتزامات التى يجب أن يقوم بها ، باعتباره إنسانا حرًّا ، فله حق التملك ، ومباشرة عقود البيــع والشراء ، والرهن والإجارة ، والوصية والزواج . وهذه الحرية من حق كل مسلم متى بلغ سن الرشد والتميز . والحرية المدنية بهذا المعنى من حق كل مسلم حر بالغ . ولولى الأمر الحق فى أن يتدخل فى الملــكية إذا كانت مشوبة باستغلال النفوذ أو السلطان؛ كأن يستغل المالك ما لديه من السلطة ، فيتضاعف مايملــكه ، لما له من سيطرة فى الحــكم . والأمثلة على ذلك كثيرة فى التاريخ الإسلامى .

فالإسلام هو دين الحرية الصحيحة ، سبق (الديمقراطية) الحديثة بأزمنة طويلة إلى تقرير هذا المبدأ الإنسانى ، فنشره فى العالم عدلا شاملا ، وحقا كاملا ، حتى رسخت أصوله ، ونمت فروعه ، فاطمأن النــاس ، وعكفوا جاهدين دائبين على الإنتاج العلمى لسعادة البشرية وصلاحها ، فــكان من المسلمين الصادقى الإيمان جموع زاخرة من العلماء

الأعلام ، بحثوا وألفوا كتبا كثيرة ، وقدموا للإنسانية خيراً عميما . وعلى أساس هذا التراث العلمى الخالد الذى تركوه استيقظت أوروبة من سباتها العميق ، فكان من ثمرات هذا البعث تلك المدنية التى تدعى الآن فى زهو وخيلاء أنها هى التى كفلت حقوق الإنسان فى الحرية ، ولولا التعصب الأعمى ما أنكرت الفضل على ذويه .

ومن علماء المسلمين الذين كانت لهم الزعامة فى العلم والأدب والتأليف ، وكان لهم فضل كبير على العالم كله على سبيل المثال :

(١) أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (٨٦٥ ـ ٩٢٦ م) وكان يعد دائرة معارف علمية ، ومرجعاً فى الطب والكيمياء والطبيعة والعلوم .

(٢) وأبو على الحسين بن عبد الله بن سينا (٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م) وهو الطبيب والفيلسوف والمربى والعالم بالتحليل النفسى .

(٣) وأبو على الحسن بن الهيثم (٣٥٤ هـ ـ ٤٣٠ هـ) وهو العالم الطبيعى ، والمهندس الرياضى ، ومؤسس علم الضوء .

(٤) وأبو نصر الفارابى (٧٨٠ ـ ٩٦٠ م) وكتابه إحصاء العلوم أشبه بدائرة معارف عامة ، فى النحو والمنطق ، والرياضيات والإلهيات ، والطبيعيات ، والأخلاق ، والقانون . وكان يجيد الموسيقا .

(٥) وجابر بن حيان (١٠٠ ـ ١٦١ هـ) وهو أبو الكيمياء العربية ، وله كتب متعددة فى الكيمياء . وقد انتفع الأوروبيون بها فى بحوثهم الكيميائية .

(٦) وأبو الريحان البيرونى (٣٦٢ ـ ٤٤٨ هـ) المؤرخ الجغرافى ، الفلكى الرياضى ، العالم بالطبيعة والفلك ، ومن مؤلفاته : « الآثار الباقية عن القرون الخالية » .

(٧) أبو عثمان عمرو بن بحر (١٥٩ـ٢٥٥ هـ) أديب العلماء ، وعالم الأدباء ، الكاتب الفيلسوف ، معلم العقل والأدب ، ومؤسس فن البيان : الجاحظ ، ومن مؤلفاته : البيان والتبيين ، والحيوان . وهما ذخيرتان فى الأدب والعلم .

(٨) وابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ) مؤسس علم الاجتماع ، وواضع قواعد التحقيق التاريخى ، وعالم كبير فى الاقتصاد ونواميس العمران . ومن مؤلفاته : « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر » ، ومقدمة ابن خلدون .

(٩) أبو عبد الله ياقوت الحموى (٥٧٥ ـ ٦٢٦ هـ) الرحالة الأديب الجغرافى ، ومن مؤلفاته : معجم البلدان ، ومعجم الأدباء .

وغيرهم كثير من العلماء والأدباء والمؤرخين والفلاسفة من المسلمين . (ارجع إلى سلسلة « أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامى [١] » .

(١) ثلاثة أجزاء للمؤلف وشريكه الأستاذ أبو الفتوح محمد التوانسى ، بمكتبة نهضة مصر بالفجالة بالقاهرة .

الفصل السابع

الإسلام ضد الرق

تمهيـــــد :

الرق هو الضعف أو العجز الناشئ عن حرمان الإنسان حقه الفطرى فى الحرية التى منحه الله إياها . وقد كان الرق شائعا بين جميع الشعوب فى العصور القديمة ، ثم زال فى العصور الحديثة تقريبا ، بسبب انتشار النهضة الفكرية ، والناحية الإنسانية ، والشعور بالعدالة بين المجتمع الإنسانى ، والتقدير التام لحقوق الإنسان وواجباته .

وفى قديم الزمان كانت إرادة الأقوياء هى القاعدة فى الحياة والسلوك والأخلاق . وكان القوى يتحكم فى الضعيف ، والضعيف يخضع للقوى ، بين الأمم والأفراد على السواء ، فنشأت التفرقة وعدم المساواة فى النواحى الاجتماعية والجسمية والعقلية بين الجنس البشرى ، وحدث الرق والعبودية ، وسيطر الإنسان على أخيه الإنسان ، وامتلكه،وصار له الحق فى التصرف فيه بالبيع ، واستخدامه فى العمل والزراعة والحقول وخدمة البيوت .

وإن الرغبة فى الانتفاع بالقوة الجسمية التى يتمتع بها شخص آخر هى أساس الرق والاستعباد ، وهى قديمة كقدم الطبيعة الإنسانية . وفى القوانين القديمة كان يقال : « بعرق جبينك ستأكل الخبز حتى تموت ».فبالعمل أو العرق الذى يقدمه الفقير للغنى، والضعيف للقوى كان الشخص يجد قوته الضرورى لحياته . وبغير العمل والعرق كان الفقير لا يستطيع أن يعيش .

لهذا نشأ الرق والاستعباد ؛ وافتخر الإنسان القوى بسيطرته على أخيه الإنسان الضعيف . ولا نبالغ إذا قلنا إن الرق قد وجد منذ وجد الإنسان ، وإن من يطلع على

تاريخ الأمم القديمة يجد علامات الرق فى كل عصر ، وكل شعب ، ويرى أن جرائيم الرق والعبودية تنتشر فى المجتمعات المتوحشة ، وتقل حتى تزول وتنقرض فى المجتمعات المتمدنة التى تشعر بحقوق الإنسان ، وتنادى بها ، وتدافع عنها بما أوتيت من قوة .

الرق قبل الإسلام :

كان المصريون القدماء ، والآشوريون والعبرانيون والفرس والهنود والصينيون والإغريق والرومان ، والألمانيون قديما يستخدمون الأرقاء والعبيد فى أعمالهم ، ولكنهم كانوا يختلفون فى معاملتهم

١ — الرق عند قدماء المصريين :

فقدماء المصريين ، والملوك والكهنة ورجال الجيش من الفراعنة كانوا يتخذون أسرى الحرب عبيداً لهم ، ينتفعون بهم فيما تحتاج إليه الدولة من الأعمال ، ويفخرون باستخدامهم لديهم ، ويتخذونهم لمظاهر الأبهة والعظمة ، وقد خالفوا غيرهم من الأمم فى أنهم على غير العادة كانوا يعاملونهم معاملة إنسانية كلها شفقة ورحمة . وكانت دياناتهم تسمح لهم بأن يتزوج الحر رقيقة . ويجعلها زوجا له ، وتحرم عليهم قتل الرقيق ، ومن قتل عبداً حكم عليه بالقتل قصاصا منه .

٢ — الرق عند الآشوريين :

وقد اعتاد أهل آشور استخدام العبيد من قديم ، وكانت قصور الآشوريين مملوءة بالجوارى من النساء ، والخدم من الأرقاء للخدمة ومظاهر السيطرة .

٣ — الرق لدى العبريين :

وكان الاسترقاق عادة لدى العبريين قديما ، وكان العبيد من مصادر الغنى والثروة . ولهم حقوق محددة ، منها الراحة سبعة أسابيع فى السنة ، ومنع ضربهم ضربا مبرحا . ومن فعل ذلك عوقب عقابا شديداً ، ومن كسر لعبد سنا أو عضوا من أعضائه

عوقب عقابا مماثلا لذنبه . فالرقيق كان يعامل معاملة الحر ، فيتزوج بنت سيده إذا لم يكن له أبناء من الذكور .

وكان للسيد أن يتزوج أمَته ، ويتخذ سرارى من جواريه . وقد ورد فى شريعة موسى أن العبد إذا استحق العقوبة ، حوكم أمام القضاء رحمة به ، ومحافظة عليه من انتقام مولاه .

وكان الإسرائيلى يعاقب بالرق والعبودية إذا ارتكب ذنبا من الذنوب ، أو لم يف بما عليه من الديون ، ثم يعطى حريته بعد التكفير عن ذنبه ، أو سداد ما عليه من الديون .

٤ — الرق عند الفرس :

وفى إيران كان الأرقاء يتخذون رعاة ، ويستخدمون فيما تحتاج إليه البيوت من الزينة والعمل . وكان لهم أوقات للراحة وأوقات للعمل . وإذا ارتكب الرقيق ذنبا عوقب عقابا معتدلا ، فإذا ارتكبه مرة أخرى فلسيده أن يعاقبه بما يشاء ، وله أن يقتله .

٥ — الرق عند الهنود القدماء :

وكان لدى الهنود القدماء طبقتان : طبقة الأشراف وهم البراهمة ، وطبقة العمال ، وهى الطبقة الدنيا التى تستخدم فى الأعمال ، وتعامل معاملة كلها قسوة وظلم . وللطبقة الأولى السيادة والسيطرة ، وعلى الطبقة الثانية — وهى طبقة الأرقاء — الطاعة والخضوع . ويستمر الرقيق خادما طوال حياته . وكانت القوانين التى يحاكم بها جائرة ، فإذا اعتدى رقيق على بَرَهمى حكم على الرقيق بالقتل . وإذا سبه بلفظ بذىء قطع لسانه . وإذا احتقره عوقب بوضع خنجر محمى بالنار فى فمه . وإذا جرؤ ونصح لبرهمى نصيحة تتصل بواجبه أمر الملك بوضع زيت ساخن فى أذنه وفمه . وإذا اغتصب برهمى شيئا من الرقيق حكم عليه بدفع غرامة مالية . وإذا سرق عبد شيئا من برهمى حكم عليه بالإحراق.

وكانت الأعمال النجسة تترك للعبيد ليقوموا بها ، والأعمال المقبولة يقوم بها الخدم . وكان فى الهند طائفة منبوذة تسخر للخدمة كالعبيد .

٦ — الرق عند الصينيين قديما .

وكان الفقراء من الصينيين القدماء يبيعون أبناءهم وبناتهم لشدة فقرهم وحاجتهم . وكان للسيد الحق فى بيع من لديه من الأرقاء وأولادهم . وقد عرف الصينيون بالذكاء والحكمة والرقة والمروءة والإنسانية . وكانوا يعاملون الأرقاء معاملة فيها الشفقة والرحمة، لاعتقاد إمبراطور الصين (كوانجون [1]) أن الإنسان أفضل المخلوقات ، وكان من أوامره : من قتل عبده قتِل ، ومن كواه بالنار عوقب ، وأصبح المكوى وطنيا حرًّا .

فالرقيق فى الأمم الشرقية كان يعامل بعطف وشفقة ورحمة ، إلا فى بلاد الهند القديمة ، فإنه كان يعامل فيها بقسوة وشدة .

٧ — الرقّ عند الإغريق القدماء :

كان الرق منتشراً لدى قدماء اليونانيين ، وكانت أثينا سوقاً لبيع العبيد وشرائهم. وفى إسبرطة كان الأرقاء يعاملون بكل قسوة . قال (بلوتارك) المؤرخ اليونانى : « إن الحرّ فى إسبرطة كان يتمتع بكل حرية ، والعبد كان أكثر العبيد استرقاقاً » . وقد أجاز الفيلسوف اليونانى أرسطو الرق ، وقسم الجنس البشرى قسمين : أحرارا وعبيدا . والأرقاء لدى اليونان نوعان مختلفان : أحدهما سكان البلاد التى هزمت فى الحرب ، وهم يُعَدُّون جزءاً من الأرض . والآخر أرقاء اشتراهم سادتهم بأموالهم ، فلهم السيطرة المطلقة عليهم . ومعظمهم من هذا النوع .

ويرى أفلاطون الفيلسوف اليونانى إلزام العبيد بإطاعة سادتهم من الأحرار ، والخضوع لهم ، وحرمانهم أن يكونوا مواطنين .

ويرى أرسطو ـ وهو تلميذ أفلاطون ـ أن بعض الناس قد خلقوا ليكونوا عبيداً

(١) قد عاش ٣٥ سنة بعد المسيح .

للأحرار ، وليوجهوهم كما يريدون ، وبعضهم خلقوا ليكونوا سادة ، وهم الأحرار ذوو الفكرة والإرادة والسلطان . فالعبيد خلقوا ليعملوا كأنهم آلات ، والأحرار خلقوا ليفكروا ويلقوا الأوامر لينفذها العبيد .

وفى بلاد اليونان كان العبيد يعملون خدما فى البيوت ، ولا يسمح لهم بأن يكونوا كهنة فى المعابد .

وقد اعتاد قدماء الإغريق السير فى البحار ، وخطف من يجدونه من سكان السواحل . وكانت قبرص وصاقس وسامس والمستعمرات اليونانية أسواقا كأثينا يباع فيها الأرقاء ويشترون . وكان العبيد يعملون لمواليهم ولأنفسهم ، ويدفعون لسادتهم مقداراً محدداً من المال كل يوم . وكان اليونان يشترون العبيد لتأجيرهم لمن يحتاجون إليهم . وتعد هذه العملية من وسائل تثمير المال . وكان فى كل منزل بأثينا عبد للقيام بالخدمة ، مهما يكن صاحبه فقيراً ، وكان المولى حر التصرف فيمن يملكهم من عبيد .

وكان الرقيق إذا أخطأ عوقب بالجلد بالسوط وكلف القيام بطحن الحبوب على الرحى . وإذا هرب كوي على جبهته بالحديد المحمى فى النار .

وكانت الدولة تستخدم بعض الأرقاء فى حراسة المدن ، والمحافظة عليها ، وتستعين بهم على توطيد الأمن . وأحيانا كان اليونان فى أثينا يعتقون بعض العبيد ، وفى نظير عتقهم وتحريرهم يشترط عليهم الولاء لسادتهم مدى حياتهم ، ويكلفون القيام ببعض الواجبات ، ويعيشون فى أثينا كأنهم غرباء .

وكان إعدام الرقيق محرماً إلا إذا صدر بحكم قضائى . وكانت معاملة اليونانيين القدماء للأرقاء أخف من معاملة الرومان لهم كما سترى .

٨ — الرق لدى الرومان القدماء :

كثرت الحروب الرومانية ، واتسع الرومان فى الفتح والغزو ، واعتمد الأغنياء

بعد أن انتشرت المدنية ـ على الأرقاء فى حرث الأرض وزرعها ، وحصد المحصولات فى الحقول ، والعمل بالأيدى فى المصانع ، والمعامل الفنية .

وكان الرومان يحصلون عادة على الأرقاء من أسرى الحروب ، وأولاد العبيد ، وأولاد الأحرار الذين حكم عليهم القانون بأن يكونوا عبيدا ، كالمدينين الذين صعب عليهم الوفاء بديونهم .

وفى أثناء الحرب كان النخاسون الذين يتجرون فى الرقيق يلازمون الجيوش ، وكان الأسرى يباعون بأثمان زهيدة . وأحيانا كان النخاسون من الرومان يسرقون الأطفال ويبيعونهم ، ويسرقون النساء للاتجار بأعراضهن .

وكان الرقيق فى رومة يقف على حجر فى السوق ، ويدلل عليه البائع ، ويباع بالمزايدة . وقد تعجب إذا عرفت أن الراغب فى الشراء كان يطلب أحيانا رؤية العبد وهو عريان لمعرفة مابه من عيوب .

وكان هناك فرق كبير فى الثمن بين العبد المتعلم والعبد الجاهل ، وبين الجارية الحسناء والجارية الدميمة . وكانت الجارية الحسناء تباع بثمن غال ، ولهذا انتشر الفساد الخلقى ، وانتشرت الرذيلة فى رومة . وقد كان الاتجار بالجوارى الجميلات من أسباب الثراء .

وكان الأرقاء قسمين : قسم ينتفع به فى المصالح العامة كحراسة المبانى ، والقيام بأعمال السجان فى السجن ، والجلاد فى المحكمة للمساعدة فى تنفيذ حكم القاضى . وحال هذا النوع أحسن من سواهم ، وقسم ينتفع به فى المصالح الخاصة كالعبد الذى يتخذه مولاه لقضاء الأعمال فى البيت والحقل ، والجارية التى يجعلها سيدها لتربية الأولاد .

وكان القانون ينظر إلى الرقيق كأنه لاشىء ، فهو ليس له أسرة ، ولا شخصية ، ولا يملك شيئاً . والعبد وماملكت يداه لسيده . ويتبع الرقيق أمه حين الوضع ، فإذا كانت حرة كان حرا ، وإذا كانت رقيقة كان رقيقا .

وكان لمالك الرقيق الحرية المطلقة فى التصرف مع عبده كما يتصرف فى الحيوانات

التى يملكها ؛ فإذا أخطأ عاقبه بما شاء ، وقيده بالسلاسل ، وكلفه القيام بأعمال شاقة ؛ كأن يحرث الأرض أو يزرعها وهو مكبل بالحديد . وكثيراً ما كان يجلد بالسوط بلا رأفة ولا رحمة حتى يموت ، أو يعلق من يديه ،وتربط الأثقال برجليه ، أو يحكم عليه بمصارعة الحيوانات الجائعة المتوحشة ، ومقاتلتها حتى يقضى عليه وحش من الوحوش . وكان القانون الرومانى يبيح لسيده أن يقتله لأنه مملوك له .

فمعاملة الأرقاء كانت معاملة كلها قسوة وشدة ، وفظاظة وغلظة ، لا رأفة فيها ولا رحمة .

٩ — الرق فى القرون الوسطى والعصور الحديثة :

فى القرون الوسطى كان الأرقاء لدى سكان فرنسا وإيطاليا الشمالية والجزر البريطانية وأسبانيا القديمة ــ يكلفون القيام بالأعمال الزراعية من حرث وزرع وحصد ؛ لأن الأعمال اليدوية فى نظرهم كانت محتقرة لايقوم بها الأحرار ، بل يقوم بها العبيد . وكان الأرقاء فى جرمانيا القديمة ــ وهى ألمانيا الحالية ــ يقدمون إلى سادتهم مقادير معينة من القمح أو الماشية أو الملابس . وكان لكل عبد مأوى يقيم فيه ، ويدبر أحواله كيف يريد .

وكان الفرنج ــ وهم الألمان الذين يقيمون فى بطائح نهر الرين الأسفل ــ يعاملون الأرقاء أقسى معاملة ، فإذا تزوج حر رقيقة أجنبية صار رقيقا مثلها ، وإذا تزوجت حرة رقيقا أصبحت رقيقة ، وفقدت الحرية التى كانت تتمتع بها .

وفى لمبارديا كانت الحرة إذا تزوجت رقيقا حكم عليها بالإعدام .

ولدى الأنجلوسكسون ــ وهم الأمم الجرمانية التى تناسل منها الإنجليز ــ كان الأرقاء ينقسمون قسمين : قسم كالمتاع يجوز بيعه ، وقسم كالعقار يقوم بحرث الأرض وزرعها ، ويباح لهم جمع مال يدفعونه لسادتهم كى ينالوا حريتهم .

وفى ١٧ من مارس سنة ١٦٨٥ م صدرت فى فرنسا قوانين خاصة بالأرقاء

والمستعمرات الفرنسية حكم فيها على الرقيق بأنه لا روح له ، ولا نفس ، ولا إرادة .
وتنص تلك القوانين على أنه : إذا اعتدى زنجى على سيده أو على حر من الأحرار ، أو سرق أى شىء كان القتل جزاء له .

وإذا هرب غوقب بقطع أذنه فى المرة الأولى ، وكُوى بالحديد المحمىّ فى المرة الثانية، وقتل فى الثالثة . وإذا قتل المالك رقيقه فللقاضى الحق فى أن يحكم ببراءة المالك .

ولا يجوز لغير البيض الذهاب إلى فرنسا للتعلم وكسب العلم والمعرفة .

معاملة الأرقاء فى أمريكا قبل الرئيس (أبراهام لنكولن) :

وفى الولايات المتحدة بأمريكا كان الأرقاء يعاملون بكل شدة وقسوة ، فقد كان للسيد الحق فى بيع عبده ورهنه وتأجيره ، ولا يجوز له أن يخرج من المزرعة إلا بإذن من سيده . ولا حق له فى الخروج والذهاب كيف يشاء . ولا يجوز أن يجتمع من العبيد فى الطريق العام أكثر من سبعة أشخاص . ولا تقبل شهادتهم على الأحرار ، ولكن تقبل على أمثالهم من الأرقاء . وإذا اعتدى أبيض على زنجى ، فدافع الزنجى عن نفسه ، وفى حالة الدفاع قَتَل من اعتدى عليه عد مذنبا ومرتكبا جريمة القتل .

ولا يجوز له أن يسافر ، ولا يُعطى جواز سفر . ومن نصح الأرقاء بالعصيان أو حرضهم على عدم الطاعة ، أو ألف رسالة أو كتابا فى الطعن على الاسترقاق عوقب أشد عقاب .

هذه أمثلة من القوانين التى كان يعامل بها زنوج أمريكا قبل أن يثور الرئيس المصلح (أبراهام لنكولن) على نظام الرق والعبيد ، ويقوم بتحرير العبيد فى الولايات المتحدة الأمريكية . وقد انتهت الحرب بنيل الزنوج حريتهم . ولكنهم لا يزالون يعانون ألوانا من الاضطهاد والظلم فى بعض الولايات الأمريكية ، بسبب التفرقة العنصرية ، وكان الراحل الرئيس (جون كيندى) يدافع عن حقوقهم ، ويعمل لإزالة هذه التفرقة ، ولكنه مع الأسف قد اغتيل وهو فى مدينة دالاس بولاية تكساس فى ٢٢ من نوفمبر سنة ١٩٦٣ .

وإن الزنوج فى أمريكا يرسفون فى قيود ثقيلة ، فالأبيض الأمريكى مع ما أوتى من العلم يملك الأمة السوداء ، ويولدها البنين ، ومع ذلك لا يعدها أم ولد كما فى الإسلام ، بل إن ولده الأبيض له الحق فى أن يبيع تلك الأمة ، ويبيع ذرية أبيه منها ، وهم إخوته . ولو ذهبنا نستقصى أساليب الرق وأسبابه عند كل أمة قديمة أو حديثة لا تستظل براية الإسلام لم نجد لذلك سببا إلا تحكم القوى فى الضعيف ، بإذلاله وتسخيره لشهواته .

وما زالت الأمم التى ترفع صوتها باسم (الديمقراطية) والحرية تعامل عباد الله الأحرار الذين تسميهم الأجناس الملونة معاملة خاصة ، فيها إذلال وسخرية ، وعنف واحتقار ، أما الإسلام فكانت له طريقة فريدة فى محاربة الرق ؛ فقد قضى على الفكرة الأصلية للاسترقاق ، وهى استعباد الأقوياء للضعفاء . ولم يجز الرق إلا فى حالة واحدة ، وهى حالة اعتداء غير المسلمين اعتداء صارخا يهدد كيان الإسلام ، فإذا ما تغلب المسلمون على أعدائهم وأسروا فريقا من أولئك الطامعين فى هدم دينهم ، فلهم فى هذه الحالة فقط أن يسترقوا الأسرى ، ولكن الدين الإسلامى بالرغم من ذلك أباح للمسلمين أن يفكوا هؤلاء الأسرى ، وأن يفتدوهم بغيرهم من أسرى المسلمين .

الاسترقاق فى الدين المسيحى والموسوى :

ليس فى الإنجيل نص صريح ضد الرق والعبودية ، ولم يقل أحد من رجال الكنيسة بتحريم الاسترقاق ، وكل ما جاء به الإنجيل أن الناس كلهم يعدون إخوانا ، وأنه يجب عليهم أن يحب بعضهم بعضا ، بل أوصى القديس بولس الأرقاء فى رسالته أن يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب . كما يطيعون المسيح ، وأوصاهم القديس بطرس أيضاً بأن يكونوا خاضعين لمواليهم ، وأن يخشوهم . وقد تبعهما آباء الكنيسة فى هذه التعليمات ، وأجازوا الرق والاسترقاق ، حتى أفتى بعض علماء اللاهوت بأن الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء .

وقد ورد فى الإصحاح الحادى عشر من سفر الخروج فى العهد القديم ما يدل على وجود الجوارى والعبيد : « لكى تعلَموا أن الربَّ يُميزُ بين المصريين وإسرائيل ، فيَنْزِلُ إلىَّ جميعُ عبيدِكَ هؤلاء ويسجدون لى . . . » ٧ ـ ٨ .

وقد أقر رجال الكنيسة الاسترقاق ، وقالوا بصحته ، وعدوا النَّخاسة تجارة مباحة ، والاسترقاق من النظام المسيحى ، وسلموا بأنه نظام مشروع .

فالديانة المسيحية ليس فيها نص يدل على تحريم الاسترقاق . ومن الناحية العملية لم تلغ الرق بل أقرت صحته ، ورضيت به رضاء تامًّا حتى اليوم ، ولم تَسْعَ فى إلغائه . وكل ما حدث أن الثورة الفرنسية نادت بالمساواة بين الناس أمام القانون .

ولم تحتجّ الديانة المسيحية على الرق والعبودية ، ولم تدافع عن الأرقاء والعبيد ، ولم تطالب بإزالة هذا الظلم ، أو تخفيف هذه القسوة ، ولم تستقبح نظام الرق ، بل قالت بخضوع العبد خضوعا مطلقا لإرادة سيده أو سيدته . واستمر العبيد خاضعين لسيطرة من يملكونهم فى البلاد المسيحية . وكان لسادتهم الحق فى إحيائهم أو إماتتهم . وكانوا منبوذين يُعذَّبون ، ويضربون بالسياط ، إذا ارتكبوا أى خطأ ، ولو كان تافها .

ولم تنجح الديانة المسيحية فى إلغاء الرق أو إزالة مظالمه ، أو تخفيف مضاره . وقد كان لدى الكنيسة نفسها عبيد . واعترفت صراحة بأن الرق أمر يجيزه القانون . وأصر المسيحيون على أن الرق مفيد لأنه يمنع السرقة والسؤال .

والمسيحى الأبيض لا يعترف بمساواة الزنجى الأسود له فى هذه الحياة . والتفرقة العنصرية سائدة بين المسيحيين فى جنوب أفريقية وغيرها . وإن المعاملة القاسية التى يعامل بها الزنوج يأباها الدين وتأباها الإنسانية .

وقد وقفت الديانة الموسوية من الرقيق موقفاً غريبا ؛ فقد أقرته وحتمته ، فجاء فى سفر التكوين أن الله حتّم العبودية على أولاد كنعان بن حام .

فقد ورد فى الإصحاح التاسع : ٢٥ ـ ٢٦ « فقالَ (نوح) : ملعونٌ كنعانُ . عَبدَ العبيدِ يكونُ لإخوتِه . وقال : مُباركٌ الربُّ إله سامٍ . وليَكنْ كنعانُ عبداً لهم »

وجاء فى سفر التثنية (إصحاح ٢٠ عدد ١٠ ـ ١٤) قد أمر الرب أن كل أمةٍ محاربة إذا انتصر عليها اليهود يكون جميع أهلها من رجال ونساء وأطفال عبيداً لهم ، يسخرونهم لهم إلى الأبد بدون قيد أو شرط . حيث قيل : « حينَ تقرُبُ من مدينةٍ لكى تُحاربها استَدْعِها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلحِ وفتحَت لكَ فكل الشَّعب الموجود فيها يكونُ لك للتَّسخير ويُستَعبَدُ لك . وإن لم تُسالِمْك بَل عَملت معك حَرباً فحاصِرْها . وإذا دَفعها الربُّ إلهُك إلى يدِك فاضرِبْ جميعَ ذكورِها بحدِّ السيفِ . وأما النساء والأطفالُ والبهائمُ وكلُّ ما فى المدينةِ كلُّ غنيمتِها فتغتنمها لنفسِك ، وتأكل غنيمةَ أعدائك التى أعطاكَ الربُّ إلهك » .

الإسلام قد قضى على الاسترقاق :

وقد قضت الديانة الإسلامية على الرّق والعبودية من أساسهما وجذورها ، حينما نادت بالمساواة بين الإنسان وأخيه الإنسان فى الحقوق والواجبات والمعاملات .

وليس من الإسلام أن تُخلق طائفة لتَحكُمَ وتُسيطر ، وتُخلق أخرى لتُحكَمَ وتُستَعبَد ، ويُخلَق بعض الناس ليكونوا سادة ، وبعضهم ليكونوا عبيداً لهؤلاء السادة .

قال تعالى : « يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[1] » .

وقال عزَّ وجَل : « فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ[2] » .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ . (٢) سورة المؤمنون : ١٠١ .

الصور : البوق .

فلا أنسابَ بينهم : أى تقطع ما بينهم من الأنساب ، فلا يهتم كل أحد إلا بنفسه .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبته فى حجة الوداع : « لا فَضلَ لعربىّ عَلَى عجمىّ ، ولا لعجمىٍّ عَلَى عَربىٍّ ، وَلا لِأَحْمَرَ على أَبيضَ ، ولا لِأَبيضَ على أحمرَ إلا بالتَّقْوَى » .

وقد نهى محمد عليه الصلاة والسلام عن مخاطبة العبد والأَمة بأى عبارة يُفهم منها الرق والعبودية ، حيث قال :

« لا يَقولَنَّ أحدُكُم عَبْدِى وأَمَتِى . ولا يَقولَنَّ المملوكُ رَبِّى ورَبَّتِى ، ولْيَقُل المالِكُ : فتَاىَ وفتَاتِى . ولْيقل المملوكُ سَيِّدِى وسَيِّدَتِى . فإنكُمُ المملوكونَ ، والرَّبُّ اللهُ » .

فالرسول الكريم يكرهُ كلمة عبد ، وكلمة أَمَة ؛ لأنهما ضد الحرية ، وضد الإنسانية .

وقد نهى الإسلام عن الفخر بالآباء والأجداد ، والأنساب والأحساب ؛ لأن الكل من أبناء آدم ، وآدم من تراب . قال الرسول الكريم : « ليَدَعَنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوامٍ ، إنما هُم فَحْمٌ مِن فحم جهنَّمَ ، أو ليَكونُنَّ أهونَ على اللهِ من الجِعلانِ[1] التى تدْفَعُ بأَنفِها النَّتَنَ » . وقال : « إن اللهَ قد أذهبَ عنكُمُ عُبِّيَّةَ[2] الجاهلية وفخرَها بالآباء ، مؤمنٌ تقىٌّ ، وفاجرٌ شقىٌّ ، أنتم بنو آدمَ ، وآدمُ من تراب » .

وقد جاء إلى رسول الله وفدٌ من بنى عامر ، فقال أحدهم : أنت سيدُنا . فقال عليه الصلاة والسلام : « السَّيِّدُ اللهُ تبارَكَ وتعالَى » .

---

(١) الجعلان : جمع جعل وهو أبو جعران ، والعامة تقول (جعران) .

(٢) نخوة الجاهلية .

فقالوا : (أنت) أفضلُنا وأعظَمُنا طَوْلاً .

فقال : « قولُوا بقَوْلِكم أو بعضِ قَوْلِكم ، ولا يَستَجْرِيَنَّكُم[١] الشيطانُ » .

وحدث أن رجلاً من كبار الفرس حضر مع الرسول غزوة أُحد ، وضرب رجلاً من المشركين ، وقال : خُذها وأنا الغلامُ الفارسيُّ ، قاصداً الاعتزاز بقومه ، فالتفت إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال : « فهَلَّا قلتَ : خُذها منِّى وأنا الغلام الأنصارى » .

وفى هذا إشارة إلى الوحدة الإسلامية ، ونهى عن الفخر بالجنسية والعصبية .

قال عليه الصلاة والسلام : « ليْسَ مِنَّا مَن دعا إلى عصبيةٍ ، وليسَ مِنَّا مَنْ قاتَلَ عَلى عَصَبيَّةٍ ، وليس منا مَن مات عَلَى عصبيةٍ » .

فالإسلام دين الحرية والإخاء والمساواة والتقوى والعمل الصالح ، لا دين الرق والعبودية ، والتفرقة العنصرية ، والفخر بالجنسية واللون والعصبية .

قال عز وجل : « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ[٢] » .

وقال تعالى : « لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ[٣] وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ[٤] بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[٥] » .

وقال رسول الحرية والعدالة والأخوة الإنسانية : « المسلمُ أخو المسلم لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه[٦] . مَن كان فى حاجةِ أخيهِ كان اللهُ فى حاجتِه . ومَن فرَّج عَن مُسلمٍ كُرْبةً فرَّج اللهُ عنه بها كربةً مِن كُرَبِ يوم القيامةِ . ومَنْ ستر مُسلماً ستره اللهُ يومَ القيامةِ » .

---

(١) لا تكونوا أتباعا للشيطان . (٢) سورة الحجرات : ١٠ .
(٣) أرحامكم : أى أقاربكم الذين يجمعكم وإياهم رحم قريب .
(٤) أى يفرق بينكم وبينهم ، فلا يستطيع أحد أن ينفع أحداً فى أى شىء .
(٥) سورة الممتحنة : ٣ . (٦) يسلمه : يتركه من غير مساعدة ويخذله .

وقال : « لا يُؤمنُ أحدُكُم حتّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لِنفسِه . »

وقد قوّى رسول الله روابط الأخوة بين الموالى والعبيد حيث قال :

« إخوانُكُم خَوَلُكُم(١) جعلهُم اللهُ تحتَ أيْدِيكُم » . وفى رواية أخرى :

« إخوانُكُم خَوَلُكُم (خدمكم) فمن كانَ أخوهُ تحتَ يدِهِ فلْيُطْعِمْهُ مِما يأْكلُ ، ويُلبِسْهُ مِما يلبَسُ . »

فالإسلام قد أتى والرق شائع بين الشعوب ، والعبيد يقاسون كثيرا من الظلم وسوء المعاملة ، فنهى عن ظلمهم وإيذائهم ، وأنذر من عذبهم أو قسا عليهم بأشد العقاب ، وشجع على تحريرهم ، وفك رقابهم ، وإطلاق سراحهم بجميع الوسائل ، ووعد من يعطف عليهم بحسن الثواب ، وضمن لهم أن يحيوا حياة حرة عزيزة كريمة ، كما يحيا الإنسان الحر الكريم ، ويعاملوا معاملة تتمثل فيها الرحمة والعدالة والعطف والإنسانية .

الإسلام يحرر الأرقاء

الحرية أثمن هبة من الله :

الحرية أثمن هبة من الله للبشرية ، وخير ما تمتع به الناس فى حياتهم ، ولدت مع الإنسان ، فعرفها منذ القدم ، وسعى إليها ، وحرص عليها ، وضحى فى سبيلها بالنفس والمال ، بل إن الطيور والحيوان ألفت الحرية ، واهتدت إليها بفطرتها . وكم من طير أو حيوان سجن ، فعاف لذيذ الطعام ، ومرىء الشراب ، وكان سجنه نذير موته ، وسبب هلاكه ، حزنا على حريته . غير أن الناس منذ القدم ألفوا أن يكون فيهم الأحرار والعبيد ، وأن ينعم أحرارهم ويسعدوا بقدر ما يشقى عبيدهم ، فالسيادة والرياسة والسيطرة للأحرار ، والخدمة والسخرة والمذلة للعبيد . وغلا السادة فى التعالى على العبيد ، وسن لهم المجتمع الظالم قوانين الجور والظلم ، حتى لكأنهم ليسوا من البشر ، وكأنهم لم يخلقوا إلا للخدمة الأحرار ، والتاريخ شاهد عدل على صدق ذلك ، كما قدمنا بالتفصيل عن الرق فى الأمم قبل الإسلام .

جاء الإسلام فوجد الأرقاء يعانون ألوانا من العسف والظلم فى مشارق الأرض

---

(١) حشمكم وخدمكم .

ومغاربها، ورأى مآسي الرق ومخازيه تزيد مع الأيام ، فلم يكن له بد من علاج هذه المشكلة ، واستئصال ذلك الداء . غير أن الإسلام رأى — شأنه فى كل تشريع — ألا يلغى الرق جملة واحدة ، بل أخذ يتدرج فى هذا الإلغاء ، ويسير فى سبيله فى هوادة واتزان ، رحمة بالناس وشفقة ، حتى لا يُصدَمُوا مرةً واحدة بما لم يألفوا ، فينفروا ويرفضوا .

وأول ما بدأ به الإسلام أنه لم يجعل للاسترقاق إلا وسيلة واحدة . هى الأسر فى حرب مشروعة ، بين المسلمين وغيرهم ، ومع ذلك لم يجعل استرقاق الأسرى أمراً لازما ، بل كان للإمام أو الحاكم أن يمن عليهم ، ويطلق سراحهم ، كما كان له أن يفتديهم بمبلغ من المال .

قال الله تعالى فى معاملة أسرى الحرب : « فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ[١] فَشُدُّواْ[٢] ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا[٣] بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً[٤] حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ[٥] أَوْزَارَهَا[٦] . »

وحينما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم بعث للهداية وعلاج المساوئ الخلقية والاجتماعية ، فحرم الرقّ مع أنه كان مباحا ، ولم يُجز منه إلا ما هو جائز الآن فى أسرى الحروب . وكان ذلك منذ أربعة عشر قرنا . وقد شجع الإسلام على تحرير الأرقاء بإعطائهم صدقات تساعدهم على التحرر وفك رقابهم، وسوّى بينهم وبين الأحرار ، وعاملهم معاملة كلها إنسانية .

وقد سبق الحضارة الحديثة والقانون الدولى فى أنه أوجب على الدولة أن تسعى فى إطلاق سراح الأسرى وتحريرهم بالفدية .

وبهذه الوسيلة حارب الإسلام الرقّ والاستعباد ، وشجع على الحرية فى عصر كان الظلم فيه منتشرا ، والفساد عاما ، والاسترقاق مباحا . فمعاملة الأسرى والأرقاء فى الإسلام

(١) أو سعتموهم قتلا، وأضعفتموهم . (٢) فأمسكوا عنهم، وأسروهم، وشدوا ما يوثق به الأسرى.
(٣) المن : هو إطلاق الأسير بلا مقابل . (٤) الفداء : أى تفادونهم بمال أو أسرى من المسلمين .
(٥) حتى تنتهى الحرب بما فيها من أهوال . (٦) سورة محمد : ٤ .

لا نظير لها فى العالم القديم أو العالم المتمدن اليوم . ولم يسبقها فيها دين أو دولة .

وقد أوصى رسول الرحمة والإنسانية بالأرقاء كثيرا ، حيث قال :

« لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تُستعبَدُ ولا تستخدَم . »

ولتحرير العبيد وإطلاق سراح الأسرى شرع الإسلام العتق للتكفير عن بعض الآثام والذنوب ، كالقتل خطأ ، وكالحنث باليمين ، وكمخالفة القسَم فى الظهار

قال الله تعالى : « وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا (١) . »

يُظاهرون : فعل مأخوذ من الظَّهر ؛ وذلك أن العربى كان فى الجاهلية إذا قال لامرأته (أنتِ علىّ كظَهرِ أمّى) تحرم عليه حرمة مؤبدة . فكان أشدَّ طلاق عندهم .

يعودون : أى بنقض ما قالوا ؛ بأن يعزموا على تحليل ما حرموه على أنفسهم .

تحرير رقبة : عتق عبد ، وجعله حرًّا .

يتماسَّا : أى يتصلا اتصالاً لا يحل إلا للزوجين .

وقال تعالى :

« فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ . أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ . يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (٢) . »

فلا اقتحم : فلا هو تخطَّى .

العقبة : المراد بها هنا التكاليف الشاقة . والمقصود من اقتحامها فعلها .

فكُّ رقبة : تخليصها وتحريرها من الرق والعبودية .

ذى مَسغبة : ذى مجاعة .

ذا مقربة : ذا قرابة ، لأن فيه صلة الرحم وجبر خاطر اليتيم .

جاء الإسلام فوجد الرق مباحا فى كل قطر ، وفى كل شعب ، وفى كل دين ، فلم

---

(١) سورة المجادلة : ٣ . (٢) سورة البلد : ١١ ــ ١٥ .

يأت الإسلام بالرق ، بل شجع بكل الوسائل تحرير الأرقاء والعبيد ، وإنقاذهم من الرق والعبودية ، ومعاملتهم معاملة كلها إنسانية تتمثل فيها الرحمة والشفقة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فى الضعيفين : المملوك والمرأة . » فالرسول الكريم يوصى بالرقيق وبالمرأة خيرا لضعفهما ، وحاجتهما إلى العطف والشفقة .

وقال : « من لَطم مملوكَه أو ضَرَبَهُ فكَفَّارَتُه عِتْقُه » .

أى من آذى عبده بالضرب واللطم فقد أجرم ، ولا يمحو عنه عقاب تلك الجريمة إلا أن يعتق هذا العبد ويعيد إليه حريته .

وفى الشريعة الإسلامية يعد العتق تكفيراً للقتل إذا وقع خطأ ، عملا بقوله جل شأنه :

« وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلا أَن يَصَّدَّقُوا ، فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ، وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ، تَوْبَةً مِنَ اللهِ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً .[1] »

إلى أهله : ورثة المقتول .

ميثاق : عهد .

متتابعين : أى يصومهما دفعة واحدة لا يفصل بين أيامهما بفطر يوم .

فالذنوب الموبقة ، والجرائم المهلكة لا يسترها ولا يكفرها إلا فك الرقاب ، وتحرير الأرقاء بعتقهم وجعلهم أحرارا .

وبعد غزوة بدر كان الرسول الكريم يطلق سراح كل أسير يعلم عددا من المسلمين القراءة والكتابة ، ويحث على تعليم الرقيق وتربيته . كما يحث على تعهد الجارية ورعايتها ، وتحريرها وتزوجها .

---

(١) سورة النساء : ٩٢ .

قال عليه الصلاة والسلام : « مَن كانَتْ له جارية فعلَّمَها وأحسنَ إليها وتزوَّجها كانَ له أجرانِ في الدُّنيا وفي الآخِرَةِ : أجرٌ بالنكاحِ والتَّعليم ، وأجرٌ بالعِتقِ . »

وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالإحسان في معاملة الأرقاء ، فقال : « اتقُوا اللهَ فيما مَلَكَتْ أيمانُكُم ، أطعِموهُمْ مما تأكلُونَ ، واكسُوهُمْ مما تَلبَسُونَ ، ولا تُكلِّفُوهمْ من العمل مالاَ يُطِيقون . فمَا أحبَبْتُم فأمسِكوا ، ومَا كَرِهتُمْ فبيعوا . وَلا تُعذِّبُوا خَلْقَ اللهِ ، فإنَّ اللهَ مَلَّكَكُم إيَّاهُمْ ، وَلَوْ شاءَ لَمَلَّكَهُمْ إياكم . »

فالإسلام يرى الرقيق إنساناً تام الإنسانية ، وينظر إلى الرق على أنه محنة ابتلى بها هذا الإنسان ، ويطلب إلينا إزاء ذلك ـ أن نخفف عنه بلواه ، وأن نعامله معاملة كريمة في طعامه ولباسه وعمله . وإذا كرهنا العبد فليس لنا أن نعذبه أو نقتله ، بل ينصح لنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نبيعه ، فرب مكروه عندنا يكون محبوبا عند غيرنا . وفي النهاية يهدد الرسول الكامل أولئك السادة المستبدين الذين يستبدون بعبيدهم ، ويتوعدهم بأن الله ملكهم هؤلاء العبيد ، وهو قادر كل القدرة على أن يغير الأوضاع ، فيجعل العبيد سادة ، والسادة عبيدا ؛ ليذوقوا سوء ما صنعوا ، وليجربوا حياة العبودية الكريهة ، والرق البغيض : « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [1] . »

وكثيراً ما أوصى نبي الإسلام والإنسانية بالعفو عن الأرقاء ؛ فقد جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام رجل فقال يا رسول الله : كم أعفو عن الخادم ؟

فصمت الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال : « أعف عنه في كل يوم سبعين مرة . »

وليس المقصود من السبعين العدد المذكور فحسب ، وإنما هو عدد يقصد به الكثرة في اللسان العربي .

لم يقتصر الإسلام على تضييق دائرة الاسترقاق ، والوصاة بحسن معاملة الأرقاء ،

---

(١) سورة آل عمران : ٢٦ .

بل أوجب تحريرهم، وتخليصهم من رقهم تكفيراً لذنوب كثيرة . ومعنى هذا أن الإنسان قد يرتكب جرماً ، أو يقترف إثماً ، فلا يخفف عنه العقوبة إلا أن يحرر عبداً ويعتقه خالصاً لوجه الله تعالى .

يقول الله عز وجل فى كفارة اليمين التى حنث فيها حالفها ولم يبرّ بها : « لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ [1] . »

اللغو : هو ما يجرى على اللسان من غير قصد .

بما عقّدتم : أى عقدتم عليه العزم بالقصد والنية .

أوسَطِ ما تطعمون : أى من معتاد ما تأكلون أنتم، ومن تعولونهم، بمقدار ما يكفى المسكين غداء وعشاء .

تحرير رقبة : عتق عبد رقيق .

فتحرير الرقبة أحسن وسيلة للتكفير عن الحِنث فى الحلف بالله ، واللغو فى اليمين .

نظام المكاتبة :

ومما شرعه الإسلام ليسهل على العبد أن يتخلص من رقه نظام المكاتبة ، وهو أن يتفق العبد مع سيده على أن يعتقه مقابل مبلغ من المال ، يدفعه العبد للسيد ، وفى نظير ذلك ينفرد العبد عن سيده ، ويستقل بشئونه مؤقتا ، حتى يستطيع الحصول على هذا المال ، ويدفعه لسيده ثمنا لحريته ، وفدى لرقبته .

وقد توسع فقهاء المسلمين فى هذا النظام ، وتسامحوا حتى أجازوا أن يؤدّى هذا المال على أقساط فى أزمنة معينة .

قال الله تعالى : « وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ [2] » .

يَبتغُون : يطلبون .

---

(١) سورة المائدة : ٨٩ . (٢) سورة النور : ٣٣ .

الكتاب : المكاتبة أى العقد الذى يكتبه السيد لعبده بأن يكون حرا إذا أدّى قدرًا معينا من المال .

فكاتبوهم : صيغة المكاتبة مثلا : كاتبتك على ألفين فى شهرين ، كل شهر ألف ، فإذا أديتهما فأنت حر ، فيقول العبد : قبلتُ .

خيرًا : أى أمانة وقدرة على الكسب لأداء مال الكتابة .

وآتوهم : الأمر للسادة بإعطائهم من مال الله ما يستعينون به فى أداء ما التزموه لسادتهم.

وهكذا لا يكتفى الإسلام بسَنِّ هذا النظام ليبسر للعبيد شراء حريتهم ، ويتركهم يحصّلون المال بكدهم ، بل يلزمنا أن نساعدهم على ذلك ، وأن نعطيهم من أموالنا ، حيث يقول الله جل ثناؤه : « وآتُوهُمْ مِن مالِ اللهِ الذى آتاكم » . أى أعطوهم من مال الله الذى أعطاكم إياه . بل جعل لهذا التحرير نصيباً معلوماً من أموال الدولة التى تجبيها من الزكاة ، وألزم الحكومة أن تنفقه فى هذا الغرض .

قال عزَّ وجلَّ : « إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ[1] . . . »

وبعد هذا كله يحث الإسلام على تحرير العبيد، ويُغرى السادة بتخليصهم أيَّما إغراء، فيعدُّ عتق الرقبة من أعظم الطاعات التى يُتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، ويجعل ثواب العتق الدرجات العالية فى جَنة عرضها السموات والأرض ، فقد جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال :

يا رسولَ اللهِ ، دُلَّنِى علَى عملٍ يُقرِّبُنِى من الجنَّة ، ويُبْعِدُنى من النارِ .

فقال عليه السلام : « أعتِقِ النَّسَمَةَ[2] ، وفُكَّ[3] الرَّقَبَةَ . »

فقال : يا رسول الله ، أَوَ لَيسا واحداً ؟

قال : « لا : عِتقُ النَّسَمَةِ أَنْ تنفردَ بعِتْقِها ، وفَكُّ الرَّقَبَةِ أَن تُعينَ فى ثَمَنِها . »

والقرآن الكريم يجعل تحرير الرقيق تخطِّياً للعقبات ، وخلاصاً من الأهوال . ونجاة من الشدائد يوم القيامة ، حيث يقول الله تعالى فى تعداد نعمه على الإنسان، ومطالبته بشكر هذه النعم:

---

(١) سورة التوبة : ٦٠ . (٢) النسمة فى اللغة : الإنسان . (٣) فك الرقبة : أعتقها .

« أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ . فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ[١] . »

أى جعلنا له عينين ، ولساناً وشفتين ، وبيّنّا له طريقى الخير والشر .

فهلا اجتاز العقبة ؟ وما أعلمك ما العقبة التى يقتحمها ؟ العقبة هى فك رقبة من الرق بتحريرها وإعتاقها . ومن أجل ذلك كان سيدنا أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يشترى الأرقاء ، ويحررهم ابتغاء وجه الله ، وطمعاً فى مرضاته .

وكان لأسامة[٢] بن زيد منزلة كبيرة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول الكريم يحبه كثيراً ، ويقعده وهو صغير مع الحسن بن علىّ على رجليه ، ويلاعبهما ويقبلهما ، ويدعو لهما . فلما كبر أسامة ورأى الرسول حسن استعداده وشجاعته وغَنَاءه ومهارته فى الحرب ، ولاه قيادة الجيش الذى أراد بعثه فى السنة الحادية عشرة للهجرة ؛ كى يؤمن حدود الجزيرة العربية من جهة فلسطين. وكان أبو بكر وعمر رضى الله عنهما جنديين فى هذا الجيش تحت إمرة أسامة . وهكذا قدر الإسلام الحرية (والديمقراطية) والمساواة قدرها ، وحرص على أن يسبغ ثيابها على الناس جميعاً ، وأن يعيدها بشتى الوسائل إلى من جار عليه الزمان ففقدها ، ومن أجل ذلك أعلن على الرق حربا عوانا بكل الوسائل الفعالة، فكانت له مُفنية ماحقة ، لو نفذ المسلمون تعليمات دينهم، وسلكوا طريق نبيهم المُدافع عن الحرية والإنسانية .

وبعد أن انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الدار الباقية ارتد بعض العرب عن الإسلام ، فأمر سيدنا أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أسامة بن زيد بالزحف على المرتدين ، وأبقاه رئيساً للجيش ، فاعترض الأنصار . وقالوا لسيدنا عمر : أخبر أبا بكر أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنًّا من أسامة ، فأبلغ عمر الرسالة إلى أبى بكر ، فأخذ أبو بكر بلحيته :

---

(١) سورة البلد ٨ ـ ١٣ .

(٢) كان أسامة بن زيد حرا وهو ابن عتيق . أعتق النبى أباه ـ وهو زيد بن حارثة ـ وألحقه به ، حتى ألغى الإسلام التبنى . وولد أسامة حرا يتمتع بالحرية التى نادى بها الإسلام .

وقال : « ثَـكِلَتْـكَ أُمُّك يابن الخطاب ، استعمله رسول الله ، وتأمرنى بعزله » .

ثم خرج أبو بكر ليرى الجنود قبل سيرهم وكان ماشيا ، وأسامة راكبا ، فقال له أسامة : يا خليفة رسول الله لتركَبنَّ أو لأنزِلَنَّ .

فقال أبو بكر : « واللهِ لا نزَلتَ ولا رَكِبتُ . وما علىَّ أن أُغبِّرَ قدمىَّ ساعةً فى سبيلِ الله ؟ »

فانظر إلى النبل والمساواة والإنسانية فى الإسلام ! يقعد أسامة مع الحسن على ركبتى رسول الله وأسامة صغير ، ويجعله رسول الله قائداً للجيش وهو شاب فى فتح فلسطين ، وأبو بكر وعمر جنديان فى الجيش تحت رياسته وإمرته ، ويودع أبو بكر الجيش وهو ماش ، وأسامة راكب ، فيدعو أسامة أبا بكر الصديق للركوب ، فيقسم أبو بكر أنه لن يركب ، ولن يسمح لأسامة بالنزول ، ويقول له : والله : « لا نزلتَ ولا ركبتُ . » وبهذا الروح الإنسانى، والمعاملة النبيلة ، والمساواة والتواضع ، والتضحية بالنفس فى سبيل الله ، كان النصر حليف المجاهدين من المسلمين .

وحينما جاء عمرو بن العاص ليفتتح مصر أرسل إلى المقوقس وفداً يرأسه عبادة بن الصامت — وهو من عظماء الصحابة المتفقهين فى الدين — للتحدث مع المقوقس فى شئون الصلح . نخافه المقوقس لسواد لونه ، وضخامة جسمه ، وقال: « أبعدوا عنى هذا الأسود ، وليتقدم غيره ليكلمنى » .

فأجابوا : « إن هذا أحسننا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وأفضلنا والمقدَّم علينا . ونحن جميعا نسمع لما يقول ، ونعمل بما يرى . وقد أمَّره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا بطاعته فيما يرى وما يقول » .

فقال المقوقس : وكيف قبلتم أن يكون هذا الزنجى الأسود رئيسا عليكم ، وينبغى أن يكون هو دونكم ؟

فأجابوا : « كلا ، إنه — وإن كان أسود اللون كما ترى — أفضلنا مكانة ، وأفضلنا

رأيًا ، وأكثرنا حكمة وعلما ، وليس ينكر السواد فينا » .

وعندئذ أذعن المقوقس لسماع أقواله وقبل شروطه[١] .

من هذا كله ترى أن الدين الإسلامى يعطى الإنسان الملوّن الحقوق التى يتمتع بها الإنسان الأبيض ، ويعد الأسود أو الأسمر إنسانا له ما للإنسان من كرامة نفسية ، وحقوق إنسانية .

وقد أباح الإسلام أن يتزوج الحر جارية ، سوداء أو بيضاء ، قال تعالى :

« وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ[٢] . »

ثم جعل الإسلام أولاد المرأة الحرة التى تزوجت رقيقا ـ أحراراً يرثون آباءهم ، مع أن ألمانيا القديمة كانت تحكم بإحراق المرأة الحرة هى وزوجها إذا تزوجت عبدًا رقيقاً.

وفى الشريعة الإسلامية إذا قال الرجل لامرأته : « أنت على كظهر أمى » . أى محرمة عليه كحرمة أمه ، ثم رجع عما قاله ، وجعلها فى عصمته ألزم بتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، متى كان قادراً على ذلك . قال تعالى : « وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[٣] . »

وتحرير الرقبة إعتاقها ، وهذا للتكفير عن الظهار[٤] .

وإذا نذر المسلم أن يحرر رقبة إذا نجح ابنه فى الامتحان ، أو شفى من مرضه ، ثم تم له ما رجاه ، وجب عليه أن يفى بنذره ، ويعتق رقيقاً .

ولضعف الرقيق ، وعدم وجود عصبية له سوى سيده ، أوجد الإسلام صلة بين العبد وسيده ، بعد تحرير الأول ، فجعل مولاه وليًا له حتى لا يحدث له ضرر . انظر إلى حكاية زِنْباعَ مع غلامه :

---

(١) ارجع إلى النجوم الزاهرة، فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١ ، ص ١٣ . (٢) سورة النساء: ٢٥ .
(٣) سورة المجادلة: ٣ . (٤) الظهار: قول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى، أى محرمة على كأمى .

فقد ارتكب غلامه إثماً ، فجدع زِنباع أنفه ، فجاء الغلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يشكو زنباعاً ، فقال الرسول لزنباع : « ما حملك على هذا » ؟

قال زنباع : كان من أمره كذا وكذا .

فقال الرسول للغلام : « اذهب فأنت حر » .

فقال الغلام : يا رسول الله ، فمولى من أنا ؟

فقال : مولى الله ورسوله .

ولما قبض صلى الله عليه وسلم جاء هذا الغلام إلى أبي بكر ، فقال : وصيةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر : نعم ، تجرى النفقة عليك وعلى عيالك ، ثم قال مثل ذلك لعمر بن الخطاب حين خلافته .

فقال عمر : نعم ، أين تريد ؟

قال : مصر ، فكتب إلى عامله بها أن يعطيه أرضا يأكل من ثمرها .

عطف الإسلام على الأرقاء :

وقد نظر الإسلام نظرة كلها عطف وشفقة إلى الأرقاء ، فجعل عقاب الرقيق نصف عقوبة الحر إن لم يكن هناك مانع ، فعليه نصف ما على المحصن الحر من الحكم بالجلد بسبب القذف مثلا ، أما فى السرقة فليس من الحكمة قطع نصف يده ، ولكنها تترك كاملة .

وللتشجيع على تحرير العبيد كانت صيغة العتق فى الإسلام سهلة لا تعقيد فيها . ويكفى أن يقول السيد لعبده : أنت حر لوجه الله تعالى ، فيصير حرا ، حتى ولو قال ذلك على سبيل المزاح .

وفى عتق الرقيق أجر جزيل ، وثواب كبير فى الدين الإسلامى ، وهو أول من أنكر الاتجار بالعبيد ، ونادى بالتقرب إلى الله بفك الرقبة ، والتكفير عن السيئة بتحرير الرقيق .

وفى القرآن الكريم والأحاديث النبوية ما يدل على أن الإسلام دين الحرية لا العبودية ، دين يشجع تحرير العبيد ، والتخلص من التفرقة العنصرية ، وينادى بالمساواة بين الناس ،

والرفق فى المعاملة ، والمحافظة على الكرامة الإنسانية .

وفى الإسلام تجد كل حكمة فى تحرير الأرقاء ، فبدلا من إلغاء الرق جملة واحدة شجع المسلمين على تحرير العبيد بالتدريج ؛ حتى لا تثور الخواطر ، ويهيج الأقوام الذين اعتادوا استخدام العبيد وامتلاكهم .

روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار . »

وإذا أفطر مسلم فى رمضان عمدا بالاتصال بزوجه ، وجب عليه عند الإمام الشافعى القضاء ، وصوم ستين يوما متتابعة ، أو إطعام ستين مسكينا ، أو تحرير رقبة مؤمنة .

فالإسلام قد عنى بتحرير الأرقاء فجاء بأحكام ليس هناك ما يدانيها فى شريعة سابقة أو لاحقة ، وهذه الأحكام فى روحها ترمى إلى تحرير الأرقاء ، والاعتراف بإنسانيتهم . ومن تلك الأحكام أن السيد إذا أولد جاريته ، فأتت له بولد ، اعترف ببنوته ، بعندئذ يصير الولد حرا ، وتصبح الأم حرة بعد وفاة سيدها .

وقد روى أن الرسول صلوات الله عليه توفى وهو يقول : « اتقوا الله فى الصلاة وما ملكت أيمانكم . »

كيف يعامل الإسلام الرقيق ؟

إن الدين الإسلامى دين الإنسانية والعطف والشفقة والرأفة ، دين يعطف على الإنسان من حيث هو إنسان ، ويعطف على الرقيق محافظة على شعوره ونفسيته ، ويوصى السادة بمعاملة عبيدهم كما يعاملون أنفسهم ، والاجتهاد فى راحتهم وتربيتهم وتعليمهم . وقد كان المسلمون يعاملون الأرقاء معاملة أفراد الأسرة . وقد أوجب الإسلام معاملتهم باللين والرفق والرحمة .

قال تعالى: « وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ، (أى البعيد) ، وَٱلصَّاحِبِ

بِٱلْجَنبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ (١) . »

فالله جل شأنه أمر بالإحسان إلى كثيرين، ومنهم الأرقاء . وفى الإسلام أمثلة كثيرة لمن وصل إلى أكبر المراكز منهم ، كأسامة بن زيد ، وعبادة بن الصامت اللذين ذكرناهما من قبل .

وقد حث الإسلام على العطف على الأرقاء والإشفاق بهم ، روى الإمام على كرم الله وجهه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا اللهَ فيما ملَكَتْ أنفُسُكُمْ . »

أى احذروا الله فى معاملة الأرقاء الذين تملكونهم . وفى الأثر : « لقد أوصانى حبيبى جبرائيل بالرفق بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم . » فالدين الإسلامى دين عطف وشفقة ورحمة وحرية ، لا دين قسوة وهمجية ووحشية وعبودية .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اضرِبْ عبدَكَ إذا عصَى اللهَ ، واعفُ عنهُ إذا عصَاكَ . »

وقد رأى أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ رجلا على دابته وغلامه يجرى خلفه ، فقال له: « احمله خلفك يا عبد الله ، فإنما هو أخوك ، وروحه مثل روحك . » وقال على كرم الله وجهه : إنى لأخجل من نفسى إذا استعبدت رجلا يقول : « الله ربى . »

فالدين الإسلامى يحارب حرمان الإنسان حريته الطبيعية، واستعباده لغيره . وقد شجع على الحرية والتخلص من الرق والعبودية .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يوصى كثيراً بالعفو عن العبد إذا أخطأ .

وقيل : حاصر أبو عبيدة بن الجراح بيت المقدس بجيشه فطلب البطريرك أن يفاوض الخليفة عمر بن الخطاب نفسه فى شروط الصلح ، فقبل أمير المؤمنين عمر ، وجاء إلى بيت المقدس ومعه غلامه ، ولم يكن لهما إلا ناقة واحدة ، فكانا يركبانها الواحد بعد الآخر ، حتى اقتربا من بيت المقدس، وجاء دور العبد ، فأركبه عمر الناقة ، ومشى خلفه على قدميه ، حتى وصل إلى معسكر أبى عبيدة ، فخاف أبو عبيدة أن يحتقر الناس عمر إذا رأوه ماشياً

(١) سورة النساء : ٣٦ .

وراء غلامه ، وغلامه راكب الناقة . وقال له : إن الأنظار متجهة إليك ، ولا يليق أن تصنع ما صنعت .

فقال له عمر : « لم يقل ذلك أحدٌ قبلك ، وكلامك يجلب اللعنة على المسلمين . وقد كنا أذلَّ الناس ، وأحقرَ الناس ، وأقلَّ الناس ، فاعزَّنا اللهُ بالإسلام . »

رحمك الله ياعمر ، فقد كنت مثلا للعظمة الإنسانية ، والعظمة الإسلامية ، و (الديمقراطية) الإسلامية ، والرحمة المحمدية ، والخلق الكامل ، والعدالة المطلقة .

فالإسلام دين تحرير للعبيد ، لا دين استعباد للأحرار ، دين حرية وإخاء ومساواة، دين عطف وشفقة ورحمة ، وهو يوصى بأن يعامل السادة عبيدهم كما يعاملون أنفسهم ، وأن يربوهم ويهذبوهم ويعلموهم ، ويعطوهم الفرصة فى أن يكونوا أحراراً ، لهم ما للأحرار من حقوق ، وعليهم ماعلى الأحرار من واجبات .

قال الله تعالى:« وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ ،وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ، إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ [1] . »

والأيامَى جمع أيِّم ، وهى : من ليس لها زوج ، بكرا كانت أو ثيباً . والإماء : العبيد . وفى هذا حثّ على عدم التفرقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وهذا روح الإنسانية ، وروح الإسلام .

فالإسلام لم يأت بالرق ؛ لأنه دين الحرية . وقد شجع على تحرير العبيد وعدم التفرقة العنصرية ؛ لأنه دين الإنسانية ، وأمر بمعاملة الأرقاء معاملة الإنسان الحر الكريم ، فيأكلون كما يأكل ، ويلبسون كما يلبس ، ويعيشون كما يعيش ، ويتعلمون كما يتعلم . وهذا هو الإسلام ، وروح الإسلام .

وأما مايذكره بعض المؤرخين من الإفرنج من شيوع النَّخاسَة والنَّخاسين [2] فذلك مما لم يأمر به الإسلام ، والذين يفعلون ذلك خارجون على أحكام الدين . ولذلك

(١) سورة النور : ٣٢ . (٢) النخاسة بيع الرقيق ، والنخاسون : باعو الرقيق .

يقول صلى الله عليه وسلم : « ثلاثةٌ أنا خصمهم يومَ القيامة.ومن كنتُ خصمَه خَصَمْتُه: رجل أَعْطَى (١) بي ثم غدر ، ورجل باع حرًّا وأكل ثمنه ، ورجل استأجرَ أجيراً فاستوفَى ولم يوفه أجرَه » .

ذلك موقف الإسلام من الرقيق ، ومنه يتبين لكل منصف أن الدين الإسلامى كان عدوا لدوداً للاسترقاق والاستعباد ، وقد حاربه بوسائله الحكيمة ، وتشريعاته العادلة ؛ لأن الرق يختلف مع الحرية التى هى الأصل والحق الطبعى للإنسان . وقد ذهب فقهاء الشريعة الإسلامية الغراء إلى تقديم هذا الأصل وهو الحرية على الدين ؛ فقد قالوا : إذا تنازع اللقيطَ ذمى حر وعبد مسلم ، قبلت دعوى الذمى الحر ، ولا تقبل دعوى العبد المسلم ، ودليلهم أن الحرية أنفع للصغير ، أما الدين فأمر فطرى .

قال بعض صحابة رسول الله : رأيت أبا ذر الغفارى وعليه حلة ، وعلى غلامه حلة مثلها ، فسألته عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى الأرقاء : « هم إخوانكم جعلَهم اللهُ تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمْه مما يأكل ، ولْيُلبِسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العملِ مايَغْلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » .

وقد رغب الرسول فى تحرير الأرقاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : أيما رجلٍ أعتقَ مُسلماً استنقذ الله تعالى بكل عضو منه عضوا من النار » .

الإسلام لا يعترف بالتفرقة العنصرية :

إن الإسلام لا يعترف بتمييز جنس على جنس ، أو لون على لون ، أو مدنى على قروى ، أو أوروبى على أفريقى ، أو حاكم على محكوم ، أو غنى على فقير ، أو قوى على ضعيف ، فالكل فى نظر الإسلام سَوَاء نظريا وعمليا ، فى الحقل ، وفى حجرة الجلوس ، فى الخيمة أو القصر ، فى المسجد أو فى السوق . إنهم يختلطون جميعاً من غير تفرقة أو تمييز ، بين إنسان وآخر . فالمسلمون سواسية كأسنان المشط ، ولا فضل لعربى على عجمى

---

(١) أى أعطى العهد باسمى .

إلا بالتقوى والعمل الصالح . وقد كان أول مؤذن فى الإسلام ـ وهو بلال ـ عبداً رقيقاً أسود . ومع أنه كان عبداً أسود كان موقراً وله منزلة كبيرة لدى الرسول صلى الله عليه وسلم وكبار المسلمين . وقد اشتراه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ من مولاه ، ثم أعتقه ابتغاء مرضاة الله ، ومنحه الإسلام حريته الإنسانية .

وإننا نقتبس هنا ماقاله العالم الجليل الشيخ محمد أبو زهرة فى مجلة الكتاب العربى (بتصرف) عن هذا الموضع فى (روح الإسلام) : « ولم يجئ نص صريح فى القرآن بإباحة الرق فى الإسلام . وإن محمدا صلى الله عليه وسلم لم ينشئ رقًا على حر قط ، فلم يسترق ، وأعتق كل من كان تحت يده من رقيق كان بحكم ماقبل الإسلام . وإن الاسترقاق فى عهد الصحابة لم يكن إلا من قبيل المعاملة بالمثل فى الحروب ، أخذاً بقوله تعالى : « فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيكُمْ فَاعتدُوا عَلَيه بِمِثْلِ مَا اُعْتَدَى عَليكُم . » وبتطبيق ذلك المبدأ لا يكون من حق المسلمين أن يسترقوا الأسرى إذا كانت الاتفاقات الدولية قد استقرت على أنه لا استرقاق ولو للأسرى ؛ لأن ذلك يكون من المسلمين اعتداء ، وقد نهاهم الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى : « وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ ، وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ؛ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ [1] . »

إنسانية الإسلام فى معاملة الرقيق :

إن الإسلام يمثل الإنسانية الكاملة فى معاملة الأرقاء ؛ لأنهم ضعفاء . فلم يكتف بالحث على تحريرهم من الرق والعبودية ، بل جعل لهم حقوقا تبدو فيها الإنسانية والشفقة والرحمة بأجلى معانيها . وتتضح هذه الحقوق فى آخر ما أوصى به الرسول الكامل قبيل وفاته فى قوله : « اتَّقُوا اللهَ فيما مَلَكَت أيْمانكم ، أطعِموهم مما تأكلون ، واكسُوهم مما تلبَسون ، ولا تكلِّفوهم من العمل مَالا يُطيقون . فَما أحبَبْتم فأمسكوا . وما كَرِهتم فبيعوا . ولا تعذبوا خلقَ الله ؛ فإن الله مَلَّككم إياهم ، ولو شاء لملكهم إياكم . »

(١) سورة البقرة : ١٩٠ .

فالمصطفى صلى الله عليه وسلم يأمر بالخوف من الله فى معاملة الأرقاء، وينهى عن تعذيبهم، ويوصى بأن نطعمهم مما نأكل، ونُلبسهم مما نلبس، ولا نكلفهم من العمل مافوق طاقتهم . وإن المدنية الحديثة لم تصل إلى ماوصل إليه الإسلام فى تفكيره فى الإنسانية وحقوقها . ومن كان فى ريب مما نقول فلينظر كيف يعامل الزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية، وكيف يعامل الأفريقيون الوطنيون فى جنوب أفريقية .

وقال عليه الصلاة والسلام : « للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف، ولا يكلَّف من العمل مالا يطيق . »

وكان عمر رضى الله عنه يذهب إلى العَوَالِى فى كل يوم سبت ، فإذا وجد عبداً فى عمل لا يطيقه وضع عنه منه .

وقد قالت جارية لأبى الدرداء : إنى سَمَمْتُك منذ سنة، فما عمل (السمُّ) فيك شيئاً .

فقال : لِمَ فعلتِ ذلك ؟

فقالت : أردت الراحة منكَ .

فقال : اذهبى، فأنت حرةٌ لوجه الله تعالى .

فمع خيانتها فى وضع السم له، قد عفا عنها، وحرَّرها ابتغاء مرضاة الله .

وكان عون بن عبد الله إذا عصاه غلامه ، قال : ما أشبهك بمولاك [1] ؟ مولاكَ يعصى مولاه [2] ، وأنت تعصى مولاك . فأغضبه يوماً ، فقال : إنما تريد أن أضربك . اذهب فأنت حرٌّ

فلكى يتجنب سيدُه ضربه وإغضاب الله ، جعله حرا .

وذات مرة كان عند ميمون بن مهران ضيف ، فاستعجل على جاريته فى طلب العَشاء . فجاءت الجارية مسرعة ، ومعها قصعة مملوءة طعاما حارًّا ، فعَثَرت ووقعت ، وأرَاقَتْها [3] على رأس سيدها ميمون .

---

(١) بسيدك . (٢) الله سبحانه وتعالى .

(٣) سقَطت منها وَصَبَّتْها .

فقال : ياجارية ، أحرَقتني .

قالت : يا معلم الخير ، ومؤدب الناس ارجع إلى ما قال الله تعالى .

قال ميمون : وماذا قال الله تعالى ؟

قالت : « وَالكاظِمينَ (١) الغيظَ . »

قال : قد كَظَمتُ غيظى .

قالت : « والعافِينَ عن الناسِ . »

قال : قد عفوتُ عنكِ .

قالت : زِدْ ، فإن الله تعالى يقول : «والله يحب المحسنين» .

قال : أنت حرةٌ لوجه الله تعالى .

وهذا مثل للمعاملة الإسلامية الكريمة ، والإنسانية فى الإسلام .

وقيل : إن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عبدًا له ، فجعل العبد يقول : أسألك بالله ، أسألك بوجه الله ، فلم يُعْفه . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صياح العبد ، فانطلق (٢) إليه . فلما رأى الرجلُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أمسك يده .

فقال رسول الله : سألك بوجه الله فلم تُعفِه . فلما رأيتنى أمسكتَ يدكَ .

قال الرجل : فإنه حرٌ لوجه الله ، يا رسول الله .

فقال : « لو لم تفعل لسَفَعَت (٣) وجهَك النارُ . »

وكما يحث الإسلام على حسن معاملة العبد، يحث العبدَ على النصح لسيده ، والإخلاص فى عبادة الله . قال صلى الله عليه وسلم : « العبد إذا نصح لسيده ، وأحسن عبادة الله فله أجره مرتين » : مرة للنصيحة ، وأخرى للعبادة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عُرِضَ علَيَّ أولُ ثلاثة يدخلون الجنة ، وأولُ ثلاثة يدخلون النار . فأما أولُ ثلاثة يدخلون الجنةَ فالشهيدُ ، وعبدٌ مملوكٌ أحسنَ عبادةَ ربِّه،

(١) كظم غيظه : ضبط نفسه وشعوره . (٢) أسرع إليه . (٣) لفحت وجهك النار ولستك .

ونصحَ لسيده ، وعفيفٌ مُتعَففٌ[١] ذو عيالٍ . وأولُ ثلاثةٍ يدخلون النار : أميرٌ مُسَلَّطٌ[٢] ، وذو ثروةٍ لا يُعطِي حق الله ، وفقيرٌ فخورٌ . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « من كانت عنده جاريةٌ فصانَها ، وأحسن إليها ، ثم أعتَقَها ، وتزوجها فذلك له أجرَانِ . »

فالمصطفى يحث على صيانة الجارية ، والمحافظة عليها ، والإحسان إليها ، وتحريرها من الرق ، وتزوجها ، وتبدو هنا المساواة ، والمحافظة على الكرامة الإنسانية .

فمن حقوق المملوك فى الإسلام : أن يشركه سيده فى طعامه ، ويشركه فى كسوته ، ولا يكلفه عملا فوق طاقته ، ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء ، وأن يعفو عن زلته[٣] ، ويتفكر عند غضبه عليه إذا أخطأ — فى أن قدرة الله عليه فوق قدرته .

---

(١) زاهد لا يمد يده لأحد مع كثرة عياله .　(٢) ظالم .　(٣) هفوته .

الفصل الثامن

(الديمقراطية) الإسلامية

أو

حقوق الإنسان وكيف كفلها الإسلام

(الديمقراطية) هي نوع من الحكم تترك فيه السلطة لمن يختاره الشعب ، لتولى إدارة الحكم ، من غير تفرقة بين الطبقات العامة والخاصة ، أو بين الفقراء والأغنياء .

وكثيراً ما يعلن المتحدثون باسم (الديمقراطيات) الحديثة أنهم أول من اعترف بحقوق الإنسانية ، وكثيراً ما ذهبت المدنيات الحديثة فى أوروبة وأمريكا إلى هذا الزعم؛ فالإنجليز مثلا يدَّعون أنهم من أسبق الأمم تقريراً لمبادئ الحرية الإنسانية ، وأن بلادهم هى حصن (الديمقراطية) العتيد . والفرنسيون يزعمون أن ثورتهم هى التى تمخضت عن تقرير هذه المبادئ الإنسانية ، وهى « الحرية والإخاء والمساواة » ، وأن هذه المبادئ لا تزال إلى اليوم شعار ثورتهم .

ولو أن هؤلاء المتحدثين الفاخرين فكروا قليلا — لعلموا حق العلم أن الإسلام هو الذى سبق إلى تقرير هذه المبادئ حين لم يكن لهذه (الديمقراطيات) ذكر فى التاريخ .

فالحرية وهى التخلص من قيود الرق والاستعباد وضيق الحجر ، والتمتع بكل حق من الحقوق التى سوغها العقل ، وقضى بها الشرع - قد أتى بها الإسلام ، وجعلها حقًّا طبعيا لكل من يستظلون بظله الوارف ، مسلمين وجوههم إلى الله ، أو مسالمين أهل الإسلام .

والإخاء قد نادى به الإسلام فى قوله تعالى : « إنما المؤمنونَ إخْوَةٌ » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يُؤمنُ أحدُكم حتى يحِبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » .

والمساواة شعار الإسلام وروحه ؛ فالله يقول :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[1] » .

والرسول ينادى فى خطبة الوداع : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا عجمى على عربى . ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد ! » وقد تكلمنا من قبل عن الحرية فى موضوع : « الإسلام يدعو إلى الحرية ، وسنتكلم فيما بعد بإسهاب عن الإخاء والمساواة وغيرهما فى الإسلام .

وللديمقراطية أسس هامة لا تتحقق بدونها ، وهى :

(١) المشاورة فى الأمور .

(٢) العدالة والمساواة بين الأفراد فى الإسلام .

(٣) التضامن والتعاون فى الإسلام .

ولنتكلم عن كل منها فنقول :

١ ـ المشاورة فى الإسلام

إن من يبحث فى كتاب الله وسنة رسوله ، وأقوال الخلفاء الراشدين وأعمالهم يجد أن الإسلام لايخص فرداً بالحكم، ولكنه يجعل الحكم للشعب، ويجعل الشعب والأمة مصدر السلطات . ولا عجب ؛ فالإسلام دين يدعو إلى (الديمقراطية) والحرية والشورى فى الحكم ، ويمقت الذل والاستبداد والعبودية . فليس من الإسلام أن يرث الطفل الإمارة وولاية العهد عن أبيه ، ويرث ما كان لأبيه من الحقوق والامتيازات ، ولو كان ذلك الطفل معتوهاً أو شاذاً .

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

وقد جعل الإسلام أمر المسلمين شورى بينهم ، ودعا إلى التشاور ، وعدم الاستبداد بالأمور . قال تعالى :

« وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ[١] » ، فى طاعة الله .

وأمر الله رسوله المعصوم من الخطأ بالمشورة فى الأمور ، حيث قال :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ[٢] » .

فالإسلام قد كفل الحرية السياسية حين قرر مبدأ الشورى فى الحكم . وفى آية : « وأقاموا الصلاةَ وأمرُهم شورَى بَينَهم » . قد قرن الله الشورى بالصلاة ، وجعلها أصلا من أصول الإسلام ، فالمسلم يسأل عنه كما يسأل عن الصلاة والزكاة ، وذلك ـ ولا شك ـ دليل على أن هذا النظام من أرقى أنواع الحكم ، فبه تتحقق العدالة السياسية والاجتماعية بين الناس .

وقد منح الإسلام الفرد الحق فى انتخاب الخليفة الذى يرضاه . ولذلك لا تكون الخلافة صحيحة فى نظر الإسلام إلا إذا كانت نتيجة بيعة حرة ، لا إكراه فيها مطلقاً .

ولم يرد فى القرآن الكريم ولا فى السنة ما يدل على أن تترك أمور المسلمين وراثية فى أسرة خاصة ، أو لأفراد محدودين . ومن هذا يستنبط أن تترك رياسة المسلمين إلى الأمة لتختار من يصلح من المسلمين للحكم .

ولما حضرت الرسول الوفاة لم يعين من المسلمين من يخلفه ، بل ترك الأمر شورى بينهم . ولو كان الأمر بالوراثة ـ والحكم وراثياً ـ لعين محمد صلى الله عليه وسلم من يلى أمور المسلمين بعد وفاته .

---

(١) سورة الشورى : ٣٨ . (٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

الإسلام لا يقول بالوراثة فى الحكم :

الإسلام لا يقول بالوراثة فى الحكم . وهو يحكم على الناس بأعمالهم لا بأنسابهم . ويتبرأ من العصبية التى كانت سائدة فى الجاهلية ، وينادى بأن أكرم الناس عند الله أتقاهم .

وبعد أن توفى الرسول عليه الصلاة والسلام اجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة فى المدينة المنورة ، وتشاوروا فى الأمر ، ثم انتخبوا أبا بكر رضى الله عنه ؛ لأنه أول رجل سبق إلى الإسلام ، وحضر المشاهد النبوية كلها ، ورافق رسول الله فى الهجرة من مكة إلى المدينة ، وقد أمره الرسول مدة مرضه الأخير أن يصلى بالناس ، فصلى بهم .

وقد شعر أبو بكر بالتبعة الملقاة على عاتقه ، حينما ولى الخلافة ، فقال :

« أيها الناس ، إنِّى وليتُ عليكم ولستُ بخيرِكم . فإن أحسنتُ فأعينونى ، وإن صَدَفتُ[1] فقوِّمونى » . وفى رواية أخرى : « فإن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسدِّدُونى[2] . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم » .

ولما أخذ بعض المسلمين على سيدنا عثمان رضى الله عنه توليته بعض أقاربه لثقته بهم قال : « إنى أتوب وأنزع ولا أعود إلى شىء عابه المسلمون ، فإذا نزلت من منبرى فليَأْتِنِى أشرافكم فلْيَرونى رأيهم ، فو الله لئن ردنى الحق عبدا لأذِلَّن ذُلَّ العبيد » .

ولما تولى عمر الخلافة قال : « من رأى منكم فىَّ اعوجاجاً فليُقَوِّمْه » .

فقال له أحد المسلمين من أخريات المسجد : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوَّمناهُ بسيوفنا .

---

(١) ملت وأعرضت .　　(٢) قومونى .

فسر عمر سروراً جما ، وقال : «الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوِّم عمر بسيفه».

قال عمر هذا ، وهو الذى يقول فيه نبينا الكريم : « اللهم أيد الإسلام بعمر » .

فالنظام النيابى واجب فى الإسلام . وعلى الحكام أن يستشيروا الشعب فى المشكلات التى تعترضهم . وعلى المحكومين أن يراقبوا الحكام وينصحوا لهم إذا ساروا فى طريق غير مستقيم . وبهذا تضمن عدالة الحكومات ، وتكون الأمة مصدر السلطات ، وتكون الأمور بيد الشعب . وهذا هو المراد من قوله تعالى : « وأَمرُهم شُورَى بَينَهم » .

فقاعدة الحكم فى الإسلام هى الشورى ، وإشراك كل مسلم ذى رأى فى إبداء رأيه . وكان الرسول صلوات الله عليه ينزل على رأى أصحابه ، ولو كان مخالفاً لرأيه ، إلا ما نزل فيه الوحى ، ولذلك كان أصحاب رسول الله يسألونه فى كل رأى : أهو رأيك يا رسول الله ، أم هو مما نزل به الوحى ؟

وإن الحكام من المسلمين مسئولون أمام الأمة الإسلامية . والأمة مطالبة بمراقبة الحكام ونصحهم ومعاقبة الطغاة والظالمين منهم . قال صلى الله عليه وسلم :

« إن اللهَ يرضَى لكم ثلاثاً ، ويَسخطُ لكم ثَلاثاً : يرضَى لكم أن تَعبدوه وحده ولا تُشرِكوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبلِ اللهِ جميعاً ولا تفرَّقوا ، وأن تناصحوا من ولّاهُ اللهُ أمرَكم » . فللشعب المسلم حق الرقابة على الحاكم ونصحه ، وعقابه إذا ظلم الرعية وطغى فى حكمه .

فالإسلام يوجب الشورى ، وينادى بالحكم (الديمقراطى .) والشورى لب (الديمقراطية) وأصلها وأساسها وسترى فيما يأتى مسائل كثيرة تدل على أن النبى عليه الصلاة والسلام استشار أصحابه ، وعمل بآرائهم ، وكانت أحيانا تخالف ما ارتآه .

الإسلام ينادى بالديمقراطية :

ففى غزوة بدر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة مع جماعة من المسلمين . فلما وصلوا بدرا نزلوا فى مكان لا ماء فيه ، فقام إليه رجل من أصحابه وقال: يا رسول الله ،

هل نزولك ههنا شيء أمرك الله به أو هو من عند نفسك ؟

قال : بل هو من عند نفسى .

قال : يا رسول الله ، إن الصواب أن ترحل وتنزل على الماء ، فيكون الماء عندنا فلا نخاف العطش . وإذا جاء المشركون لا يجدون ماء ، فيكون ذلك معيناً لنا عليهم .

فقال رسول الله : صدقت ، ثم أمر بالرحيل ، ونزل على الماء . وهنا تتمثل عظمة الرسول عليه الصلاة والسلام فى الأخذ بمشورة غيره متى كانت صائبة متفقة مع العقل والمنطق والتجربة .

وكان النبي عليه الصلاة والسلام لا ينفرد بالرأى، بل كان يطرح الأمور بين أصحابه ، ويشاورهم فيها ، ولا يكبر عليه أن ينزل عند رأى أى واحد منهم .

وقد سار الخلفاء الراشدون على سنة رسول الله فى المشاورة ، حتى إن عمر حينما وجه جيشه لمحاربة الفرس أراد أن يقود الجيش بنفسه ، فاستشار فى ذلك ، فأشار بعض أصحابه برأيه ، وخالفه بعضهم . فمال إلى الرأى الذى يقول بقعوده عن الذهاب ؛ لأنه رآه أكثر صوابا وحكمة .

قال عليه الصلاة والسلام : « لا خاب من استخار ، ولا ندم من استشار . » وقال على كرم الله وجهه : « من استبد برأيه هلك» . هذه النصوص وغيرها كثير جدا مما يؤيد القاعدة التى كانت تسير عليها الحكومة الإسلامية منذ فجر الإسلام ، وهى قاعدة المشورة وتبادل الرأى ، وهى أساس النظام الدستورى (الديمقراطى) .

وقد أثر عن الرسول عليه الصلاة والسلام قوله : « اسمعوا وأطيعوا ، وإن تأمّر[1] عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة . « فالرسول يأمر بإطاعة إمام المسلمين ولو كان عبدا حبشيا أسود اللون والرأس. وهذا روح (الديمقراطية) الإسلامية ، تلك (الديمقراطية) التى تنادى بالمساواة بين جميع الطبقات، ولا تفرق بين الأغنياء والفقراء ، والسادة والعبيد، ولا تفكر فى الحسب والنسب ، والمال والجاه ، واللون الأبيض والأسود .

---

(١) تسلط .

ومن الأسباب التى جعلت الأشراف من قريش يتآمرون على قتل الرسول مطالبته بحقوق الفقراء والمساكين ، والضعفاء والعبيد ، نخاف الأشراف (الأرستقراطيون) أن يرفعهم محمد صلى الله عليه وسلم إلى مصافهم، فأخذوا يكيدون له ، ويدبرون المؤامرات لقتله والتخلص منه ؛ لاعتقادهم أن هذه بدعة ابتدعها محمد ضدهم .

وكيف يخالف محمد النظام الإنسانى المثالى وقد أمره الله به بعد نزول سورة عبس ، وبعد أن عاتبه الله فى حادثة عبدالله بن أم مكتوم الأعمى الفقير ، فقد جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وهو مشغول بأشراف قريش، رجاء إسلامهم ، فقطع الأعمى الرسول عما هو مشغول به . وناداه : علمنى مما علمك الله . فانصرف النبى عنه، فعوتب فى ذلك بما نزل فى هذه السورة :

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (أعرض) ، أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ (يتطهر من الذنوب بما يسمعهُ منك) ، أَوْ يَذَّكَّرُ (يتعظ) فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰ . أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (تتعرض وتُقبل) ، وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (يؤمن) ؟ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ وَهُوَ يَخْشَىٰ (وهو الأعمى) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (تتشاغل) . كَلَّآ (لا تفعل مثل ذلك .) إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (عظة للخلق) .

فكان النبى عليه الصلاة والسلام بعد ذلك يقول له إذا جاء : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ، ويبسط له رداءه .

وفى هذه السورة تبدو (الديمقراطية) الإسلامية بأجلى معانيها . فالأعمى الفقير الذى يريد أن يسلم حقا ، ويتمسك بأخلاق الإسلام ، ويخاف الله خير عند الله من هؤلاء الأشراف والأغنياء وذوى الجاه . وفيها يذكر الله نبيه المصطفى فى صورة عتاب بأن ضعف ذلك الأعمى وفقره لا يجوز أن يؤديا إلى الإعراض عنه ؛ لأنه مؤمن بقلبه وفؤاده ، حى بشعوره واعتقاده . فأنت ترى أن الله أخذ النبى بالمساواة بين الطبقات فى المعاملات . فلا فضل لغنى على فقير إلا بالتقوى . ولا دخل للثروة واللون والنسب والجنس فى تفضيل رجل على آخر .

وقد كان شعراء العرب فى الجاهليــة يفخرون بآبائهم . وأنخم شعرهم ماقيل فى الفخر . ونهى النبى أصحابه عن الفخر . قيل إنه اجتمع فى مجلسه يوما عبد الرحمن ابن عوف ــ وهو من أعز رجاله ، وأ كرمهم عنــده ــ وعبد من عامة الناس . وكان العبد يخاصم عبد الرحمن فى أمر من الأمور . فغضب عبد الرحمن ، وسب العبد قائلا : « يا ابن السوداء » .

فغضب النبى أشد الغضب ، ورفع يده ، وقال :

« لَيْسَ لابنِ بَيضاء على ابن سَوداء سُلطانٌ إلا بالحقِّ . »

فخجل عبد الرحمن . واعتذر للعبد بلسانه وقلبه ، ووضع خده على الأرض ليأخذ العبد بحقه منه .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا خرج على قوم من أصحابه وهم جلوس نهاهم عن القيام له ، وقال لهم : « لا تقوموا كما يقوم الأعاجم ، يعظم بعضهم بعضا . » وهذا مظهر من مظاهر (الديمقراطية) فى الإسلام .

وليس فى الإسلام امتيازات يمتاز بها الأشراف والأغنياء عن الفقراء . فالإسلام ينادى بالمساواة فى الحقوق المدنية والدينية بين جميع الناس .

قال عز وجل : « وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَٰنِ إِلَّا مَاسَعَىٰ ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ [1] . »

المصطفى يستشير أصحابه :

وبعــد غزوة بدر أسر المسلمون بعض الكفار ، فاستشار الرسول صلى الله عليــه وسلم أصحابه فى أمر هؤلاء الأسرى ، أيقتلون أم يطلق سراحهم فى مقابل دية يدفعونها ؟ فاختلف رأيهم .

---

(١) سورة النجم : ٣٩ـ٤١ .

وقال أبو بكر رضى الله عنه : « قومك وأهلك استَبْقِهم ؛ لعل الله يتوب عليهم ، خُذْ منهم فِدية تُقوِّى بهـا أصحابَك . » وبذلك أراد أبو بكر المحافظة عليهم ، وأخذ الفدية منهم .

وقال عمر رضى الله عنه : « هؤلاء أئمةُ الـكفرِ كذبوك وأخرجوك من دِيارِك ، فقوِّمْهم واضرب أعناقَهم . واللهُ أغناكَ عن الفِداء . »

واستمر الجدل والنقاش بين الرسول وأصحابه ، وبعد التشاور أخذ صلى الله عليـه وسلم برأى أبى بكر ، — وهو قبول الفداء — وقبل الفدية من الـكفار ، فعاتبه الله بقوله: « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَـكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّى يُثْخِنَ (١) فِي ٱلْأَرْضِ . تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ، وَٱللهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ، وَٱللهُ عَزِيزٌ حَـكِيمٌ . لَوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللهِ سَبَقَ لَمَسَّـكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . (٢) »

فقال النبى الـكريم لعمر رضى الله عنه : « كادَ يُصيبُنا فى خلافك شَر . »

ويقول حكيم الشعراء :

إذا بلغَ الرأىُ المشورَةَ فاستعِنْ ... برأىِ نصيحٍ أو نصيحةِ حازمِ
ولاتجعل الشورَى عليكَ غضاضةً ... فإن الخوافى قوةٌ للقوادمِ

ويقول آخر :

الرأىُ كالليـــل مُسْوَدٌّ جوانبُه ... والليلُ لا يَنْجلى إلا بإصْباحِ
فاضمُم مصابيحَ آراءِ الرجالِ إلى ... مصباحِ رأيكَ تزددْ ضوءَمصباحِ

وقد كان الخلفاء رضوان الله عليهم يسيرون سيرة المصطفى عليه السلام ، فلا يبرمون أمرا من الأمور الخطيرة حتى يعرضوه على المسلمين جريا على مبدأ الاستفتاء العام . وهذه هى الحرية السياسية التى أقرها الإسلام منذ ألف وبضع مئات من السنين . ومن ذلك

(١) أثخن فى الأرض إثخاناً : ساقه إلى العدو وأوسعهم قتلا ، وأثخنته : أوهنته بالجراحة وأضعفته .
(٢) سورة الأنفال : ٦٧–٦٨ .

يتبين أن الدين الإسلامى قد سبق إلى تقرير هذا الحق قبل أن تظهر هذه (الديمقراطيات) الحديثة فى عالم الوجود .

وكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أعياه أن يجد فى الأمر نصا فى كتاب الله أو سنة رسوله جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم . فإن أجمع رأيهم على أمر من الأمور قضى به ونفذه . وكذلك كان يفعل عمر رضى الله عنه .

فقد كان عمر إذا نزل به أمر من الأمور لا ينفذه قبل أن يجمع المسلمين ويستشيرهم فيه ، ويقول : « لا خير فى أمر أُبرِم من غير شورى . »

وكان للشورى عند عمر درجات ، فهو يستشير العامة فى المرة الأولى ، ثم يجمع الشيوخ من الصحابة ، من قريش وغير قريش ، ويستشيرهم ثانية . فإذا استقر رأيهم على رأى من الآراء أو عملٍ من الأعمال أخذ بهذا الرأى ونفذه ، وقام بهذا العمل وأداه . ومن قوله فى ذلك : « يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم ، » بأن يستشار ذوو الرأى منهم ، فإذا اجتمعوا على أمر من الأمور ورضوا به ، وجب على الناس تنفيذه . فجعل أولى الأمر منفذين لما يراه أولو الرأى والفكر ، وجعل الناس تابعين لما أخذ به الإمام من رأى المفكرين وأصحاب الرأى .

وقد نهى عمر رضى الله عنه الناس عن المغالاة فى المهور عند الزواج ، فتلت عليه امرأة قوله تعالى : « وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ؟[1] »

فقبل منها زجرها ، ورجع عن رأيه ، وقال : « أصابت امرأة وأخطأ عمر . »

وكثيراً ما كان عمر يرى شيئاً من الأشياء ، فيبين له أصغر الناس وجه الحق ، فيرجع عمر إلى رأيه .

قال القاضى أبو يوسف فى كتاب الخراج : « لما قدم على عمر بن الخطاب جيش

---

(١) سورة النساء : ٢٠ .

العراق من قبل سعد بن أبي وقاص شاور أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى قسمة الأرضين التى أفاء [1] الله على المسلمين من أرض العراق والشام . فاستشار عمر الصحابة ، فأبدى كل من الحاضرين رأيه ، واختلفوا فى آرائهم .

فكان عمر يستمع إلى كل منهم ، ولا يزيد على أن يقول : هذا رأى .

وفى النهاية أرسل عمر إلى عشرة من الأنصار : خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج ، من كبرائهم وأشرافهم . فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا فى أمانتى ، وفيما حملت من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم . وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى . ولست أريد أن تتبعوا هذا الذى هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق . فوالله لئن كنت نطقت بأمر أريده ما أريد به إلا الحق .

قالوا : قل نسمع ياأمير المؤمنين .

قال : قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أنى أظلمهم حقوقهم . وإنى أعوذ بالله أن أركب ظلما . لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت . ولكن رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى . وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم [2] . فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس على وجهه وأنا فى توجيهه . وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع عليهم فيها الخراج ، وفى رقابهم الجزية يؤدونها ، فتكون فيئا [3] للمسلمين المقاتلة والذرية ، ولمن يأتى بعدهم .

أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ؟ أرأيتم هذه المدن العظام ـ كالشام

---

(١) تفضل على المسلمين . (٢) العلج : الرجل الضخم من كفار العجم ، والكافر . والجمع علوج وأعلاج . (٣) غنيمة .

والجزيرة والكوفة والبصرة ومصر – لابد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟

فقالوا جميعاً : الرأى رأيك . فنعم ماقلت وما رأيت . إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجرى عليهم مايتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدنهم .

فقال عمر : قد بان لى الأمر . ثم طلب منهم أن يختاروا له رجلا له جزالة وبصر وعقل وتجربة . فاختاروا له عثمان بن حنيف . فأسرع إليه عمر وولاه مساحة أرض السواد .

وعلى هذا الأساس – وهو امتناع عمر من قسمة الأرض بين الفاتحين وتركها فى يد أهليها يؤدون عنها الخراج للمسلمين – فعل عمر بالشام والعراق . وقد وفقه الله فيما صنع . وقد كانت الخيرة لجميع المسلمين : فكان يجمع خراج الأرض ويقسمه بين المسلمين؛ ليعم النفع بين الجماعة منهم .

وفى هذا كله حرية فى التفكير والمناقشة ، واعتراف بالحق ، ورجوع إلى الحق ، وتمسك بالحق . وهذه هى (الديمقراطية) الحقة ، والحرية الكاملة . وهنا تبدو (الديمقراطية) الإسلامية بأجلى مظاهرها ، منذ أربعة عشر قرنا تقريباً .

وقد قال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبة له : « استشيروا القرآن ، والزموا الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر . »

وقد سئل عمر رضى الله عنه ذات مرة : ماشرطك فى الوالى الذى تريده ؟
قال : إذا كان فى القوم وليس أميرَهم كان كأنه أميرُهم . وإذا كان أميرَهم كان كأنه رجلٌ منهم .

لقد نادى الإسلام بالديمقراطية فى عصر كانت السيطرة والاستبداد والحكم والملك والنفوذ للأشراف أو (الأرستقراطيين) فى بلاد الرومان والفرس ومصر وبلاد العرب قبل الإسلام .

وقد أبى الملك النعمان بن المنذر أن يزوج ابنته من كسرى ملك الفرس ، وكلفه هذا الإباء حياته التى فقدها تحت أرجل الفيلة التى كانت لكسرى فى أثناء الحرب بين النعمان وكسرى .

المشاورة ثم التنفيذ فى الإسلام :

وفى التشاور والتفكير فى الأمور قال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبة له :

« استشيروا القرآن ، والزموا الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور ، والصفقة بعد طول التناظر . » وقد ذكرنا ذلك من قبل .

فخليفة الرسول وخليله الصدِّيق يأمر بالرجوع إلى القرآن ، واستشارته عند الشدة والاختلاف فى أى أمر من الأمور ، والتمسك برأى الجماعة ، والوقوف بجانبها ، والعمل برأيها . فإذا انتهيتم إلى رأى من الآراء بعد التشاور والتناظر فاعملوا على تنفيذه . وهذا روح (الديمقراطية) التى يُنادَى بها اليوم وفى المستقبل .

وقال عمر رضى الله عنه لأبى عبيد وقد جعله رئيسا لمن سيبعثهم لقتال فارس :

« اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حين تقبين ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المَكيث [1] الذى يعرف الفرصة والكَفّ . [2] »

فأمير المؤمنين ينصح رئيس البعثة بأن يسمع من أصحاب رسول الله ، وينتفع بآرائهم وتجاربهم ، ويشركهم معه فى الأمر ، ولا يستبد أو ينفرد بالأمر . لأن الاستبداد بالرأى يؤدى إلى الهلاك . وقد نهاه عن الإسراع أو التسرع فى الحكم ، حتى يتضح الطريق الذى يؤدى إلى النصر والظفر والفلاح ، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها ولا ينجح فيها إلا القائد الرزين المفكر ، الذى يستفيد من خبرة غيره ، ويعرف الفرصة فينتهزها ، فيقدم حيث يجب الإقدام ، ويحجم حيث يجب الإحجام .

(١) الرزين . (٢) تاريخ الطبرى : ٤ ص ٦٠ والكامل لابن الأثير ٢ ص ٢١١ .

(الديمقراطية) المثالية فى الإسلام :

لهذه (الديمقراطية) المثالية فى الإسلام انهزم الروم والفرس أمام المسلمين ، وانتشر الإسلام فى أنحاء العالم ، وتكونت الإمبراطورية الإسلامية فى مدة وجيزة .

وإن (الديمقراطية) الإسلامية لا نظير لها اليوم فى العالم الغربى الحديث ، ذلك العالم الذى يتظاهر بالديمقراطية ، مع أنه مملوء بالمظاهر التى تتمثل فيها (الأرستقراطية) . فالإسلام ضد التفرقة العنصرية ، لا يفكر فى جنس ولا لون ولا حسب ، ولكنه يفكر فى التقوى والصلاح والبر وعمل الخير .

انظر إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، تجد أنه كان يشتغل بالتجارة قبل الخلافة ، ويشتغل بها بعد الخلافة ؛ ليكسب عيشه بعرق جبينه ؛ فقد كان يبيع ويشترى كأى فرد من الناس . ولم يترك التجارة إلا بعد أن أشار عليه المسلمون بتركها ليتفرغ لشئون الإسلام والمسلمين . ولم يأخذ من بيت المال إلا الضرورى للإنفاق على نفسه وأسرته ، فى حين أن الملوك والقياصرة فى عصره كانوا يجمعون ويغتصبون أموال رعاياهم لإنفاقها على ملذاتهم ورغباتهم وشهواتهم .

ولما قربت وفاة أبى بكر رضى الله عنه أبى أن يستأثر بالخلافة لأولاده ، مع أنه كان له ابنان : محمد وعبد الرحمن . فجعلها بعيدة عنهما ، واختار عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ لتظل من حقوق الشعب ، فلا يستأثر بالخلافة أحد المسلمين . ولا عجب ؛ فأبو بكر كان يميل إلى الاشتراكية ، وروح المساواة (والديمقراطية) . لم يفكر فى أسرته ، ولكنه كان يفكر فى رعيته . وقد أحسن كل الإحسان فى اختياره عمر بن الخطاب .

رحم الله أبا بكر . ما كان أعرفه بالرجال . ورحم الله عمر فقد كان مثاليا فى عدالته وشجاعته وإنسانيته وزهده وإيثاره .

نظام الحكم فى الإسلام

حينما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم اختار المسلمون أبا بكر ليكون خليفة المسلمين ، فقال لهم :

« إنى وليتُ عليكم ولست بخيركم . فإن رأيتمونى على حقٍ فأعينونى . وإن رأيتمونى عَلَى باطلٍ فسَدِّدُونى » ، أى قومونى .

وقبيل وفاة أبى بكر اختار عمر خليفة ، فقال عمر حينما ولى الخلافة : « من رأى منكم فى اعوجاجاً فليقومنى » .

فقال له أحد الحاضرين : « والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » .

فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يقوم عوج عمر بالسيف . فعمر كان يطلب من الناس أن ينصحوا له ، ويبتغوا وجه الحق إذا رأوا منه أى انحراف عن الصواب .

فالدين الإسلامى يدعو إلى الشورى ، والحكم (الديمقراطى) ولا يدعو إلى النظام الملكى بالوراثة .

قال تعالى : « وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ (١) إِبْرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ (٢) » .

فالدين الإسلامى لا يقول بجعل الحكم فى أسرة من الأسر ؛ لأنه يدعو إلى العدالة ، والمساواة ، والتشاور فى الأمر ، واختيار الأصلح ، والناس سواسية كأسنان المشط ، « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وينادى بحرية الرأى والجدل والمناقشة ، والاعتراف بالحق ، والرجوع إليه ، والتمسك به ، وهذا هو روح الإسلام .

---

(١) اختبر . (٢) سورة البقرة : ١٢٤ .

(الديمقراطية) الإسلامية الحقة :

إن الإسلام دين (الديمقراطية) . انظر إلى تلك الآيات الكريمة التي بها يخاطب الله جل شأنه رسولَه المصطفى :

« فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ، لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ[1] » .

« وما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » .

« لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ[2] » .

— تجد أن الإسلام ضد السيطرة والاستبداد ، وليس فيه سلطة دينية سوى سلطة التذكرة والموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الفضيلة ، والتنفير من الرذيلة .

إن الإسلام دين يفكر فى المصلحة العامة ، وينادى بحرية الرأى والتفكير والاجتهاد فى الحكم ، فقد اجتهد أبو بكر رضى الله عنه فجعل عمر بن الخطاب خليفة على المسلمين قبيل وفاته . واجتهد عمر رضى الله عنه فلم يستخلف واحداً ، وترك الأمر شورى بين ستة من خيار الصحابة .

فاجتهاد أبى بكر غير اجتهاد عمر . واجتهادهما معاً غير ما فعله الرسول ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يستخلف واحداً كما فعل أبو بكر . ولم يترك الشورى لستة كما فعل عمر . وكل منهم قد توخى روح الإسلام ، وفكر فى المصلحة العامة ، واجتهد بقدر استطاعته . وهذه هى (الديمقراطية) الإسلامية الحقة التى لا نظير لها .

إن الإسلام دين ينادى بالحرية ، ويكره الذل والعبودية ، دين ينظر إلى الجميع نظرة واحدة هى نظرة المساواة ، دين يدعو إلى (الديمقراطية) ، والحكم (الديمقراطى) ، يدعو إلى الإخاء ، والشورى فى الحكم . فليس من الإسلام أن يولد طفل أميراً له حقوق وامتيازات على غيره من المسلمين لأن أباه ملك . ولا يرث الطفل الملك لمجرد الوراثة ، حتى ولو كان ضعيف العقل ، أو معتوها .

---

(١) سورة الغاشية : ٢١ ـ ٢٢ .   (٢) سورة البقرة : ٢٧٢ .

أبو بكر الصديق يصف بعض الملوك :

ومن خطبة لأبي بكر الصديق رضى الله عنه قال :

« إن أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك ، فرفع الناس [١] رءوسهم ، فقال : ما لكم يا معشر الناس ؟ إنكم لطعّانون عجلون . إن من الملوك مَن إذا ملَك زَهَّدَه الله فيما فى يده ، ورغَّبه فيما فى يدى غيره . . . وأشرَبَ [٢] قلبَهُ الإشفاق [٣] . فهو يحسد على القليل ، ويتسَخَّط [٤] الكثير ، ويسأم الرَّخاء ، وتنقطع عنه لذة البهاء . لا يستعمل العِبرة [٥] ، ولا يسكُن إلى الثقة ، فهو كالدرهم القَسِىِّ [٦] ، والسَّراب الخادع ، جَذِل [٧] الظاهر ، حزين الباطن . فإذا وَجَبَت [٨] نفسه ، ونَضَبَ [٩] عمرُه ، وضَحَا ظله [١٠] ، حاسبَه اللهُ فأشَدَّ حسابَه ، وأقَلَّ عفوَه ، ألَا إن الفقراء هم المحرومون . وخير الملوك من آمن بالله ، وحكم بكتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ... »

فهو يصف بعض الملوك بأنهم يزهدون فيما يملكون ، ولطمعهم وجشعهم وظلمهم يرغبون فيما فى أيدى غيرهم ، ويطمعون فيه ، ويعملون على اغتصابه ، ويحسدون الناس على القليل الذى لديهم ، ويعدون الكثير عندهم قليلا . ولكثرة وسائل الرخاء والنعيم والترف لديهم يملونها ، ولا يتعظون بغيرهم ، ولا يثقون بأحد ، وهم كالنقود الزائفة ، والسراب الخادع ، ظاهرهم كله فرح وسرور ، وباطنهم كله حزن وهموم . فإذا ماتوا وانقضت حياتهم ، وذهب عمرهم حاسبهم الله حساباً شديدا ، على ما ارتكبوه من آثام ، وما اغتصبوه من حرام ، وقلَّ من عفا الله عنه منهم .

ألا وإن الفقراء هم المحرومون الذين لا يفكر فيهم أحد ، ولا يشعر بشعورهم الملوك .

وخير الملوك من آمن بالله وكرمه وفضله ، وحكم بكتاب الله وسنة رسوله ،

---

(١) المستمعون لخطبته . (٢) أشرب قلبه : خالطه . (٣) أشفق منه : حذره .
(٤) يستقله ولا يقع منه موقعا . (٥) لا يتعظ . (٦) لزائف . (٧) فرح .
(٨) مات . (٩) انقضى . (١٠) مات أيضا .

واتبع ما أمر به الإسلام ، واجتنب ما نهى عنه .

وأكبر دليل على ظلم بعض الملوك ما فعله محمد على بعد أن جعل واليا على مصر ؛ فقد أذل كثيرين من زعماء مصر الوطنيين المخلصين ، وشردهم ليخلو له الجو ، ودعا المماليك إلى القلعة ، ثم تخلص منهم بقتلهم ، كى لا ينافسه أحد ، ولا ينازعه إنسان فى الحكم .

وقد تخلصت مصر ولله الحمد من تلك الأسرة الظالمة الغريبة التى بدأت حكمها بالظلم والطغيان . وانتهت بسبب الظلم والطغيان . وقد دخل الإنجليز مصر واحتلوها بسبب تلك الأسرة الدخيلة ، ولم تتمكن مصر من التخلص من الاحتلال الإنجليزى إلا بعد أن تخلصت ممن كان سببا فى الاحتلال ، والسبب هو أسرة محمد على .

جاء محمد على إلى مصر فقيرا مشردا لا يملك شيئا ، وبعد أن تولى الحكم اغتصب أرض مصر من المصريين واستغلها لمصلحته . وقد ردت إلى أصحابها فى هذا العهد السعيد ، والحمد لله . وإذا نظرنا إلى أسرة محمد على وجدنا أنها تحكمت فى مصر نحو قرن ونصف قرن ، واستعبدت الشعب وظلمته ، واستبدت به كل الاستبداد ، وعاملته أسوأ معاملة . ولم يكن الحكم لمصلحة مصر . ولكنه كان لمصلحة أسرة محمد على .

وقد كان عباس الأول جرثومة من الفساد . وميوله إنجليزية . وسعيد الأول كانت ميوله فرنسية . وقد سخر المصريين فى حفر قناة السويس ليرضى صديقه النصاب العالمى « ديلسبس » . وإسماعيل قد أسرف كل الإسراف فى ملذاته وشهواته . وأغرق مصر فى الديون التى استدانها ، فتحكمت فيها الدول الأجنبية ، وأذل مصر والمصريين بإرضاء القنصل الفرنسى وخضوعه لرأيه فى تجريد أحد الضباط المصريين ، وتعذيب الجنود المصريين ، فأهان مصر وكرامتها إرضاء لفرنسا . وحينما حكم عليه بالخروج من مصر ، أخذ كل ما كان فى خزينة المالية من المال لنفسه اغتصابا ؛ كأنه مالك له . والخديو توفيق هو السبب

فى الاستعمار الإنجليزى ؛ فقد دخل الإنجليز مصر بحجة المحافظة على عرشه .

وعباس الثانى لم يفكر إلا فى شىء واحد هو أن يجعل نفسه من أكبر أغنياء العالم . وقد تحقق ما أراده وفكر فيه .

وفؤاد الأول حينما ولى الحكم كان فقيراً مفلسا . وبعد سنوات معدودة كان من كبار الأغنياء فى العالم ومن أصحاب الملايين .

وفاروق الملك الخليع المستهتر لم يترك وسيلة من وسائل النهب والاغتصاب ، والاستغلال وبيع الرتب والألقاب والسمسرة إلا فعلها ، حتى استطاع أن يهرب ٨٠ مليونا من الجنيهات من مال مصر الذى نهبه واغتصبه .

وقد ساعدهم الاستعمار على الظلم فى الحكم ، والاستبداد بالشعب ، والسيطرة عليه ؛ ليكونوا أداة له فى الاحتلال ، وامتصاص خيرات البلاد ، واستغلالها من كل الوجوه .

ومع الأسف كان الشعراء والأدباء والمؤرخون والكتّاب من المصريين يتملقون هذه الأسرة فى قصائدهم ومؤلفاتهم ، ويصورون سيئاتها بحسنات ، ويجعلون رجالها أبطالا ، ولو كانوا من ضعاف العقول . ويعظمونهم وما كانوا من العظماء ، ويخلقون منهم آلهة وأصناما وتماثيل ، ويصفونهم بصفات الألوهية ، ويلقبونهم بألقابها كصاحب العظمة ، وصاحب الجلالة ، حتى كادوا يعبدونهم من دون الله . ومن أراد أن يرى الملق والنفاق والكذب فليطلع على ما كتب فى الصحف فى ذلك العهد المظلم .

وقد نسوا أن الإنسان إنسان . وكل إنسان يخطئ ويصيب ، لا فرق فى ذلك بين أمير وخفير ، ورفيع ووضيع .

وفى استطاعة المؤرخ اليوم أن يعمل للوصول إلى الحقيقة ، ويكتب تاريخ مصر خاليا من كل غرض ، غير متأثر بأحد ، غير خائف من اضطهاد أو تعذيب ، أو محاكمة .

والحق أن التاريخ حينما يكتب لن يجد حسنة خالصة لوجه الله أو الوطن ، لأى فرد من أسرة محمد على .

الفصل التاسع

العدالة فى الإسلام

كيف كان الناس قبيل البعثة المحمدية ؟

قبيل بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان الناس منهمكين فى اللاذ ، يتفاخرون بالأنساب ، ويشنون الغارات والحرب لأوهى الأسباب ، وكانت الشعوب متفرقة إلى طوائف متنافرة ، كل طائفة تعتدى على من دونها ، فالقوى يعتدى على الضعيف ، ويسطو على حق غيره ، ويعدُّ ذلك من ضروب الشجاعة . وكان القانون السائد : (الحياة للقوىِّ ، والموت للضعيف) . فإذا لجأ الضعيف إلى السلطان طالبا العدل والإنصاف وقفت فى وجهه الموانع ، واعترضته الحواجز من الرِّشوة والمحاباة ، فضاع حقه ، وباء بالخسران ، وعُدَّ جانيا مع أنه مظلوم ومعتَدًى عليه ، وحكم عليه بالعقوبة مع أنه برىء ولا ذنب له ، حتى انعدم الاطمئنان والاستقرار ، وانتشر القلق والاضطراب بين الشعوب والقبائل ، وسئم الكل الحياة ، وأخذ الناس يتساءلون : لمَ هذه الحياة ؟ ولأى غاية يحيَوْن ؟

بين هذه المظالم وتلك الآلام ، سطعت شمس رسول الأنام ، محمد الكامل ابن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، وتألق نور الإسلام ، نور العدل والمساواة ، وأخذ الرسول الكريم يعالج هذا الفساد ، ويزيل هذه المظالم ، ويستأصلها من جذورها ، ويضع قواعد للعدالة والمساواة ، قواعدَ تنظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، وعلاقة الإنسان بالمجتمع ، وتنشر الطمأنينة فى النفوس الحائرة ، والسعادة بين الإنسانية الشقية المعذبة ، وتسمو بالأمة الجديدة إلى قمة الخير والمجد ، تحقيقا لقول الله تعالى :

« كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ[1] . »

---

(١) سورة آل عمران : ١١٠ .

وأول دعامة وضعها الإسلام فى أساس هذا الإصلاح نشر العدل والمساواة بين الأفراد والمجتمعات ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، والمساواة بيَن الناس فى المعاملة ، والمسلم أخو المسلم .

قال تعالى : « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ [(١)] . »

وقد يظن كثير من المثقفين أن أوزوبة الحديثة كانت الأولى فى المناداة بالعدالة والمساواة بين الطبقات ، وأن الثورة الفرنسية هى التى نادت بحقوق الإنسان من الإخاء والحرية والمساواة ، ولكن هذا كله خطأ ؛ كما ذكرنا من قبل ؛ فأول من نادى بالعدل والمساواة والحرية والإخاء رسول الإسلام محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ خير الأنام .

انظر إلى تاريخ الفرس والرومان والعرب وقدماء المصريين تجد أن تلك الأمم كانت (أرستقراطية) فى نزعتها الأولى ؛ فالأشراف فيها خلقوا ليَحكموا ويسيطروا ، والطبقة العامة منها خلقت لتُحكَمَ وتكون عبيدا للسادة والأشراف منها .

وكان العرب قبل الإسلام أشد الأمم فى نزعتها (الأرستقراطية) ، وكانت قبيلة قريش تحسب كل الناس عبيدا لها .

فكان عجبا حقًّا أن يبرز النبى صلوات الله عليه مناديا بالعدل والمساواة بين الطبقات ، قائلا : « الناس سواسية كأسنان المُشط ، ولا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . »

وإن هذا الروح (الديمقراطى) فى الإسلام كان سببا فى معاداة أشراف قريش للرسول الكريم ، وتآمرهم على قتله والتخلص منه ، بأى وسيلة من الوسائل ؛ فقد خافوا أن يرفع الرسول العادل ، والمَثَلُ الكامل هؤلاء الضعفاء والمساكين والعمال والعبيد إلى صفوفهم ، فأخذوا يكيدون له ، ويتآمرون عليه ، ويظهرون له العداوة والبغضاء ؛ لأنه جاء بدين يأمر بالعدالة والإخاء والمساواة ، وهى النظام الطبيعى لحياة الكون . وكيف لا يكيدون له ، ولا يفكرون أكثر من مرة فى قتله ، وهو ينادى بينهم : « الناس سواسية كأسنان المشط ... » وهم لا يعتقدون فيما يعتقد ، ولا يؤمنون بما يؤمن به ،

---

(١) سورة الحجرات : ١٠ .

ولكنهم يعتقدون فى الحسب والنسب ، والجاه والسلطان ، والمال والثراء ، والفخر والكبرياء ، والسيطرة والتحكم فى الضعفاء .

لهذا غضبت قريش ، وغضب أشراف قريش من محمد الكامل ، وعدُّوا مبادئه من العدالة والمساواة ، (والديمقراطية) بدعة جديدة من البدع . ولم يعرف عنه عليه الصلاة والسلام أنه اختص نفسه بشىء دون الناس ؛ فقد كان بشرا ، يأكل الطعام ، ويعانى آلام الجوع والفقر . وقد قامت شريعته على العدل والمساواة .

تعريف العدالة والمساواة :

العدالة إعطاء كل ذى حق حقه ، من غير أن يطالب به . وهى ضد الجور والظلم . والمساواة نوع من العدالة العامة ، ومن مظاهرها التسوية بين الناس فى الحقوق والواجبات العامة التى لا تتعارض ومراكزهم . وإن مبدأ المساواة من أكبر دعامات البر ، وأفتك الأسلحة بآفة الفقر . وقد حارب الإسلام الترف فى الحياة ، واكتناز المال وعدم الزكاة عنه ، وحرم الربا لتضييق مسافة الخلف ، وتذويب الفوارق بين الطبقات من الناس ، وتقريبهم من المساواة ، لتكون حياة الجميع سعيدة متسقة .

العدالة روح الإسلام :

لقد نادى الإسلام بالعدل والعدالة ، وجعل العقوبة مناسبة للجريمة .

قال تعالى : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا[1] . »

والمعنى : إن الله يأمركم أن تؤدوا الحقوق لأصحابها ، والأمانات إلى أهلها ، وأن تحكموا بالعدل المطلق إذا حكمتم بين الناس . ونعم الشىء الذى يعظكم به الله ، ويأمركم به ، وهو أداء الأمانة ، والحكم بالعدل . إن الله كان سميعاً لما يقال ، بصيرا بما يفعل .

(١) سورة النساء : ٥٨ .

وقال عز وجل : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ (١) . »

والمعنى : وإن أردتم عقاب المعتدى عليكم فلا تعاقبوه إلا بمثل ما وقع منه لكم ، مما أدى إلى عقابه . ولئن صبرتم عن الانتقام لهو أى الصبر خير للصابرين ؛ لأن العفو من شيم الكرام .

وقال تعاظم وارتفع : « وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ . وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ . (٢) »

والمعنى : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، بغير زيادة أو نقص ، فإذا قال له أخزاك الله ، فيجيبه أخزاك الله . فمن عفا عمن ظلمه وصفح عمن أساء إليه ، وأصلح مابينه وبين من يعاديه بالإغضاء عما حدث منه فأجره وثوابه على الله لا محالة . إن الله لا يحب البادئين بالظلم . وإن من يأخذ حقه ممن ظلمه ، ويرد السيئة بمثلها فلا يؤاخذ على فعله ، لأنه دافع عن نفسه ، بشرط ألا يزيد على رد الاعتداء بمثله . ويؤاخذ من يظلمون الناس ، ويبغون فى الأرض بغير الحق ، بارتكابهم المعاصى ، أولئك لهم عذاب أليم شديد . ولمن صبر ، وعفا عمن أساء إليه ، وتجاوز عن السيئة ، إن ذلك من الأمور التى يجب العزم والثبات عليها . فالإسلام يجازى السيئة بالسيئة ، ولكنه يدعو إلى العفو عند المقدرة ، والصفح عن المسىء ، ومقابلة السيئة بالحسنة . وهذا هو النبل فى الإسلام .

وقال : « فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ . »

---

(١) سورة النحل : ١٢٧ . (٢) سورة الشورى : ٤٠ــ٤٣ .

وقال عز وجل : « وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ [١] . »

وعن الفضل بن عباس قال : جاءنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرجت إليه ، فوجدته موعوكاً ، قد عَصَب رأسه ، فقال: خذ بيدى يا فَضْلُ ، فأخذت بيده حتى جلس على المنبر ، ثم قال : نادِ فى الناس ، فناديت ، فاجتمعوا إليه ، فقال :

« أما بعد : أيها الناس ، فإنى أحمدُ إليكم اللهَ الَّذى لا إلهَ إلا هو ، وإنه قد دَنَا منّى خُفُوقٌ [٢] من بَينِ أَظْهُرِكم ، فمنْ كُنْتُ جلَدْتُ له ظَهْراً ، فهذا ظَهرى فَلْيَسْتَقِدْ [٣] منهُ ، ومَن كُنْتُ شَتَمْتُ له عِرضاً ، فهذا عِرضى فَلْيَسْتَقِدْ منه ، ومَن أخذتُ له مالاً فهذا مالى فليأخذْ منهُ ، ولا يَخْشَ الشَّحناءَ من قِبَلى ، فإنها ليسَتْ منْ شأنى . ألاَ وإنَّ أَحبَّكم إلىَّ مَنْ أَخَذ منّى حقًّا إن كان له ، أو حَلَّلَنِى فلَقِيتُ رَبِّى وأنا طيبُ النفسِ . وقد أرَى أنَّ هذا غيرُ مُغْنٍ عنِّى حتَّى أقومَ فيكم مراراً . »

فالرسول عليه الصلاة والسلام يطالب الناس بالاقتصاص منه ، وأخذ حقهم إن كان لهم حق ، حتى يلقى الله وهو طيب النفس . أليس هذا مثلاً نادراً للعدالة الإسلامية ؟

قال عليه الصلاة والسلام : « إنَّمَا أَهلَكَ الَّذِينَ مِن قَبلِكُم أنهم كانوا إذَا سرَقَ الشريفُ تركوه ، وإذَا سرقَ الضعيفُ أقاموا عليه الحدَّ . وأَيمُ [٤] اللهِ لَوْ أنَّ فاطمةَ بنتَ محمد سرَقَت لقَطعتُ يدَها . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الناسَ إذا رَأَوُا الظالمَ فلم يأخذُوا على يَدَيهِ أوشكَ أنْ يَعُمَّهمُ اللهُ بعقابٍ من عندِه . »

وقال : « لا تفلح أمةٌ لا يُؤخذُ للضعيف فيها حقُّه من القويِّ . »

ويبدو روح الإسلام روح العدالة فى قول أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ بعد أن بايعه المسلمون : « أيها الناس ، إنِّى قد وُليتُ عليكم ولستُ بخيرِكم . فإن رأيتمونى

(١) سورة المائدة : ٤٥ . (٢) خفق النجم خفوقا : غاب ، وخفق الطائر: طار .
(٣) فليقتص ، من القوَد وهو القصاص . (٤) صيغة قسم ، أى أقسم بالله .

على حقٍ فأعينونى ، و إن رأيتمونى على باطلٍ فسدِّدُونى[1] . أطيعونى ما أطعتُ اللهَ فيكم ، فإذا عصيْتُه فلا طاعَةَ لى عليكم . ألاَ إنَّ أقواكم عِندى الضعيفُ حتَّى آخذَ الحقَّ له ، وأضعفَكمُ عندى القوىُّ حتَّى آخذَ الحقَّ منهُ . أقولُ قولى هذا وأستغفر اللهَ لى ولكم . »

كما يبدو فى قول عمر بن الخطاب لما ولى الخلافة : « منْ رأى منكم فىَّ اعوجاجاً فليُقوِّمْه . »

فقال له أعرابى : « واللهِ لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوَّمناهُ بسيوفِنا .

الإسلام يأمر بالعدل وينهى عن الظلم :

وفى القرآن الكريم كثير من الآيات التى تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم ، نذكر منها ما يأتى :

« إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[2] . »

« وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ[3] . »

تَشْخَص : تنظر . مُهْطِعِينَ : مسرعين .

مُقْنِعِى : رافعى .

طرفهم : بصرهم . أفئدتهم هواء : قلوبهم خالية من العقل لفزعهم .

« وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ[4] . » أى اعدلوا إن الله يحب العادلين .

« وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا[5] . »

فهو يندم ويتحسر لأنه لم يتخذ مع الرسول طريقاً إلى الهدى .

(١) فقومونى . (٢) سورة النحل : ٩٠ . (٣) سورة إبراهيم : ٤٢ ، ٤٣ .
(٤) سورة الحجرات : ٩ . (٥) سورة الفرقان : ٢٧ .

« يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ (١) . »

القسط : العدل . ولا يجرمنّكم : ولا يحملنَّكم .

شنآن : بُغض . اعدلوا فى الحكم على العدو والصديق ، فالعدل أقرب للتقوى .

« وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (٢) . »

والقاسطون : هم الظالمون ، الجائرون فى أحكامهم ومعاملاتهم .

والحطب : الوقود .

« يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٣) . »

قوامين بالقسط : قائمين بالعدل ، شهداء بالحق ، ولو كانت الشهادة على أنفسكم ، فقرروا الحق ولا تكتموه . فلا تتّبعوا الهوى فى شهادتكم بأن تحابوا الغنى لرضاه ، أو الفقير رحمة به ، ولا تميلوا عن الحق . وإن تلْوُوا وتحرِّفوا الشهادة أو تعرضوا عن أدائها ، فإن اللهَ خبير بما تعملون فيجازيكم به .

فالإسلام يأمر بالعدل فى الرضا والغضب ، وينهى عن الجور والظلم والطغيان .

قال عليه الصلاة والسلام : « ثلاثٌ مُنْجِيَاتٌ ، وثلاثٌ مُهلِكاتٌ : فأما المُنْجيات فالعدلُ فى الغضَب والرِّضَا ، وخشيَةُ اللهِ فى السِّر والعلانية ، والقَصْدُ فى الغِنَى والفَقْرِ . وأما المُهلِكاتُ : فَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وهَوًى مُتَّبَعٌ ، وإعجابُ المرءِ بنفسِه . »

وفى السنة العاشرة من الهجرة أرسل الرسول على بن أبى طالب فى بعثة إلى اليمن ، وقال له : « سِر حتى تنزلَ بساحتِهم ، فادعُهم إلى قول : لا إله إلا الله . فإن قالوا : نعم،

---

(١) سورة المائدة : ٨ . (٢) سورة الجن : ١٥ . (٣) سورة النساء : ١٣٥ .

فمُرْهم بالصلاة ، ولا تَبغِ منهم غير ذلك . ولأَن يَهدىَ اللهُ بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس . ولا تُقاتِلْهُمْ حتّى يُقاتلوك . » وقال أيضاً : « إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمعَ من الآخر » . فنفذ على وصية الرسول ، وكان مثلا للعدالةِ فى معاملة اليمنيين وغيرهم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اتّقِ دعوةَ المظلومِ ، فإنها ليسَ بينَها وَبين اللهِ حِجابٌ . »

أى احذر دعوة المظلوم ، فلا تظلم أحَداً ؛ لأن دعوته صادرة من قلب يتقد ناراً ، لا حجاب بينها وبين الله .

وقال : « إنَّ اللهَ لَيُمْلِي (١) للظالِم حتَّى إذا أَخذَهُ لم يُفلِتْهُ (٢) . » ثم قرأ صلى الله عليه وسلم : « وكذٰلك أَخْذُ ربِّكَ إذا أَخذَ القُرَى وَهِيَ ظالِمةٌ ، إنَّ أَخْذَهُ أليمٌ شديدٌ (٣) . »

لقد جاهد الإسلام فى تربية النفوس على العدالة ، حتى لا يصدر حكم من الأحكام إلا وفق مقاييس دينية ، ومبادئ إنسانية تتجلى فيه خشية الله ، ولا يحس أحد بالظلم فى الحكم .

وفى المجتمع الإسلامى العادل تجد المسلم مستريح البال ، إذا أصيب بمكروه وجد من ينقذه ، وإذا ظلم وجد من يلجأ إليه لإزالة ظلمه ، وتفريج همه ، وإعطائه حقه .

وقد سلكت الشريعة المحمدية فى تربية النفوس بوسائل من الترهيب والترغيب ، منها : قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« لَعَمَلُ الإمامِ العادلِ فى رعيته يوماً واحداً أفضلُ مِن عملِ العابدِ فى أهله مائةَ عامٍ أو خمسين عاماً . »

وقوله : ثلاثةٌ لا تُرَدُّ دعوتُهم : الإمامُ العادلُ ، والصائمُ حتى يُفْطِرَ ، ودعوةُ المظلومِ تُحْمَلُ على الغَمام ، وتُفْتَحُ لها أبوابُ السماءِ » .

(١) يمهل . (٢) لم يخلصه أبدا لكثرة ظلمه . (٣) فيه تحذير عظيم من الظلم .

وقوله : « مَن اقتطعَ مِن امرئٍ مُسلمٍ أَوْجبَ اللهُ لهُ النارَ ، وحَرَّمَ عليه الجنَّة » .

فقال له رجل : يارسولَ اللهِ ، ولو كان شيئًا يسيراً ، قال :

« ولو كان قضيباً من أراكٍ » .

والأراك شجر طويل يُستاك بقضبانه ؛ لتنظيف الأسنان .

وفى الحديث القدسى : « يا عبادى ، إنى حرَّمتُ الظلم عَلَى نفسى ، وجَعلتهُ بينكم مُحَرَّماً . فلا تَظَّالَموا » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الظُّلم ظُلماتٌ يوم القيامة » . وقال : « لا تُفْلِحُ أُمةٌ لا يؤخذُ للضعيفِ فيها حقُّهُ من القوىِّ » .

وذات يوم سرقت فاطمة المخزومية حليًّا وقطيفة ، وكانت من قبيلة عريقة فى المجد ، هى قبيلة خالد بن الوليد . فمحافظة على كرامة أسرتها ذهب أسامة بن زيد إلى رسول الله ليشفع فيها ، ويغفر لها خطيئتها ، ولا يقيم عليها حد السرقة . وكان الرسول العادل يحب أسامة حبًّا جمًّا ، فزجر الرسول أسامة ، وقال له : « أَتشفعُ فى حدٍّ من حدودِ اللهِ ؟ »

ثم قام فخطب الناس ، وقال : « إنما أهلك الذين منْ قبلِكُم أنهم كانوا إذا سرق الضعيفُ أقاموا عليهِ الحدَّ ، وأَيمُ[1] اللهِ لو أنَّ فاطمةَ بنت محمدٍ سرقَتْ لقطعتُ يدَها » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أشدُّ الناسِ عذاباً يومَ القيامةِ مَنْ أشركهُ اللهُ فى سُلطانهِ فجَارَ فى حكمِه » . والجَوْر هو الظلم .

وقال : « أَلاَ أُنبئُكُم بشِرَارِ الناسِ ؟

قالوا : بلَى ، يا رسولَ اللهِ .

(١) اسم وضع للقسم : أقسم بالله .

قال : مَنْ نزلَ وحدَه ، ومنع رِفْدَهُ (معونته وعطاءه) ، وجلدَ عبده » .

ثم قال : « أفلا أُنبئُكم بشَرٍّ من ذلك » ؟

قالوا : بلى ، يا رسول اللهِ .

قال : « من لا يُرجَى خيرُه ، ولا يؤمَنُ شرُّهُ » .

ثم قال : « أفلا أُنبئُكم بشَرٍّ من ذلك » ؟

قالوا : بلى ، يا رسول اللهِ .

قال : « من يُبْغض الناس ويُبغضونه » .

وقد سأل الإسكندر المقدونى بعض فلاسفة الهند القدامى : « لِمَ صارت سُنَنُ (شرائع) بلادكم قليلة ؟ »

قالوا : « لإعطائنا الحق من أنفسنا ، ولعدل رؤسائنا فينا » .

فسألهم : « أيهما أفضل : العدل أم الشجاعة ؟ »

قالوا : إذا استُعمِل العدلُ أغنَى عن الشجاعة.

كتاب عمر بن الخطاب إلى معاوية فى العدالة :

وقد كتب عمر إلى معاوية بن أبى سفيان ذات يوم ، فقال :

« إياكَ والاحتجابَ دونَ الناسِ . وائذنْ للضعيفِ وأدنِه (قرِّبه منك) ، حتى يبسطَ لسانه ، ويجترئَ قلبُه . وتعهد الغريبَ ؛ فإنه إذا طال حبسهُ ضعفَ قلبه ، وترك حقه » .

ومن هذه الرسالة ترى أن عمر كان يفكر ليلا ونهاراً فى شئون الرعية . وقد حذر معاوية من البعد عن الناس ، ومن تجنبهم ، ليتصل بهم ، ويعلم أحوالهم . وأمره أن يأذن للضعيف ، ويسمح بلقائه ، ويقربه منه ، حتى يشرح له حاله ، ويتشجع قلبه ، ولا يخاف أحدا إلا الله . وكلفه أن يتعهد الغريب من المسلمين عن الأهل والوطن ، ويحافظ عليه ، ويكرمه ، فإنه إذا طال حبسه ضعف قلبه ، وترك حقه ، ولم يطالب به ، وليس هذا من العدالة فى الإسلام .

فعمر كان يفكر دائماً فى الرعية والعدالة ، ويرسم الطريق أمام الحكام من المسلمين حتى ينال كل إنسان حقه ، ولا يُظلم أحد .

العدالة الإسلامية لا مثيل لها :

وتتجلى العدالة الإسلامية فى قول عمر فى إحدى خطبه :

« ألَا وإنى إنما أبعث عمالى[1] ليعلموكم دينكم وسنَّتكم ، ولا أبعثهم ليضربوا ظهوركم ، ويأخذوا أموالكم ، ألَا من رَابَهُ[2] شيء من ذلك فَلْيرفَعْهُ إلىَّ ، فو الذى نفسى بيده[3] لَاقُصَّنَّكم منه[4] » .

فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين ، أرأيت إن بَعَثْتَ عاملا من عمالك ، فأدَّب رجلا من رعيتك فضربه ، أتَقُصُّه منه ؟

قال : نعم ، والذى نَفْس عمر بيده لأُقُصَّنَّهُ منه ؛ فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقُصُّ من نفسه[5] » .

فحكام المسلمين بعثوا فى الأقطار الإسلامية ليعلموا الناس الدين ، ويرشدوهم إلى الفضائل ، ولم يبعثوا للظلم والطغيان ، ونهب الأموال ، واستغلال الجاه والسلطان . وقد فتح عمر بابه لأى شكوى من بغى أو قسوة أو ضرب ، وأقسم بالله القوى القادر أنه سيقتص من كل ظالم ولو كان حاكما ، وسيأخذ الحق لكل مظلوم ، ولو كان لا يدين بالإسلام . وهذه هى العدالة الإسلامية التى لا مثيل لها .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى ، فقال :

« أما بعد ، فإن أسعد الرعاةِ من سعِدت به رعيتُه . وإن أشقَى الرعاةِ عند الله من شقِيَت به رعيتُه . وإياكَ أن تزيغَ (تبعد عن الحق وتضل) فيزيغَ عمالُكَ » .

---

(١) حكامى الذين أختارهم للحكم . (٢) رأى ما يشك فيه وما يكرهه .
(٣) أقسم بمن حياتى فى قدرته . (٤) لا قتصصت له منكم ، وأخذت له حقه منكم .
(٥) العقد الفريد : ٢ : ١٣٢ والبيان والتبيين : ٣ : ٧١ ، وصبح الأعشى : ١ : ٢١٤ .

حقا لقد كان عمر أبا رحيما للمسلمين ، وحاكما يفكر فى أمورهم ، وأبا للعيال والصغار ، حتى يرجع إليهم آباؤهم من السفر . وكان حوله رجال يعاونونه ويساعدونه فى السلم والحرب .

وقال عمر فى أواخر أيامه : « لئن عشت إن شاء الله لأسيرنّ فى الرعية حولًا ، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقتطع دونى ، أما عمالى (حكامى الذين عينتهم) فإنهم لا يرفعونها إلىّ . وأما هم فإنهم لا يَصلون إلىّ . أسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين . . والله لنعم الحول هذا » .

ولكن الموت عاجله من غير أن يحقق هذا الأمل .

وإن عدالة عمر تمثل العدالة فى الإسلام ، وعدل عمر يضرب به المثل منذ أسلم إلى اليوم .

والعدل هو المثل العالى الذى يتمناه العالم ، وتتمنى كل أمة أن تصل إليه ، وتعد نفسها سعيدة كل السعادة إذا وهبها الله حكاما عادلين ، يحبون العدل كل الحب ، ويكرهون الظلم كل الكره ، وينظرون إلى المحكومين نظرة واحدة تتحقق فيها العدالة والمساواة ، من غير تفرقة بين الغنى والفقير ، والعظيم والحقير . هكذا كان عمر ، لا يفرق بين شخص وآخر ، ولا يفرق فى تحقيق العدالة بين مسلم وغير مسلم . ولا عجب ؛ فالناس فى نظر الإسلام سواسية ، متساوون كأسنان المشط ، ولا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح .

عدالة عمر بن الخطاب

وقد شكت سيدة مصرية عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؛ لأن ابن العاص قد أرغمها على بيع بيتها ، واشتراه على غير رغبتها ؛ ليصلح به المسجد ، فأمر

عمر بن الخطاب عمراً بهدم المسجد ، وبناء البيت كما كان ، وإعادته إلى صاحبته ، ووقف عمر بجانب الحق ، وأرجع إلى السيدة المصرية بيتها . هذه هي العدالة فى الإسلام . وهذا هو الاحترام للحقوق الإنسانية .

وقد روى كعب بن أبيّ أن أباه وعمر بن الخطاب تقاضيا أمام زيد بن ثابت . وكان زيد قاضيا قد عينه عمر فى المدينة المنورة ليقضى بين الناس .

فلما خرج عليهما زيد بن ثابت قال لعمر : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، ثم أشار إليهما بالجلوس . وقد احتاج الأمر أن يطلب أبيّ من الخليفة عمر أن يحلف اليمين .

فقال له زيد : أعف أمير المؤمنين من اليمين .

فغضب عمر ، وقال لزيد : لقد صرت جائراً منذ اليوم . كيف تحيينى بقولك : « السلام عليك يا أمير المؤمنين . اجلس هنا ؟ » وكيف تقول : « أعف أمير المؤمنين من اليمين ؟ »

فالقاضى كان جائراً ظالماً فى نظر عمر ؛ لأنه حاباه ، وعامله معاملة خاصة ، وفرق بينه وبين خصمه . ولم يرض عمر بهذه التحية ، وغضب لهذه التفرقة . فالناس فى الدين الإسلامى يجب أن يكونوا متساوين أمام القضاء . لا فرق بين حاكم ومحكوم . هذا هو العدل فى الإسلام ، وهو روح الإسلام ، وروح (الديمقراطية) والإنسانية فى أرقى العصور .

رحمك الله يا عمر ، فمن مثلك ـ وأنت أمير المؤمنين ـ يرضى أن يرفع أمره إلى قاض يحكم له أو عليه ؟

وتتجلى عدالته فى محاسبته أهله على كل صغيرة وكبيرة ، وتطبيق الأحكام الإسلامية عليهم ، فقد جلد ابنه عبد الرحمن أمام الناس ؛ لأنه خالف الدين ، وارتكب ذنبا ينهى الإسلام عن ارتكابه ، جلده ثمانين جلدة ، فمات بسبب الجلد ، فكمل عليه العقوبة وهى مائة جلدة ، وهو ميت . ولم تأخذه رأفة فى دين الله . ونفذ العقوبة كما أمر الله . وهكذا

تـكون العدالة الإسلامية يا أمير المؤمنين ، وياخليفة المسلمين . ولو لم يكن فى تاريخ عمر سوى هـذا الحادث لـكفاه دليلا على الإنصاف والعـدالة ، ولـكان له شرفا باقيا ، ونخرا خالدا .

قال عمرو بن العاص : بينا أنا فى منزلى بمصر إذ أقبل عبد الرحمن بن عمر ، وأبو سروعة ، ودخـلا وهما خجلان ، فقالا : أقم علينـا الحـد ، فإنا أصبنا البارحة شرابا وسكرنا .

قال ابن العاص : فزجرتهما وطردتهما .

وقال عبد الرحمن بن عمر : إن لم تفعل خبرت والدى إذا قدمت عليه .

قال ابن العاص : فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد . ودخل عبد الرحمن فى الدار فحلق رأسه . وكانوا يحلقونه مع الحدود (العقوبات) ، ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان . حتى إذا جاءنى كتابه جاءنى فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عند عبد الله عمر إلى العاصى ابن العاص : عجبت لجرأتك علىّ ، وخلافك عهدى ، تضرب عبد الرحمن فى بيتك ، وتحلق رأسه فى بيتك ، وقد عرفت أن هذا يخالفنى . إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك ، تصنع به ماتصنع بغيره من المسلمين : ولـكن قلت هو ولد أمير المؤمنين . »

فـكتب إليه عمرو بن العاص يحلف بالله أنه يقيم الحدود فى صحن داره على المسلم ، وغير المسلم .

فعمر يطالب عمرو بن العاص بالمساواة فى معاملة الرعية ، ومعاملة ابنه كأى فرد من المسلمين . لا فرق ولا تمييز بينه وبين غيره . وهذا هو روح الإسلام . وهذه هى العدالة الإسلامية . (فالديمقراطية) فى الإسلام تنادى : الناس متساوون ، ولا فضل لأمير على خفير ، أو غنى على فقير إلا بالتقوى .

وقد كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري : « آسِ[1] بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ؛ حتى لا يطمعَ شريف فى حيفك[2] ، ولا ييأس ضعيف من عدلك. »

وقد قال فى وصية له : « الناس[3] عندك سواء . لا تبال على من وجب الحق . ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم . وإياك والمحاباة فيما ولاك الله . »

وقد شكا جندى من الجنود إلى عمر بن الخطاب أن أبا موسى الأشعرى قائده قد ضربه، وحلق شعره . فكتب عمر إلى أبى موسى القائد ما معناه : « إن كنت فعلت ذلك فى ملأ من الناس فاقعد له فى ملأ من الناس حتى يقتص منك . وإن كنت فعلت ذلك فى خلاء من الناس فاقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتص منك . »

فلما رجع الجندى برسالة عمر رجاه بعض القوم أن يعفو عن القائد رئيسه ، فأقسم الجندى ألا يتركه لأحد . ثم جلس أبو موسى الأشعرى ليقتص الجندى منه . فلما رآه الجندى جالسا بين يديه ليأخذ حقه منه رفع رأسه إلى السماء ، ثم قال : اللهم إنى قد عفوت عنه .

فروح الإسلام روح العدالة والنبل والعفو والمساواة .

وذات يوم وقف بباب عمر بن الخطاب رجال من المسلمين بينهم أبو سفيان بن حرب ، وهو أعرق قريش نسبا ، وأشدهم تعاظما ، وبلال الحبشى وهو رجل كان عبدا لأبى بكر وأعتقه لإسلامه ، وصهيب الرومى ، وهو رجل رومى دخل فى الإسلام وتقدم فيه ، وسلمان الفارسى ، وهو أعجمى اتخذ الإسلام دينا له ، وترك فيه مآثر .

وقد استأذنوا للدخول على عمر، فخرج الإذن لبلال، ثم لصهيب ، ثم لسلمان الفارسى، وأبو سفيان واقف . ثم أذن عمر لغيرهم ، ثم أذن لأبى سفيان فى النهاية .

فدخل أبو سفيان وهو غاضب من تقديمهم عليه فى الإذن ، فنهره عمر وزجره ، وقال له : تقدَّموك فى الإسلام ، فلا جَرَم[4] أن يتقدموك فى الإذن .

---

(١) سو بين المتقاضين . (٢) الحيف : الجور والظلم . (٣) أى اجعل الناس عندك متساوين .
(٤) هى فى الأصل بمعنى لابد .

وقال إياس بن سَلَمَة : مر عمر بن الخطاب فى السوق ، ومعه الدِّرة (السوط) ، فضربنى بها ضربة ، فأصاب طرف ثوبى ، وقال : ابتعد عن الطريق .

فلما كان فى العام المقبل لقينى ، فقال : يا سَلَمة ، أتريد الحج ؟

فقلت : نعم . فأخذ بيدى ، فذهب إلى منزله ، فأعطانى ستمائة درهم ، وقال : استعن بها على حجك . واعلم أنها بالضربة التى ضربتك .

قلت : يا أمير المؤمنين ، إنى لا أذكرها .

قال عمر : وأنا ما نسيتها .

فعمر — رضى الله عنه — كان خير مهذب ، يحاسب نفسه ، ويخاف الله ، ويحب النظام. ولم يتسلم من درته إلا قليل من كبار الصحابة .

وفى حكاية عمر مع المرأة التى كانت تعلل صبيانها الجياع بغلى الماء فى القدر صورة أخرى من صور (الديمقراطية) الإسلامية الراقية ؛ فقد كان يطوف فى ليلة من الليالى ، ومعه أسلم . فوجد امرأة قد نصبت قدرا على النار ، وحولها صبية يبكون .

فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء .

فقالت المرأة : وعليك .

فقال : أأدنو[1] ؟

فقالت : أدنُ بخير أودَع[2] .

فقال : ما بالكم ؟

قالت : قصَّرَ بنا الليلُ والبردُ .

قال : وما بال هؤلاء الصبية يصيحون ؟

قالت : الجوع .

قال : وأى شىء فى هذه القدر ؟

قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا . الله بيننا وبين عمر .

---

(١) أأقرب ؟ (٢) اذهب واترك .

قال : أى ، رَحمكِ الله . وما يُدرِى عمرَ بكم ؟

فقالت : يتولى أمورَنا ويغفلُ عنا .

قال أسلم : فأقبل علىَّ وقال : انطلق بنا .

فخرجنا نهرول[١] حتى أتينا دار الدقيق ، فأخرج عِدْلا (أى كيلاً) فيه دقيق وقطعة من الشحم . فقال احمله علىَّ .

فقلت : أنا أحمله عنك .

قال : احمله علىَّ ، مرتين أو ثلاثا .

وأنا أقول فى كل ذلك : أنا أحمله عنك يا أمير المؤمنين .

فقال فى آخر ذلك : أأنت تحمل عنى ذنبى يوم القيامة ؟

فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه نهرول ، حتى انتهينا إلى المرأة ، فألقى ذلك عندها ، وأخرج من الدقيق شيئا ، وجعل يقول : ذُرِّى علىَّ ، وأنا أُحَرِكُ لك . وجعل ينفخ تحت القدر ، حتى أنضجَ الطعام ، وقال للمرأة : أحضرى وعاء ، فأتته بقصعة فأفرغَ فيها الطعام ، ثم قال لها : أطعميهم وأنا أساعدُكِ . فلم يزل يفعل ذلك حتى شبعوا ، ثم ترك عندها البقية .

فقالت له المرأة : أنت أولَى بهذا الأمر من أمير المؤمنين .

فقال لها : قولى خيرا . إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجَدتِنى هناك إن شاء الله .

ولم يخرج حتى رأى الصبية يلعبون ويضحكون .

فقام وهو يحمد الله ، ورتب للمرأة شيئاً من أموال المسلمين .

إنه لايفعل ذلك إلا عظيم ذو نفس كبيرة ، هى نفس عمر العظيم . الذى أحبه الناس وخافوه ، أحبوه لعدله وتواضعه و (ديمقراطيته) ، وخافوه لقوته فى الحق .

---

(١) نسرع .

عدالة الإمام على كرم الله وجهه :

قال الإمام على كرم الله وجهه :

أحوج الرعية إلى الإنصاف الطبقةُ السفلَى وعامة الأمةِ .

عامةُ الأمةِ هم عمادُها وعُدتُها ، والخاصة أثقلُ مؤونة ، وأقلُّ معونة .

من ظلمَ عبادَ الله كان اللهُ خصمهُ دون عبادِه . وليس شيء أدعَى إلى تغيير نعمة اللهِ ، وتعجيلِ نقمتِه من إقامةٍ على ظلم ، فإن الله سميع دعوَة المضطَهدين ، وهو للظالمين بالمرصاد .

ولا يكونَنَّ [1] المحسنُ والمسيء عندك بمنزلة سواء ؛ فإن فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة ... ثم اللهَ اللهَ فى الطبقة السُّفلَى من الذين لا حيلةَ لهم من المساكين والمحتاجين ، وأهل البؤس والزَّمْنَى [2] ؛ فإن فى هذه الطبقة قانعا [3] ومُعترًا [4] ، واحفظ لله ما استحفظك [5] من حقه فيهم . واجعل لهم قسما من بيت مالك ، وقسما من غلاتِ صَوافِى الإسلام فى كل بلد .

قال كرم الله وجهه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فى غير موطن : « لن تُقدَّسَ أمَّةٌ لا يُؤخذُ للضعيفِ فيها حقُّه من القويِّ غيرَ مُتَتَعتِعٍ [6] . » أى غير خائف .

وقد كتب على كرم الله وجهه إلى أمرائه على الجيوش :

أما بعد ، فإن حقًّا على الوالى ألا يغيِّرَه على رعيته فضلٌ ناله ، ولا طَوْلٌ [7] خُصَّ به ، وأن يزيدَه ما قسم الله له من نعمه دُنوًّا من عباده ، وعطفاً على إخوانه . .. ألاَ وإن لكم عندى ألا أؤخرَ لكم حقا عن محله ، وأن تكونوا عندى فى الحق سواء . فإذا فعلت ذلك وجَبَت لله عليكم النعمة ، ولى عليكم الطاعة . »

---

(١) من عهده إلى مالك بن الحارث بن الأشتر النخعى . (٢) جمع زمين وهو المصاب بعاهة .

(٣) سائلا . (٤) متعرضاً للعطاء بلا سؤال . (٥) طلب منك حفظه .

(٦) التتعتع : التردد فى الكلام من عجز وعى .

(٧) الطَّوْلُ : الْمَنُّ والقوة .

فانظر كيف يعاملُ عليٌّ رعيته ، وكيف يعدل بينهم ، وينظر إليهم نظرة واحدة ، وكيف يمنحهم حقوقهم ، والكل عنده فى الحق سواء . فهل سمعتم عدلا كهذا العدل ، أو مساواة كهذه المساواة فى الإسلام ؟

وقد حدث أن عليا ــ كرم الله وجهه ــ تخاصم فى مجلس عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ مع رجل يهودى ، فقال عمر : اجلس يا أبا الحسن . فرأى عمر فى وجه سيدنا على شيئاً من الغضب .

فقال عمر : أكرهت أن يخاصمك رجل يهودى ؟

فقال على : لا يا أمير المؤمنين ، ولكنى كرهت تفضيلك لى على خصمى بأن كَنَّيتَنى . (أى قلت لى يا أبا الحسن [1]) .

فأنت ترى أن سيدنا عليا ــ كرم الله وجهه ــ يريد العدالة والمساواة حتى فى النداء بالاسم والكنية .

وقد كان عمر بن الخطاب يكره أشد الكره (الأرستقراطية) ، ويسخر من الامتيازات التى كان الأشراف من العرب يدعونها .

عدالة عمر بن العزيز :

بعد أن اختير عمر بن عبد العزيز خليفة للمسلمين ذهب يَتَبَوَّأ [2] مَقِيلاً [3] ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟

قال عمر : أى بنىَّ أَقِيلُ .

قال ابنه : تَقيل ولا ترد المظالم ؟

فقال عمر : أى بنى ، إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم .

---

(١) فى الكنية تعظيم عند العرب . والكنية : ما صدرت بأب أو أم. (٢) تبوأ منزلا : نزله .
(٣) مكانا ينام فيه عند الظهيرة . قال يقيل : نام وقت القيلولة وهى الظهيرة .

قال ابنه : يا أمير المؤمنين ، مَن لك أن تعيش إلى الظهر ؟

قال عمر : ادن منى ، أى بنى . فدنا منه ، فالتزمه ، وقبّـل بين عينيه . وقال : الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى . فخرجَ ولم يَقِلْ (لم يسترح) ، وأمر مناديه أن ينادى : ألاَ من كانت له مظلمة فليرفعها ، فجعل لا يدع شيئا مما كان فى يد سليمان بن عبد الملك وفى يد أهل بيته من المظالم إلا ردها مظلمة مظلمة .

وقد سار فى الناس بسيرة جده لأمه عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ولم يكتف عمر بإعادة ما كان فى يده من المظالم ، بل قيل إنه كان لا يأخذ من بيت المال شيئا ، ولا يجرى علىٰ نفسه من الفىء درهما . وكان ابن الخطاب يجعل لنفسه من ذلك درهمين فى اليوم . فقيل لعمر بن عبد العزيز : لو أخذت ما كان عمر بن الخطاب يأخذ . فقال : إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالى يغنينى .

وقيل إن عمر بن عبد العزيز جاءه رجل ذمى من أهل حمص ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله .

قال : وما ذاك ؟

قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى .

ــ وكان العباس جالسا ــ فقال له : يا عباس ما تقول ؟

قال : أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وكتب لى بها سجلا .

فقال : ما تقول يا ذمى ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتاب الله عز وجل .

فقال عمر : نعم ، كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، ياعباس اردد عليه ضيعته ، فردها عليه .

وكان للوليد بن عبد الملك ابن يقال له روح ، فأتى ناس من المسلمين إلى عمر بن عبد العزيز يخاصمون روحا فى حوانيت بحمص ــ كانت لهم ، وأقطعه إياها أبوه الوليد .

فقال له عمر : اردد عليهم حوانيتهم .

قال له روح : إنها لى بسجل الوليد .

قال عمر : مايغنى عنك سجل الوليد، الحوانيت حوانيتهم قد قامت لهم البينة عليها ، خل لهم حوانيتهم .

فقام روح والحمصى منصرفين ، فتوعد روح الحمصى ، فرجع إلى عمر فقال : هو والله يتوعدنى يا أمير المؤمنين .

فقال عمر لكعب بن حامد — وهو على حرسه — اخرج إلى روح يا كعب ، فإن سلم إليه حوانيته فذاك ، وإلا فأتنى برأسه .

فخرج بعض من سمع ذلك ممن يعنيه أمر روح ، فذكر له الذى أمر به عمر ، فخلع فؤاده ، وخرج إليه كعب ، وقد سل من السيف شبرا . فقال له : قم فخل له حوانيته .

قال روح : نعم نعم ، فخلى له حوانيته .

وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنبسة بن سعيد بن العاص —من البيت الأموى— بعشرين ألف دينار ، فدارت فى الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم ، فلم يبق إلا قبضها ، فتوفى سليمان قبل أن يقبضها . وكان عنبسة صديقا لعمر بن عبد العزيز ، فذهب يريد كلام عمر فيما أمر له به سليمان ، فدخل عنبسة عليه فقال له : ياأمير المؤمنين، إن أمير المؤمنين سليمان قد كان أمر لى بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبق إلا قبضها ، فتوفى على ذلك ، وأمير المؤمنين أولى باستتمام الصنيعة عندى ، وما بينى وبينه أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان .

فقال له عمر : كم ذلك ؟

قال : عشرون ألف دينار .

قال عمر : عشرون ألف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ! والله مالى إلى ذلك من سبيل .

ووفد عليه بريد (١) من بعض الآفاق ، فانتهى إلى بابه ليلا ، واستأذن عليه فأذن له ، ودعا بشمعة غليظة فأوقدت ، وجعل يسأله فيحفى (٢) السؤال عن حال أهل البلد ومن به من المسلمين ، وأهل العهد ، وكيف سيرة العامل ، وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار ، وأبناء السبيل والفقراء ، وهل أعطى كل ذى حق حقه ، وهل له شاك ؟

فأنبأه عن جميع ماسأل ، حتى إذا فرغ عمر من مسألته (٣) قال له : ياأمير المؤمنين ، كيف حالك فى نفسك وبدنك وكيف عيالك ؟ فنفخ عمر الشمعة ، فأطفأها بنفخته ، وقال : ياغلام علىَّ بسراج ، ثم قال له : سل عما أحببت ، فسأله ، فأخبره عن حاله وحال ولده وعياله وأهل بيته . فعجب البريد (الرسول) لإطفائه الشمعة ، وكلمه فى ذلك فقال : ياعبد الله ، إن الشمعة التى رأيتنى أطفأتها من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم ، فكانت تلك الشمعة تَقِد (٤) بين يدى فيما يصلحهم وهى لهم ، فلما صرت لشأنى وأمر عيالى ونفسى أطفأت نار المسلمين .

ومن أقوال عمر بن عبد العزيز فى إحدى خطبه : «وإنى قد استعملت عليكم رجالا ، لا أقول هم خِيارُكم ، ولكنهم خير ممن هم شَرٌّ منهم . ألاَ فمن ظلَمه عامله بمَظلِمَةٍ (٥) فلا إذنَ لَه عَلَىَّ » أى فله الحق أن يدخل على بغير استئذان ، ولا أحد يحول بينه وبين مقابلتى .

عدالة المأمون :-

وقد جلس المأمون يوماً للمظالم . وفى الوقت الذى هَمَّ فيه بالقيام تقدَّمت إليه امرأة

(١) رسول . (٢) يستقصى فى السؤال . (٣) سؤاله . (٤) تتقد .
(٥) بكسر اللام : الظلم .

عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة . فوقفت بين يديه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم .

فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمةَ الله . تكلَّمى فى حاجتك . فقالتْ :

ياخير منتصف يهدى له الرَّشَدُ[1] ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
تشكو إليك عميدَ القوم أرملةٌ عدا[2] عليها ، فلم يُتركْ لها سَبَدُ[3]
وابتزَّ منِّى ضِياعى بعـد منعتها ظلماً ، وفرّق منِّى الأهل والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

فى دون ما قلتِ زال الصبرُ والجلَدُ عنى ، وقرح منى القلبُ والكبدُ
هذا أذانُ صلاة العصر ، فانصرفى وأحضرى الخصم فى اليوم الذى أعِدُ
والمجلس السبتُ ، إن يقْضَ الجلوس لنا نُنْصِفْكِ منه ، وإلاَّ المجلس الأحد

فلما كان يوم الأحد جلس ، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة .

فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

فقال : وعليك السلام . أين الخصم ؟

فقالت : الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين ، وأشارت إلى العباس ابنه .

فقال : يا أحمد بن أبى خالد خذ بيده ، فأجلسه معها مجلس الخصوم ، فجعل كلامها يعلو كلام العباس .

فقال لها أحمد بن أبى خالد : يا أمة الله ، إنك بين يدى أمير المؤمنين ، وإنك تكلمين الأمير ، فاخفضى صوتك .

فقال المأمون : دعها يا أحمد ؛ فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها ، وإحسان معاملتها .

---

(١) الرشد والرشد : ضد الغى . (٢) ظلمها .
(٣) يقال ما له سبد ولا لسبد بفتح الباء فيهما أى قليل ولا كثير .

وعاقب العباس لظلمه لها . وأمر بأن يكتب لها إلى العامل ببلدها ليجعل لها ضيعتها من غير خراج ، ويحسن معاونتها ، وأمر لها بنفقة .

وهذا مثل من أمثلة (الديمقراطية) والمساواة والعدالة فى الإسلام .

وقال عمر بن عبد العزيز : إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه ، فلا تحكم له حتى يأتى خصمه ؛ فلعله قد فقئت عيناه جميعا .

على هذا النسق من العدالة بين المسلمين كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده ، لم تأخذهم فى الحق لومة لائم ، ولم يحابوا إنسانا ، ولم يرهبوا أحداً ، ولم يزدروا حقيرا ، ولم يظلموا مخلوقا .

وقد وصف المرحوم أحمد شوقى فى همزيته فى مدح الرسول روح الإسلام و(الديمقراطية) والعدالة والمساواة فى قصيدته ، فقال :

داء الجماعة من أرسطاليسَ لم	يوصَفْ له حتَّى أتيتَ دواءُ
فرسمتَ بعدَكَ للعباد حكومة	لا سوقةٌ فيها ولا أمراءُ
اللهُ فوقَ الخلقِ فيها وحده	والناسُ تحتَ لوائِها أكفاءُ
والدينُ يُسرٌ والخلافةُ بَيعةٌ	والأمرُ شورَى والحقوق قضاءُ
والبِرُّ عندك ذمةٌ وفريضةٌ	لا مِنَّةٌ ممنونةٌ وحِباءُ(١)
أنصفْتَ أهلَ الفقرِ من أهلِ الغِنَى	فالكلُّ فى حقِّ الحياةِ سواءُ
فلوَانَّ إنسانًا تخيَّرَ مِلَّةً	ما اختارَ إلا دينَكَ الفقراءُ

قال المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده فى كتابه : المسلمون والإسلام صفحة ١٤٦ : نداء إلى المسلمين :

« فيأيتها الأمة ، هذه حياتكم فاحفظوها ، ودماؤكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهقوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمن دون الموت . هذه هى روابطكم الدينية لا تغرنكم الوساوس ، ولا تستهوينكم الترهات(٢) ، ولا تدهشكم زخارف الباطل ،

---

(١) حباه : أعطاه . والحباء : العطاء . (٢) مفرده ترهة فارسى معرب ، ثم استعير فى الباطل .

ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بحبال الرابطة الدينية التى هى أحكم رابطة اجتمع فيها العربى بالتركى ، والفارسى بالهندى، والمصرى بالمغربى، وقامت لهم مقام رابطة النسب ، حتى إن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات[١] الدهر ، وإن تناءت[٢] دياره ، وتقاصت أقطاره » .

« هذه صلة من أمتن الصلات ساقها الله إليكم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم ، فلا توهنوها[٣] ... ولكن عليكم فى رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ؛ فالعدل أساس الكون ، وبه قوامه . ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره فى حفظ الذمم ، وتأدية الحقوق لأربابها ، وحسن المعاملة ، وإحكام الألفة فى المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم ، وجيرانكم من أرباب الأديان المختلفة .. فإن مصالحكم لاتقوم إلا بمصالحهم، كما لاتقوم مصالحهم إلا بمصالحكم. وعليكم ألا تجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة[٤] لانتهاك الحقوق، فإن دينكم ينهاكم عن ذلك ، ويوعدكم عليه بأشد العقاب . ولا تجعلوا عصبيتكم مقصورة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا[٥] بها على مباراة الأمم فى القوة والمنعة[٦] والشوكة والسلطان ، ومنافستهم فى اكتساب العلوم النافعة ، والفضائل والكمالات الإنسانية ، اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كلمتكم ، واجتماع شملكم ، وأخذ كل منكم بيد أخيه، ليرفعه من هوة[٧] النقص إلى ذُروة[٨] الكمال .

« وتَعاونوا عَلَى البِرِّ والتقوَى ، ولا تعَاونوا على الإثمِ والعُدوانِ » .

---

(١) نوائبه وعوائقه . (٢) تباعدت . (٣) لا تضعفوها .
(٤) وسيلة : تذرع بذريعة : توسل بوسيلة . (٥) تضافروا على الشىء : تعاونوا عليه .
(٦) القوة . (٧) أسفل . (٨) ذروة : بكسر الذال وضمها : أعلى ، ويجمع على ذرا .

الفصل العاشر

الإسلام دين المســـــاواة

المساواة شعار إسلامى :

إن المساواة شعار من أكبر الشعائر الإسلامية . فالإسلام لا يفرق بين شخص وآخر فى المعاملة والخضوع للقانون . وليس فى الإسلام فرد فوق القانون ، مهما تكن منزلته ودرجته من السمو والرفعة . والخليفة وأمير المؤمنين والوالى وكل فرد من المسلمين متساوون فى شئونهم المدنية والجنائية والقانونية . لايمتاز أحد منهم بحكم معين، ولا بطرق خاصة للمحاكمة ، بل جميعهم أمام القانون الإسلامى سواء .

فالإسلام لا يميز شخصاً عن آخر فى التمتع بالحقوق . وليس فى الإسلام امتيازات خاصة لأسرة معينة . وجميع المناصب والمراكز فى الدولة الإسلامية حق مشاع بين أفراد الأمة ، لا يحول بينهم وبينها نسب أو عصبية ، أو لون أو عنصرية . يؤيد هذا قول الرسول العادل العظيم :

« الناس سواسية كأسنان المُشْطِ . ولا فضلَ لعربى على عجمى إلاَّ بالتقوى . »

وقوله صلى الله عليه وسلم فى رواية أخرى :

« الناس سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأحمرَ على أسودَ ، ولا لعربى على عجمى . »
« ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » .

وقوله عليه الصلاة والسلام لبنى هاشم :

« يا بنى هاشم ، لا يجيئنى الناس بالأعمال ، وتجيئونى بالأنساب . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . »

وقد نادى الإسلام بحق المساواة بين الناس ، لأنهم مخلوقون من أصل واحد .

قال تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ، وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا ؛ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ [1] . »

وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرَقَت لقَطعَ محمد يَدَها . »

ولم تعترف أوروبة بحق المساواة إلا بعد الثورة الفرنسية .

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة والأحاديث السابقة أن الإسلام دين المساواة والأخوّة والإخاء ، دين ينادى بأن يحترم الناس بعضهم بعضا ، وتبنى معاملاتهم على المساواة ، ويكون التفاضل بينهم لا بالحسب والنسب ، والمال والجاه ، وإنما بالكمال الخلق ، والكمال العملى والعلمى .

وإن الصلة الدينية صلة وثيقة ، ورابطة متينة ، لا تقل فى وثاقتها عن رابطة الدم وصلة النسب . وإذ تقرر هذا ، فقد صار المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إخوة فى الدين ، فلا سيد ولا مسود ، ولا فاضل ولا مفضول ، إلا بالأخلاق الكريمة ، والأعمال الصالحة . فنظام الطوائف فى الإسلام مرفوض ، والتعالى على الناس مردود ، والتواضع منهم جميعاً مطلوب . فصلة المسلم بأخيه المسلم صلة أخوة ، والجميع متساوون ، ينتسبون إلى الأب الأول آدم ، والأم الأولى حواء ، يشتركون فى هذه النسبة على قدم المساواة .

وإذا كان آدم من تراب وهو أبوهم وأصلهم جميعا ـ فلا معنى للتعالى ، ولا مجال للتسامى . ومن المبادئ الإسلامية : ليس شعب خيرا من شعب ، ولا فرد خيرا من فرد إلا بطاعة الله وتقواه .

ولتقوية معنى الأخوّة فى النفوس ، وتقرير المساواة بين الناس قال صلى الله عليه وسلّم :

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

« المسلمون تتكافأ دماؤهم » ، أى تتساوى دماؤهم .

المساواة بين الأفراد فى الإسلام :

إن الإسلام دين المساواة ، دين العدالة ، دين لا يفضل فيه أحد على آخر إلا بالعمل الصالح والتقوى ، دين لا يميز جنسا من الأجناس ، أو طبقة من الطبقات ، أو سلالة من السلالات ، دين يدعو إلى المساواة بين الأفراد . وقد أرسل المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى الناس جميعا من غير تفرقة بينهم .

قال جل شأنه : « ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلا كافَّةً للنَّاسِ » .

وقد سمع رسول الله أبا ذر الغفارى يقول : « يا ابنَ السوداءِ » فغضب وقال : « طف الصاع[1] . طف الصاع . ليس لابنِ البيضاءِ عَلَى ابن السوداءِ فضلٌ إلا بالتَّقوى أو بعملٍ صالحٍ » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أيها الناسُ ، إنَّ اللهَ أَذهبَ عنكم نَخْوةَ[2] الجاهليةِ ، وفخرَها بالآباءِ . كلُّكم لآدمَ ، وآدمُ من تراب ، ليسَ لعربيٍّ عَلَى عجميٍّ فضلٌ إلا بالتَّقوى » .

أثر التقوى والعمل الصالح :

قال تعالى فى التقوى :

« وَمَن يتَّقِ اللهَ يجْعَل لَّهُ مَخْرجاً . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يحْتَسِبُ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ » [3] .

أى ومن يتق الله يجعل له مخرجا من كرب الدنيا والآخرة ، ويرزقه من حيث لا يخطر بباله . ومن يتوكل على الله فى أموره فهو كافيه .

« وَمَن يَتَّقِ اللهَ يجْعَل لَّهُ مِن أَمْرِهِ يُسْراً[4] » . فى الدنيا والآخرة .

---

(١) فى الحديث : « كلكم بنو آدم طف الطاع لم تملئوه » . وهو أن يقرب أن يمتلئ فلا يفعل .

(٢) النخوة : الكبر والعظمة والافتخار . (٣) سورة الطلاق : ٢–٣ . (٤) سورة الطلاق : ٤ .

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ[1] . »

« وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ . »

والمساواة ظاهرة فى صلاة الجماعة حيث يقف الفقير بجانب الغنى ، والخادم بجانب سيده فى صف واحد ، لا فضل لأحد على آخر . وقد يكون الفقير أو الخادم أعلى منزلة عند الله إذا كان صالحا تقيا . فنى الإسلام لا عبرة بنسب أو حسب ، ولكن العبرة بالعمل الصالح والتقوى .

فالإسلام دين مساواة فى جوهره وروحه . ولهذا وجهت دعوة الرسول إلى الناس جميعا ، فى الشرق والغرب .

ولكى تتحقق المساواة وتزول التفرقة العنصرية اختار الرسول العادل موالى وعبيدا رفعهم من الحضيض إلى أسمى المراكز ، منهم زيد بن ثابت ؛ فقد كان عبدا للرسول ، ثم أعتقه ، وجعله قائدا للجيش فى غزوة مؤتة .

الناس بأعمالهم لا بأحسابهم ، وهم عند الله سواء :

وفى الوصية الآتية التى وصَّى بها عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص حين جعله أميرا على حرب العراق نرى أن الإسلام يحكم على الناس بأعمالهم ، لا بأحسابهم وأنسابهم ؛ فإن السيئة لا تمحى بالسيئة ، ولكنها تمحى بالحسنة . وبالطاعة تكون الصلة بالله . والناس متساوون أمام الله ، فالله خالقهم وهم عباده . ولا فضل لشريفهم على وضيعهم إلا بالتقوى والعمل الصالح . وهذه وصية عمر الثمينة لسعد :

« يا سَعدُ سعدَ بنى وُهَيْب ، لَا يَغُرَّنَّكَ مِن الله أن قيل خالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحبُ رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيِّئ بالسيِّئ ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن . فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعتُه ؛ فالناس شريفُهم ووضيعُهم فى ذات الله سواء . الله ربهم ، وهم عباده . يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة .

(١) سورة الأعراف : ٩٦ .

فانظر الأمر الذى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم عليه منذ بُعِث إلى أن فارقنا فَالْزَمْه ، فإنه الأمر . هذه عظتى إياك ، إن تركتها ورغبت عنها حَبِطَ[1] عملك ، وكنتَ من الخاسرين[2] . »

وقال على كرم الله وجهه : الناس أبناء ما يحسنون . وقيمة كل امرئ ما يحسنه .

وقيل : المرء بنفسه لا بأبيه .

فالإنسان يحكم عليه بعمله وأثره لا بماله وجاهه ، ونسبه وأهله .

لا تفاوت بين الناس فى الإسلام إلا بالعمل الصالح والتقوى :

لقد قرر الإسلام أن الدين لله وحده ، وأنه لا سيادة لإنسان على أخيه الإنسان ، وأن الناس أمام الله سواسية ، لا يتفاوتون إلا بأعمالهم .

« فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ[3] . »

وفى الحديث الشريف : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حتَّى يُحِبَّ لأخيه ما يُحِبُّ لنَفْسِه . »

وقد سئل الرسول الكريم : أَىُّ الإسلام خَيْرٌ ؟

فقال : « تُطْعِمُ الطَّعامَ ، وتَقرَأُ السلامَ عَلَى مَن عَرفْتَ ومَن لم تَعرفْ . »

فالإسلام يدعو إلى الإخاء ، ومحبة الناس، والعطف على الفقراء ، وإطعام المحتاجين ، وقراءة السلام على الناس أجمعين .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول لمن معه : « لا تُطْرونِى[4] كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَريمَ ، إنما أَنا عبدُ اللهِ ، فقولوا عبد اللهِ ورَسولَه . »

لأنه لديمقراطيته وتواضعه ينهى عن مدحه وتعظيمه والثناء عليه ، ويقول : أنا عبد الله .

وذات يوم خرج الرسول متوكئاً على عصاً ، فقام له أصحابه ، فقال : « لا تقوموا كما تقومُ الأعاجمُ ، يُعظِّمُ بعضُهم بعضاً . »

---

(١) حبط عمله : بطل ثوابه . (٢) تاريخ الطبرى: ٤ صفحة ٨٤ ، والكامل لابن الأثير: ١ ص ٢٢٠ .
(٣) سورة الزلزلة : ٧ ، ٨ . (٤) لا تمدحونى . الإطراء : المدح .

ولهـذا كان أصحابه متمسكين بالروح (الديمقراطى) والمساواة ، محبين للتواضع ، محتقرين للتعاظم .

وكان صلى الله عليه وسلم يجلس حيث انتهى به المجلس ، ويختلط بأصحابه ، ويتكلم معهم ، ويداعب أبناءهم ، ويجلسهم فى حجره . ولا يرفض دعوة العبد والأمة والمسكين . وكان يزور المرضى، ويبدأ بمصافحة أصحابه، ويخدم نفسه وهو فى بيته، ويأكل مع الخادم . وهذا هو المثل السامى للديمقراطية الإسلامية .

وقد وافق الرسول العظيم على أن يحكم جماعةٌ من العجم العربَ ، فسلمان الفارسى كان من المقربين عند رسول الله ، وبازان الفارسى كان حاكما لليمن بموافقة الرسول . فالتفاوت بين الناس فى الإسلام كان بالأعمال الصالحة ، لا بالقبيلة والجاه ، والجنسية والعروبة وكثرة المال .

وكان صلى الله عليه وسلم مرة فى سفر مع جماعة ، فلما حان موعد الطعام ، عزموا على إعداد شاة يأكلونها ، فقال أحدهم : علىَّ ذبحها ، وقال الآخر : علىَّ سلخها ، وقال الثالث : علىَّ طبخها ، فقال الرسول : وعلىَّ جمعُ الحطب . فقالوا : يا رسول الله ، نحن نكفيك العمل ، فقال : « علمت أنكم تكفوننى ، ولكنى أكره أن أتميز عليكم . وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه مميزا بين أصحابه . » .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يراعى المساواة فى تقسيم ما فى بيت المال على الرعية من غير تفرقة بين الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والسابق فى الإسلام وغيره . وقد قيل له: قدِّم أهل السبق على قدر منازلهم .

فقال : إنما أسلموا لله ، فأجرهم على الله ، يوفِّيهم ذلك فى الآخرة .

وبهذا راعى أبو بكر الروح (الديمقراطى) فى حكمه ، منذ أربعة عشر قرنا تقريبا ، قبل أن يفكر فيه الاشتراكيون فى القرن العشرين .

وقد وجَّه عمر بن الخطاب سعدَ بن أبى وقاص لحرب العراق وقال له :

« ياسعد ، لا يَغُرَّنَّك [1] من الله أن قيل خالُ رسول الله ، وصاحب رسول الله .
فإن الله عز وجل لا يمحو [2] السيئ بالسيئ ، ولكنه يمحو السيئ بالحسَن . فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته . والناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء . الله ربهم . وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ماعنده بالطاعة » .

فما أجمل هذه النصيحة التى يدعو فيها عمر حاكم العراق إلى الإحسان ، وإطاعة الله ، والمساواة بين الناس فى المعاملة والحقوق ، من غير تفرقة بين شريف ووضيع ، وغنى وفقير ، وأبيض وأسود .

وقد خرج عمر ذات ليلة يطوف بنفسه ليرى أحوال الرعية ، حين يسكن الناس ، ويدلِفُون [3] إلى بيوتهم ، ويهجعون فى مضاجعهم ، فرأى فى بعض البيوت ضوء مصباح ، وسمع حديثا تنقله نسمات الهواء البارد ، فوقف على الباب يتسمع تسمع الراعى الذى يسعى إلى إرضاء الرعية ، وإشاعة العدل بين الناس ، وأخذهم بسلطان الدين ، فرأى عبداً أسود أمامه إناء مملوء بالشراب ، وهو يشرب ، ومعه جماعة من أصحابه يشاركونه فى الشراب ، فحاول الدخول من الباب ، ولكنه كان موصداً ، فتسور حائط البيت ، ونزل إلى فناء الدار ومعه السوط ، فلما رآه الجمع أسرعوا إلى فتح الباب ، وولّوا هاربين ، ولكن عمر أمسك بالعبد صاحب البيت .

فقال له العبد : يا أمير المؤمنين ، قد أخطأت فيما فعلت ، وإنى أتوب إلى الله ، ولن أعود إلى مثل مافعلت ، فاقبل توبتى .

فقال عمر : أريد أن أضربك جزاء على خطيئتك .

فقال العبد : يا أمير المؤمنين ، إن كنت قد أخطأت فى واحدة فقد أخطأت ياعمر فى ثلاث : فإن الله تعالى يقول : « وَلَا تَجَسَّسُوا » وأنت قد تجسست .

ويقول تعالى : « وَأْتُوا البُيوتَ منْ أَبوابها . » وأنت قد تسورت الحائط ، وأتيت من السطح .

---

(١) لا يخدعنك . (٢) لا يزيل . (٣) يذهبون إلى بيوتهم .

ويقول تعالى : « يأيُّها الذين آمَنوا لا تَدخُلوا بُيوتاً غيْرَ بُيوتِكم حتَّى تَسْتأْنِسُوا[١] وتُسَلِّمُوا عَلَى أهلها » . وأنت قد دخلت ولم تسلم . فهب هذه لتلك ، وأنا تائب إلى الله تعالى ، وعازم على ألا أعود .

فاستحسن عمر قوله ، وسأله أن يتوب فى إخلاص ، ثم عفا عنه . وفى هذه الحكاية تتجلى (ديمقراطية) عمر فى حديثه مع العبد ، واستحسان ما أبداه من الدفاع عن نفسه . ولما كانت التوبة عملا باطنيا فقد سأله عمر أن يخلص فيها .

مبدأ المساواة روح الإسلام :

لا يشك أحد فى أن المساواة روح الإسلام وجوهره . انظر إلى حادثة جَبَلة[٢] بن الأيهم ملك غسان ، والبدوى الفزارى الذى داس على إزاره . فقد أسلم جبَلة فى خلافة عمر بن الخطاب . وقد بَدَا لجبلة أن ينضوى[٣] إلى العرب ، أبناء قومه ، ويتخلى عن ملكه المهدد فى ظل الدولة البيزنطية الذى أوشك أن ينحسر من حوله .

فسر عمر بن الخطاب . وكتب إليه أن أقدم ، ولك ما لنا ، وعليك ما علينا : فقدم جَبَلة إلى الحجاز ، ومعه خمسمائة فارس ، عليهم ثياب الوشى المنسوج بالذهب والفضة . وكان فتحا للمسلمين بغير عناء .

وحضر جَبلةُ موسم الحج ، وخرج يطوف بالكعبة ، فداس على إزاره رجل من بنى فَزارة ، فلطم جَبَلَةُ الفزاريَّ على وجهه لطمة شديدة ، فهشم أنفه . وذهب الفزارى إلى عمر ليأخذ له حقه ممن اعتدى عليه .

فبعث الخليفة إلى المعتدى وهو جَبَلة ملك غسان ، فسأله . ما الذى دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أخاك فهشمت أنفه ؟

فاستمع الملك إلى السؤال وهو يعجب ، وقد خطر له أنه ترفق بالبدوى ، وأشفق

---

(١) حتى تستأذنوا . (٢) هو آخر ملك من ملوك بنى غسان ، وقد كانوا عرباً تابعين لدولة الروم .
(٣) أن ينضم .

عليه ، وقال : لولا حرمة البيت لقتلته .

قال عمر : إنك قد أقررت ، فإما أن ترضيه ، وإلا اقتصصت له منك . فدهش جبلة وقال : تقتص له منى ، تقتص له منى وأنا ملك ، وهو من السوقة ؟

قال عمر : إن الإسلام قد سوّى بينكما .

قال الملك : إنى رجوت أن أكون فى الإسلام أعزّ منى فى الجاهلية .

فما زاد عمر على أن قال : الإسلام قد سوى بينكما .

قال جبلة : إذن أتنصر .

قال عمر : إذن أضرب عنقك .

وتصاول قوم جبلة وبنو فَزارة ، وكادت تكون فتنة .

فقال جبلة : أجّلنى إلى غد .

فوافق عمر ، وأرجأ الأمر إلى غد .

وخرج جبلة من المدينة هارباً تحت سواد الليل . وفى الصباح ذهب إلى قيصر ملك الروم وارتد ، ثم ندم ، وقال هذه الأبيات :

تنصرت الأشراف من عـــار لطمة ... وما كان فيها ـ لو صبرتُ لها ـ ضرر

تكنفنى منها لَجاجٌ[1] ونخوة[2] ... فبعت بها العين الصحيحة[3] بالعور

فياليت أمى لم تـــلدنى ، وليتنى ... رجعت إلى الأمر الذى قاله عمر

وياليتنى أرعى المخاض[4] بقفرة ... وكنت أسيرا فى ربيعة أو مضر

وياليت لى بالشـــام أدنى معيشة ... أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

ولما تنصر جبلة ولحق بهرقل صاحب القسطنطينية ـ أقطعه هرقل الأموال والضِّياع[5] ، وبقى ما شاء الله .

(١) استمرار فى الخصومة . (٢) كبر وعظمة وافتخار . (٣) الإسلام .
(٤) الحوامل من النوق . (٥) جمع ضيعة ، وهى الأرض والنخل والكرْم .

هذه هى (الديمقراطية) الإسلامية ، وهذه هى المساواة فى الإسلام ؛ لأنه يسوى بين الملك والسوقة فى الجزاء والأحكام ، ويأخذ المظلوم حقه من الظالم .

الروح (الديمقراطى) والمساواة فى الإسلام :

وقد استمر الروح (الديمقراطى) فى الإسلام قويا حتى فى أشد الأيام التى كان الفرد حكما فيها ؛ فقد اختصم المأمون ـ وهو خليفة ـ مع رجل بين يدى يحيى بن أكثم القاضى ، ودخل المأمون إلى مجلس يحيى القاضى ، وخلفه خادم يحمل طِنَفِسَة[1] ليجلس عليها الخليفة المأمون ، فرفض القاضى يحيى ذلك ، وقال للمأمون : يا أمير المؤمنين ، لا تأخذ على صاحبك شرف المجلس دونه .

فاستحيا المأمون ، ودعا للرجل بطِنِفِسة مثله .

فانظر ما فعله القاضى مع الخليفة ، مع أنه قد كان فى استطاعة الخليفة أن يعزله ، ويبعده من القضاء . ومع هذا كله قد قام القاضى المسلم بواجبه خير قيام ، ولفت نظر المأمون وهو أمير المؤمنين إلى روح المساواة أمام القانون ، وأمام القضاء .

هذه هى (الديمقراطية) الحقة ، وهى روح الإسلام ، فى حين أن أوربة الحديثة قد جعلت الملوك فوق القانون ، وقالت إن ذواتهم لا تمس ، وجعلتهم فوق القانون .

وقد كانت (الديمقراطية) الإسلامية من أهم الأسباب التى ساعدت عمراً بن العاص فى فتح مصر ؛ فقد قيل إن المقوقس صاحب مصر أرسل إلى عمرو رسولا ، فخالط جيش المسلمين ، فلم يجد فيه سيدا ولا مسودا ، بل الكل سواسية ، فرجع وأخبر المقوقس بما رأى ، وما سمع . وكان المقوقس فطنا ذكيا ، عالما بأخلاق الأمم ، فنصح لقومه أن يصالحوا المسلمين ، فصالحوهم ، ودخل العرب مصر للمساواة والمبادئ التى بثها الإسلام فى قلوبهم .

---

(١) بكسرتين ، وفى لغة بفتحتين : وهى بساط له خمل رقيق ، والجمع طنافس .

ومما يدل على المساواة فى الإسلام أن الذمى[1] ، كان له ما للمسلم من الحقوق . ولكى ترى كيف كانت المساواة الحقة ، والعدالة المطلقة فى الإسلام أروى لك القصة الآتية :

لقد حدث أن أحد أعيان الفرس — وكان ذميا — كانت له ضيعة تلاصق أرضا يملكها حاكم مسلم كان واليا لعمر بن الخطاب ، فرأى هذا الحاكم أن يغتصب من هذا الدُّهقان[2] وهو الفارسى الغنى — ضيعته .

فشكا إليه الفارسى ذلك الاغتصاب ، فزجره الحاكم وأهانه .

فأشارت عليه زوجه أن يشكوه إلى عمر بن الخطاب ، ففعل ، وسافر إلى المدينة المنورة ، وسأل عن بيت عمر فأرشد إليه فذهب ، فوجد عمر العظيم جالسا على عباءة ممزقة .

فشكا إليه الذمىّ الفارسىّ ما لقيه من معاملة الحاكم ، واغتصابه أرضه . فطلب عمر صحيفة ، وكتب فيها رسالة موجزة ، وأراد خيطا ليلفها به ، فلم يجد ، فمزق قطعة من عباءته ، ولف بها الصحيفة ، وأعطاها الرجل ، فأخذها ، وسافر بها إلى بلده .

وقد أبدى أسفه إلى زوجه ؛ لأنه ذهب إلى رجل فقير لا يملك خيطا يربط به صحيفته ، ويجلس على عباءة قديمة ممزقة . فكيف يستطيع هذا الفقير أن يجبر الحاكم على تنفيذ أمره ، ورد الضيعة إلى صاحبها ؟

فقالت زوجه : وما عليك ؟ احمل الصحيفة إليه ، ثم انتظر النتيجة .

فحملها ، وسلمها إلى الحاكم . فلما فضَّها وفتحها ، وقرأها تصبَّب عرقا ، وقال للذمِّى : ماذا فعلت ؟ اذهب فى الحال ، وخذ ضيعتك .

وهنا يحدث الذمى الفارسى فيقول : قرأت الصحيفة ، فإذا فيها : « أنصف فلانا الدُّهقانَ من نفسك ، وإلا فأَقبل . والسلام » .

---

(١) الذمة : العهد ، والذمى : المعاهد ، نسبة إلى الذمة .

(٢) الدهقان بالكسر والضم : القوى على التصرف مع حدة ، والتاجر ، وزعيم فلاحى العجم ، وجمعه دهاقنة ودهاقين.

هذا روح الإسلام ، روح (الديمقراطية) ، التي لا نظير لها فى أى أمة من أمم العالم الحديث أو القديم .

وإن هذا الروح ، روح المساواة لا نجده الآن فى أرقى أمة من أمم العالم ، ولكننا نجده فى الإسلام ، فى شريعة محمد عليه الصلاة والسلام .

المساواة فى الحقوق المدنية والسياسية :

قال جل شأنه : « إنما المؤمنون إخوةٌ » . والإخوةُ فى الإسلام متضامنون متساوون فى الحقوق والواجبات . وقال عمر رضى الله عنه : « أمير المؤمنين أخو المؤمنين . فإن لم يكن أخا للمؤمنين فهو عدو للمؤمنين » .

فالإسلام قد كفل المساواة للأفراد فى الحقوق المدنية والسياسية . وجعل الخدم مساوين لمخدوميهم ، وطالب بحسن معاملتهم ، والعطف عليهم ، قال صلى الله عليه وسلم : « إخوانكم خدمكم » .

وهناك نصوص كثيرة من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية تقرر المساواة بين المسلمين ، وتجعلها شعارا من أعظم شعائر الإسلام ، ذكرناها فى فصلى الديمقراطية الإسلامية ، والعدالة فى الإسلام .

فالإسلام دين العدل والمساواة ، ولن يتحقق الوئام بين الناس إلا إذا أحسوا جميعا أنهم كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، فإن هذا يزيد من إقبال الفقير على الغنى ، وتعاون الضعيف مع القوى ، فتزول العداوة والبغضاء ، ويحل السلام والوئام محل النزاع والخصام ، وتطهر النفوس ، وتطمئن القلوب ، بفضل شريعة الإسلام .

الإنسانية الإسلامية فى معاملة الخدم

مثل واضح للمساواة

النبى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل ، وشريعته أكمل الشرائع ، اصطفاه الله تعالى وبعثه بها على حين بلغت الإنسانية نصيبا وافرا من السمو العقلى ، والرقى الفكرى ، فجاءت رسالته جامعة لكل ما ينفع الناس فى معاشهم ، ويضمن لهم السعادة فى معادهم .

والإسلام دين اجتماعى ، عنى بالجماعة ومقوماتها ، وحرص على تعاونها وتآزرها . يقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « ترى المؤمنين ـ فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم ـ كمثل الجسد ، إذا اشتكى عضو منه تداعَى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى » . كما اهتم بالفرد وصلاحيته ، وأنار له الطريق المستقيم فى سلوكه وأدبه . وما كان للإسلام ــ وتلك عنايته ببناء المجتمع المثالى ــ أن يهمل شأن طائفة من أهم طوائفه ، طائفة كادحة عاملة لا غنى لمجتمع عنها ، تلك هى طائفة الخدم ، بل التفت إليها ، وأولاها ما هى جديرة به من عطف ورعاية .

فالإسلام ــ كما نعهده ــ دين الإخاء والمساواة جميعا ، وقد طبق هذا القانون فى سماحة ورفق على الخدم ، فجعلهم إخوانا لنا ، إذ يحسون كما نحس ، ويتألمون كما نتألم ، ويفرحون كما نفرح ، لا فرق بيننا وبينهم إلا فى شىء من المال أو الجاه ، ولا قيمة لهما فى نظر الإسلام الذى يقدر المرء بعمله الصالح ، وخلقه القويم ؛ قال الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . فنظرة الإسلام إلى الخدم نظرة إنسانية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان .

والنبى صلى الله عليه وسلم ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه ليتمم مكارم الأخلاق ، كان المثل العالى ، والقدوة الكريمة فى معاملة الخدم والإحسان

إليهم – قدَّر فى المجتمع وضعهم ، ورفع الغبن والمهانة الواقعة عليهم ، وطبق عليهم نظرية الإسلام عملا واقعا ، فرفعهم إلى صفوف الناس ، ورد إليهم ثقتهم فى إنسانيتهم ، وحث على الرفق بهم ، وكرر الوصاة بحسن معاملتهم فى مناسبات شتى : فهو الذى يقول عليه صلوات الله وسلامه :

« لا يقُلْ أحدُكم عبدى وأمَتى [1] ، وليُقل فتاىَ وفتاتِى » ؛ جبراً لخاطرهم ، وتقديرا لشعورهم . ويقول عليه السلام :

« إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين ، فإنه وَلِىَ علاجَه » ؛ أى قام بتجهيز الطعام وإعداده ، وتعلقت نفسه به .

ويقول صلى الله عليه وسلم فى حديثه الجامع لآداب معاملة الخدم :

« إن إخوانكم خوَلُكم (أى إن الخدم الذين يخدمونكم ليسوا عبيدا ، ولكنهم إخوان لكم .) فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم . » أى ساعدوهم فى إنجازه .

ومن مظاهر رفق الرسول بالخدم أنه كان إذا ركب أركب خادمه وراءه على ظهر دابته . وما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم خادما بيده .

على أن غاية البر بالخدم تبدو فيما يرويه البخارى عن أنس بن مالك خادم الرسول إذ يقول : قالت أمى : يارسول الله ، خادمك أنس ادع الله له .

فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما أعطيته . »

فما أجمل تواضع الرسول ، وما أسمى أدبه.وما أجدره بقول الله تعالى فيه : « وإنك لَعلَى خلُقٍ عظيم . »

---

(١) الأَمَةُ : ضد الحرّة .

هكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم فى معاملة الخدم العطوف الرءوف ، وعلى هديه سار أصحابه وأتباعهم من بعده ، مقتفين أثره ، سالكين طريقه .

وإن من يبحث فى معاملة الإسلام للخدم ، يتحقق كل التحقق أن الإسلام يمثل الإنسانية التامة فى معاملتهم،والعطف عليهم ، والرأفة بهم ، والعناية بطعامهم وملابسهم. قال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: يارسول الله ، كم نعفو عن الخادم ؟

فصمت عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : « اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة . » ومعنى هذا : لا تضربه ، ولا تعنِّفه ، ولا تعذِّبْه ، ولا تَقْسُ فى معاملته ، بل عامله بكل شفقة ورحمة ، واعف عنه إذا أخطأ ، ولو وصل العفو إلى سبعين مرة .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أتى أحدَكم خادمُه بطعامه فلْيجلِسه ، وليأكلْ معه . فإن لم يفعل فليناوِله لُقمة . »

وقد رأى أبو هريرة رضى الله عنه رجلاً على دابته ، وغلامه يسعى خلفه ، فقال له: ياعبد الله ، احمله خلفَك ؛ فإنما هوأخوك ، روحه مثل روحك ، فحمله ، ثم قال : لا يزال العبد يزداد من الله بُعداً مامُشِيَ خلفه .

فالخادم فى نظر الإسلام أخ وإنسان ، يشعر كما يشعر الإنسان ، ويحس كما يحس الإنسان ، وله روح كروح مخدومه ، يتأثر كما يتأثر ، ويتعب كما يتعب .

وقيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمتَ الحلم ؟

قال : من قيس بن عاصم .

قيل : فما بلغ من حلمه ؟

قال : بينما هو جالس فى داره إذ أتته خادمة له بسَفُّود[1] عليه شِواء[2] .

---

(١) السَّفُّودُ : الحديدة التى يُشْوَى بها اللحم . (٢) لحم مشوىٌّ على النار .

فسقطَ السَّفُّودُ من يدها على ابن له ، فعَقَره (١) ، فمات . فدَهِشت (٢) الجارية ، وحارت فى أمرها ، فقال : ليس يُسكن رَوعَ (٣) هذه الجارية إلا العِتق (٤) . فقال لها : أنت حرة ، لا بأسَ عليك .

فلم يضربها ، ولم يعذبها ، ولم يقتلها ، بل جعلها حرة ، وعفا عنها ، بعد أن هدَّأ نفسها ، وطمأنها . وهذه هى إنسانية الإسلام .

ودخل على سلمان (الفارسى) رجل وهو يَعجن العجين ، فقال : يا أبا عبد الله ماهذا ؟ فأجاب سلمان : بَعثنا الخادم فى شغل ، فكرهنا أن نجمع عليه عملين .

وهذه هى الرأفة والرحمة فى معاملة الخدم ، فلم يرهقه سلمان بكثرة العمل .

وقال صلى الله عليه وسلم : « كلكم راعٍ ، وكلكم مسئول عن رعيتِه . »

فالمخدوم مسئول أمام الله عن خادمه ؛ لأنه أحد رعيته .

ونحن سلالة هؤلاء الهداة السابقين ، وحملة لواء هذا الدين ، فهل تحَلَّينا بهذا الأدب النبوى ، وأنزلنا الخدم المنزلة التى وضعهم فيها الرسول الكريم ، وعاملناهم كما عاملهم ، أو قريبا مما كان يعاملهم ؟ يميل بى الظن أن الجواب فى الكثير الغالب : لا . فقد ضيعنا هذا الأصل من أصول ديننا ، وتنكرنا لهذه الطائفة المعاونة لنا ، وعاملناهم كأنهم من جنس غير جنسنا ، أو من طينة تخالف طينتنا . ولا أحب الخوض فى تفاصيل ماتلقى تلك الطائفة على أيدينا ، مما يبرأ منه الدين ، وتتقزز له النفس ، ويندى الجبين ، وسنحاسب عليه الحساب العسير من يدى أحكم الحاكمين .

إن الخادم فى البلاد الغربية تأكل فى الوقت الذى تأكل فيه الأسرة ، ومن الطعام الذى أعدته ، ونصيبها منه كنصيب الابن أو البنت ، ولها الفوطة والشوكة والسكين

---

(١) عَقَرَهُ : جَرَحَهُ وحَرَقَه .

(٢) حارت فى أمرها ولم تدر ماذا تفعل .

(٣) فزع وخوف شديد .

(٤) جعلها حرة .

والملعقة كأى فرد فى البيت ، ولها حجرة خاصة بها ، فيها صوان للملابس ، وثان للكتب ، وشىء كثير من وسائل التسلية . فهى تقرأ — وقت فراغها — إذا شاءت ، وتسمع المذياع إذا أرادت ، وإذا طلب منها سيدها شيئا قال لها : من فضلك . فإذا ناولته إياه قال : أشكرك . إنها معاملة عنوانها سماحة وإنسانية ؟ وأساسها رفق وأخوّة . فانظروا إلى حالهم وحالنا ، ومعاملتهم للخدم ومعاملتنا ، تجدوهم ينهجون نهج ديننا الذى ضيعناه ، ويسلكون طريق سلفنا الذى أخطأناه ، فأى خزى لنا بعد هذا وأى عار ؟

ولنمل الآن إلى الناحية الثانية ، فنسأل طائفة الخدم : هل أدوا واجبهم كما ينبغى ؟ هل خدمونا فى أمانة وإخلاص ؟ هل أحسنوا تدبير أحوالنا ورياضة أطفالنا ؟ الجواب أيضاً فى الكثير الغالب : لا .

فكم من أسرة تأرق ليلها لخروج الخادم وعدم عودتها ، وكم من أسرار أذاعها الخدم وأفشوها ، وكم من بيوت سرقت وكان الخدم هم الممهدين لهذه السرقة ، وكم من حلى وملابس جمعتها الخادم حتى إذا ما أظلم الليل ، ونامت الأسرة تسللت خارجة بها ، وكم من نقود هى كل ذخيرة الأسرة اختلستها الخادم ، ناسية سابق العطف والحنان ، وكم من طفل جنى عليه إهمال المرضعة ، بل كم من سيدة أو سيد تآمر الخدم على قتله وحرمانه الحياة . . . إلى غير ذلك مما تغص به محاضر الشرط ، وما تطالعنا بأخباره الصحف كل صباح ومساء .

ماذا نقول ؟ أنقول تهربا من التبعة : إن الخدم أساءوا إلينا فأسأنا إليهم ، وإنهم نسوا واجباتنا فنسينا حقوقهم علينا ، وإساءة بإساءة ، وجحود بجحود ؟ لا ، إن الإسلام يأبى ذلك ولا يرضاه ؛ إذ هذه المعاملة هى الفوضى عينها ، وقد جاء الإسلام لمحاربتها . إن الإسلام هو الدين الذى حدد التبعة ، وحمل كل إنسان مايخصه منها ، وحاسبه على عمله ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ

عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئولٌ عن رعيته ، والرجل راعٍ فى أهلِهِ وهو مسئول عن رعيتِهِ ، والمرأةُ راعيةٌ فى بيتِ زوجِها وهى مسئولةٌ عن رعيتها ، والخادم راع فى مالِ سيدِهِ وهو مسئول عن رعيتِهِ . » فلنا تَبِعتنا ، وللخدم تَبِعتهم ، وعلى قدر التَّبِعَة تكون المثوبة أو العقوبة ، ولا شك أن مسئوليتنا أعظم ؛ لأننا — بالنسبة للخدم — أولياء أمورهم ، ولنا القوامة عليهم فى كثير من شئون حياتهم .

إن مشكلة الخدم مشكلة عامة وكلنا يقاسى مرارتها ، وربات البيوت لا يشكين إلا الخدم ومساويهن ، فلنأخذ للأمر عدته ، ولنحاول علاج هذا الداء واستئصاله من جذوره ، لعلنا نستريح ونريح . فعلينا أن نبادر — أولا — إلى إصلاح أنفسنا ، وإحياء مادرس من سنة نبينا ، فذلك خير لنا . أما إصلاح الخدم فإننا نضعه بين يدى وزارة العمل ، ترسم خططه ، وتتعهده وترعاه كما يروقها ، وما أمره عليها بعزيز ، متى خلصت النيات ، وقويت العزائم ، والله الموفق ، وهو المستعان .

الفصل الحادى عشر

التضامن[1] والتعاون فى الإسلام

التعاون على البر واجب إسلامى :

ومن أسس (الديمقراطية) فى الإسلام التضامن بين المسلمين ، والتعاون بالفكر والشعور والمال على أداء الحقوق والواجبات . فالتعاون واجب على كل مسلم ومسلمة .

قال الله تعالى : « وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ . »

فالله يأمر بالتعاون على البر وعمل الخير ، ومعاونة المعوزين والعاجزين والمساكين ، كما يأمر بالتعاون على التقوى والعمل الصالح ، وينهى عن التعاون على الإثم والشر والاعتداء .

وقال جل شأنه : « وَٱلْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ[2] إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ . »

فمن تمسك بالإيمان ، وفعل الخير ، والتزم الحق والصبر يحج فى حياته وعمله . ولن تهلك أمة يتواصى أفرادها بالإيمان ، ويتناهون عن الباطل . وكثيراً ما سقطت الأمم لأن أبناءها كانوا لا يجدون من يرشدهم إلى الطريق المستقيم ، وينهاهم عن الشرور التى يرتكبونها ، والآثام التى يقترفونها .

وقال عز وجل : وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[3] . »

فالله أمر بالدعوة إلى الإسلام وفعل الخير، من صدقة وإيثار وتعاون وترابط وتضامن، وأمر بالمعروف وهو ما استحسنه الشرع، كالتواصى بالحق، والرحمة، والإحسان، والصبر.

---

(١) ضمن الشىء بالكسر ضماناً : كفل به ، فهو ضامن وضمين . (٢) ضلال ، أو خسارة .

(٣) سورة آل عمران : ١٠٤ .

ونهى عن المنكر ، وهو : ما استقبحه الشرع ، كالظلم ، وعدم إخراج الزكاة ، وكالخيانة والغدر والكذب .

وقال عز من قائل : « وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ[1] ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ[2] . »

وقال : « وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ[3] . »

وقال مخاطباً أمة محمد : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ[4] . »

وقال تعالى : « وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ؟ فَكُّ رَقَبَةٍ[5] . أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ[6] . يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ[7] . أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ[8] . ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ[9] بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ .[10] »

وقال صلى الله عليه وسلم : « لَتَأْمُرُنَّ بالمعرُوفِ ، ولَتَنْهَوُنَّ عنِ المنكَرِ ، أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ عليْكُم شِرَارَكُم ، فيَدْعو خِيارُكُم فلاَ يُسْتَجابُ لهم . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ رأَى مِنْكُم مُنْكراً فلْيُغيِّرْهُ بيدِه ، فإنْ لمْ يَسْتَطِعْ فبِلسانه ، فإنْ لم يَستَطِعْ فبِقَلْبِه ، وذٰلك أَضعفُ الإيمَانِ . »

وقال عز وجل « لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ . كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ[11] عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ[12] . »

---

(١) دينه وهو الإسلام . (٢) سورة آل عمران : ١٠٣ . (٣) سورة آل عمران : ١٠٥ .
(٤) سورة آل عمران : ١١٠ . (٥) إعتاق رقيق وتحريره . (٦) مجاعة . (٧) قرابة .
(٨) فقيراً لصوقا بالتراب لفقره . (٩) أوصى بعضهم بعضا . (١٠) سورة البلد : ١٢ — ١٧
(١١) لا ينهى بعضهم بعضا . (١٢) سورة المائدة ٧٨ و ٧٩ .

وقال عزّ من قائل : « إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ[١] . »

وقال تعالى : « وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ[٢] وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ[٣] وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ[٤] وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ[٥] إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا[٦] . »

وقال عمر رضى الله عنه : « رحم الله امرأ أهدى إلينا عيوبنا » . فالناس بخير إذا اتبعوا أوامر الدين ، واجتنبوا نواهيه ، وتذاكروا وتشاوروا ، وتعاونوا وأوصى بعضهم بعضا بفعل الخير ، ونهى بعضهم بعضا عن فعل الشر .

التفكير فى شئون الرعية :

وقد كتب عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبى سفيان ذات يوم فقال : « إياك والاحتجاب[٧] دون الناس ، وائذن للضعيف وأدنه[٨] ، حتى يبسط لسانه ، ويجترئ[٩] قلبه . وتعهد الغريب ؛ فإنه إذا طال حبسه ضعف قلبه ، وترك حقه » .

ففى هذه الرسالة الحكيمة نرى أن عمر كان يفكر فى شئون الرعية ليلا ونهاراً ، ويحذر معاوية من البعد عن الناس ، ويحثه على الاتصال بهم ، ومعرفة أحوالهم ، ويأمره أن يأذن للضعفاء بالقرب منه ، ويسمح بلقائهم ؛ حتى يشرحوا له شئونهم وأحوالهم ، وتتشجع قلوبهم، ولا يخافوا أحدا إلا الله . وقد كلفه أن يتعهد الغرباء عن الأهل والوطن ، ويحافظ عليهم ويكرمهم،فإنه إذا طال حبسهم وعزلتهم ضعفت قلوبهم،وتركوا حقوقهم، ولم يطالبوا بها . وليس هذا من العدالة فى الإسلام .

حقا لقد كان المسلمون سعداء بعمر ؛ فكان أبا رحيما لهم ، وحوله رجال يعاونونه

(١) سورة النحل : ٩٠ . (٢) القريب منك فى الجوار أو النسب (٣) الجار البعيد عنك فى الجوار أو النسب. (٤) الرفيق فى سفر أو عمل، وقيل : الزوجة. (٥) من الأرقاء . (٦) سورة النساء : ٣٦ .
(٧) البعد عن الناس . (٨) قربه منك . (٩) يتشجع .

ويساعدونه ، وكان أبا للعيال والصغار ، حتى يرجع إليهم آباؤهم من السفر أو الحرب .

قال عليه الصلاة والسلام: « كُلُّكُم راعٍ وكُلُّكُم مَسْئولٌ عَن رَعيَّتِه : الإمام راعٍ وهوَ مسئولٌ عن رَعيَّتِه ، والرَّجلُ راعٍ فى أهلِه ومَسئولٌ عنْ رعيته ، والمرْأةُ راعيةٌ فى بَيتِ زَوْجِهَا ومَسئولةٌ عنْ رعيتِها ، والوَلدُ راعٍ فى مالِ أبيهِ ومَسئولٌ عن رعيته ، والخادمُ راعٍ ن مالِ سيِّدِه ومَسئولٌ عنْ رعيتِه ، وكلُّكُم راعٍ ، وكلُّكم مَسئولٌ عنْ رعيته . »

فكل فرد فى المجتمع مسئول عن العمل الذى يقوم به ، وعن إجادته والنهوض به . ولكل فرد منا حقوق يجب أن يناها ، وواجبات يجب أن يعمل على تنفيذها بكل أمانة وإخلاص .

التضامن الاجتماعى روح الإسلام :

وإن (الديمقراطية) الإسلامية تتمثل فى المساواة والتعاون والتضامن الاجتماعى ، والعدالة الاجتماعية ، وهى روح الإسلام .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناسُ سوَاسِيةٌ كأسْنانِ المُشطِ . وَلا فَضْلَ لعَربِيّ عَلَى عَجَمِيّ إلا بالتَّقوى . »

وقال : « أنَا أوْلَى بالمؤمنينَ منْ أنفُسِهِمْ ، فمنْ توفِّىَ من المؤمنين فترَكَ دَيْناً فعلىَّ قَضاؤُهُ . ومَن ترَكَ مالاً فهوَ لوَرثته . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « مَن وَلِىَ لنَا عملاً وليسَ له منزلٌ ، فَلْيَتَّخِذْ منزلاً ، أو ليستْ له زَوْجةٌ فليتزَوَّجْ ، أوْ ليس له خادمٌ فليتَّخِذْ خادماً ، أوْ ليست له دابَّةٌ فليتَّخذْ دابَّةً . »

وقال عمر بن الخطاب : « واللهِ ما أحدٌ أحق بمالِ الدولةِ منْ أحدٍ . ومَا أنا أحقُّ به من أحدٍ . واللهِ ما منْ أحدٍ من الناسِ إلاَّ وله فى هذا المالِ نصيبٌ . فالرَّجلُ

وبلاؤه[١] ، والرجل وقدمه[٢] . والرجلُ وحاجته . »

وفى اعتقادى أن هذا هو التضامن والتعاون ، وهذه هى الاشتراكية الإسلامية .

الأُخوَّة الحقة تتطلب التضامن فى الحياة :

قال جل شأنه : « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ، فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ . »

وإن الأُخوَّة الحقة تستلزم المساواة ، والعدالة فى المعاملة ، والتضامن فى الحياة ، والتعاون للتغلب على ما يعترض المسلم من الصعوبات .

وقال عليه الصلاة والسلام : « الناسُ شركاء فى ثلاثٍ : الماءِ والكلأ والنار . »

فلا يجوز أن يحتكرها أحد من المحتكرين الجشعين أو المستغلين . وفى هذا روح الاشتراكية .

وقال : « لا يَحتكرُ إلا خاطئٌ . »

وفى احتكار التجار للسلع الاستهلاكية ضرر محقق للطبقات الفقيرة .

والرسول الكريم يقول : « لا ضررَ ولا ضِرارَ . »

وقال أبو ذر الغفارى — وهو من دعاة الاشتراكية فى الإسلام — : « عجبت لمن لا يجد القوتَ فى بيتِه كيف لا يخرُج على الناس شاهراً سيفه . »

لهذا أمر الله بالزكاة ، وجعلها من قواعد الإسلام ، وحث على الصدقة . والزكاة : ما يخرجه الإنسان من ماله وهى واجبة . والصدقة : ما يتطوع به الإنسان من المال .

وهناك كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى الحث على الزكاة والصدقة[٣] .

قال تعالى : « وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ[٤] . »

وقال : « ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ[٥] . »

---

(١) عمله . (٢) خبرته . (٣) سنذكر كثيراً من الآيات والأحاديث الخاصة بالزكاة والصدقة فى الموضوع التالى وهو : «التكافل الاجتماعى فى الإسلام» . (٤) سورة الذاريات : ١٩ . والمحروم هو الذى لا يسأل لتعففه مع شدة حاجته وفقره . (٥) سورة الحديد : ٧ .

أى داوموا على الإيمان بالله ورسوله ، وأنفقوا فى سبيل الله من مال من تقدمكم ، وسيخلفكم فيه من بعدكم . فالذين آمنوا وتصدقوا — كعثمان رضى الله عنه فى غزوة العسرة وهى غزوة تبوك — لهم أجر كبير .

وقال عز وجل : « يَسْئَلُونَكَ (١) مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ . »

وقال عز من قائل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا (٢) مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ (٣) وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا (٤) الْخَبِيثَ (٥) مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ (٦) إِلَّا أَن تُغْمِضُوا (٧) فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ (٨) حَمِيدٌ (٩) . »

وقال جل شأنه : « الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٠) . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما آمَن بى مَنْ باتَ شبعانَ وجارُه جائعٌ . »

وفى هذا كله حث للقادرين من الأغنياء على الزكاة والتصدق والإعطاء من أحسن الأشياء التى يملكونها ، ليلا ونهارا ، وتشجيع على البر بالوالدين والأقربين ، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل والمحتاجين . وما أجمل عطف الرسول وشفقته ورأفته بالفقراء فى حديثه الخالد السابق : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع . » فهل أغنياؤنا مؤمنون حقا بمبادئ الإسلام وروحه ؟ إنهم يعيشون لأنفسهم ، ولا يفكرون إلا فى أنفسهم . وإذا رأوا فقيرا طردوه شر طردة . ولا يحسون بجار جائع ، أو فقير مريض ، أو شيخ عاجز عن الكسب . ولا أبعد عن الحقيقة إذا قلت إن ما يتبقى من موائد الأغنياء والأمراء فى الحفلات يلقى فى التراب ، ويغطى فوقه بالتراب ، حتى

(١) يا محمد ، والمراد بالإنفاق هنا الصدقة . (سورة البقرة : ٢١٥) . (٢) زكوا (٣) من المال .
(٤) تقصدوا . (٥) الردىء من الحبوب والثمار . (٦) أى الردىء لو أعطيتموه فى حقوقكم .
(٧) بالتساهل وغض البصر . (٨) عن نفقاتكم . (٩) سورة البقرة : ٢٦٧ .
(١٠) سورة البقرة : ٢٧٤ .

لا يذوقه أحد من الفقراء والمساكين ، ولا يراه أحد من الجياع والمحرومين ؛ خوفا من حقدهم واحتجاجهم . فهل هم مسلمون حقًّا ؟ إن الإسلام بريء منهم . وسيحاسبهم الله حساباً عسيراً .

وفى الحث على الصدقة والبر والصلة :

قال تعالى : « فَـَٔاتِ(١) ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ، وَٱلْمِسْكِينَ(٢) ، وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ(٣) ، ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ(٤) وَجْهَ ٱللَّهِ ، وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ(٥) . » .

---

(١) فأعط ذا القرابة حقه من البر والصلة .
(٢) المحتاج الذى لا يسأل أحداً .
(٣) المسافر المحتاج لبعده عن أهله ، وقد نفد ماله .
(٤) يخلصون النية لله فى الإنفاق .
(٥) الفائزون ــ سورة الروم : ٣٨ .

الوحدة قوة دونهـــا كل قوة
والإسلام يدعو إلى الوحدة والاتحاد

كان العرب أقوياء ، يضرب بهم المثل فى الشجاعة والبطولة والمروءة والكرم ، وكانوا يعيشون فى وطن عربى واحد من المحيط إلى الخليج، ولكن الاستعمار فرق بينهم، وجعلهم دويلات صغيرة ، وفرق بينهم ؛ كى يستطيع أن يتحكم فيهم ، متبعاً طريقته فى التفرقة بين أبناء الأمة العربية الكبيرة : « فرق تسد[1] » . فتفرق العرب بعد أن كانوا متحدين ، فضعفوا بعد أن كانوا أقوياء ، واستكانوا وخضعوا للمستعمر عشرات السنين ، وتحكم الأجنبي فيهم بعد أن كانوا أحرارا . ولو تمسكوا بدينهم ـ الذى يدعو إلى الوحدة والاتحاد والتعاون والتضامن ـ ما استطاع الاستعمار أن يحكمهم ، ويسيطر عليهم ، ويحتل بلادهم بحجج واهية ، وأسباب مختلقة ، ويستولى على ثرواتها ، ويستغل خيراتها ، وينهب محصولاتها ، ويقضى على صناعاتها ، وينشر الجهل والفقر والمرض والفساد والإلحاد فيها .

كانت الأمة العربية أسرة واحدة ، ومصالحها الاقتصادية والسياسية واحدة ، قوية البنيان ، إذا تألم منها فرد تألم له جميع الأفراد فى الأمة . وكانت ذات مدنية عريقة ، وحضارة قديمة ، وتاريخ عريق ، ولكن التنازع على الملك والعرش ، وحب الحكم والسلطان ، قد أديا إلى الضعف والخلاف فاحتلها العثمانيون والفرنسيون والإنجليز وقضوا على وحدتها ، وأضعفوا جيوشها ، وأغلقوا مصانع الأسلحة فيها ، وجمعوا الأسلحة منها، وأوجدوا بينها حدودا مصطنعة ؛ كى يسهل احتلالها ، والتحكم فيها ، والسيطرة عليها .

وبعد جهاد طويل مرير ، وسجن وتعذيب ، ونفى وتشريد ، وقتل للأحرار استطاع العرب بجيوشهم المخلصة ، وشعوبهم المؤمنة بالحرية ، أن يحرروا بلادهم ، ويعيدوا مجدهم القديم ، وعظمتهم التليدة .

---

(1) Divide and rule.

وقد كانت الوحـــدة حلما وخيالاً فى نظر الاحتـلال ، فصارت حقيقه بين مصر والعراق . وقد كان الاستعمار يعتقد أن الوحدة بين العرب أمر خيالى بعيد المنال ، ولـكننا قد أثبتنا أن الخيـال أصبح أمرا واقعيا ملموسا . وإن اجتماع الملوك والرؤساء من العرب فى مؤتمر القمة العربى بالقاهرة إجابة لدعوة قائد العروبة وبطل الأبطال الرئيس جمـال عبد الناصر فى ٢٩ من شعبان سنة ١٣٨٣ هـ ، و ١٣ من يناير ١٩٦٤ م ـ لأكبر دليـل على أنه سيأتى يوم ـ وما ذلك اليوم ببعيد ـ تتحد فيه جميع الشعوب والحـكومات العربية ، ويتـكون منها شعب عربى واحد ، وأمة عربية واحدة ، فى وطن عربى واحد ، هو الوطن العربى الـكبير من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى .

إن الوحدة قوة دونها كل قوة ، ولـكنْ هناك حكام يسيرون وراء الاستعمار ، ويخافون على عروشهم المنهارة ، ويحاربون الوحدة والحرية ، والاستقلال والعدالة الاجتماعية؛ لأنهم يعملون لأنفسهم ، وللاستعمار الذى يحميهم . ولولا الاستعمار لقضت عليهم الشعوب فى طرفة عين .

وسيأتى يوم ـ وما ذلك اليوم ببعيد ـ يزول فيـه الطغيان والاستعباد والاستعمار بجميع أنواعه ، وتتحرر فيه هذه الشعوب ، وتعود إلى وطنها العربى الـكبير المتحرر ، وتسير فيه مع شقيقتها فى الجمهورية العربية المتحدة .

ومن أجل مصلحة العرب والإسلام ، والأمة العربية الـكبرى يجب أن ينسى الحـكام مصالحهم الخاصة ، ويفـكروا فى المصلحة العامة ، وهى مصلحة المجتمع العربى كله حتى يكون العرب جميعا كرجل واحد ، إذا تألم منه عضو تألمت له بقية الأعضاء .

قال الله تعالى : « وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا [١] . »

وقال جل شأنه : « وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ [٢] . » أى قوتـكم وصَوْلتـكم .

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ . (٢) سورة الأنفال : ٤٦ .

فنحن نريد أن يحتفظ كل عربى بدينه ، ويفكر فى وطنه ، ونكوّن وحدة عربية شاملة تضم العرب جميعهم فى الوطن العربى الكبير .

يقول الرسول الكريم : « المؤمنُ للمؤمنِ كالْبنْيانِ يَشُدُّ بَعْضُه بعضاً . »

فبالتعاون والتضامن والوحدة بين الشعوب العربية كلها نستطيع أن نعيد مجد آبائنا وأجدادنا من العرب .

وقد أمر الإسلام بالوحدة والاتحاد والابتعاد عن النزاع والخلاف والافتراق ، قال صلى الله عليه وسلم : « الجماعة رحمة، والفرقة عذاب .» وقال : «من فرق فليس منا . »

وقال : « يدُ اللهِ معَ الجماعةِ . وإنما يأْكلُ الذِّئبُ من الغنمِ القاصية . »

ويد الله أى نعمته وبركته على أبناء الأمة المتحدة ، إذا كانوا متحدين، متضامنين، متعاونين ، لا تفرق بينهم ، ولا اختلاف ، ولا تنازع . وإن من يشذ عن الجماعة يصير كالشاة البعيدة عن القطيع ، لا تلبث أن يفترسها الذئب . ولولا الفرقة بين العرب ما استطاع الاستعمار أن يسيطر عليهم ، ويتحكم فيهم . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » .

وإن من يدرس تاريخ الأمم القديمة والحديثة يرى أن الاختلاف والتنازع وتفرق الكلمةمن أهم أسباب سقوطها ، وتدخل الأجنبى والمستعمر فى شئونها . فلنتعظ نحن العرب بمن سبقنا .

وقال المسيح عليه السلام فى الآية الخامسة والعشرين من الإصحاح الثانى عشر من متّى : « كل مملكة منقسمة على نفسها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اثنان خيرٌ من واحد ، وثلاثةٌ خيرٌ من اثنين ، وأربعةٌ خيرٌ من ثلاثة ، فعَليكم بالجماعة ؛ فإن اللهَ لن يجمعَ أُمّتنا إلا عَلَى هُدًى . »

ومعنى هذا أن نأخذ برأى الأغلبية والأكثرية فى الأمور التى يحدث الخلاف فيها . وهذه هى (الديمقراطية) الإسلامية ، وهذا هو روح الشورى والمشاورة ، روح الإسلام .

وقد يحدث أن يكون الإنسان ثاقب الفكر ، بعيد النظر ، طاهر القلب ، ويرى الحق والصواب فى جانب الأقلية ، فلا لوم عليه إذا انضم إليها ، ودافع بقوته عن رأيه ، حتى يتميز الحق من الباطل ، والصواب من الخطأ .

فالشعوب العربية تدين بالوحدة ، وتنادى بالوحدة ، وواجبنا نحن العرب أن نفكر فى مصلحة الوطن العربى الكبير ، وننسى أنفسنا ومصالحنا الخاصة ، حتى نكون كالبنيان القوى المتماسك يشد بعضه بعضا . واجبنا أن نعمل للوحدة الشاملة ، والاتحاد التام . فمحال أن نصل إلى تحرير العرب جميعا فى أفريقية وآسيا إلا إذا ائتلفنا وأخلصنا للعروبة ، واتحدنا فى الروح والمبادئ والعمل .

الوحدة بين المسلمين :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تَرَى المؤمنينَ فى تَرَاحُمِهِمْ وتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِم كَمَثَلِ الجسَدِ ، إذا اشتَكَى عضوٌ تَدَاعَى له سائرُ جسَدِهِ بالسهَرِ والحُمَّى . »

يقال : تراحم المؤمنون أى رحم بعضهم بعضا . والتواد : التواصل الذى يؤدى إلى المحبة ، كأن يزور بعضهم بعضا . والتعاطف : أن يعطف الغنى منهم على الفقير ، ويعين القوى الضعيف . وتداعوا : دعا بعضهم بعضا . وسائر : باق . والحمى : الحرارة المرتفعة .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يمثل المسلمين فى تلك الصفات الثلاث ، وهى : التراحم والتواد والتعاطف — بالجسم الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تألم له باقى الأعضاء ، وسرت إليه حرارة الحمى ، فآلمته ، فلم يستطع النوم من شدة الآلام .

ومعنى هذا أن المؤمنين يجب أن يتحدوا ، ويكونوا كفرد واحد ، فإذا تألم أحدهم

شاركوه شعوره وآلامه، وعاونوه على إزالة تلك الآلام والتخلص منها ، وإذا منح أحدهم خيراً فرحوا لفرحه ، وسروا لما ناله من الخير .

فالرسول الكريم ينادى بالوحدة والاتحاد والتراحم والتواد والتعاطف بين المسلمين ، بحيث يكونون يداً واحدة ، متعاونين متحدين ، متضامنين ، حتى يقضوا بوحدتهم على العدو المشترك ، وهو الاستعمار .

وبالمثل يجب أن يتحد العرب ، ويكونوا وحدة شاملة ، مهما يكن الدين الذى يتدينون به ، حتى يتخلصوا من الاحتلال والطغيان ، والحكم الأجنبى، وينتفعوا بخيرات أوطانهم وبلادهم ، ويعيدوا مجد آبائهم وأجدادهم .

يقول المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى كتابه : « المسلمون والإسلام[1] » عن الوحدة الإسلامية :

« وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ[2] . »

وقد وصف فى هذا الفصل ماضى المسلمين العظيم وحاضرهم المؤلم ، وقال يحثهم على الوحدة والاتحاد : « أيا بقية الرجال ، ويا خلف الأبطال ، ويانسل الأقيال[3] .. هل ولى بكم الزمان ؟ هل مضى وقت التدارك ؟ هل آن أوان اليأس ؟ . . لا . . لا ، معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم . . . إن من أدرنه[4] إلى بيشاور دولا إسلامية متصلة الأراضى، متحدة العقيدة ، يجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليونا . وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة ، أليس لهم أن يتفقوا على الدفاع والإقدام كما اتفق عليه سائر الأمم . . ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم . فالاتفاق من أصول دينهم . . هل

(١) تقديم وتحقيق المرحوم الأستاذ طاهر الطناحى من السلسلة الثقافية لدار الهلال . (٢) سورة الأنفال : ٤٦ .

(٣) قد وردت فى الكتاب « ويانسل الأفيال » جمع فيل ، والصواب : الأقيال ، جمع قَيل بالفتح وهو الملك ، أو هو دون الملك الأعلى ، وأصله قَيِّل كفَيْعل .

(٤) أدرنه : بلد فى شمال تركيا فى حدود بلغاريا ، وبيشاور : بلدة فى أقصى المغرب العربى .

أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بحاجات بعضهم البعض ؟ أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله فى قوله : « إنما المؤمنون إخوة . » فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب ؟ هل آن الاتفاق ؟ . . هل آن الاتفاق ؟ [1]

ألا إن الزمان يواتيكم بالفرص وهى لكم غنائم ، فلا تفرطوا ... إن البكاء لا يحيى الميت ، إن الأسف لا يرد الفائت ، إن الحزن لا يدفع المصيبة .. إن العمل مفتاح النجاح، إن الصدق والإخلاص سلم الفلاح ، إن الوجل يقرب الأجل ، إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف .

« وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ، فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [2] »

ألا لا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين ، احذروا أن تقعوا تحت قول الله :

« رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ، وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ [3] . »

إن القرآن حى لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب من مقته فهو ممقوت ، كتاب الله لم ينسخ فارجعوا إليه ، وحكموه فى أحوالكم وطباعكم .

« وماَ اللهُ بِغافلٍ عمَّا تَعمَلُون . »

ولعل حكام المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين ، وهموا بملافاة أمرهم ، قبل أن يقضى عليهم ، بما رزئ به المفرطون من قبلهم .

---

(١) « يزيد عدد المسلمين الآن فى هذه المنطقة على مائة مليون . وإذا أضفنا إليه عددهم فى الهند والصين وأندونيسيا وباكستان وغيرها ، فإن عدد المسلمين يكون نحو ستمائة مليون . »

(٢) سورة التوبة : ١٠٥ (٣) سورة التوبة : ٨٧

ورجاؤنا أن أول صيحة تبعث إلى الوحدة ، وتوقظ من الرقدة ، تصدر عن أعلاهم مرتبة ، وأقواهم شوكة ، ولا نرتاب فى أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى فى هذا العمل الشريف ، والله يهدى من يشاء ، ولله الأمر من قبل ومن بعد . »

هذا ماقاله الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده فى الحث على الوحدة الإسلامية ، وهو يفيض غيرة وحماسا وقوة . وأرجو أن يأتى اليوم الذى نرى فيه المسلمين فى جميع أنحاء العالم كما كانوا فى صدر الإسلام فى وحدتهم وقوتهم وإيمانهم وتعاونهم وتضامنهم .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ترَى المؤمِنِين فى ترَاحُمِهِمْ وتوَادِّهِم وتعَاطُفِهِم كمثَلِ الجسَدِ ، إذا اشتكَى عضوٌ ، تَداعَى له سائرُ جسَدِهِ بالسَّهَرِ والْحمَّى . »

وفى هذا الحديث الشريف دعوة للمؤمنين إلى الوحدة بحيث يرحم بعضهم بعضا ، ويود كل منهم الآخر ، ويعطف بعضهم على بعض ، ويكونون كجسد واحد ، إذا تألم منه عضو شاركته بقية الأعضاء فى ألمه ، وسعت فى إزالة ذلك الألم ، وجلب المنفعة والراحة له .

وقال عليه الصلاة والسلام : « لا تقَاطَعوا ولا تَدابَرُوا ولا تحَاسَدُوا ، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً . »

وللحث على الوحدة بين المسلمين أمر الله بالإصلاح بين المتنازعين والمتفرقين منهم حيث قال :

« وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى (١) حَتَّىٰ تَفِىٓءَ (٢) إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ (٣) فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ ، وَأَقْسِطُوٓاْ (٤) ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ (٥) . »

وبهذه الآية الكريمة، سبقنا منذ أربعة عشر قرنا تقريبا ــ من فكروا فى تكوين عصبة الأمم ، والأمم المتحدة فى القرن العشرين .

(١) تظلم . (٢) ترجع . (٣) رجعت . (٤) اعدلوا . (٥) سورة الحجرات : ٩

وقال جل شأنه : « وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [١] . »

يد الله مع الجماعة :

فالوحدة قوة ، تكسب الأمة عظمة ومجداً ، وإن «يد الله مع الجماعة » كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم . أما التنازع والخلاف ، والافتراق والشقاق فنتيجتها ضعف الأمة وذلتها وخضوعها لغيرها من المتحكمين فى شئونها ، والمسيطرين عليها من المستعمرين ، أو المستغلين الذين يفكرون فى أنفسهم ، وأسرهم ، والثراء بأى وسيلة ، ولو كانت دنيئة ، ولا دين لهم إلا السلطان ، وكنز الأموال ، والترف والملاذ . والإسلام برىء منهم ؛ لأنهم لم يعملوا بما أمر به الكتاب والسنة من التعاون والوحدة والوفاق والتضامن والمشاركة فى الشعور والوجدان .

يقول المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده : « إن رعاة المسلمين فضلا عمن علاهم تتصاعد زفراتهم ، وتفيض من الدمع حزنا وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء ، وتضارب الأهواء . ولولا وجود الغواة من الأمراء ، ذوى المطامع فى السلطة بينهم ، لاجتمع شرقيهم بغربيهم ، شماليهم بجنوبيهم ، ولبى جميعهم نداء واحدا [٢] . »

ويقول أيضاً : « وما أهلك الله قبيلا إلا بعد مارزئوا بالافتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فأورثهم ذلا طويلا ، وعذابا وبيلا ، ثم فناء سرمديا . الوفاق تواصل وتقارب ، يحدثه إحساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد فى جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيلذ لهم كما يلذ أشهى مرغوب لديهم ، وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به [٣] » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٥

(٢) المسلمون والإسلام ، صفحة ٣٧ . (٣) الكتاب المذكور صفحة : ٤٢ .

وقد أوجب الإسلام الصلح بين المتنازعين ، والإصلاح بين المختلفين ؛ حتى تستمر الوحدة بين المسلمين .

قال جل شأنه : « وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ[١] إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ[٢] إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ[٣] » .

وإن ما نادى به الإسلام فى هذه الآية منذ أربعة عشر قرناً تقريباً قد فكرت عصبة الأمم فيه بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ — ١٩١٨م . ، وهيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٥م .

وقال عز وجل : « وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ[٤] » .

فالإسلام يأمر بالوحدة والاتحاد والاتفاق ، وينهى عن الخلاف والنزاع والافتراق ، بين المؤمنين ، بل وبين جيرانهم من غير المسلمين .

يقول المرحوم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده : « كل هذه الرزايا التى حطت بأقطارنا ، ووضعت من أقطارنا ، ما كان قاذفنا ببلائها ، ورامينا بسهامها ، إلا افتراقنا وتدابرنا والتقاطع الذى نهانا الله ونبيه عنه . . . هل كان يمكن للأغراب أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ؟ وهل كان يلمع سيف العدوان فى وجوهنا[٥] ؟ أنرضى ونحن المؤمنون — وقد كانت لنا الكلمة العليا — أن تضرب علينا الذلة والمسكنة ، وأن يستبد فى ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا ، ولا يرد مشربنا ، ولا يحترم شريعتنا ، ولا يرقب فينا إلًّا[٦] ولا ذمة ، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء ، حتى يخلى منا أوطاننا ، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلدته ، والجالية من أمته » .

« لا . . . لا . . . إن المخلصين فى إيمانهم ، الواثقين بوعد الله فى نصر من ينصر

---

(١) البغى : الظلم والاعتداء (٢) تفىء : ترجع إلى الحق . (٣) سورة الحجرات : ٩
(٤) سورة آل عمران : ١٠٥ (٥) لو كان المسلمون متحدين ما استطاع أحد أن يذلهم ويتحكم فيهم .
(٦) عهداً .

الله ، الثابت فى قوله : « إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُم ويُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم »

لا يتخلفون عن بذل أموالهم ، وبيع أرواحهم ، والحق داع ، والله حاكم ، والضرورة قاضية ، فأين المفر ؟ . . المبصر بنور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله ، وتعزيز دينه إلا بالوفاق وتعاون المخلصين من المؤمنين . هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة [1] ، وأملاكنا ممزقة ، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقى فى أيدينا ، ثم لا نبدى حركة ، ولا نجتمع على كلمة ، وندعى مع هذا أننا مؤمنون بالله ، وبما جاء به محمد ؟ . . . واخجلتاه لو خطر هـذا ببالنا ، ولا أظنه يخطر ببال مسلم على لسانه شاهد الإسلام [2] »

« إن كان للعامة عذر فى الغفلة عما أوجب الله عليهم ، فأى عذر يـكون للعلماء ، وهم حفظة الشرع ، والراسخون فى علومه . . . لم لا يسعون فى توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يبذلون الجهد فى جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لإصلاح ما فسد من ذات [3] بينهم ؟ »

وإن من يدرس تاريخ الأمم القديمة ، ويعرف : لماذا نهضت ، ولماذا تأخرت ، ولماذا سقطت ، يجد أن الوحدة والاتحاد من أهم أسباب نهضتها وتقدمها ، والتنازع والتفرق من أكبر أسباب تأخرها وسقوطها ، ويدرك السر فى أن الله أمر بالتعاون فى قوله : « واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ » ، ويفهم لماذا نهى جل شأنه عن الاختلاف والتفرق فى قوله : « ولا تَفَرَّقُوا » . وقوله : « ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا ، وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » [4] . أى قوتكم .

---

(١) لقد تحررت البلاد الإسلامية ، وأصبح معظمها الآن مستقلا والحمد لله ، ولكن تنقصها الوحدة الكاملة ، والرابطة الإسلامية الشاملة .

(٢) المسلمون والإسلام . ص ٤٧

(٣) المسلمون والإسلام ص ٥٨

(٤) سورة الأنفال : ٤٦ .

من الأخلاق الإسلامية التعاون والمشاركة فى الشعور :

إن من يدرس الدين الإسلامى يجد أن روحه روح تعاون وعطف ، ومشاركة فى الشعور ، روح صفاء وإخلاص ، روح محبة خالصة ، ومودة صافية .

قال تعالى : « وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ [1] » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمنُ للمؤمِنِ كالبُنْيانِ يشدُّ بعضُه بعضاً » .

وقال : « ترى المؤمنين فى تراحُمِهم وتوادِّهم وتعاطُفِهم كمثَل الجَسَدِ إذا اشتكى عضوٌ منه تداعَى له سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحمّى » .

وقال : « لا يُؤْمِنُ أحدكم حتى يُحب لأخيهِ ما يُحب لنفسه » .

وقد شرحنا هذا كله فى كثير من المواضع من هذا الكتاب .

فالإسلام يطالب بالتعاون على البر والخير ، والمشروعات الاجتماعية التى تتطلبها الإنسانية ، كإنشاء المدارس والمساجد والملاجئ والمستشفيات ؛ ليتعلم الجاهل والطفل ، ويصلى المتعبد ، ويربَّى اليتيم ، ويؤوَى العاجز والمسنّ ، ويعالج المريض ، فإذا تعاونت الأمة على الخير والبر والإصلاح ، والإحسان ، استطاعت أن تنهض وتتبوأ مركزها اللائق بها تحت الشمس . وإذا تنازعت واختلفت وانقسمت شيعا وأحزابا ، وأخذ كل حزب يكيد للآخر ، ويهدم ما بناه ، تأخرت الأمة ، ورجعت إلى الوراء ، واستطاع المستعمر أن يتدخل فى شئونها ، مدعيا الصلح بين المتخاصمين . وإن البيت الذى ينقسم على نفسه مآله الخراب . وإن الأمة التى تنقسم على نفسها مآلها الخيبة والخذلان والضعف واحتلال المستعمر لها .

فالتعاون هو السر الأول لنجاح الأسرة ، ونجاح المجتمع ، ونجاح الأمة . فالأسرة إذا تفرقت وتفرق أعضاؤها أمكن التغلب عليها بسهولة . وإذا اتحدت وتعاونت واجتمعت نجحت ونجح أفرادها . وإن المجتمع الذى يتعاون فى السراء والضراء ، فى

---

(١) سورة المائدة : ٢

الرخاء والشدة ، يستطيع أن يتغلب على ما يعترضه من الشدائد والصعوبات . وإن الأمة التي تتعاون وتتمسك بالتعاون ، وتنبذ التخاذل والخلافات أمة مآلها الفوز والرقى والنهوض ، والغلبة والنصر . وهذا ما ينادى به الإسلام .

« وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ [1] » .

« المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيانِ يشدُّ بعضُه بعضا ».

وقد أبان الإسلام أن المؤمن الكامل عضو عامل فى جسم حى ، فإن صح العضو صح الجسم ، وإن مرض العضو مرض الجسم ، وأعضاء الجسم متعاونة على خيره . وكذا المؤمنون متعاونون على الخير .

فالمؤمن الكامل هو الذى يشارك أخاه فى السراء والضراء ، والسعادة والشقاء . والمؤمنون المثاليون هم الذين يرحم بعضهم بعضاً ، ويحب بعضهم بعضاً ، ويعطف بعضهم على بعض ، ويعاون بعضهم بعضا ، ويخلص بعضهم لبعض ،مثلهم مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تألمت له بقيةُ الأعضاء . وإذا مرض منه عضو شاركته بقية الأعضاء بالسهر عليه وارتفاع الحرارة للدفاع عنه . وإذا حدث للمسلم ما يؤلمه شعر المؤمنون بألمه ، وسعوا فى إزالته عنه ، وجلب الخير له ، ويسمى هـذا فى علم النفس : « المشاركة الوجدانية » وهى أن نشارك الناس وجدانهم ، ونشعر بشعورهم ، ونشاركهم فى مسراتهم وأحزانهم ، فنسرَّ لسرورهم ، ونتألم لألمهم . أما صاحب المزاج البارد الذى يتمثل فيه الجمود والقسوة والغلظة ، ولا يتأثر لما ينتاب غيره من نكبات ، وينفر من الناس ، والناس ينفرون منه ، ويحرم من يسأله من الفقراء ، ويملأ بطنه وجاره جائع ، فليس بمؤمن حقا ، وليس بمسلم كامل .

وإن هؤلاء الذين لا يشاركون الناس شعورهم ، ويلجئون إلى القسوة والظلم دائما ضعفاء ، يشعرون بالضعف ، فيلجئون إلى القسوة والغلظة ، ظانين أنهم بتلك الطريقة

(١) سورة المائدة : ٢

يسترُون ذلك الضعف ، ويكمِّلون ذلك النقص . وأمثال هؤلاء بعيدون عن الإسلام والإيمان ، أشخاصهم مكروهة ، وأفعالهم مشئومة .

وإذا قدرنا غيرنا ، وفكرنا فيه ، وسررنا لسروره ، وتألمنا لألمه ، فإننا ننتظر منه أن يقابل المِثلَ بالمثل ، فيقدرنا ويفكر فينا ، ويشاركنا فى سعادتنا وشقائنا بوجدانه وقلبه ، أما إذا لم نقدر أحدا ، ولم نفكر فى أحد فإننا لا ننتظر أن يقدرنا أو يفكر فينا أحد .

يقول الرسول الكامل : « لا يؤمِنُ أحدكم حتى يُحبَّ لأخيهِ ما يحبُّ لنفسه » .

أى لا يتم الإيمان الكامل للإنسان إلا إذا نظر إلى إخوانه من المسلمين كما ينظر إلى نفسه ، وعاملهم بما يحب أن يعامل به ، وأحب لهم من الخير والنفع مثل ما يحب لنفسه ، وكره لهم من الشر والضرر مثل ما يكره لنفسه تماما . فلا حقد ولا تباغض ، ولا تدابر ولا تقاطع ، ولا نزاع ولا شقاق ، ولكن مودة ومحبة ، وصفاء وإخلاص ، وتعاون واتحاد .

قال أحد الفلاسفة : « إننا فى حبنا الخير لغيرنا وفى بحثنا عنه نجد لأنفسنا خيراً . » وقال آخر : « لو أعطيت الحكمة كلها لنفسى على أن أستأثر بها ، وأمنعها عن إخوتى بنى الإنسانية لكرهت الحكمة » .

وممن تتمثل فيهم المشاركة الوجدانية والروح الإنسانى الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فقد كان النضر بن الحارث مع قريش ضد الرسول فى غزوة بدر ، فأمر الرسول بقتله . فقالت قُتَيْلَةُ بنت النضر بن الحارث تبكى أخاها :

هل يَسْمَعَنِّى النَّضرُ إن ناديتُه ... أم كيف يسمع ميِّتٌ لا ينطقُ

أمحمدٌ يا خيرَ صِنوٍ[1] كريمةٍ ... فى قومها ، والفحل فحلٌ مُعرِقُ

---

(١) ابن .

ما كان ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ وربما مَنَّ الفتى وهو المَغيظ المحنَقُ

أى أن أمك شريفة ، وأباك عريق فى المجد ، فما كان ضَرَّكَ لو عفوت عنه ، وربما عفا الإنسان وهو فى شدة الغيظ والألم .

فبكى النبى صلى الله عليه وسلّم وقال : « لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته » .

وتتمثل المشاركة الوجدانية أيضاً فى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فقد خرج فى ليلة ليطوف ويتفقد أحوال المسلمين ، فرأى خيمة ، فقرب منها ، فسمع فيها امرأة تئن وتتوجع ، ورأى رجلا قاعداً فاقترب منه ، وسأله عن حاله .

فأجابه الرجل : أنا رجل غريب ، قدمت إلى أمير المؤمنين ، لأنال من فضله ما يجود به على .

فسأله سيدنا عمر : ما هذا الأنين ؟

فأجاب : إن امرأتى تلد .

قال عمر : فهل عندها أحد ؟

قال الغريب : لا .

فذهب عمر إلى منزله مسرعاً ، وقال لامرأته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب : هل لك فى أجر قد ساقه الله إليك ؟

قالت : وما هو ؟

قال : امرأة تلد ، وليس عندها أحد .

قالت : إن شئت .

قال : فخذى معك ما يصلح للمرأة من ملابس ، وتَعالَىْ بقدر وشحم ودقيق ، وماتحتاج إليه من طعام .

فأحضرت زوجه القدر والشحم والدقيق والملابس . وحمل سيدنا عمر القدر . ومشت امرأته خلفه ، حتى أتى خيمة الرجل الغريب ، فقال لزوجه : ادخلى إلى المرأة .

ثم قال للرجل : أوقد لى ناراً ، ففعل ، فوضع القدر بما فيها على النار ، وجعل عمر ينفخ النار ، والدخان يخرج من خلال لحيته ، حتى أنضج الطعام ، وولدت المرأة .

فقالت أم كلثوم : بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام ، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ، خاف وخجل ، وقال : إنى خجل منك يا أمير المؤمنين . أهكذا تفعل بنفسك ؟

قال عمر : يا أخا العرب ، من ولى شيئاً من أمور المسلمين ، ينبغى له أن يطلع على أمورهم صغيرها وكبيرها ، فإنه عنها مسئول ، ومتى غَفل عنها خسر الدنيا والآخرة .

ثم قام عمر ، وأخذ القدر ، وحملها إلى باب البيت ، وأخذتها أم كلثوم ، وأطعمت المرأة ، فلما استقرت وسكنت طلَعت أم كلثوم ، فقال عمر رضى الله عنه للرجل : قم إلى بيتك ، وكل ما بقى من البرمة (وهى القدر) ، وفى غد ائت إلينا .

فلما أتى الصباح جاءه الرجل ، فجهزه سيدنا عمر بما أغناه عنه .

هذه صور من الأخلاق الإسلامية التى ارتضاها الإسلام أساساً للروابط بين المسلمين منذ أربعة عشر قرنا من الزمان تقريبا ، فهل عملنا بتعليمات ديننا ؟

وهل سلكنا سبيل نبينا ؟ وهل تعاونّا على البر والتقوى ؟

وهل شاركنا غيرنا فى شعوره وآلامه ؟

وهل تآخينا وتحابينا فى الله ؟

وهل أخلص كل منا للآخر ؟

للفقراء حقوق على الأغنياء فى كل دين :

إن للفقراء حقوقا على الأغنياء . ومن تلك الحقوق أن يساعدهم الأثرياء عند الحاجة ، ويطعموهم إذا جاعوا ، ويسقوهم إذا عطشوا ، ويفتحوا أيديهم لهم ، ويعدلوا فى معاملتهم ، ويؤووهم إذا كانوا غرباء ، ويزوروهم إذا مرضوا ، ويكسوهم إذا احتاجوا

إلى كساء . وقد أقرت الديانات كلها من يهودية ومسيحية وإسلام تلك الحقوق .

ولنقتبس هنا شيئا مما ورد فى العهد القديم والعهد الجديد عن حقوق الفقراء والمساكين :

حقوق الفقراء فى العهد القديم :

« افتحْ يدَيك لأخيك المسكين ، والفقيرِ فى أرضك » . سفر التثنية ١٥ : ١٠ – ١١ :

« اقضُوا للذليلِ واليتيم . أَنصِفوا المسكينَ والبائس . نجُّوا المسكينَ والفقير » . مزامير ٧٢ : ٤ .

« مَن يرحم الفقيرَ يُقرِض الربَّ ، وعَن معروفِهِ يجازيه . » أمثال ١٩ : ١٧ .

« ظالمُ الفقيرِ يعيِّرُ خالقَه ، ويُمجده راحمُ المسكين » . أمثال ١٤ : ٣١ .

« اقض بالعدل ، وحامِ عن الفقير والمسكين » . أمثال ٣١ : ٩ .

وقال أيوب مبيناً ما قدمه من حسنات :

« لأنى أنقذتُ المسكينَ المستغيثَ واليتيمَ ولا معينَ له . بركةُ الهالك حلّتْ عَلَيَّ ، وجعلتُ قلبَ الأرملةِ يُسَرُّ . لَبِستُ البرَّ فكسانى . كَجُبَّةٍ وعمامةٍ كان عدلى. كُنتُ عُيوناً للعُمْى ، وأَرجُلاً لِلعُرج . أنا أبٌ للفقراء . ودعوى لم أعرِفها فحصْتُ عنها . هشَّمتُ أضراس الظالم . ومن بينِ أسنانِهِ خطِفتُ الفريسةَ » . أيوب ٢٩ : ١٢ – ١٧ .

« إن كان فيك فقيرٌ أحدٌ مِن إخوتِك فى أحد أبوابك فى أرضك التى يُعطيك الربُّ إلٰهُك فلا تُقَسِّ قلبك (عليه) . ولا تقبض يدك عن أخيك الفقيرِ ، بل افتح يدك له ، وأقرِضْهُ مِقدار ما يَحتاجُ إليه » . التثنية ١٥ : ٧ – ٨ .

« لا تَسْلُبِ الفقيرَ لكونِهِ فقيراً . ولا تَسْحق المسكين فى البابِ ؛ لأنَّ الرَّبَّ يُقيمُ دعواهم ، ويسلُبُ سالِبِي أنفسِهم » . أمثال ٢٢ : ٢٢ – ٢٣ .

« مَن يعطى الفقيرَ لا يَحتاجُ . ولِمَنْ يَحجبُ عنه عَينيهِ لَعناتٌ كثيرةٌ » . أمثال ٢٨ : ٢٧ .

« وأنفقتَ نفسك للجائع ، وأشبعت النَّفْسَ الذليلة . يُشرقُ فى الظلمة نورُكَ » . أشعياء ٥٨ : ١٠ .

« ولا تظلموا الأرملة ولا اليتيم ولا الغَريب ولا الفقيرَ » . زكريا ٧ : ١٠ .

« المولودُ ملكاً قد يفتقِر » . جامعة ٤ : ١٤ .

هذا بعض ما ورد فى العهد القديم ، فى ديانة موسى عليه السلام .

حقوق الفقراء فى العهد الجديد :

ومما ورد فى ديانة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ما يأتى :

« طوبى للرحماءِ لأنهم يُرْحمون » . متى ٥ : ٦ .

« وتطلَّعَ[1] فرأى الأغنياء يلقون قرابينهم فى الخِزانة . ورأى أيضاً أرملة مسكينةً ألقت هناك فَلْسَيْنِ . فقال : بالحقِّ أقولُ لكم إن هذه الأرملة الفقيرةَ ألقت أكثر مِن الجميعِ ؛ لأن هؤلاءِ من فضلتهم ألْقَوْا فى قرابينِ اللهِ . وأما هذه فمن إعوازِها ألقَتْ كلَّ المعيشةِ الَّتى لها » لوقا ٢١ : ٢ — ٤ .

« ومَن سألك فأعطهِ . ومَن أراد أن يَقترضَ منك فلا تَردَّهُ » . متى ٥ : ٢٩ — ٣٠ .

« وجميعُ الذينَ آمنوا كانوا معاً . وكان عِندهم كل شىء مشتركاً . والأملاكُ والمُقتنَياتُ كانوا يبيعونها ، ويَقْسمونها بين الجميع ، كما يكونُ لكلٍّ واحدٍ احتياجٌ » . أعمال الرسل ٢ : ٤٤ — ٤٥ .

« إذ لم يكن فيهم أحدٌ محتاجاً لأن كل الذين كانوا أصحاب حقولٍ أو بيوتٍ كانوا

---

(١) المسيح .

يَبيعونَها ، ويأْتونَ بأثمانِ المبيعاتِ ، ويَضعونهاَ عند أرجُلِ الرُّسُل ، فكان يُوَزَّعُ علَى كلٍّ واحدٍ كمَا يكونُ له احتياجٌ . » أعمال الرسل ٤ : ٣٤ ـ ٣٥ .

« والفارسُ والساقى هُما واحدٌ ،ولكنَّ كلَّ واحدٍ سيَأْخذُ أُجرتَه بحسبِ تَعبهِ . » من رسالة بولس الأولى إلى أهل كُورِنثوسَ ٣ : ٨ .

« لِتَكنْ سِيرَتُكُم خاليةً منْ محَبَّةِ المال . كونوا مكتفِينَ بما عِندكُم . » الرسالة إلى العبرانيين ١٣ : ٥ .

« لا تَقتنوا ذهباً ولا فضة ، ولا نُحاساً فى مناَطِقكُم . ولا مِزوَداً للطريق ولا ثوبَين ، ولا أحذيةً ، ولا عصاً ؛ لأن الفاعلَ مستحقٌ طعامَه . » إنجيل متى ١٠ : ٩ ـ ١٠ .

« لا تَكنِزُوا لكم كُنوزاً على الأرضِ حيث يُفسدُ السوسُ والصدأُ ، وحيثُ يَنقُبُ السارقونَ ويَسرِقون . بل اكنِزُوا لكم كُنوزاً فى السماء ، حيثُ لا يُفسِدُ سوسٌ، ولا صدأٌ ،وحيثُ لا يَنقُبُ سارقون ولايَسرِقون .» إنجيل متى ٦ : ١٩ـ٢٠ . فالحبوب يفسدها السوس ، والمال يفسده الصدأ .

« خُبزَنا كفاَفَنا أَعطنا اليومَ . » إنجيل متى ٦ : ١١ . فلا رأسمالية، ولا احتكار ، ولا استغلال .

« بيعوا أموالَكُم وأعطُوا صَدقةً . » لوقا ١٢ : ٣٣ .

وقد حضر إلى السيد المسيح شخصٌ يسأله : يا سيد ، أريدُ أن أَتبعك لأخلص . فقال له : « هل حفظْت الوصايا العشر ؟ »

قال : حفظْتها منذُ حداثتى .

فقال له السيد المسيح عليه السلام : « إذن اذهب ، وبِع كلَّ ما عندك ، وأَعطه للفقراء ، وتعاَل اتبعنى . » .

ومن أقوال المسيح : « لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يخدمَ سيدين : المال والله . »

وقد ورد فى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٢ : ٢٠ ــ ٢١ .

فإنْ جاع عدُوُّك فأَطعمْهُ . وإنْ عطِش فاسْقِه ؛ لأنك إنْ فعلتَ هـذا تجمعُ جَمْرَ نارٍ على رأْسِه . لا يغلبنَّك الشرُّ ، بل اغلب الشرَّ بالخير . » .

وجاء فى رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورِنْثوس ١٢ : ٢٦ ما يأتى :

« فإن كان عضوٌ واحدٌ يتألم فجميعُ الأعضاء تتألمُ معه . وإن كان عضوٌ واحدٌ يكَرَّمُ فجميعُ الأعضاء تفْرح معه . »

الفصل الثاني عشر

التكافل الاجتماعى فى الإسلام[1]

التكافل الاجتماعى :

إن التكافل الاجتماعى هو أن يتكفل المجتمع بشئون كل فرد فيه ، من كل ناحية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والصحية . يقال : كفَلت الصغير أ كفُله كفالةً أى عُلْتُهُ وقمت بما يحتاج إليه من النفقة .

والكافل : هو العائل والضامن .

وقد فرضت الزكاة على القادرين من المسلمين من غير منّ ولا أذى ؛ لينتفع بها الفقراء والمساكين والعجزة والشيوخ والمحتاجون ، ويرتفع مستواهم ، ويتحسن حالهم ، ويعيشوا عيشة كريمة تليق بالإسلام ، ولينفق منها على المصالح العامة فى البلاد .

وقد أمر الله بالإحسان والتصدق فى مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على الإحسان والصدقة فى كثير من الأحاديث النبوية . فالإسلام قد سبق أوروبة والولايات المتحدة الأمريكية فى المطالبة بحقوق الفقراء ، ومساعدتهم ومعاونتهم ـ بأربعة عشر قرنا ، ولم يشترط أن يؤخذ منهم شىء من المال مقدما ، كما يحدث فى التأمينات اليوم فى القرن العشرين .

وقد حث الإسلام على التصدق ورغب فيه ، وشوق إليه ، وحافظ على كرامة الفقراء بطريقة لا نظير لها فى أى دين من الأديان . وسنذكر[2] هنا بعض الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية الخاصة بالزكاة والصدقة ، ومنها ستلمس آداب التصدق والإحسان ، وسترى كيف فكر الإسلام فى حقوق الفقراء ، وراعى شعورهم وإحساسهم وهى تدل

---

(١) ارجع إلى موضوع التكافل الاجتماعى فى الكتاب الثمين : « اشتراكية الإسلام » للدكتور العالم المحقق الأستاذ مصطفى السباعى . (٢) سبق أن ذكرنا بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الخاصة بالزكاة والصدقة فى موضوع التضامن والتعاون فى الإسلام ، من هذا الكتاب .

على العظمة والنبل والمحافظة على الكرامة الإنسانية . فنى الإسلام ينتظر من المتصدق أن يتصدق بنفس راضية بدون منّ أو أذى، وأن يتصدق ابتغاء مرضاة الله ، لا لنيل رتبة ، أو إعلان عن النفس .

وقد نادى الإسلام بالتعاون والتضامن بين أفراد المجتمع ، وطالب الأغنياء بمساعدة الفقراء ، وشجع على البر وفعل الخير ، والسعى لكسب الرزق، وتكفل بإطعام الجائع ، وكسوة العارى ، وعلاج المريض ، وتعليم الأطفال وتربيتهم ، وضمن الحياة الكريمة للعاجزين عن الكسب ، من الشيوخ والمقعدين واللقطاء واليتامى وغيرهم . وينفق على هذه المشروعات كلها من بيت المسلمين ، مما يجمع من الزكاة والصدقات والتبرعات ، والوصايا الخاصة بالبر ، بحيث يشعر الفقراء والمساكين بالرعاية والعطف ، ويحيون حياة إنسانية كريمة عادلة ، ويجدون من ينصفهم ويعطيهم حقوقهم ، ويفكر فيهم ، ويدافع عنهم إذا لحقهم حيف أو ظلم ، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ، ويساعدهم فيما يحتاجون إليه .

قال تعالى : « إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَـٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١) . »

وقال عز وجل : « مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ (٢) أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ (٣) عَلِيمٌ . ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ . يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ (٤) ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ

(١) سورة التوبة : ٦٠ . (٢) يتصدقون . (٣) فضله واسع . (٤) مرائياً لهم .

بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[١] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ[٢] فَتَرَكَهُ صَلْدًا[٣] لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ . وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا[٤] مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ[٥] بِرَبْوَةٍ[٦] أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ[٧] أُكُلَهَا[٨] ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ[٩] وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[١٠] . »

وقال تعاظم وارتفع : « وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ، وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ[١١] . »

(هم المضعفون) : هم أصحاب الأجر المضاعف .

وقال عز وجل : « يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ[١٢] . »

والربا : الزيادة ، ويربو : يزيد ، ويُربى : يُضاعف .

وقال جل شأنه : « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . »

وتستلزم الأخوة أن يفكر الأخ الثرىُّ فى الأخ الفقير ، ويساعده بقدر استطاعته ، مع مراعاة إحساسه وشعوره .

وقال عز من قائل : « لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ[١٣] قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى[١٤] ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ[١٥] وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ[١٦] وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ

---

(١) حجر أملس . (٢) مطر شديد . (٣) صلباً أملس لا شيء عليه. (٤) تحقيقاً للثواب عليه . (٥) بستان . (٦) مكان مستو مرتفع . (٧) أعطت . (٨) ثمرها . (٩) مطر خفيف يكفيها . (١٠) سورة البقرة : ٢٦١ ــ ٢٦٥ . (١١) سورة الروم : ٣٩ .
(١٢) سورة البقرة : ٢٧٦ . (١٣) فى الصلاة . (١٤) أعطى . (١٥) المسافر .
(١٦) وفى تحرير الأرقاء والأسرى .

إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ[1] وَٱلضَّرَّآءِ[2] وَحِينَ ٱلْبَأْسِ[3] أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ[4] . »

وقال تعالى : « وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا[5] . »

وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمنُ لِلمؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعْضُه بعضاً . » ثم شبك بين أصابعه .

فالرسول الكريم يحثنا على الوحدة والتضامن والتكافل والائتلاف والتعاون ، وإحسان الأغنياء منا إلى الفقراء ، وفى تشبيك الأصابع مثل لقوة التماسك ، والمشاركة فى الشعور ، والترابط فى الحياة .

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما آمنَ بى مَن باتَ شَبعانَ وَجارُهُ إلى جَنْبِه طاوٍ[6] . »

وقال : « مَن كان عِندَهُ طعامُ اثنينِ فلْيَذْهَبْ بثالثٍ ، ومَن كان عندَهُ طَعامُ أربعةٍ فلْيذهبْ بخامسٍ أَوْ بسادسٍ . » فالفقير يجب إطعامه ، ولا يجوز أن يترك معرضاً للجوع . »

وقال محمد الكامل : « الخلقُ كلُّهم عيالُ اللهِ ، وأَحَبُّهم إليه أَنفعُهم لِعياله . »

وقال الرسول العظيم : « الفُقَراء عِيالى ، والأغنياء وُكلائى ، فإنْ بَخِلَ وُكلائى عَلَى عيالِى أَذَقْتُهم وَبَالِى وَلا أُبالى . »

وقال : « عَلَى كلِّ مسلم صَدقَةٌ[7] . »

فقالوا : يا نبيَّ اللهِ فإن لم يجدْ ؟

قال : « يَعملُ بيدِه ، فينفعُ نفْسَه ويَتصدَّقُ . »

قالوا : فإن لم يَجِدْ ؟

---

(١) شدة الفقر . (٢) المرض . (٣) وقت شدة القتال فى سبيل الله . (٤) البقرة : ١٧٧ .
(٥) النساء : ٨ . (٦) جائع . (٧) وفى رواية أخرى بزيادة : « كل يوم » .

قال : « يُعينُ ذا الحاجةِ الملهوفَ (١) . »

قالوا : فإن لم يَجِدْ ؟

قال : « فَليعملْ بالمعروفِ . » وفى رواية أخرى : « فَلْيأْمُرْ بالخيرِ أَوْ بالمعروفِ ، ولْيُمْسِكْ عن الشرِّ . » وفى رواية : قالوا : فإن لم يفْعَلْ .

قال : « فلْيُمْسِكْ عن الشرِّ ، فإنها له صَدقةٌ . » وفى رواية أخرى فإنه .

وفى هذا الحديث أمر بالصدقة كل يوم ، والعمل للكسب والتصدق ، وإعانة المظلوم ، والأمر بالمعروف والخير ، والبعد عن الشر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ فَرَّجَ (٢) عن مُسْلِم كُرْبَةً (٣) فرَّجَ اللهُ عنه كُربةً من كُرَبِ يَومِ القيامةِ . ومَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعسِرٍ يَسَّرَ (اللهُ) عَليهِ فى الدنيا والآخرةِ . »

وقال : أيُّ رجل مات ضَيَاعاً (٤) بين أغنياء ، فقد بَرِئَتْ منهم ذمةُ اللهِ ورسولهِ . »

وروى أبو سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَن كان معه فَضْلُ ظَهرٍ فليَعدْ به على من لا ظَهرَ له . ومَن كان له فضلٌ من زادٍ فليعُدْ به على من لا زادَ له . » قال أبو سعيد : فذكر رسول الله من أصناف المال ما ذكر ، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا فى فضل . والفضل الزيادة .

وقال : « مَثَلُ الأَخوَينِ مثَلُ اليَدينِ تغسِلُ إحداهُما الأُخرَى . » ويدعو بهذا إلى أن يتعاون الأخ مع أخيه ، ويساعده بقدر استطاعته .

وقال صلى الله عليه وسلم : « ما مِن امرئٍ يَخذُلُ امرأً مُسلِماً فى موضعٍ تُنْتَهَكُ فيه حُرْمتُه ، ويُنتَقَصُ فيهِ منْ عِرضِه إلاَّ خَذلَهُ اللهُ فى مَوْطِنٍ يُحبُّ فيه نُصرتَه . ومَا منْ مُسلمٍ ينصرُ مُسلِماً فى موْضعٍ يُنتَقصُ فيهِ ويُنتَهَكُ فيه منْ حُرْمتِه إلاَّ نصرَهُ اللهُ فى مَوْطِنٍ يُحبُّ فيهِ نُصرتَه . »

وقال : « المسلمُ أَخو المسلمِ لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُهُ (٥) . مَن كانَ فى حاجةِ أَخيهِ

---

(١) المظلوم الذى يستغيث . (٢) أزال . (٣) شدة . (٤) هلاكا .

(٥) يخذله ويتركه بدون مساعدة .

فإنَّ اللهَ فى حاجتِه . ومَنْ فرّج عنْ مسلمٍ كُرْبةً فرّج اللهُ عنه بها كُربةً مِنْ كُرَبِ يَوم القيامةِ . ومَن ستر مسلماً ستَرهُ اللهُ يومَ القيامة . »

وقد آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين كل اثنين من المهاجرين ، بين الغنى والفقير منهم حتى يتعاونا على السراء والضراء ، والسعادة والشقاء ، وأمر بالإخَاء بين المهاجرين والأنصار ، وساوى بينهم عند قدومه المدينة .

وقد مدح الرسول عليه الصلاة والسلام قبيلة أبى موسى الأشعرى وقال : « إن الأشعريين [١] إذا أرملوا [٢] فى الغزو وفنى زادهم ، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحد بالسوية ، فهم منى وأنا منهم » .

وعند الوصول إلى المدينة المنورة نشر الرسول عليه الصلاة والسلام روح الأخوّة بين المسلمين ، وقال : « تآخَوْا فى الله أخوَين أخوين » . وأخذ بيد على بن أبى طالب ، وقال : « هذا أخى » . وكان أسد الله حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم أخاً لزيد بن حارثة مولى رسول الله . وكان أبو بكر — رضى الله عنه — أخاً لخارجة ابن زهير . وقد أثمرت تلك الأخوة أطيب الثمرات ، ودامت وشائجها وثيقة على الزمن ، حتى لقد حسِب الصحابة — رضوان الله عليهم — أنها وسيلة للميراث ، فأنزل الله :

« وأُولُو الأرحامِ بعضُهم أَوْلَى ببعضٍ فى كِتابِ الله » .

على هذا النسق من تحقيق الأخوة والمساواة والتضامن والتعاون بين المسلمين — كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من بعده . لم تأخذهم فى الحق لومة لائم ، ولم يحابوا إنسانا ، ولم يرهبوا أحدا ، ولم يزدروا حقيرا .

فالإسلام دين أخوّة ، ومساواة ، وعدالة يطبق على الجميع قانونا واحدا ، وينظر

(١) قبيلة من القبائل العربية . (٢) يقال أرمل الرجل إذا نفد زاده وافتقر .

إلى الجميع نظرة واحدة ، حتى فى العبادة ، يقفون فى الصلاة أمام ربهم صفوفا على قدم المساواة ، وفى الحج يطرحون الدنيا وزخرفها وراءهم ، ويكونون على قدم المساواة فى مشاعر الحج ، لا فرق بين أبيض وأسود ، ولا تفضيل بين أمير وخفير ، ولا تفاوت بين شريف ووضيع ؛ لأن المسلم أخو المسلم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ اللهَ فرضَ عَلَى أغنياءِ المسلمين فى أموالِهم بقدرِ الَّذِى يَسَعُ[1] فقراءهم ، ولنْ يَجْهَدَ الفقراءُ إذا جاعوا وعَرُوا[2] إلَّا بما يَصنعُ أغنياؤُهمْ ، ألَا وإنَّ اللهَ يُحاسبُهم حساباً شديداً ، ويُعذِّبُهم عذاباً أليماً » .

فالأغنياء مسئولون عن الفقراء أمام الله ، ملزمون بإعطائهم القدر الذى يحتاجون إليه ، حتى لا يجوعوا ولا يحتملوا مشقة الجوع والعرى . وسيحاسبهم الله حسابا شديدا إذا لم يعطوا الفقراء حقوقهم .

وقال : « أَطعِموا الجائعَ ، وعودُوا المريضَ ، وفُكُّوا[3] العانِىَ[4] » .

فالرسول يأمرنا بإطعام الجائع من أحسن ما لدينا من الطعام ، وزيارة المريض فى الوقت الملائم ، لمعاونته والترويح عنه ، وإنقاذ الأسير الذى حارب من أجلنا ، وتحريره من الأسر .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَن أَصبحَ لا يهتمُّ بأمرِ المسلمين فليس منهم » .

وقال : « لا يؤمنُ أحدُكمْ حتَّى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسِه » .

وفى عهد الرسول كان أبو عبيدة بن الجراح يجاهد مع ثلاثمائة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، ففنى زادهم ، فأمرهم أن يجمعوا أزوادهم فى مِزْوَدَين[5] ، وجعل يقوتهم[6] إياها على السواء .

---

(١) يحتاج إليه فقراؤهم . (٢) يقال عَرى من ثيابه بالكسر عُرياً (٣) أطلقوا سراحه وحرروه .
(٤) الأسير ، والعانى مشتق من عنا يعنو : خضع وذل واستكان . (٥) المزود : ما يجعل فيه الزاد وهو طعام المسافر . (٦) يطعمهم .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول[١] أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين» .

وقد ورد جماعة على ماء ، وكانوا فى حالة من العطش أشرفوا فيها على الموت ، هم ودوابهم ، فأبى أصحاب الماء أن يسمحوا لهم بالشرب منه . فلما قابلوا عمر أخبروه بالأمر فقال لهم : هلاَّ وضعتم فيهم السلاح ؟

وقد أسر الروم امرأة مسلمة ، فاستغاثت وقالت : وامعتصماه . فقام المعتصم من بغداد ومعه جيشه ، وحارب الروم حتى أنقذها من الأسر .

الاشتراكية الإسلامية :

يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، فى كتابه النفيس « حياة محمد » عن الاشتراكية الإسلامية فى موضوع « الحضارة الإسلامية كما صورها القرآن » صفحة ٥٢٤ من الطبعة الثانية :

« وفى القرآن اشتراكية لم تبحث بعد[٢] . وهى اشتراكية لا تقوم على أساس من حرب رأس المال ونضال الطوائف ، شأن الاشتراكية اليوم فى الحضارة الغربية ، وإنما تقومُ على أساس خلقى سام يكفل إخاء الطوائف ، وتكافلها وتعاونها على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان . ومن اليسير أن يرى الإنسان قيام هذه الاشتراكية على الإخاء فيما فرضه القرآن من زكاة ومن صدقة ، وأن يقدر أنها ليست اشتراكية تسود فيها طائفةٌ طائفة ، أو تتحكم بها جماعة فى جماعة . فالحضارة التى صورها القرآن لا تعرف سيادة ولا تحكما ، بل أساسها الإخاء الصادق عن إيمان ثابت بهذا الإخاء ؛ إيمان يجعل من التحدث بنعمة الله إعطاء الفقير والبائس والمحروم ما يحتاجون إليه من غذاء وكساء ومأوى ودواء ، وتعليم وتهذيب ، وإعطاءهم ذلك من غير مَنٍّ ولا أذى . بذلك يزول

(١) الفضلة والفضالة : ما فضل من الشىء .

(٢) من المؤلفات الثمينة التى ظهرت حديثا كتاب « اشتراكية الإسلام » تأليف الدكتور مصطفى حسنى السباعى ، وقد تكلم عنها بإسهاب .

الشقاء ، ويُتم الله نعمته على الناس ، وتسودهم السعادة » .

« والاشتراكية الإسلامية لا تقتضى إلغاء التملك إطلاقا كما تقتضيه الاشتراكية الغربية وقد أثبت الواقع فى روسيا البلشفية وفى كل بلاد سادتها الاشتراكية ، أن إلغاء التملك إطلاقا أمر غير ممكن . لكن المرافق العامة يجب أن تكون ملكا عاما مشاعا بين الناس جميعا . وتحديد المرافق العامة متروك أمره للدولة . ولذلك وقع الخلاف على هذا التحديد منذ الصدر الأول للإسلام . فكان من بين أصحاب النبى غلاة فى الاشتراكية يجعلون كل ما خلق الله ملكا مشاعا ، ومرفقا عاما ، ولذلك يجعلون شأن الأرض وما تحتويه شأن الماء والهواء لا يجوز تملك شىء منه . وإنما يقع التملك على الثمرات ينال منها كلٌّ على قدر سعيه ومجهوده . وكان منهم من لا يرون هذا الرأى ، ويقولون بجواز تملك الأرض ، ويعدونها من العروض التى يقع عليها التبادل » .

« على أن الاتفاق منعقد بينهم على قاعدة اشتراكية مقررة اليوم فى أوروبة تقضى بأنه يجب على كل إنسان أن يبذل للجماعة كل كفاياته ، ويجب على الجماعة أن تبذل لكل فرد منها ما يسد حاجاته . فلكل مسلم حق فى أن ينال من بيت مال المسلمين ما يكفل حاجاته وحاجات من يعول ، ما دام لا يجد عملا يرتزق منه ، أو ما دام العمل الذى يزاوله غير كاف لرزقه ورزق عياله . وما دامت قواعد الُخلق التى قرر القرآن هى ما قدّمنا فلن يكذب أحد ، ولن يزعم أحد أنه متعطل ، على حين هو فى الحقيقة لا يريد أن يعمل ، ولن يزعم أنه لا يجد من عمله ما يكفيه على حين يدرٌّ عليه الكفاية . وقد كان أمراء المؤمنين فى الصدر الأول يفرضون على أنفسهم أن يتفقدوا أمور المؤمنين ، ليبذلوا للمحتاج منهم حقه ، وليدفعوا عنه غادية الحاجة » .

« ومن ثم نرى أن الاشتراكية فى الإسلام ليست اشتراكية المال وتوزيعه ، وإنما هى اشتراكية عامة أساسها الإخاء فى الحياة الروحية . وفى الحياة الخلقية . وفى

الحياة الاقتصادية . وإذا كان المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فالمرء لا يكمل إيمانه إذا لم يحض على طعام المسكين ، ولم ينفق للخير العام مما رزقه الله سرا وعلانية . وكلما ازداد المرء إيثارا على نفسه كان أقرب إلى الله ، وأدنى إلى رضاه ، وكانت نفسه أكثر طمأنينة ، وقلبه أشد غبطة . وإذا كان الله قد جعل الناس بعضهم فوق بعض درجات ، وكان يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فإن الناس لا صلاح لهم إلا إذا وقَّر صغيرهم كبيرهم ، ورحم كبيرهم صغيرهم ، وأعطى غنيُّهم فقيرهم ، ابتغاء وجه الله وشكرا لله ، وتحدُّثًا بنعمته » .

هذا ما قاله المرحوم الأديب الدكتور محمد حسين هيكل ، والحق أن الاشتراكية الأوروبية اليوم تتضمن حرب الطوائف ، ومحاربة الرأسمالية ، ولكن الاشتراكية فى الإسلام تتضمن تعاون الطوائف وإخاءها وتكافلها وتضامنها ، فقد أوجب الإسلام الزكاة ، وحث على الصدقة والإحسان ، وإعطاء الفقير والمسكين والمحروم ما يحتاجون إليه من طعام وملابس ومسكن ، والقيام بعلاج المرضى ، وتربية الأطفال ، ورعاية اليتامى والشيوخ بنفس راضية ، من غير منّ أو أذًى .

قال تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ[1] » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَنِ استطاعَ أن يقِيَ وَجهَهُ من النارِ ولو بشِقَّةٍ من تمر فليَفْعل . ومَن لم يجد فبكلمة طيبة ؛ فإنَّ بها تُجْزَى الحسنةُ عشرَ أمثالها » .

كيف يعامل الإسلام الفقراء واليتامى ؟

الإسلام دين العطف والشفقة ، دين الرأفة والرحمة ، يفكر فى اليتامى والفقراء والمحتاجين والضعفاء ، الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم . قال عز وجل مخاطبا الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ولنا فيه القدوة الحسنة :

(١) سورة البقرة : ٢٦٤ .

« فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ [١] . وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ [٢] . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ [٣] . »

واليتيم : هو من مات أبوه وهو صغير . والسائل : هو من ألجأه الفقر إلى ذل السؤال ، وطلب المعونة . وإن الإسلام يتطلب أن يعامل اليتيم والفقير معاملة كلها إنسانية كما يعامل الأب الرحيم ابنه البار . فاليتيم يجب أن ينمى ماله ويحافظ عليه إن كان له مال ، وينال حقه من التربية والتعليم ، وألا يقهره أحد ، ولا يغضبه ، ولا يأخذ منه حقاً هو له ، ولا يذله ولا يحتقره ، ولا يسىء إليه .

ولكى نحسن معاملة السائل يجب أن نعطيه ما يحتاج إليه ، ونمد له يد المعونة والمساعدة ، ونخلص له فى الجواب ، ونرده برحمة ولين وعطف .

ويبدو روح الإسلام وما فيه من النبل والإنسانية ، والمبادئ المثالية — فى قوله تعالى :

« قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ [٤] . »

فقولك للسائل المحتاج : « الله يعطيك » خير من أن تعطيه قرشاً ثم تقول له : اذهب فى داهية .

وإن من أنعم الله عليه بالمال أو العلم يجب عليه ألا يمنع ماله أو علمه عمن يسأله . وجدير به أن يشكر الله على النعمة التى جعلته مسئولا ، وجعلت غيره سائلا ، وصيرته عزيزاً وغيره ذليلا ، وجعلته غنياً وغيره فقيراً يتكفف الناس ويسألهم ، هذا يمنحه ، وذاك يمنعه . هذا يعطيه ، وهذا يزجره . هذا يحسن إليه ، وذاك يطرده ، ويشتمه ويسىء إليه .

وإن الله لم يعط الغنى مالًا ليكنزه ، ويبخل به على غيره ، ولا يتصدق به على

---

(١) لا تستذله ولا تحتقره ولا تظلمه .
(٢) لا تزجره ولا تغلظ له القول .
(٣) سورة الضحا : ٩ — ١١
(٤) سورة البقرة : ٢٦٣ .

المحتاجين ، ولـكنه منحه الغنى ليعطى الفقير والمسكين ، ويساعد البائس والمحروم ، ويعاون بماله المؤسسات الخيرية .

قال تعالى : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . »

وإن الإسلام يوجب على القادرين الموسرين من المسلمين الصدقة على المحتاجين ، والمساعدة فى إنشاء المدارس والمستشفيات والجماعات الخيرية لتعليم الفقراء ، وعلاج المرضى ، ورعاية المكفوفين والعجزة ، والمحتاجين من الغرباء وكبار السن .

قال تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ[1] . » والإنفاق هو التصدق على أوجه الخير . وقال صلى الله عليه وسلم : « أَنَا وكافلُ اليتيمِ فى الجنة هكذا . » وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرج بينهما شيئا .

وكافل اليتيم هو : من يكفله ، ويقوم بتربيته ، وتأديبه وتعليمه ، وصيانة ماله ، والمحافظة عليه ، وادخاره له حتى يبلغ أشده ، ويصل إلى سن الرشد . وجزاؤه الجنة .

وهناك أوصياء من الأقارب يهملون اليتامى كل الإهمال ، ويأكلون أموالهم ظلماً ، ويغتصبون أرضهم ، ولا يعطونهم ما يكفيهم من مالهم ليعيشوا منه . ولا يعنون بتربيتهم وتعليمهم ، ولا يعطفون عليهم ، ولا يرأفون بهم ، ويعاملونهم معاملة قاسية لا رحمة فيها . والإسلام برىء من هذا النوع من الأوصياء ، وقد أعد الله لهم عذابًا أليما .

وقال عز وجل : « إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا ، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ، وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا[2] . »

المرأة الأرملة والصبى اليتيم :

قال عليه الصلاة والسلام : « اتقُوا اللهَ فى الضَّعِيفَيْن : المرأة الأرملة ، والصبىّ

(١) سورة الطلاق : ٧ (٢) سورة النساء : ١٠

اليتيم . » فالرسول الكريم يرى أن المرأة التى فقدت زوجها ضعيفة تحتاج إلى المعونة والعطف ، وأن الطفل الذى مات أبوه يعد ضعيفا ، ويحتاج إلى كل رعاية وعناية . وهو يأمرنا أن نتقى الله فى معاملة هذين الضعيفين وهما : الأرملة والطفل اليتيم . وفى معاملتهما يجب أن نراقب الله دائما ، ونعمل على إرضائه ، بأن نعاملهما كما نعامل بناتنا وأبناءنا ، معاملة حسنة عادلة تتمثل فيها الإنسانية والعناية التامة ، والشفقة والرأفة ؛ حتى لا يشعرا بأى حاجة أو نقص ، وحتى يحسا أنهما لم يفقدا شيئا .

وقال جل شأنه : « وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ، وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ، وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ، إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا (١) كَبِيرًا (٢) . »

أى أعطوا اليتامى الصغار الذين لا أب لهم أموالهم كاملة إذا بلغوا سنَّ الرشد ، ولا تتبدلوا الحرام بالحلال أى لا تأخذوه بدلا منه ، كما تفعلون من أخذ الجيد من مال اليتيم ، وجعل الردىء من مالكم مكانه . ولا تضموا أموالهم إلى أموالكم ، إن أكلها كان ذنبا عظيما .

وقال عز وجل : « أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ؟ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ . وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ (٣) . »

(يَدُعُّ اليتيمَ) : يطرده بجفوة وخشونة .

أى هل عرفت الذى يكذب بالجزاء والحساب ؟ وإن لم تعرفه فهو ذلك الذى ينهر اليتيم ويزجره ، ويدفعه عن حقه بعنف . ولا يحض نفسه ولا غيره على إطعام المسكين .

الإحسان إلى اليتامى :

إن الإسلام قد حث كثيرا على رعاية اليتيم ، وتربيته ، والعناية به ، والمحافظة على ماله ، ومعاملته بكل شفقة ورحمة ، والاجتهاد فى إدخال السرور على قلبه ؛ لأنه فقد أباه

---

(١) ذنبا عظيما . (٢) سورة النساء : ٢ . (٣) سورة الماعون : ١ـ٣ .

الذى كان يحنو عليه ، ويرعاه ، ويفكر فيه ، ويرأف به وهو طفل . فهو حقا فى حاجة إلى من يحل محل أبيه ، ويعطف عليه العطف الذى فقده ، ويربيه التربية الحقة التى تجعل منه رجلا كاملا فى مستقبل حياته .

وقد ورد فى القرآن الكريم كثير من الآيات القرآنية التى تحض على الاهتمام بشئون اليتيم ، وإعداده للحياة . قال تعالى : « فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ [١] » بأخذ ماله ، وإهمال تربيته ، والقسوة عليه ، وإذلاله واحتقاره . (لا تقهر) : لا تستذله ولا تحتقره .

وقال عز من قائل : « وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ [٢] . »

الأَشُدُّ : قوة الإنسان ، وشدته . أى احفظوا ماله حتى يصير قادرا على تصريف شئونه بنفسه . فإذا بلغ مبلغ الرجال فادفعوا إليه ماله .

وقال الرءوف الرحيم : « وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ ، حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ ، فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ، وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ، وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ، وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا [٣] . »

أى اختبروا اليتامى قبل البلوغ فى تصرفهم ، وجربوهم . فإن آنستم منهم حسن التصرف فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تفرطوا فى إنفاقها ، فإن الله شهيد عليكم فى كل ماتعملونه ، ومحاسب لكم .

والبدار : المبادرة والمسارعة إلى الشىء .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من ضمَّ يتيما من أبوين مسلمين حتى يستغنى فقد وجبت له الجنةُ ألبتةَ [٤] »

---

(١) سورة الضحا : ٩ . (٢) سورة الأنعام : ١٥٢ . (٣) سورة النساء : ٦ .

(٤) يقال : لا أفعله ألْبَتَّةَ : لكل أمر لا رجعة فيه .

وقال عليه الصلاة والسلام : « أنا وكافلُ [1] اليتيم فى الجنة كهاتين » وهو يشير بإصبعيه السبابة والوسطى .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من وضع يده على رأس يتيم تَرَحُّماً كانت له بكل شعرة تمرُّ عليها يده حسنة . »

وقال عليه الصلاة والسلام : « خير بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يحسَن إليه ، وشر بيت من المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه . »

فالإسلام يوجب العناية باليتامى من الأطفال ، والقيام بتربيتهم وتهذيبهم ، والمحافظة على أموالهم . وإن ماورد فى القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم بشأن اليتامى يوجب علينا أن نعاملهم كما نعامل أبناءنا وبناتنا فى التربية والعطف والحنوّ والرحمة والإشراف .

وتتمثل إنسانية الإسلام فى عنايته بالضعفاء ، كاليتامى . ومع الأسف نجد الأوصياء عليهم يأكلون أموالهم ، ويهملون تربيتهم ، ويقسون فى معاملتهم ، ولا يخافون الله ، ولا يعتبرون بقوله تعالى : « وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ ، وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيداً . إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً [2] . »

(قولًا سديداً) : قولا جميلا . (سَيَصْلَوْنَ) : سيُشْوَوْنَ . (السَّعير) : الجمر المشتعل .

فالله سبحانه وتعالى يأمر الذين يخافون على ذريتهم الضعفاء الفقر والضياع من بعدهم والإهمال فى شئونهم — أن يخشوه ويتقوه فيمن يتولون أمرهم من اليتامى ، وأن يقولوا لهم قولا جميلا ، يهديهم إلى الآداب العالية ، والأفعال الحسنة ، ويرشدهم إلى ماينفعهم فى دينهم ودُنياهم ، كما يقولون ذلك لأولادهم . وقد أنذر الله الأوصياء وغيرهم ممن

(١) والكافل : الذى يكفل إنساناً بأن يعوله ويقوم بالإنفاق عليه .
(٢) سورة النساء : ٩ــ١٠ .

يأكلون أموال اليتامى ظلما ، بأنهم سيدخلون نارا محرقة عقابا لهم على أكلهم أموال اليتامى بغير حق .

انظر إلى قول المصطفى صلى الله عليه وسلم : « من عال ثلاثة من الأيتام كان كمن قام ليله ، وصام نهاره ، وغَدَا وراحَ شاهراً سيفه فى سبيل الله . وكنت أنا وهو فى الجنة إخوانًا ، كما أن هاتين أختانِ « وألصَقَ السبابة بالوسطى . »

عَالَ عِيالَه : أطعمهم وأنفق عليهم ، وكفاهم مَعَاشَهُمْ .

فالذى يقوم بالإنفاق على ثلاثة من اليتامى كان كمن قضى حياته متعبدا ، متهجدا ، يتهجد ليلا ، ويصوم نهارا ، ويجاهد فى سبيل الله ، ويكون فى الجنة أخاً للرسول العظيم .

فهل الأوصياء يعنون باليتامى ؟ وهل يعملون بما أمر به الله ورسوله ؟ لقد أنساهم الجشع والطمع والتعلق بالدنيا مايجب عليهم نحو اليتيم .

الإحسان إلى المساكين :

إن الإسلام ينادى بإعطاء المساكين حقوقهم ، والاختلاط بهم ؛ للاعتراف بإنسانيتهم. فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم أحْيِنى مسكينا ، وأمِتْنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين . »

وقال عليه الصلاة والسلام : إياكم ومجالسة الموتى .

قيل : ومن الموتى يارسول الله ؟

قال : الأغنياء .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تغبِطنَّ (١) فاجراً (٢) بنعمة ، فإنك لا تدرى إلى مايصير بعد الموت ، فإن مِن ورائه طالبا حثيثا (٣) . »

---

(١) الغبطة : بالكسر ، أن تتمنى مثل حال من تغبطه من غير أن تريد زوالها عنه ، وليس بحسد .
(٢) الفاجر : الفاسق ، والكاذب ، والمائل . (٣) حريصا مسرعا .

وقال موسى : إلٰهى ، أين أبغيك [1] ؟

قال : عند المنكسرة قلوبهم .

وقال كعب الأحبار : كان سليمان عليه السلام فى ملكه إذا دخل المسجد فرأى مسكينا جلس معه ، وقال : مسكين جالس مسكينا .

والمسكين : هو الذى لا يملك شيئا . وقال الأصمعى : المسكين أحسن حالًا من الفقير . وقال يونس : الفقير أحسن حالًا من المسكين . والواقع أن الفقير والمسكين مشتركان فى الحاجة والفقر والحرمان .

وقيل : ما كان من كلمة تقال لعيسى عليه السلام أحب إليه من أن يقال له : يامسكين .

وقال عبادة بن الصامت : إن للنار سبعة أبواب : ثلاثة للأغنياء ، وثلاثة للنساء ، وواحد للفقراء والمساكين .

وقال الفضيل : بلغنى أن نبيا من الأنبياء قال : يارب ، كيف لى أن أعلم رضاك عنى ؟

فقال : انظر كيف رضا المساكين عنك .

فالرسول يدعو الله أن يحييه مسكينا ، ويميته مسكينا ، ويجعله يوم الحشر فى جماعة المساكين . ويحض على العطف على الفقراء والمساكين ، والإحسان إليهم ، والتبرع لهم ، والاتصال بهم ، والعمل على رضاهم ؛ لأن رضاهم من رضا الله . ويكفى مايشعرون به من حرمان ، فيجب أن نشفق عليهم ، ونكرمهم بالقول والعمل .

---

(١) أين أطلبك .

الإحسان وتنظيمه فى الإسلام

ماهية الإحسان :

الإحسان شعار النفوس الكريمة ، وعنوان السجايا الرحيمة ، وإلهام من الله اللطيف الخبير ، أودعه قرارة النفوس فضلا منه وكرماً ؛ ليمحو الشقاء من الوجود ، ويمسح دموع البائسين ، ويعيش الناس إخواناً متحابين ، لا تحاسد بينهم ولا تحاقد ، ولا اعتداء ولا بغضاء .

الإحسان : أن يقوم الإنسان بعمل خيرى لغيره تفضلا منه ، وهو غير واجب عليه .

قال تعالى : « وأحسِن كما أحسَنَ اللهُ إليك . »

وقال عز وجل : « إن رحمةَ اللهِ قريبٌ من المحسِنينَ . »

وقد قيل إن الحسن البصرى باع بغلة كان يملكها بأربعمائة درهم . فلما طلب الثمن قال له المشترى : اسمح يا أبا سعيد .

فقال البصرى : قد تنازلت لك عن مائة درهم من الثمن .

فقال له المشترى : فأحسِن يا أبا سعيد .

فقال البصرى : قد وهبت لك مائة أخرى . وقبض من حقه مائتى درهم بدلًا من أربعمائة .

فقيل له : يا أبا سعيد ، هذا نصف الثمن .

فقال : هكذا يكون الإحسان ، وإلا فلا .

ولقد رغب الإسلام فى الإحسان وحث عليه فى كثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، . وقد قرن الله التصدق بالأمر بالمعروف ، والإصلاح بين الناس ، فقال :

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ (١) إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٢) . »

بل جعل الله الإنفاق وهو التصدق على الفقراء والمحتاجين من أبرز صفات المؤمنين ، فقال :

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ (٣) قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) . »

والمراد بالرزق الكريم : الرزق الحسن الخالى من الكدر .

وقد أنبأنا النبي صلى الله عليه وسلم بأن التصدق ولو بالقليل كنصف تمرة وقاية من النار . ولا ريب أن فى هذا ترغيبا أى ترغيب فى الصدقة ، وبيانا لما يجنيه صاحبها من ثمرات عظيمة ، ولو كانت الصدقة قليلة ضئيلة ، فقال :

« اتقُوا النَّارَ وَلَو بشِقِّ تمرةٍ . »

وقال أيضاً : « الصدقَةُ تُطْفِئُ الخطيئة ، كما يُطْفِئُ الماءُ النارَ . »

وقال : « الزَّكاةُ قنطرةُ الإسلامِ . »

فلا يعد المسلم مسلما حقا إلا إذا أدى الزكاة ، وقد حدد الإسلام مقدارها وزمانها .

وقال الإمام على كرم الله وجهه : « صونوا إيمانكم بالصدقة ،وحصنوا أموالكم بالزكاة . » أى احفظوا إيمانكم بالصدقة والإحسان إلى المعوزين ، ونموا أموالكم بالزكاة .

ومن أجل هذا كثر المحسنون والمتصدقون فى العصور الإسلامية الخالية ، ووقفوا أموالهم على الأعمال الخيرية ، ابتغاء رضاء الله . ولا تكون الصدقة مقبولة إلا إذا خلت من المن والتعيير .

---

(١) النجوى : السر والعبادة سراً . (٢) سورة النساء : ١١٤ . (٣) خافت .

(٤) سورة الأنفال : ٢ ـ ٤ .

قال عز وجل : « ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ[1] مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ[2] . »

بل إن الكلمة الطيبة تعتذر بها للسائل خير عند الله من صدقة تمنُّ بها عليه ، وتؤذيه بها ؛ لأن فى ذلك مسًّا لكرامته ، وإهداراً لإنسانيته .

قال تعالى : « قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ[3] . »

والرسول الكريم يقول : « الكلمةُ الطّيبةُ صدقة . »

وإذا أعوزك العطاء والإحسان فاعتذر للسائل اعتذاراً جميلاً ، ليس فيه إيذاء له ، قال تعالى :

« وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا[4] . » أى اعتذر لهم اعتذاراً جميلاً .

وقد ذمَّ الله تعالى الذين يعيبون على غيرهم قلةَ ما أعطوه مع أنهم بذلوا ما فى وسعهم، فقال:

« ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ[5] ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ[6] فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ[7] ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ[8] . »

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : دخلَتْ علَيَّ امرأةٌ معها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندى شيئاً غيرَ تمرة ، فأعطيتها إياها ، فقسَمَتْها بين ابنتيها ولم تأكل منها ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبي — صلى الله عليه وسلم — علينا ، فقال : « من ابتُلِيَ[9] من هذه البنات بشىء كنَّ له سِتْراً[10] من النار . »

---

(١) تصدقوا . (٢) سورة البقرة : ٢٦٢ . (٣) سورة البقرة : ٢٦٣ .
(٤) سورة الإسراء : ٢٨ . (٥) يغتابون ويعيبون . (٦) مالا قليلا على قدر طاقتهم .
(٧) سخر الله منهم : جازاهم على سخريتهم بالفضيحة . (٨) سورة التوبة : ٧٩ .
(٩) اختبر . (١٠) حجاباً ووقاية .

أى من اختبر بذرية من البنات فقام بتربيتهن راضياً بنعمة الله عليه كنَّ له حجاباً ووقاية من النار .

ومع أن الدين الإسلامى رغب فى الصدقة وحث عليها ، وجعلها من أبرز صفات المؤمنين فإنه دعا إلى العمل ، قال تعالى : « هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا [١] فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا [٢] وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ [٣] . »

اليد العليا خير من اليد السفلى :

وإن الدين الإسلامى قد أوصى الفقراء ألا يأخذوا الصدقة إلا إذا كانوا فى حاجة إليها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليد العليا خير من اليد السفلى » أى اليد التى تعطى خير من اليد التى تأخذ . وفى هذا حث ودعوة إلى السعى لكسب الرزق من طريق العمل .

غير أن هناك أناساً يقعد بهم المرض عن كسب قوتهم ، فيمدون أيديهم يطلبون عطف غيرهم وبره ، فهؤلاء يستحقون الإحسان والعطف والشفقة ابتغاء مرضاة الله .

وإنه لمن قساوة القلب أن يتناول الإنسان من ألوان الطعام ما يتخمه ، وجاره ينهب قلبَه الجوعُ ، ويحول بينه وبين المجوع ، أو يرفل فى حلل الحرير والديباج والصوف وذوو قرابته لا يجدون من رخيص الثياب ما يستر أبدانهم ، أو يتيه أولاده يوم العيد فى ثيابهم الجديدة وحولهم صبية وأطفال ما بين جائع عار ، أو فقير محروم ، أو شريد مطرود .

فيأيها الأغنياء أدُّوا حقوق الفقراء ، واعلموا أن فى أموالكم حقًّا معلوماً للسائلين والمحرومين فلا تغتصبوه . فإذا أديتم لهم حقوقهم فزتم بجنة عرضها السموات والأرض أعدها الله للمتقين ، الذين يتصدقون فى السراء والضراء .

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

فشاركوا فى تخفيف ويلات الإنسانية ، وصلوا الرحم ، وأغيثوا الملهوف ، وساعدوا الضعيف ، وأعطوا المسكين ، فهذا قرض حسن يضاعفه الله لكم أضعافاً كثيرة ،

(١) لينة لا صعوبة فيها . (٢) جوانبها وطرقها . (٣) سورة الملك : ١٥ .

ويد بيضاء يرددها النباس لكم فى المحن ، وجميل تسدونه فتجنون ثمرته حمداً وشكراً ، وثناء عطرا .

وتسابقوا فى الخيرات ، وأنشئوا الملاجئ ، وأقيموا المدارس والمستسفيات والمصحات ، وسارعوا إلى الإحسان ، وابذلوا أموالكم فى وجوه الخير بنفوس راضية ، وأفئدة راغبة . وتذكروا قوله تعالى :

« ومَا تُنفِقوا من خَيْرٍ يُوَفَّ إليكم ، وَأَنتم لا تُظْلَمون » .

ومن الواجب أن نبث الروح الإنسانى فى الشعب ، حتى يفكر الموسر فى المعسر ، ويفكر الغنى فى الفقير ، وننظم الإحسان تنظيما كاملا ؛ حتى نعين المريض إذا مرض ، والعامل إذا تعطل عن العمل ، والشيخ إذا كبرت سنه وصار عاجزا عن الكسب ، وننشئ من الملاجئ ما يكفى كل العجزة واليتامى المشردين من الأطفال . ومن المستشفيات ما يتسع لجميع المرضى .

وإننا ننتظر منكم أيها الموسرون بذلا وسخاء ، لا شحًّا وبخلا ، لتستلوا الأضغان من القلوب ، وتطبعوا النفوس على حبكم ، وتنالوا رضا ربكم . والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه .

تنظيم الإحسان

غرس الروح الإنسانى فى الأمة :

لقد وصف الله جل شأنه المحسنين الأبرار فى قوله : « ويُؤْثِرون عَلَى أنفسهم ولو كان بهم خَصاصةٌ » . فهم يقدمون غيرهم على أنفسهم ولو كان بهم فقر وحاجة إلى ما يحسنون به .

ولا يكفى أن يتبرع المحسنون ، ويتصدق المتصدقون ، بل يجب أن نغرس الروح الإنسانى فى الأمة ؛ حتى يفكر الأثرياء فى أحوال الفقراء ، ويشعر الأغنياء بما يشعر

به البؤساء ، وننظم الإحسان والتبرعات تنظيما دقيقاً ؛ بأن نعين للمرضى والمساكين والمتعطلين عن العمل والشيوخ والمقعدين العاجزين عن الكسب ، والعمى واليتامى من المحتاجين ، ونعطى المستحقين ، ونحرم غير المستحقين ، ونجمع المشردين والسائلين ، وننشئ للجميع ما يحتاجون إليه من مستشفيات وملاجئ لرعايتهم وعلاجهم ، والتفكير فى شئونهم ، والعمل على تحسين أحوالهم ؛ حتى نكمل ما ينقصهم من علاج ، وغذاء وكساء ، وتعليم وتربية ، وعطف وشفقة ، ورحمة ، وعناية ، ويشعروا بأن لهم حقوقاً ، وعليهم واجبات . ويجب أن يعاملوا معاملة تتمثل فيها الإنسانية الكاملة .

فى العهد الماضى ، عهد الطغيان والاستعمار والاستغلال كان السائلون لدينا كثيرين منتشرين فى الميادين العامة ، وحول الأضرحة والمساجد . ولكثرتهم كان السائحون من الأجانب يقولون : إن مصر بلد السائلين (الشحاذين) . والحق أنه كان لدينا عدد كبيرمن السائلين ، وهم لا يعدمون من يعطف عليهم ، سواء أكانوا مستحقين أم غير مستحقين .

وفى هذا العهد السعيد قد أنصف الفقراء والعمال والفلاحون ، ونالوا حقوقهم كاملة ، وعوملوا معاملة إنسانية إسلامية ، فالسائلون من اليتامى والعجزة والمقعدين والعمى والصم والبكم قد أنشئت لهم مؤسسة فى المرج ، وملاجئ متنوعة ، وجمعوا ، وبحثت أحوالهم الاجتماعية والصحية والأسرية ، وعمل القائمون بأمورهم على إصلاحهم ، وتوجيه كل منهم إلى الوجهة التى تلائمه ، فالقادر على العمل الزراعى حول إلى الزراعة ، والصانع وجه إلى المصنع ، وعلم المستعد للعمل صناعة يكسب منها عيشه بعرق جبينه ، وحول المرضى إلى المستشفيات ، وأرسل المسنون والعاجزون عن العمل إلى الملجأ لرعايتهم ، ودرست نفسية المجرمين من السائلين ، وعوملوا معاملة خاصة بهم ، وعمل المشرفون على إصلاحهم من النواحى النفسية والاجتماعية والخلقية .

ورفعت أجور الفلاحين والعمال والصناع ، فارتفع مستوى معيشتهم ، وقد أعطوا من الحقوق ما يعوض عليهم الظلم الذى لحقهم فى العهود الماضية الظالمة . وسيكون نصف الأعضاء فى مجلس الأمة منهم ، وقد أصبح كثير من الأجراء ملاكا للأرض الزراعية .

وإن حالة الفقراء والمرضى واليتامى فى مصر فى العهود الغابرة تذكرنى بحالتهم فى إنجلترا فى القرن التاسع عشر . فقد كان غذاء الأطفال رديئا ، وملابسهم ممزقة ، والعناية بالصحة معدومة . وقد وصف (شارلز دكنز) الكاتب العبقرى ، والمصلح الاجتماعى حال اليتامى واللقطاء فى الملاجئ بانجلترا فى القرن الماضى فى روايته المضحكة المبكية (أوليفر تويست) حيث كان أطفال الملجأ لا يجدون من الطعام ما يكفيهم ، وكان الطفل لا يعطى أكثر من مغرفة من الحساء فى الأكلة الواحدة ، ثم يمتص أصابعه حتى تحين الوجبة الأخرى ، واشتد الجوع بهؤلاء اللاجئين ، واصفرت وجوههم ، واقترعوا على من يتوجه إلى مدير الملجأ ليرجوه مضاعفة القدر المخصص لكل وجبة ، فأصابت القرعة (أوليفر تويست) ، وأقبل المساء ، وأخذ الغلمان أماكنهم على مائدة الطعام ، ووقف المدير ، ولم تمض هنيهة حتى التقموا ما فى الأوانى ، وبدأت أعناقهم تشرئب إلى (أوليفر) . وكان جيرانه يدفعونه بأطرافهم خفية ؛ رغبة فى طلب الزيادة من المدير . فقام (أوليفر) وقدم إلى المدير الإناء والملعقة قائلا ، والذعر يملأ جوانب نفسه : « سيدى ، أرجو أن تعطينى مغرفة أخرى من الحساء » .

فاصفر وجه المدير ، ثم نظر إليه مستغربا ، وسأله بصوت خافت : « ماذا تقول أيها الطفل الشره » ؟

فأجاب (أوليفر) : « أرجو يا سيدى أن تسمح بإعطائى ملعقة أخرى » . فلم يطق المدير هذا القول ، وانهال عليه ضربا بكلتا راحتيه ، واجتمع مجلس الإدارة فى

الحال ، وحدثت مناقشة عنيفة فى المجلس حول (أوليفر) لطلبه زيادة ملعقة أخرى من الحساء . وقرر المجلس التخلص منه ، وكتب إعلان علق على جدار الملجأ الخارجى هذا نصه : « يمنح مجلس إدارة الملجأ مكافأة قدرها خمسة جنيهات كل من يتقدم إليه طالبا الغلام : (أوليفر تويست) ليساعده فى عمله .

وبهذه الوسيلة تخلص الملجأ منه . فالحال فى ملاجئنا اليوم أحسن كثيرا من حال الملاجئ فى إنجلترا فى عصر (شارلز دكنز) .

وقد تألم (الدكتور بارناردو) لحال الملاجئ المحزنة الألم كله ، فأخذ يعالج المرضى من الفقراء ، ويخفف آلامهم ، وأنشأ فى البدء ملجأ يدعى بيت (الدكتور بارناردو) يضم بين جوانبه هؤلاء المهملين من أبناء السبيل الذين لفظتهم الحياة ، وتنكرت لهم الإنسانية ، وقام بتعليمهم ، والعناية بشئونهم الصحية والتعليمية والعملية ، حتى وجد كل منهم ما فقده من عناية الآباء ، وعطف الأمهات .

انتشرت هذه الملاجئ فى المدن الكبيرة ، وكونت جماعات خيرية لجمع التبرعات لها ، والقيام بتنظيم شئونها . وتسود فى هذه الجماعات الخيرية الأمانة والإخلاص ، وحب الإحسان والثقة . وبالمال الذى يجمع تنشأ ملاجئ تقوم برعاية اليتامى واللقطاء والعاجزين من الكبار والصغار ، وتأويهم حيث لامأوى لهم .

وإذا أنشأنا عددا كافيا من الملاجئ أمكننا أن نقضى على جميع المتحايلين من السائلين الفقراء والضعفاء والمسنين . ولو اتبعنا الدين الإسلامى ، وأدينا الزكاة ، وأحسنا إلى الفقراء والمحتاجين ما كان هناك سائل أو محروم .

قال تعالى : « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (١) » . أى فلا تظلمه ، ولا تهمل تعليمه ، والعناية بشئونه .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ بيتٍ فى المسلمين بيْتٌ فيه يتيمٌ

(١) سورة الضحا : ٩ .

يُحْسَنُ إليه . وشرُّ بيتٍ فى المسلمين بيتٌ فيه يتيمٌ يُساء إليه . أنا وكافلُ اليتيمِ فى الجنّةِ » .

وقال : « لكلِّ شيء مفتاحٌ ، ومفتاح الجنةِ حبُّ المساكين والفقراء » .

وقال : « الساعى على الأرملةِ والمسكين كالمجاهدِ فى سبيل اللهِ » .

والساعى عليهما هو من يقضى حاجتهما من مسكن وطعام ولباس .

فلو اتبعنا الدين الإسلامى ونظمنا الإحسان ، وأكثرنا المؤسسات الخيرية والمستشفيات وأحسنا إدارتها ، وقام كل فرد فيها بواجبه ما شعر فقير بحاجة ، وما مد مسكين يده ، وما شكا مريض سوء المعاملة فى أى مستشفى .

وليس فى استطاعة أى دولة فى العالم أن تقوم وحدها بكل مشروع تحتاج إليه بلادها ، فيجب أن يقوم القادرون من الأفراد بواجبهم ، وبخاصة الأغنياء والموسرون منهم . وإن قانون سنة ١٩٣٣م الذى يحرم السؤال (التسول) لم ينفذ إلا فى عهد الثورة للقضاء على هذه المشكلة . بعد أن أنشئ العدد الكافى من المؤسسات .

وإذا أحسنا معاملة اللاجئين فى المؤسسات والملاجئ ، ودرسنا نفسية كل منهم ، وعاملناهم كما يعامل الإنسان الحر لا السجين فى القفص ما هربوا منها ، وما حاولوا إحراقها . فإذا وجدوا من يعطف عليهم ، ويؤاسيهم ويعالجهم ، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ، طريق العمل الصالح ، ووجدوا فيها الطعام الصحى ، واللباس الضرورى ، وتعليم صناعات ملائمة ، ووجدوا فراش النوم المريح ـ ما شكوا وما هربوا .

وفى استطاعة الطلبة والطالبات فى الجامعات أن يسهموا فى مشروعات المؤسسات والملاجئ أسوة بالطلبة فى الأمم الأخرى ؛ فكثيرا ما يقومون بمساعدة المشروعات الخيرية التى تتطلبها الإنسانية ؛ كتخصيص يوم يجمعون فيه التبرعات لمستشفى من المستشفيات ، أو ملجأ من الملاجئ ، وكإقامة حفل فى المساء لليتامى واللقطاء والمشردين من أطفال المؤسسات والملاجئ ، تعمل فيه كل الوسائل لإدخال السرور على نفوسهم

باللعب والضحك معهم ، والتمثيل الهزلى أمامهم ، ثم يحييهم الطلبة والطالبات فى أثناء طعامهم ، ويهدون إلى كل منهم هدية قبيل الانتهاء من الحفل،ثم يؤخذون إلى المؤسسة أو إلى الملجأ .

وكثيرا مايتبرع الأغنياء بأوروبة وأمريكا بآلاف الجنيهات لمشروع خيرى ، ويشترطون أن يذكر أمام المتبرع : « فاعل خير » ؛ لأنهم لا يريدون جزاء ، ولا شكوراً ، ولا يفكرون فى الإعلان عن أنفسهم كما نفعل .

إلى الأغنياء والفقراء :

فيأيها الأغنياء ، راعوا حقوق الفقراء ، وأعطوهم من مال الله الذى أعطاكم ؛ فقد تبنون قصرا لن تسكنوه ، وتشيدون مسكنا لن تتمتعوا به ، وتزرعون حقولا لن تجنوا ثمارها . وأحسنوا إلى المساكين ، وساعدوا الجماعات والمؤسسات الخيرية ، ولا توصدوا الأبواب فى وجوه المحتاجين ، وأسهموا فى إنشاء الملاجئ لإيواء اللقطاء والعجزة واليتامى والضعفاء ، ولا تظنوا أن جمع المال هو السعادة ، أو السعادة هى جمع المال وكنزه ، فالفقراء فى أكواخهم قد يكونون أكثر سعادة من الأغنياء فى قصورهم .

ويأيها الفقراء ، ارفعوا أيديكم إلى السماء ، ولا تسألوا إلا خالق الشمس والقمر ، ومرسل المياه ومنزل المطر ، اسألوا من يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، إنه على كل شىء قدير . ولا تظنوا أن الفقر عار أو منقصة ، فليس من العار أن تكون فقيرا ، ولكن من العار أن تكسل عن العمل ، وتجلس بجانب الحائط ، وتمد يدك . ليس من العار أن تنشأ فقيرا ، فما فى الفقر عيب ولا منقصة ، فالفقر من أكبر العوامل لرقى هذا العالم فى الفكر والاختراع والإبداع . فإذا نظرت نظرة الباحث المدقق وجدت أكثر العلماء ، وأعظم الكتاب ، وأكبر المصلحين كانوا من الفقراء . فالفقر ساقهم إلى العمل ، والمثابرة والجد فى سبيل الحياة ، حتى وصلوا إلى مآربهم ، وأدركوا أمانيّهم ، ووصلوا إلى مخترعاتهم .

ولو خلق العالم كله غنيا لقلّت الأيدى العاملة ، وجمدت العقول النابهة .
فالحاجة تفتق الحيلة ، وهى وحدها تحمل الإنسان على أن يهب وقته وراحته فى
سبيل إدراك أغراضه التى يسعى ليدركها . فهناك كثير من الأذكياء لا يعملون
إلا حينما يشعرون بأنهم فى حاجة إلى العمل ؛ كى يصلوا إلى المال الذى يريدونه .
فأمثال هؤلاء الأفراد ربما لا تجنى من ورائهم ثمرة إذا خلقوا أغنياء . ولا يكمل
نجاح العالم إلا إذا كان هناك تضامن وتعاون وتكافل بين الأغنياء والفقراء ، وشعر
كل منهم بحاجته إلى الآخر ، وقام كل فرد بواجبه . وليس معنى هذا أننا ندعو إلى
إهمال حقوق الفقراء ، ولكننا ندعو الفقراء إلى العمل ؛ كى لا يعيشوا عالة على غيرهم ،
ولا يمدوا أيديهم إلى إنسان ، وندعو الأغنياء إلى التبرع والتصدق والإحسان ؛
لأن فى أموالهم حقا معلوما للسائل والمحروم ؛ كى يطهروا أنفسهم وأموالهم بالزكاة
والإحسان إلى الفقراء والمساكين .

قال تعالى فى وصف الأبرار: « وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا.
إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ ، لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا[1] . »

وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَىُّ الإسلامِ خَيرٌ ؟ »

فقال : « تُطْعِمُ الطَّعامَ ، وتَقرأُ السلامَ عَلَى مَنْ عَرفْتَ وَمَن لم تعرفْ . »

وقال : « الرَّاحمون يَرْحمهم الرحمنُ . »

« ارحَموا مَنْ فى الأرْضِ يرْحَمكُم مَنْ فى السَّماء . »

---

(١) سورة الإنسان : ٨-٩ .

الإسلام يدعو إلى العمل وكسب الرزق

العمل شرف . والعمل حق . والعمل واجب . والعمل هو الحياة .

الدين الإسلامى خير دين أخرج للناس ؛ لما جاء به من أحكام وآداب ، لو تمسك المسلمون بها لعاشوا فى ظل السعادة آمنين هانئين . لقد حث هذا الدين الحنيف على العمل ، وكسب الرزق ، ودعت الأديان كلها إلى العمل . وإن شعارنا اليوم : العمل الصالح هو الحياة ، والحياة هى العمل الصالح . ولا تعد الحياة حياة بغير العمل المثمر المنتج .

قال تعالى : « فَامْشُوا فى مَنَاكِبِها وكلُوا من رِزْقِهِ . »

ويقول جل شأنه : « فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ، وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ .(١) » انتشروا فى الأرض للعمل والزراعة ، والصناعة والتجارة ، راجين الرزق من فضل الله .

وقال عز وجل : « وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢) . »

وقال جل شأنه : « فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم ، مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ .(٣) »

فالعمل مصدر القوة ، ومصدر الحياة . يقول الله تعالى :

« وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ (٤) . »

ويقول عز شأنه : « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٥) . »

ويحث على العمل للدين والدنيا معاً ، فيقول تبارك وتعالى :

« وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ، وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا .(٦) »

(١) سورة الجمعة : ١٠ . (٢) سورة الأحقاف : ١٩ . (٣) سورة آل عمران : ١٩٥
(٤) سورة التوبة : ١٠٥ . (٥) سورة النجم : ٣٩ . (٦) سورة القصص : ٧٧ .

العمل أساس العمران :

العمل أساس العمران الحافل بالخير ، وروح الحياة الدائبة النشيطة ، وسبيل الكمال في هذا الوجود الذى نعيش فيه . وهو منبع فياض بالثروة والمال . ولولا العمل ما كانت تلك القصور الشاهقة ، ولا هذه الحدائق الفناء التى ننعم بما فيها من الطيبات ، ولولاه ما رأينا سفينة تجرى على سطح الماء ، ولا طائرة تحلق فى الفضاء . والعمل المثمر هو طريقنا فى تحصيل هذه النعم الجليلة الوافرة ، التى أنعم الله بها علينا . والعاملون فى كل أمة وكل عصر هم الذين شيدوا لنا صروح الحضارة الزاهرة ، وأقاموا دعائم المدنية الراقية ، التى أفاضت علينا الكثير من الخير والهناءة والسعادة . وقد لحظ النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا يلازم المسجد معظم ساعات النهار ، فسأله عمن يعوله ، فقال له : يعولنى أخ لى .

فقال له الرسول الأمين : « إن أخاك لأكرم عند الله منك . » فالرسول يوضح لنا أن الإسلام دين عمل وجهاد .

وللإسلام بالنسبة للعمل موقف عظيم تحسده عليه كل الأديان ؛ فهؤلاء العرب الأمجاد فى الصدر الأول من الإسلام ، حينما كان هذا الدين الكريم مثلهم العالى الذى إليه يهدفون ، وعقيدتهم الراسخة التى على ضوئها يهتدون — دانت لهم الدنيا ، وقبضوا على منابع الثروة والمال ، وأخذ الخير يتفجر من بين أيديهم ، والنضار يسيل تحت أقدامهم .

بالعمل تنهض الأمم :

فبالعمل تنهض الأمم ، وتسود الشعوب ، وينجح الأفراد فى كل مجتمع من المجتمعات . وبغير العمل لا يستطيع الإنسان أن يعيش عيشة الحر الكريم . وإن الرجل الخامل الكسلان الذى ينام نهاره ، ويقضى ليله فى اللهو والميسر واللذات عيال على المجتمع ولا يعد من الأحياء . والكسل الجسمى والعقلى من أكبر أعداء الإنسان فى هذه الحياة.

وما الفائدة من ذكاء المرء وقوته الجسمية إذا كان خاملا كسلا لا يميل إلى العمل ، ولا يعنى بالإنتاج ؟ قال القديس بولس : « لا طعام لمن لا عمل له . »

وفى التاريخ لا يحكم على الإنسان بمقدار عمره ، بل يحكم عليه بمقدار عمله أو أثره فى الحياة . فقد يحيا الشخص حياة قصيرة ، ويملؤها بالأعمال الجليلة . وقد يعمر ويحيا حياة طويلة ، ولكن لا تجد له أثرا أو عملا جليلا يذكر به .

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

وللدعوة إلى العمل والحث عليه قال الرسول الكريم : « إذا قامت القيامة ، وكان فى يدِ أحدِكم فَسيلة [1] ، فلا يشغلْه هولُ الساعةِ عن غرسِها . » يالله ! ما أعظم هذا الرسول الكامل الذى يحث أمته على العمل فى أحرج الساعات . والزراعة مصدر ثروة لا ينضب معينه ، ومورد رزق لا ينقطع ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« أفضل الكسب الزراعة ؛ فإنها صنعة أبيكم آدم . » والزراعة أساس كل حضارة فى التاريخ . والمدنيات القديمة والحديثة مازالت تعتمد على الزراعة . وقد نوّه الإسلام بما للزراعة من شأن فى نظام الكون ، وتوفير الثروة ، وتحصيل مواد المعيشة . قال تعالى : « وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ [2] . » أى بسطناها لكم ، ومهدناها لتستطيعوا الانتفاع بزراعتها ، وقال جل شأنه : « وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ العُيونِ . لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ، وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِم [3] . » أى أن الله تعالى أجرى الينابيع فى الأرض لنروى بها الأرض الزراعية ؛ كى يأكل الناس من ثمارها ومما عملته أيديهم .

ويقول الغزالى فى كتاب الإحياء : كان النبى جالسا مع أصحابه يوما ، فرأوا شابا ذا جلد وقوة ، وقد بكر يسعى،فقالوا : ويح هذا (يقصدون بذلك إظهار الشفقة والترحم) ، لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله [4] .

---

(١) نخلة صغيرة . (٢) سورة الذاريات : ٤٨ . (٣) سورة يس : ٣٤ ـ ٣٥

(٤) أى فى الطاعات الدينية من صلاة وصيام وجهاد وغيرها .

فقال عليه الصلاة والسلام : « لا تقولوا هذا ، فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، وإن خرج يسعى على أبوين ضعيفين ، ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله ، وإن خرج يسعى على نفسه يُعفها[1] فهو فى سبيل الله ، وإن خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان . » وقال : « أطيب الكسب عمل الرجل بيده . »

فالرسول الكريم يحض على السعى فى طلب الرزق للصغار من الأبناء ، والكبار من الآباء ، والسعى على النفس ، ويعد كل هذا سعيا فى سبيل الله يثاب عليه الإنسان ، وينهى عن الرياء والمفاخرة فى السعى ؛ لأن ذلك ليس فى سبيل الله ، بل هو فى سبيل الشيطان ، ويحث الرسول على العمل ، وعلى الصناعات اليدوية .

الإسلام يحارب الفقر بالعمل :

والإسلام يحض على العمل ، ويحارب الفقر حربا عنيفة لا هوادة فيها . فالرسول يقول : « لأن يأخذَ أحدُكم حبلاً ، ثم يَغدوَ إلى الجبل ، فيحتطبَ ، فيبيعَ ، ويتصدق خيرٌ من أن يسألَ الناسَ . » وفى رواية أخرى : « والذى نفسى بيدِه لأن يأخذَ أحدُكم حبلَه فيحتطب على ظهرِه خيرٌ له من أن يأتىَ رجلاً فيسألَه أعطاه أو منعه . » ويقول : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . » ويقول صلى الله عليه وسلم : « التمسوا الرزقَ فى خبايا الأرضِ . » بزراعتها واستخراج ما فيها من المعادن. ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « لا يقعدْ أحدُكم عن طلبِ الرزقِ وهو يقولُ : اللّهم ارزقْنى . وقد علم أن السماءَ لا تمطرُ ذهبا ولا فضة ، ولكن الله يرزقُ بعضَهم من بعض . » فكل إنسان يريد أن يدرك حظه من الحياة ، ويعيش سعيدا من غير سعى وعمل هو جاهل أحمق . يقول الشاعر العربى :

ومن أراد العلا عفوا بلا تعب ... قضى ولم يقضِ من إدراكها وطَرا[2]
لا بد للشهد من نحل يمنّعه ... لا يجتنى النفع من لم يحمل الضررا

ولما كان الدين الإسلامى قد رفع من شأن العمل ، ورغب فيه ، وضع له نظاما

(١) يقصد رسول الله يكفها عن الحرام . (٢) حاجة ، شيئا .

يحقق الغاية منــه ، وهو ألا يكون بإرهاق النفس ، وتحميل الجسم ما هو فوق طاقته ، فذلك مما يؤدى ولا شك إلى ضعف البدن ، وعجزه عن العمل . والعمل كما وضع الدين نظامَه يكون بالمواظبة والإتقان والإخلاص . والرسول يقول : « أحبُّ الأعمال إلى اللهِ أدومُها وإنْ قلَّ . »

وغيرُ شك أن كل أمةٍ مجــدة نشيطة عاملةٍ تتسع أرضها ، ويعظم شأنها ، وتَخفُق ألْويتها فى البر والبحر ، وعندئذ تروج تجارتها ، وتنتشر لغتها ، ويسيح أبناؤها فى أقطار الأرض طالباً للعيش وكسب المال . وبقدر ما تــكون عليه الأمة من نشاط وعمل وكفاح يكون نصيبها من خير الدنيا ونعيمها .

وقد أصابت الأمة العربية بالعمل فى عصورها الزاهرة حظًّا عظيما ؛ فهــذا أبو بكر رضى الله عنه كان بزّازاً يبيع الثياب . وفى اليوم الذى بويع فيه بالخلافة خرج إلى السوق سعياً وراء الرزق مع أنه كان من الأثرياء قبل الإسلام ، وأنفق ثروته فى سبيل الإسلام — فعارضه الصحابة فى ذلك ؛ خوفاً من أن تَشْغلَه أمور التجارة عن النهوض بأعباء الخلافة ، وفرضوا له كفايته من بيت المال . وكان عمر سمساراً . وكان عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب يشتغلان بالتجارة . وكان عمرو بن العاص جزاراً .

الإسلام دين عمل :

فالدين الإسلامى دين عمل، ويحثُّ على العمل . وكل أمة تستمرئُ الــكسل وتُؤْثِرُ الراحة — خليق بهــا أن تتوارى ، وأن تتخلف عن ركب الحياة . وقد أوعد الرسول — صلوات الله عليه — الــكسلان بأشد العقاب ،فقال:«أشدُّ الناسِ عذاباً يوم القيامة المَــكْفِىُّ الفارغُ . » والمَــكْفِىُّ : هو الذى يكفيه غيره ضروراتِ العيش . والفارغ : هو المتعطل .

وكان لأبى الأسود الدؤلى ابن يقال له أبو حرب ، فلزم منزل أبيه فى البصرة ، لا ينتج أرضاً ، ولا يطلب رزقاً ، فعاتبه أبوه فى ذلك فقال : « إن كان لى رزق فسيأتينى، فقال أبو الأسود :

وما طلبُ المعيشة بالتَّمنِّى ولكن ألق دلوك فى الدلاء
تجىء بملئها طَوراً[1] ، وطَوراً تجىء بِحَمأةٍ[2] وقليل ماء

وبهذا أرشد أبو الأسود ابنه إلى المعنى المقصود من التوكل ، وأن المعيشة تكون بالعمل والكد وبذل الجهد والتجارة ، فتارة يكسب الإنسان كثيراً ، وتارة يكسب قليلا .

فالتشجيع على العمل ، والسعى فى طلب الرزق ، والاعتماد على النفس فى البحث عن العيش واجب كل الوجوب ؛ فالعمل أقتل دواء للفقر ، وأنجع علاج للفاقة . وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على العمل؛ فقال : « إن اللهَ كتبَ عليكم السعىَ فاسعَوْا . » فالحياة ليست يوم عيد ، ولا يوم حداد ، وإنما هى يوم عمل .

وإننا الآنَ سائرون بسرعة نحو مكافحة الفقر ، بنشر الصناعات المختلفة ، وإنشاء المصانع الكثيرة ، وتنظيم العلاقة بين ملاك الأراضى والمستأجرين ، والعمل على رفع مستوى المعيشة بين الفقراء ، قال رسول الله : « اتخذوا لَدى الفقراءِ صنائع[3] فإن لهم الدولةَ يوم القيامة . » فالرسول الكريم يأمر بالإحسان إلى الفقراء ، وإعطائهم حقهم ، والتفكير فى شئونهم ، ومد يد المساعدة لهم .

الإسلام يمجد العمل :

إن الإسلام يمجد العمل ، ويكثر من الحث عليه فى مواضع كثيرة من الكتاب الحكيم ، وسنة الرسول الكريم . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا صلَّيتم الفجرَ فلا تناموا عن طلب أرزاقكم . » ويقول : « ما أكل أحدٌ طعاما قط خيرا من أن يأكلَ من عملِ يدِه . وإن نبيَّ اللهِ داودَ كان يأكلُ من عملِ يدِه . »

وروى أن عمر رضى الله عنه قال : « إنى لأرى الشابَّ فيُعجبنى ، فأسأل : هل له من كسب ؟ فيقال : لا ، فيسقط من عينى . »

---

(١) مرة .   (٢) طين أسود .

(٣) الصنيعة : المعروف ، والإحسان ، والطعام ، وجمعها صنائع .

ويحدثنا التاريخ أن الرومانيين لم يبيدوا ، ولم يسقطوا ، ولم يذهب سلطانهم الكبير إلا حين احتقروا العمل ، وألفوا البطالة والكسل ، واعتمدوا فى أعمالهم على العبيد والخدم . وقد حذر الرسول عليه الصلاة والسلام من البطالة وسوء نتائجها . فقال : « إذا قصّر العبد فى العمل ابتلاه الله بالهمّ » . فالهموم والأكدار من نتائج البطالة والكسل والفراغ .

العمل فى الإسلام أسمى منزلة من الانقطاع إلى العبادة :

ولم يكتف الدين الإسلامى بالحث على السعى والعمل ، بل جعل العمل أسمى منزلة من الانقطاع إلى العبادة ، فقد روى أن قوما قدموا على النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا :

إن فلانا يصوم النهار ، ويقوم الليل ، ويكثر الذكر ، فقال : « أيكم كان يكفى[1] طعامه وشرابه ؟ » :

فقالوا : كلنا . فقال : « كلكم خيرٌ منه » .

فالرسول يدعو إلى العمل ، والسعى فى طلب العيش الحلال .

وقد خرجت ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى[2] فقيرة ، مكسورة الجناح ، ولكن بالعمل ، والمثابرة على العمل ، استعادت قوتها وعظمتها ، واستطاعت أن تحارب العالم كله فى الحرب العالمية الثانية[3] . وكان العامل الألمانى إذا قيل له : إن بلادك فى حاجة إلى أن تشتغل عشر ساعات بأجر كذا أطاع ، وعمل بإخلاص ونفس راضية ، لينهض بأمته ويعيد إليها مجدها .

إن الإسلام – وهو دين الفطرة السليمة – عاب الكسل ، وذم القعود عن العمل ، فسبق بذلك المصلحين فى العصر الحاضر من أبناء الأمم الراقية ، الذين أخذوا يعنون بمقاومة الترف والدعة والتواكل ، والميل إلى الكسل ، بتشجيع الصناعة والهجرة إلى البلاد

---

(١) يقصد الرسول : يكفيه طعامه .   (٢) ١٩١٤ – ١٩١٨ م .   (٣) ١٩٣٩ – ١٩٤٥ م .

النائية ومجاهل الأرض ، ومكافأة المجيدين من العمال والصناع لتشجيعهم على زيادة الإنتاج والإخلاص فى العمل .

الضمان الاجتماعى :

فى البلاد المتمدنة يعطى المتعطل إعانة إذا ذهب إلى مكتب العمل ، يلتمس عملا لم يجده ؛ لأنه أثبت بهذا استعداده للعمل . فاستحق المكافأة من الدولة ، وتقرير إعانة له ولأسرته ، إلى أن يجد عملا . وتختلف الإعانة باختلاف عدد أفراد الأسرة . وبهذه الوسيلة يستطيع العاجز أن يعيش . ويتمكن المسن من أن يجد الوسائل الضرورية للحياة . وذلك هو الضمان الاجتماعى الذى نفكر فيه اليوم .

إن الإسلام وهذا موقفه من العمل لجدير بأهله فى مشارق الأرض ومغاربها ــ أن يكون شعارهم الكفاح المتصل ، والعمل الدائب ؛ فلقد كان هذا شأن سلفهم الصالح ، الذين نعموا بالحياة الطيبة ، والعيش الرغيد ، وظفروا بالقوة والسلطان ، والبطش الشديد .

وإذا درست حياة العظماء من الرجال ، وجدت أنهم بتوفيق الله فى العمل المستمر ، والكفاح والمثابرة والصبر ، وصلوا إلى ما نالوه من قوة وعظمة . ولله در شاعرنا الموهوب المرحوم أحمد شوقى حيث يقول :

وما نيل المطالب بالتمنى ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

وأعتقد أننا بالعمل المثمر ، مع الإخلاص ، والتفكير فى المصلحة العامة ، مصلحة الوطن وحده ، نستطيع أن نعيد مجد آبائنا ، وحضارة أجدادنا ، وعظمة أسلافنا . لقد كنا منار العالم فيما مضى فى العلوم والآداب والفنون . وبالإخلاص فى العمل لجمهوريتنا العربية المتحدة الفتية ، والتفكير فى الوطن العربى والوحدة العربية الشاملة ، نستطيع أن نقود العالم فى القريب العاجل ، كما كنا نقوده فى العلم والفن والحضارة والمدنية فيما مضى .

كل إنسان يجب أن يعمل :

العمل شرف . والعمل حق . والعمل واجب . والعمل هو الحياة . إن العمل الإنسانى هو المفتاح الوحيد للتقدم . هناك عمل واحد للرجل الواحد . إن ذلك لم يكن

إجراء عدل فقط ، ولـكنه محاولة للوصول إلى أن يكون الفرد المناسب فى العمل المناسب لخبرته وقدرته .

والحق أن كل فرد فى المجتمع مطالب بأن يعمل ، وينبذ حياة الـكسل ، وإضاعة الوقت فيما لا يفيد ، والنوم نهارا ، والعبث ليلا ، كما يفعل الأغنياء المتعطلون بالوراثة . وإن الأمة تنتظر من كل وطنى أن يؤدى رسالته ، ويقوم بواجبه فى الحياة ، فى الناحية التى أعد نفسه لها ، سواء أكان غنيا أم فقيرا ، رفيعاً أم وضيعاً ، فالأمة فى حاجة إلى مواهب كل فرد من أبنائها ؛ لتنتفع بها فى السلم والحرب ، وفى الرخاء والشدة . وإذا كان للإنسان الحق فى أن يعمل ، فليس له الحق فى أن يقضى حياته بغير عمل .

إن كل إنسان مدين بحياته لبلاده ، فيجب أن تنتفع بلاده بتلك الحياة ، وأن يفرض العمل على كل إنسان ، فلا يسمح لأحد أن يـكون متعطلا ، ولو كان غنيا بالوراثة . ولـكى ننهض بالوطن سريعاً يجب أن يعمل كل فرد من أفراده فيما خلق له ، ويهجر حياة النوم والخمول والـكسل ، والجلوس بغير عمل ؛ فليس الوقت من ذهب فحسب ، ولـكن الوقت هو الحياة . فمن أضاع وقته فقد أضاع حياته . فليعمل كل فرد منا ، حتى يكون له أثر خالد فى الحياة .

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلةٌ له   إن الحياةَ دقائق وثوانِ

وإن نظرة واحدة إلى المقاهى لدينا تبين لنا أنه ليس للوقت قيمة فى نظر الجالسين فيها باستمرار ، بغير عمل . فإذا حـكمنا على الأمة بما نحـكم به على هؤلاء المتعطلين الذين لاعمل لهم ــ كان الحـكم قاسياً ، يأباه كل عربى حر ، يفـكر فى الوطن ، ويحيا للوطن ، ويخلص للعروبة ، ويعمل للنهوض ببلاده .

حق كل مواطن فى عمل يناسب استعداده وتخصصه :

ومن الحقوق الأساسية التى كفلتها (الديمقراطية) لـكل فرد : حق كل مواطن فى عمل يناسب كفايته واستعداده ، والعلم الذى يتخصص فيه . إن العمل فضلا عن أهميته الاقتصادية فى حياة الإنسان ــ تأكيد للوجود الإنسانى ذاته ، ومظهر للحياة الحقة .

وقد برهنت التجارب على أن العربى المصرى إذا أعطى الفرصة استطاع أن يكون صانعاً ماهراً ، أو تاجرا موفقا ، أو زارعا ناجحا فى عمله .

وإن الصحراء الشرقية تفيض بالمعادن ، وإن فى أسوان كنوزا ثمينة من الحديد وغيره ، وبين البحر الأحمر ووادى النيل مناطق بهـا من المعادن الذهب والفضة ، والنحاس والزمرد والكروم ، والزنك والرصاص والنيكل ، والقصدير والمنجنيز ، والنترات والمغنزيوم والفوسفات والكبريت وغيرها . وليس فى استطاعتنا الانتفاع بهذه الثروة ، وهذه الكنوز الثمينة ، إلا إذا كثر لدينا العلماء المكافحون ، والعمال الماهرون ، واستطعنا استخراج هذه الكنوز من باطن الأرض ، والانتفاع بها فى الصناعة والتجارة .

من الخطأ إهمال الناحية العملية :

وإن كان هناك عيب فى مدارسنا الزراعية والصناعية والتجارية فهو العناية بالنظريات أكثر من العناية بالناحية العملية . وربما كان هذا أكبر سبب فى عدم إقبال المتخرجين فى هذه المدارس على العمل الحر فى حياتهم العملية . ولسنا فى شك مطلقاً من أن العلم قوة ، لا ، بل أكبر قوة فى يد الإنسان ، وهو قوة اليوم كما كان قوة بالأمس ، وسيكون قوة إلى الأبد ، ولكننا فى حاجة إلى العلم الذى يؤدى إلى العمل ، والعلم الذى يمكن تنفيذه والانتفاع به عمليًّا بتحويله إلى عمل . فالعلم بلا عمل لا خير فيه ، مثله مثل شجرة بغير ثمر. قال الرسول الكريم : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم » . وقال : « كونوا للعلم دعاة ، ولا تكونوا له رواة » ، أى ادرسوا العلم واعملوا به ، ولا تكونوا له كالرواة يقولون ما لا يفعلون. وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : « يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل » . وما الفائدة من دراسة الكهربا إذا كان المتعلم لا يستطيع أن يصلح الكهربا وقت انطفاء النور ؟ وما الفائدة من معرفة النجارة إذا كان النجار لا يستطيع أن يصلح بابا أو نافذة ؟ وما فائدة التعليم الزراعى إذا كنا لا نستطيع أن نصل إلى مضاعفة الإنتاج ، ونتغلب على آفات الزراعة ؟

ويتوقف نجاح الصانع فى حياته العملية على إعداده المهنى والعلمى ، وعلى حسن استعداده ، وسداد تفكيره ، وأمانته فى عمله ، ومتانته فى خلقه . ولا يكفى العلم للنجاح فى الحياة ، بل يجب أن يصحب العلم بالعمل ، وحسن الخلق ، وصواب الرأى ، والتفكير فيما يجب أن يفعل ، وما ينبغى أن يترك . قال المرحوم حافظ إبراهيم :

لا تحسبن العلم ينفع وحده   ما لم يتوج ربه بخلاق

وإذا نظرنا إلى التاريخ وجدنا أن مصر القديمة لم تكتف بالزراعة ـ كما اكتفينا نحن خطأ بسبب الاحتلال ؛ لأنه أدخل فى نفوس المصريين أن مصر بلد زراعى ، ولا يصلح إلا للزراعة . ـ بل عنيت بالصناعة والتجارة ، فكانت ماهرة فى صناعتها ، غنية بتجارتها ، ثرية بمنتجاتها . وإن زيارة واحدة لدار الآثار المصرية تبرهن لنا على أن المصريين لهم عقول يبتكرون بها ، وأيد ماهرة يستخدمونها ، وعيون فاحصة يلحظون بها . فلا عجب إذا عرفوا قديماً بالمهارة الصناعية ، وحب الفن والجمال ، والعلم والعمل ، فى وقت كانت فيه الأمم المتمدنة اليوم فى ظلمة وجهالة .

فالإسلام يدعو إلى العمل ، والسعى وراء الرزق ، ولا يدعو إلى الخمول والكسل . ويعد العمل حقا للإنسان ، وواجبا عليه . فالعمل هو الحياة . والحياة هى العمل . ومن العدالة أن يكون هناك عمل واحد للرجل الواحد ، فلا يوضع شخص فى عدة شركات ، فى حين أن الآخر لا يجد أى عمل يعمله . ومن الحكمة أن يختار الرجل الصالح للعمل الذى يجيده ، حتى ننهض ونصل إلى القمة فى أقصر وقت ممكن .

الفصل الثالث عشر

هذا هو الإحسان فى الإسلام

مثل للإحسان فى الإسلام :

لقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائة ألف درهم فى يوم واحد ، يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما ، وإن درعها[1] لمرقوع . وتقول لها الجارية : لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفطرين عليه ، وكانت صائمة .

فقالت عائشة : لو ذكّرتنى لفعلت .

عبد الله بن عباس كثير الإحسان :

واجتمع قراء البصرة عند عبد الله بن عباس وهو حاكم بالبصرة . وقالوا : إن لنا جاراً كثير الصيام ، كثير التهجد ، يتمنّى كل واحد منا أن يكون مثله فى تعبده ، وقد زوّج بنته لابن أخيه ، وهو فقير ، وليس عنده من المال ما يجهزها به .

فقام عبد الله بن عباس فأخذ بأيديهم ، وأدخلهم داره ، وفتح صندوقاً ، فأخرج منه ست بِدَر[2] .

وقال لهم : إننى لا أريد أن أشغله عن عبادته وتهجُّده وصيامه . ويجب أن نكون أعواناً له على تجهيزها ، حتى لا نشغل مؤمناً عن عبادة ربه . وليس بنا من الكبر ما يمنعنا عن خدمة أولياء الله تعالى . فأخذوا المال ، وجهّزوا به ابنة الرجل الصالح .

عثمان بن عفان وحبه للإحسان :

وكان لعثمان بن عفان رضى الله عنه ـ على طلحة بن عُبيد الله خمسون ألف درهم . فخرج عثمان يوماً إلى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهيّأ[3] مالك ، فاقبضه .

فقال عثمان : هو لك يا أبا محمد ، معونة لك على مروءتك .

---

(١) قميصها . (٢) جمع بَدْرَة ، والبَدْرَة عشرة آلاف دِرْهم . (٢) أُعِدَّ وجُهِّزَ .

طلحة بن عبيد الله وحبه للإحسان :

وقالت سعدى بنت عوف : دخلت على طلحة ، فرأيت منه ثِقْلَا[1] ، فقلت له : مالك ؟

فقال : اجتمع عندى مال ، وقد غمَّنى .

فقلت له : إنه لا يَغُمُّ ، ادع قومك ، (وتبرع به لهم) .

فقال : ياغلام ، علىَّ بقومى .

فحضر قومه ، وقسم ماله عليهم ، واستراح باله ، وهدأت نفسه بعد أن وزعه بينهم .

فسألت سعدى الخادم : كم كان المال ؟

فقال : أربعمائة ألف درهم .

فطلحة كان زاهدا فى المال ، محبًّا للإحسان .

وجاء أعرابى إلى طلحة ، فسأله وطلب منه المساعدة ، وتقرب إليه بقرابته له ، وذكر له أنه من ذوى الأرحام .

فقال له طلحة : إن لى أرضاً قد حدد لها عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ ثلاثمائة ألف درهم ثمناً لها ، فإن شئت فخذ الأرض لك ، وإن شئت بعتها لعثمان ، ودفعت لك ثمنها .

فقال : إنى أفضل ثمنها .

فباعها طلحة لعثمان ، ودفع الثمن إلى الأعرابى ؛ لأنه محتاج ، وفى التصدق عليه صلة لقريب من ذوى الأرحام .

فطلحة بن عبيد الله كان محسنًا إلى الفقراء ، زاهدا فى المال والدنيا .

(١) رأيت أنه فى ضيق وغم .

الليث بن سعد وإحسانه إلى الفقراء بسخاء :

وقيل إن هرون الرشيد بعث إلى مالك بن أنس رحمه الله خمسمائة دينار . فبلغ ذلك الليث بن سعد ، فأرسل إليه ألف دينار .

فغضب هرون الرشيد ، وقال لليث : إنى أعطيته خمسمائة ، فكيف تعطيه ألفا ، وأنت أحد أفراد رعيتى ؟

فأجاب الليث : يا أمير المؤمنين ، إن لِى من الدخل كل يوم ألف دينار ، فاستحييت أن أعطى مثل مالك بن أنس أقل من دخل يوم .

ويقال إنه لم تجب عليه الزكاة مع أن دخله كل يوم كان ألف دينار ؛ لأنه كان يتبرع بها للمحتاجين .

وحكى أن امرأة سألت الليث بن سعد ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ شيئاً من العسل .

فأمر لها بزِقّ [1] من العسل .

فقيل له : إنها كانت تقنع بأقل من هذا .

فقال : إنها سألت على قدر حاجتها ، ونحن نعطيها على قدر النعمة التى أنعم الله بها علينا .

وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاثمائة وستين مسكينا .

وقال أبو محمد بن الواقدى : حدثنى أبى أنه رفع رقعة (رسالة) إلى المأمون ، يذكر فيها كثرة الدين ، وقلة صبره عليه .

فوقع المأمون على ظهر رقعته : إنك رجل اجتمع فيك خصلتان : السخاء والحياء

---

(١) الزِّقُّ : السِّقاء ، والسِّقاء يكون للبن والماء ، والمراد أنه أعطاها كمية كبيرة من العسل .

فأما السخاء فهو الذى أطلق مافى يديك ، وأما الحياء فهو الذى يمنعك عن تبليغنا ماأنت عليه . وقد أمرت لك بمائة ألف درهم .

منع الموجود سوء ظن بالمعبود :

قال محمد بن عباد المهلبي : دخل أبى على المأمون فوصله [1] بمائة ألف درهم ، فلما قام من عنده تصدق بها كلها .

فأُخبِر المأمون بذلك . فلما عاد [2] إليه عاتبه المأمون فى ذلك .

فقال : يا أمير المؤمنين ، منع الموجود سوء ظن بالمعبود [3] .

فوصله بمائة ألف أخرى .

وذهب رجل إلى سعيد بن العاص ، فطلب منه المعونة .

فأمر له بمائة ألف درهم ، فبكى .

فقال له سعيد : ما يبكيك ؟

قال : أبكى على الأرض أن تأكل مثلك . فأمر له بمائة ألف أخرى .

الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر مُثُلٌ للإحسان :

خرج الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر حجاجا ، فجاعوا وعطشوا فى أثناء الطريق ، فمروا بامرأة عجوز وهى فى خيمتها ، فقالوا لها : هل من شراب نشربه ؟

فقالت : نعم . فنزلوا ، وأبركوا الجمال حتى يستريحوا . ولم يكن لديها إلا شُويهة (شاة صغيرة) بجانب الخيمة .

فقالت لهم : احلبوها واشربوا لبنها حتى يزول عطشكم ، ففعلوا ذلك . ثم سألوها : هل من طعام نأكله ؟

قالت : لا ، ليس لدى إلا هذه الشاة ، فليذبحها أحدكم ، حتى أهيئ لكم ماتأكلون من الطعام .

---

(١) منحه وأعطاه . (٢) رجع . (٣) الله جل شأنه .

فقام إليها أحدهم ، وذبحها ، وسلخها ، ثم أعدت لهم طعاما ، فأكلوا وأقاموا حتى استراحوا وتحسن الجو .

فلما قاموا لمتابعة السفر قالوا لها : نحن من قريش ، نريد هذا الطريق . فإذا رجعنا إلى المدينة سالمين فزورينا كى نصنع بك خيرا .

ثم ارتحلوا ، وأقبل زوجها ، فأخبرته بخبر الضيوف والشاة ، فغضب زوجها ، وقال لها : ويلك[1] أتذبحين شاتى لقوم لاتعرفينهم ، ثم تقولين إنهم جماعة من قريش ، ونحن لا نملك سوى هذه الشاة ؟

وبعد مدة ألجأتهما الحاجة والضرورة إلى دخول المدينة المنورة ، فدخلاها ، وجعلا يعملان لكسب عيشهما الضرورى للحياة .

فمرت المرأة العجوز ببعض طرق المدينة ، فإذا الحسن بن على جالس على باب داره ، فعرف العجوز ، وهى لم تعرفه . فبعث[2] غلامه ، فنادى العجوز . وقال لها الحسن : يا أَمَةَ[3] الله أتعرفيننى ؟

قالت : لا .

قال : أنا ضيفك يوم كذا وكذا .

فقالت العجوز : بأبى أنت وأمى[4] . أأنت هو ؟

قال الحسن : نعم ، كنت ضيفك .

ثم أمر الحسن فاشتروا لها ألف شاة ، وأمرلها معها بألف دينار . وأرسلها مع غلامه إلى أخيه الحسين رضى الله عنهما .

فقال لها الحسين : ماذا أعطاك أخى ؟

قالت : ألف شاة ، وألف دينار .

---

(١) عذاب لك . (٢) أرسل . (٣) الأمة : ضد الحرة ، ومعناها هنا أيتها السيدة .
(٤) أفديك بأبى وأمى .

فأمر لها الحسين أيضا بألف شاة ، وألف دينار . ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله ابن جعفر . فقال لها : بكم وَصَلكِ [1] الحسن والحسين ؟

قالت : بألفى شاة ، وألفى دينار .

فأمر لها عبد الله بن جعفر بألفى شاة ، وألفى دينار ، وقال لها : لو بدأتِ بى لأتعبتهما .

فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة ، وأربعة آلاف دينار .

وجزاها الله أحسن الجزاء .

شغف الإمام الشافعى بالإحسان والمحسنين إلى الفقراء :

قال الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ : لا أزال أحب حماد بن أبى سليمان ؛ لشىء بلغنى عنه . فقد كان ذات يوم راكبا حماره ، فانقطع زر (ردائه) ، فمر على خياط ، فأراد أن ينزل إليه ليصلح له الزر .

فقال الخياط : والله لا نزلتَ .

وقام الخياط إليه ، وأصلح له زره المقطوع .

فأخرج إليه حماد صرة فيها عشرة دنانير ، فسلمها إلى الخياط ، واعتذر إليه من قلتها .

وأنشد الشافعى رحمه الله لنفسه :

يالهف قلبى على مال أجـــود به ... على المُقِلِّين [2] من أهـــل المروءات
إن اعتـــذارى إلى من جاء يسألنى ... ماليس عندى ـ لَمِن إحدى المصيبات

وقال الربيع بن سليمان : أخذ رجل بركاب الشافعى رحمه الله ، فقال : ياربيع ، أعطه أربعة دنانير ، واعتذر إليه بالنيابة عنى .

وقال الربيع : قدم الشافعى من صنعاء إلى مكة ومعه عشرة آلاف دينار ،

---

(١) أعطاك . (٢) الفقراء .

فضرب[1] خِباءَهُ فى موضع خارج مكة ، ونثر الدنانير على ثوب ، ثم أقبل على كل من دخل عليه يقبض له قبضة ويعطيه ، واستمر يعطى كل من رآه حتى صلى الظهر ، ونفض الثوب ولم يبق عليه شىء . وتصدق بكل ما كان معه .

وقيل : أراد الإمام الشافعى الخروج إلى مكة ، وكان معه مال . وقلما كان يمسك شيئا من المال لسماحته وحبه للإحسان إلى المحرومين والمساكين .

فقال له أحد أصدقائه : ينبغى أن تشترى بهذا المال ضيعة تكون لك ولأولادك .

فخرج الشافعى ، ثم رجع ، فسئل عما كان معه من الأموال .

فقال بنيت بمنى مَضْرَبًا[2] يكون لأصحابنا إذا حَجُّوا ، يستطيعون أن ينزلوا فيه.

وأنشد الشافعى رحمه الله يقول :

أرى نفسى تتوق[3] إلى أمور   يقصر[4] دون مبلغهن[5] مالى
فنفسى لا تطاوعنى ببخل   ومالى لا يبلِّغنى فَعالى[6]

وروى أن الشافعى رحمه الله لما مرض مرض موته بمصر قال : مُروا فلانا يغسلنى . فلما توفى بلغه خبر وفاة صديقه الشافعى ، فحضر وقال : ائتونى بمُذكرته ، فأُتِىَ بها ، فنظر فيها ، فوجد أن على الشافعى سبعين ألف درهم ، فكتبها على نفسه ، وأدَّاها بالنيابة عنه .

من الإحسان فى الإسلام :

ذات مرة مرض أحد المحسنين ، فلم يزره إخوانه وأصدقاؤه ، فسأل عن السبب فى انقطاعهم عن زيارته .

فقيل له : إنهم يستحيون من زيارتك ؛ لأنهم مدينون لك بكثير من المال . فلخجلهم مما عليهم من الدين لك لم يزوروك .

---

(١) أقام خيمته ونصبها . والخباء يصنع من الوبر أو الصوف ، وينصب على عمودين أو ثلاثة .

(٢) دارا للضيافة ينزل فيها الفقراء . (٣) تشتاق . (٤) يعجز . (٥) الوصول إليها .

(٦) الفعال بالفتح : الكرم ، ما أريده من الأعمال الخيرية .

فقال المريض المحسن : أَخْزَى الله مالًا يمنع الإخوان والأصدقاء من الزيارة .

ثم أمر مناديا ينادى فى البلدة : من كان عليه دَين لفلان فهو منه برىء . وقد تنازل عنه كله لإخوانه من أهل البلدة .

فنى المساء كثر الزائرون له فى بيته ، ولم يتأخر أحد عن السؤال عنه وزيارته ، ودعوا جميعا له بالشفاء العاجل ، والصحة التامة . فشفاه الله وعافاه .

وقيل : صلى أحد الصالحين الفجر فى مسجد الأشعث بالكوفة . فلما انتهى من صلاته وضع خادم المسجد أمامه حُلة وحذاء ، فقال الرجل الصالح : لمن هذه الحلة ؟ ولمن هذا الحذاء ؟ فأجابه الخادم : إن الأشعث بن قيس الكندى قدم البارحة من مكة فأمر أن يعطى كل من صلى الفجر فى المسجد حلة وحذاء .

فالمحسنون كانـوا كثيرين . وحب الإحسان كان مسيطرا على نفوس المسلمين الأولين .

أيُحسن والدنا وهو ميت ، ولا نُحسن ونحن أحياء ؟

كان بإحدى المدن رجل عُرف بحب الخير ، ومساعدة الفقراء . وقد اعتاد ذلك الرجل أن يجمع من المحبين للخير والإحسان شيئا من المال ليساعد به من يعرفه من المحتاجين والمحرومين .

وذات يوم ولد لأحد الفقراء طفل صغير ، فذهب إلى الرجل المحب للخير ، وأخبره أنه قد ولد له طفل ، وليس معه شىء ينفقه على زوجته وطفله .

فقام الرجل مع الفقير ، ودخلا على جماعة من الناس ، وشرح الرجل لهم حال الفقير ، وطلب منهم التبرع له بما تجود به نفوسهم . فلم يتبرع له أحد منهم بأى شىء ، وطمس الله على قلوبهم .

فذهب الرجل إلى قبر ميت كان من المحسنين ، وجلس عند القبر ، وقال : رحمك الله رحمة واسعة ، فقد كنت تحسن إلى الفقير ، وتعطف على المسكين ، ولم ترد أحدا

فى حياتك . وقد دُرت اليوم على جماعة من الناس ، وطلبت منهم أن يساعدوا ذلك الفقير ، الذى ولد له ولد ، وليس معه شىء من المال . فلم يجُدْ عليه أحد بأى مساعدة .

ثم قام الرجل الخيِّرُ ، بعد الانتهاء من زيارة قبر المحسن . وأخرج دينارا كان فى جيبه ، وقسمه نصفين ، وأعطى الفقير نصفه ، واحتفظ بالنصف الباقى فى جيبه ، وقال له : أنفق هذا إلى أن يفتح الله علينا بشىء لك .

فأخذ الفقير نصف الدينار ، وانصرف ، واشترى الضرورى مما تحتاج إليه زوجته وطفله المولود .

أقبل الليل ، ونام الرجلُ المحب للخير وهو يفكر فيما حدث للفقير المسكين ، فرأى فى الُحلم تلك الليلة الرجل المحسن الميت الذى زاره فى قبره ، وقال له : قد سمعت كل ما قلته حينما زرتنى . فاذهب إلى منزلى ، وقل لأولادى : احفروا فى مكان الكانونِ (الموقد) ، وأخرجوا قدرا من تحته . وستجدون فيها خمسمائة دينار . فخذها واحملها إلى ذلك الرجل المسكين .

استيقظ الرجل المحب للخير من نومه ، وقد عجب لهذا الحلم . وانتظر حتى طلعت الشمس . وفى الصباح ذهب إلى بيت الميت ، وقص على أولاده القصة كلها .

فقالوا له اجلس ، وحفروا فى موضع الكانون ، فوجدوا القدر فى ذلك المكان ، وأخرجوا منها الدنانير ، وعدُّوها ، فوجدوها خمسمائة دينار كما قيل لهم . فوضعوها بين يدى الرجل الخيِّر ، المحب لفعل الخير .

فقال لهم : هذا ما لكم . وهو حق لكم . فتصرفوا فيه كيف شئتم . وليس لرؤياى أى حكم عليكم .

فقالوا : أيحسن أبونا إلى الفقراء وهو ميت ، ولا نحسن ونحن أحياء ؟

وألحوا عليه . وصمموا على أن يأخذ القدر ، ويحمل الدنانير التى فيها إلى

الفقير الذى ولد له طفل ، ولا يجد الضروريات للأم وطفلها . ونفذوا ما أمر به أبوهم وهو ميت .

فأخذ النقود ، وحملها إلى أبي المولود ، وذكر له كل القصة ، وما رآه فى حلمه ، وما قاله أولاد المحسن الميت .

فأخذ الفقير دينارا واحدا وقنع به . ولم يأخذ غيره . ولم يكتف بذلك ، بل قسم الدينار نصفين ، فأعطى الخيِّر النصف الذى أعطاه إياه ، واحتفظ لنفسه بالنصف الباقى من الدينار .

وقال : إن هذا يكفينى والحمد لله . ولا أحتاج لأكثر منه . وخذ الباقى فى القدر ، وتصدق به على الفقراء والمساكين .

ولا أدرى أى هؤلاء أكثر كرما وسخاء . وهذا مثل حيٌّ للإحسان والقناعة والرضا والوفاء فى الإسلام .

وقد رويت هذه القصة عن الشافعى رضى الله عنه وهو طالب بمكة ، بعبارة موجزة .

نِعْمَ ما أدَّبك أهلك :

خرج عبد الله بن عامر من المسجد يريد منزله ، وهو وحده ، ولم يكن معه أحد .

فقام إليه غلام من ثقيف ، فمشى إلى جانبه .

فقال له عبد الله : ألك حاجة يابنى ؟

قال : صلاحُك وفلاحك . لقد رأيتك تمشى وحدك وليس معك أحد . ففكرت فى أن أقيك بنفسى وأصحبك إلى منزلك .

فأخذ عبد الله بيده ، ومشى معه إلى منزله . ثم أخذ ألف دينار ، ودفعها إلى الغلام مكافأة له على حسن أدبه وتفكيره ، وقال له : انتفع بهذا المال فى شئون حياتك . فنعم ما أدَّبك أهلك . ونعم تربية أهلك لك .

الإحسان بسخاء:

قال الأعمش : كان عندى شاة أستعين بلبنها على إطعام أولادى . فرضت تلك الشاة ، وطال مرضها . فكان خيثمة بن عبد الرحمن يزورها بالغداة والعشى[1] ، والصباح والمساء. ويسألنى : هل أكلت علفها ؟ كيف صبر أولادك منذ فقدوا لبنها بسبب مرضها ؟

وكنت أجلس على لبد[2] .

وكان خَيْثَمةُ يضع تحت اللُّبَّادة شيئا من النقود كلما زارنى فى الصباح والمساء. ويقول لى وهو خارج خذ ما تحت اللبادة . واستمر يحسن إلىّ فى أثناء مرض الشاة ، حتى وصل مجموع ما تبرع به ثلاثمائة دينار أو أكثر ، حتى تمنيت أن الشاة لا تبرأ ولا تشفى من مرضها .

جزاء الإحسان:

كان سعيد بن سالم رجلا كثير الإحسان ، جوادا سخيًّا ، لا يرد سائلا ، ولا يستكثر شيئا يقدمه للسائل الفقير .

ولقد بلغ من حبه للإحسان أنه إذا لم يجد لديه شيئا يتبرع به للمحتاج كتب على نفسه صَكا[3] للسائل ، وأعطاه السائل . فإذا يسّر الله لسعيد ، قام بدفع ما كتبه على نفسه من المال للفقير .

استمر سعيد على هذه الحال حتى كثرت ديونه . فدخل ذات يوم على سليمان بن عبد الملك بن مروان . فلما نظر إليه سليمان عرف حاله ، وأحس بحاجته إلى المعونة ، وتمثل بهذا البيت فقال :

---

(١) الغداة : الصباح . والعشى : المساء . (٢) نوع من الصوف يجلس عليه الإنسان .
(٣) ورقة يعترف فيها بأنه مدين بقدر معين من المال .

إنى سمعت مع الصباح مناديا يا من يعين على الفتى المِعوانِ[(١)]

ثم سأله سليمان : ما حاجتك يا سعيد ؟

فأجاب سعيد : سداد دَيْنى .

سأل سليمان : وكم دَينك ؟

فأجاب سعيد : ثلاثون ألف دينار .

فقال سليمان : لك سداد دينك ، ومثله ، وأعطاه ستين ألف دينار ذهبا .

الشعور نحو الصديق والإحسان إليه :

ذات يوم زار رجل صديقا له ، فدق عليه الباب يستأذنه . فقال الصديق للزائر : خيرا ، ما الذى دعاك إلى المجىء فى هذا الوقت من الليل ؟

فقال : إننى مدين بأربعمائة درهم ، وأريد أن أدفعها لأصحابها .

فوزن الصديق له أربعمائة درهم ، وقدمها لصديقه بنفس راضية .

فشكر الرجل لصديقه . وودعه وهو خارج .

وعاد الصديق يبكى ، فظنت امرأته أنه يبكى لأنه أعان صديقه . وقالت له : لِمَ أعطيته إذا كان الإعطاء مضايقا ومؤلما لك .

فأجابها : إننى لم أبك لأننى أعطيته ، بل أبكى لأننى لم أشعر بحاجته ، ولم أعرف حاله من قبل ، حتى احتاج واضطر إلى أن يفاتحنى ، ويشرح لى ما فى نفسه . وكان يجب أن ألحظ أمره ، وأعرض عليه المساعدة بنفسى ، كى لا يضطر إلى السؤال والخجل . رحم الله المحسنين ، وغفر لهم أجمعين .

منحة لأبى تمام :

دخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات من الشعر امتدحه بها ، فوجده

---

(١) المعوان : كثير الإعانة والإحسان .

عليلا ، فقبل منه المَدْحَة[١] ، وأمر حاجبه بإعطائه ما يصلح حاله . وقال : عسى أن أقوم من مرضى فأ كافئه .

فأقام أبو تمام شهرين ، فأوحشه[٢] طول المقام[٣] ، فكتب إليه يقول :

إن حراما قبول مَدحَتِنا وتركُ ما نرتجى من الصفَدِ[٤]

كما الدراهم والدنانير فى البيـــع حرامٌ إلا يَداً بِيَدِ

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه : كم أقام أبو تمام بالباب ؟

قال الحاجب : شهرين .

قال إبراهيم : أعطه ثلاثين ألفاً ، وجئنى بدواة ، فكتب إليه :

أعجَلْتَنا فأتاك عاجــل برِّنا قُلاًّ[٥] ، ولو أمهلتنا لم نُقْلِلِ[٦]

فخذ القليل ، وكن كأنك لم تقل ونقول نحن : كأننا لم نفعـل

الإحسان العربى الإسلامى :

قدم رجل من قريش من السفر ، فمرّ برجل من الأعراب على قارعة الطريق ، قد أقعده الدهر ، وأضرّ به المرض .

فقال الأعرابى : يا هذا ، أعِنّا[٧] على الدهر .

فقال القرشى لغلامه : ادفع إليه ما بقى معك من النفقة .

فصبّ الغلام فى حجر الأعرابى أربعة آلاف درهم ، فذهب الأعرابى لينهض ويقف ، فلم يقدر بسبب ضعفه ، فبكى .

فقال له القرشى : ما يبكيك ؟ لعلك استقللت ما أعطيناك .

---

(١) القصيدة التى مدحه بها . (٢) ضايقه وأحزنه .
(٣) الإقامة والانتظار . (٤) العطاء .
(٥) قليلا . (٦) لم نعط القليل . (٧) ساعدنا .

قال الأعرابى : لا ، ولكنى تذكرت ما تأكل الأرض من كرمك وإحسانك فأبكانى .

وقيل : إن عبد الله بن عامر اشترى من خالد بن عقبة داره التى فى السوق بتسعين ألف درهم .

فلما جاء الليل سمع عبد الله بكاء أهل خالد .

فقال عبد الله لأهله : ماذا حدث لهؤلاء ؟

قالوا : إنهم يبكون من أجل دارهم التى بيعت لك .

فقال : ياغلام ، اذهب إليهم ، وأخبرهم أن المال والدار لهم جميعاً .

عربى مسلم يحسن وهو ميت :

وحكى أن قوما من العرب جاءوا إلى قبر ميت كريم من كرمائهم للزيارة . فنزلوا عند قبره ، وباتوا عنده . وقد جاءوا من سفر بعيد . فرأى رجل منهم فى النوم صاحب القبر وهو يقول له : هل لك أن تبادل بعيرك بنجيبى [1] ؟

وكان الكريم الميت قد ترك جملا نجيبا معروفا .

وكان لهذا الرجل الذى رأى صاحب القبر فى الحلم ـ بعير سمين ، فقال له فى النوم : نعم أبادلك .

فباعه فى النوم بعيره بنجيبه .

فلما تم بينهما فى الحلم عقد البيع قصد هذا الميت الكريم البعير السمين فنحره ، ثم انتبه الرجل من نومه واستيقظ ، فوجد الدم يَثِجُّ [2] من نحر بعيره . فالميت أراد أن يكرم زائريه وهو فى قبره .

(١) النجيب : خير نوع من الإبل ، وهو الذى يستعمل للسباق .

(٢) ثَجَّ الماءَ والدمَ : سَيَّلَه . يَثُجُّ : يَنصَبُّ بكثرة وهو متعد . والثَّجُّ أيضا : سَيَلانُ دماءِ الهَدْىِ ، وهو لازم . تقول منه : ثَجَّ الدمُ يَثِجُّ بالكسر .

فقام الرجل العربى فنحره وذبحه ، وقسم لحمه ، فطبخوه ، وأكلوا جميعا منه ، ثم رحلوا وسافروا وساروا .

فلما كان اليوم الثانى وهم فى الطريق استقبلهم ركبٌ[1] ، فقال رجل منهم : من منكم فلان بن فلان ؟ وسمّى ذلك الرجل ، الذى نحر الميت جملَه .

فأجاب : أنا .

فسأله : هل بعت لفلان الميت صاحب القبر شيئاً ؟

قال : نعم ، بعت له بعيرى ، وبادلته فى النوم بنجيبه .

فقال : هذا نجيبه فخذه ، وإنه أبى ، وقد رأيته فى النوم وهو يقول لى : إن كنت ابنى فادفع نجيبى إلى فلان بن فلان ، وذكر اسمه .

كرم مَعن بن زائدة وإحسانه :

كان مَعْن بنُ زائدة حاكما على العراقين[2] فحضر بابه بالبصرة شاعر من الشعراء ، فأقام مدة ، وأراد الدخول على معن ، فلم يُسْمَح له . فقال الشاعر يوما لأحد خدام معن : إذا دخل الأمير البستان فعرِّفنى .

فلما دخل الأمير البستان أعلَمَ الخادمُ الشاعر بذلك .

فكتب الشاعر بيتا من الشعر على خشبة ، وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان .

وكان معن قريبا من الماء ، فلما رأى الخشبة على سطح الماء أخذها وقرأها ، فإذا مكتوب عليها :

أياجودَ معنٍ ناجِ[3] مَعْناً بحاجتى   فما لى إلى معنٍ سواك شفيع

فقال معن : من صاحب هذه الخشبة ؟

---

(١) جماعة يركبون جمالا .   (٢) العراقان : الكوفة والبصرة ، من بلاد العراق .

(٣) تحدث معه سرا .

فدُعِيَ الشاعر ، وسأله معن : كيف قلت ؟ فقال قصيدته . فأمر له معن بعشر بِدَر [١] .

فأخذها الشاعر ، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه . فلما كان اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ، وقرأها ، وطلب الشاعرَ ، ودفع إليه مائة ألف درهم . فلما أخذها الرجل فكر فى الأمر ، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه . فخرج وذهب إلى حاله . فلما كان فى اليوم الثالث قرأ معنٌ ما كتب على الخشبة ، واستدعى الرجل ، فلم يجده الخدم .

فقال معن : حقٌّ علىّ أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالِى درهم ولا دينار .

---

(١) البَدْرة : عشرة آلاف درهم ، وجمعها بِدَر .

الفصل الرابع عشر

الإسلام ينادى بالتربية والتعليم

« علموا أولادكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم »

« حديث شريف »

الدين الإسلامى دين علم ونور ، لا دين جهالة وظلمة ؛ فأول آية نزل بها الوحى ، فيها أمرٌ للرسول بالقراءة ، وتكرير لذلك الأمر ، وتنويه بشأن العلم والتعليم نلمسه فى إسناد التعليم إلى الله :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ [1] . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ [2] . »

وقوله تعالى مخاطباً نبيه : « وقُلْ ربِّ زدْنى علماً . [3] »

وفى مواطن كثيرة نوه القرآن الكريم بشأن العلماء ، وما لهم من منزلة رفيعة فقال :

« هلْ يستوِى الَّذين يعلَمون ، والَّذين لا يعلَمون ؟ [4] »

وقال : « يَرْفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكُم ، وَالَّذينَ أُوتُوا العِلمَ دَرجاتٍ . [5] »

ودعا الرسول الكريم إلى التعليم وأوجبه فقال :

« علِّموا أَوْلادكُم ، فإنهمْ مخلوقونَ لزَمانٍ غَير زمانكم . »

ولم يقف عند الدعوة إلى نشر التعليم فحسب ، بل دعا إلى الاستمرار فى طلب العلم والتعلم ، والبحث والاطلاع فقال :

« لا يَزالُ الرَّجلُ عالماً ماطلَب العلم ، فإذا ظنَّ أنَّهُ قد عَلِم فقدْ جهلَ . »

---

(١) دم جامد . (٢) سورة العلق : ١ـ٥ . (٣) سورة طه : ١١٤

(٤) سورة الزمر : ٩ (٥) سورة المجادلة : ١١

الرسول يشجع التعليم :

وكان صلى الله عليه وسلم يشجع التعليم عملاً وقولاً ؛ فقد كان يطلق سراح الأسرى إذا علّموا بعض المسلمين القراءة والكتابة ، حرصاً منه على ذيوع التعليم ونشره بين جمهرة المسلمين ، ولم يفته صلى الله عليه وسلم أن يجعل للمرأة نصيباً فى تعلم القراءة والكتابة؛ فقد سأل الشفّاء العدوية أن تقوم بتعليم زوجه السيدة حفصة القراءة والكتابة ، ضارباً بذلك أحسن الأمثال فى وجوب تعليم الفتاة ، مؤكداً ذلك بقوله : « طلبُ العِلم فريضةٌ عَلَى كلٍّ مسلمٍ ومُسلِمة . »

وقد خرج صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين : أحدهما فيه قومٌ يدعون الله عز وجل ، ويرغبون إليه ، وفى الثانى جماعة يعلمون الناس فقال : « أَمَّا هؤلاءِ فيسأَلون اللهَ ، فإنْ شاء أَعطاهم ، وإنْ شاء منَعهمْ . وأَما هؤلاءِ فيعَلِّمون النَّاس ، وإنما بُعِثْتُ مُعلِّماً . » ثم ذهب إليهم وجلس معهم .

وبذلك ضرب النبى لنا خير مثل فى تشجيع العلم ونشر التعليم ، والإشادة بفضل المعلمين ، ومحاربة الجهل ، ومكافحة الأمية .

وحسبك أن تعلم أن العلم فى نظر الرسول قوام الدنيا ، وقوام الدين حيث قال :

« مَنْ أَراد الدُّنيا فعَليه بالعِلم ، ومَنْ أَراد الآخرةَ فعَليهِ بالعِلم ، ومَنْ أَرادهما معاً فعليه بالعلم . »

وقال أيضاً : « النَّاسُ رجُلان : عالِمٌ ومتعلِّمٌ ، ولا خيْرَ فيما سِواهما . »

« من طلب العلم تكفل الله برزقه » . حديث شريف . وفيه تشجيع من الرسول الكريم على طلب العلم . وقد شرح السيد / عبد الرحيم القناوى هذا الحديث بقوله : معناه — والله أعلم — محضه بالحلال من الرزق لمكان طلب العلم . روى ذلك الشيخ جلال الدين السيوطى فى حسن المحاضرة . والعلم نور . ومعظم العلماء يسعدون بأعمالهم بطبيعة نفوسهم .

وقد خيِّر أحد الحكماء بين المال والمُلك والعلم ، فاختار العلم ، فأعطى الملك والمال لاختياره العلم .

الخلفاء يجلون العلم والعلماء :

وكان الخلفاء ــ وبخاصة الرشيد والمأمون ــ يجلون الأدباء والعلماء ، ويغدقون عليهم المنح والعطاء . أكل أبو معاوية ــ وكان ضريرا ــ طعاما مع الرشيد ، فلما قام أبو معاوية لغسل يديه، نهض الرشيد ، وأخذ الإبريق، وصب الماء على يدى الضرير، وهو لا يدرى ، ثم قال له : « أتدرى من يصب الماء على يديك ؟ » قال : « لا » .

فقال الرشيد : « أنا » . قال : أنت يا أمير المؤمنين ؟

قال : « نعم ، إجلالا للعلم » .

ومما يدل على إجلالهم للعلم أنهم كانوا يحثون أبناءهم على تلقيه ويرغبونهم فيه ، ويشجعونهم على دراسة الأخبار ، وحفظ الأشعار . فهذا عبد الملك بن مروان يوصى أبناءه فيقول : « يابنيَّ تعلموا العلم ، فإن كنتم سادة فقتم ، وإن كنتم وسطا سدتم ، وإن كنتم سوقة عشتم . فالتعليم يجعل السادة فائقين ، ويصير المتوسطين سادة ، ويمكن السوقة من كسب العيش والحياة .

وذاك مصعب بن الزبير يقول لابنه : « تعلم العلم ، فإن لم يكن لك جمال كان لك جمالا ، وإن لم يكن لك مال كان لك مالا . » فالعلم زينة من لا زينة له ، ومال من لا مال له .

وذلكم الرشيد يعهد إلى سيبويه بتأديب ابنه المأمون ، وإلى الأحمر بتأديب ابنه الأمين . ومن وصيته التى يجب على المربين أن يتخذوها نبراسا لهم فى تربية أبنائهم ما يأتى : يا أحمر[1]، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين . أقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه

(١) الأحمر : هو على بن الحسن .

من الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم بنى هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه . ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنه . ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

وفى هذه الوصية تتمثل الحكمة وسداد الرأى، فهى تحتوى منهجا من أحسن المناهج الدراسية للمعاهد الثانوية ، فمن قراءة للقرآن الكريم ، إلى دراسة للتاريخ والأخبار ، ومن رواية للأدب والأشعار ، إلى تعلم السنن ودراسة اللغة وبلاغتها ، ومن تربية دينية أدبية علمية إلى تربية خلقية اجتماعية . وإن الجزء الأخير من الوصية خير دستور فى المعاملة الطبعية ، والعقوبة المدرسية ، حيث يقول : « ولا تمعن فى مسامحته ، فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة » .

اطلبوا العلم ولو بالصين :

وقد أفاض الحكماء والأدباء والفلاسفة فى هذه السبيل، فالغزالى يقول: « من أصاب علما فاستفاده وأفاده ، كان كالشمس تضىء لنفسها ولغيرها وهى مضيئة » . وليس يغيب عن ذهننا ما قاله بعض الحكماء : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد . اطلبوا العلم ولو بالصين » .

قال عمر بن عبد العزيز : « أيها الناس ، إنما يُراد الطبيب للوجع الشديد . ألاَ فلا وجعَ أشدُّ من الجهل ، ولا داء أخوفُ من الذنوب .

وقيل لأبى عمرو بن العلاء : « هل يحسن بالشيخ أن يتعلم ؟

قال : « إن كان يحسن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم » .

ولا جدال فى أن التعليم حق من حقوق الإنسان ، وضرورى من ضروريات الحياة ، كالماء والهواء والغذاء ، فإذا أراد أن يحيا وجب عليه أن يتعلم ، ووجب علينا القيام بتعليمه .

وإذا المعارف أشرقت فى أمة نالت أمانيها بغير توان

ولقد قيل : التعليم أفضل شىء يملكه أفضل الرجال ، وهو خير منحة يمكن أن تمنح ، والجهل أس الرذائل ، فحياة الجهل موت ، والإنسان فى حاجة إلى العلم ؛ لأن العلم وسيلة الحياة ، وهو الجناح الذى نستطيع أن نطير به إلى السماء .

ولقد نبهت الحرب العالمية الأولى الأمم فى أمريكا وأوروبة إلى شعور جديد نحو التعليم ، فلما انتهت الحرب أخذت إنجلترا تفكر فى الوسائل التى تنهض بالتعليم ، فبعد أن كان إجباريا إلى الرابعة عشرة من العمر مدت مدة التعليم الإجبارى إلى سن الثامنة عشرة ، ورحبت بقانون التعليم سنة ١٩١٨ لرفع مستوى الجيل الجديد فى التربية والتعليم . وقد تحملت فى ذلك المشروع عبئا ماليا ثقيلا أكثر من العبء الذى كانت تتحمله قبل تلك الحرب ؛ لأنها واثقة بأن التعليم أول الواجبات ، وأكبر وسيلة للرق . ولا غرابة ، فالتعليم بانجلترا أمر يهم الشعب والحكومة معا ؛ لأن كل فرد يشعر بفائدة التعليم وأثره .

قال الفليسوف إرَسمس : « أعطنى إدارة التعليم وأنا أتعهد لك بقلب العالم » .

وأنا أقول له : « أعطنى إدارة التعليم ، وأنا أتعهد لك بإصلاح العالم » .

ولقد قال بسمارك بعد الحرب السبعينية : « إننا غلبنا جارتنا بمعلم المدرسة » .

لماذا أمر الدين الإسلامى بالتعليم ؟

لسنا فى حاجة إلى أن نذكر ثمرات العلم والتعليم ، ومضار الجهل والأمية ، فمن المحال أن ترقى أمة من الأمم إلا بتعميم التعليم ، ولا وسيلة لإنقاذ الناس من شر الجهل والرذيلة إلا بالعلم ، فالمدنية والحضارة ، والتقدم فى العلم والاختراع ، والإبداع الذى نراه بأعيننا فى الأمم الراقية نتيجة التربية العامة ، والتعليم المنتشر بين جميع الطبقات .

بالتعليم نرفع مستوى الشعب :

كثيرا ما نسمع نقدا مرا عن انتشار أمراض (البلهارسيا والأنكلستوما) فى البلاد ، وكثرة السائلين والعجزة ، وفاقدى البصر ، حتى صارت نسبة فقد البصر عندنا

قبل الثورة أكثر من أى نسبة فى العالم . ونسمع أيضاً عن فساد الأخلاق ، وكثرة الجرائم والحوادث ، ولو علمنا الأمة تعليما حقا وربيناها تربية حقة لارتفع المستوى الصحى والاجتماعى والخلقى . وقد أحسنت وزارة التربية والتعليم فى جعلها التعليم الثانوى وما فى مستواه بالمجان حتى يشمل الفقراء والأغنياء ، ولا يحرم أحد التعليم بسبب الفقر . ومن الواجب أن نعلم كل عربى إذا أردنا أن تتبوأ الأمة العربية مركزها اللائق بها بين الأمم ، فإن العلم سبيل الغنى والرقى .

ولكى يتحقق مبدأ تكافؤ الفرص قرر الرئيس المحبوب جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٦٢ جعل التعليم الجامعى والعالى بالمجان ، فأعطى الفقراء الفرصة فى أن ينالوا حقهم فى التربية إلى آخر مرحلة من مراحل التعليم ، حتى لا يقبر ذكاء فقير من الفقراء . وبهذه الوسيلة سبقنا كثيرا من الأمم الغنية . وهذه حسنة تضاف إلى كثير من حسنات الرئيس الملهم ، منقذ العرب والعروبة ، وبطل الحرية والاستقلال .

يجب أن تعلم الأمة حتى يقل الفقراء منها ، ولا نسمح للأطفال بالعمل إلا بعد التعليم . يجب أن نعلمهم حتى نعدهم للكسب ، ولحياة أحسن من الحياة التى يعيشونها غير متعلمين . يجب أن نعلمهم التعليم النظرى أولاً ، ثم الصناعى أو الزراعى أو التجارى ثانيا ، ونبحث لهم عن عمل يسيرون فيه بعد معرفتهم حرفة من الحرف ، أو صناعة من الصناعات ، حتى نقضى على الجهل والفقر والمرض ، ولا يقبر ذكاء عربى من العرب .

إنكم إن فعلتم ذلك نشأ الجيل الجديد نشأة صالحة ، فسلم جسمه ، وحصف عقله ، وكمل خلقه ، واستطاع أن يحقق لأمته ما تصبو إليه نفوسها من مجد مؤثل ، وعزة خالدة .

ولكى تعيد البلاد الإسلامية مجدها القديم وعظمتها السالفة ، يجب أن تعمل على نشر التعليم وتعميمه بها ، فالجهل علة العلل ، وهو السبب الأول فى التخلف عن الأيام الأولى ، أيام المجد والعظمة . والتعليم هو الوسيلة الوحيدة للرقى فى كل ناحية من النواحى ، والإسلام دين العلم والنور ، ولا عيب فى الإسلام ؛ فالإسلام يطالب بتعليم الرجل

وتعليم المرأة ، و « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » كما يقول الرسول الكريم .
فمتى يأتى اليوم الذى يعمم فيه التعليم ؟ ومتى نقضى على الأمية ، ومتى نحتفل بدفن آخر أمى من العرب ؟

أثر العلم والتربية فى الإسلام :

قال تعالى « هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ[1] . »

والمقصود من هذه الآية أن الله أرسل إلى الأميين رسولا منهم ليقرأ عليهم آياته ، ويطهر أخلاقهم ويقومها ويهذبها ، وليعلمهم الكتاب والحكمة ، ويثقف عقولهم ، ويربيهم ويهديهم الصراط المستقيم ، ولو كانوا من قبل فى ضلال مبين .
فالعلم خير أنيس لمن كان وحيدا ، وأحسن صديق فى الوحدة ، يعود الإنسان الصبر على السراء والضراء ، والغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والسعادة والشقاء ، ويساعده على نيل ما يريده ، ويجعل البعيد قريبا ، والغريب صديقا ، يحيى القلوب ، وينير الأبصار . وأهل العلم سعادة لغيرهم ، وقادة لسواهم ، يتبع الناس آثارهم ، وينتفعون بآرائهم وأفكارهم .

وكفى العلم رفعة قوله جلت حكمته : « وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا[2] . »

وقول النبى عليه الصلاة والسلام : « إن الحكمةَ تَزِيدُ الشريفَ شرفًا ، وتَرْفعُ المملوكَ حتَّى يُدْرِكَ مَدارِكَ الملوكِ . »

وقوله صلى الله عليه وسلم : « أقربُ النَّاسِ منْ دَرجةِ النُّبُوَّةِ أهلُ العِلمِ والجهادِ . »

لأن العلماء قد دلوا الناس على ما أتت به الرسل ، والمجاهدين قد جاهدوا بأنفسهم وسيوفهم على ما جاءت به الرسل .

---

(١) سورة الجمعة : ٢ . (٢) سورة القصص ٨٠ .

والتعليم الحق يؤدى إلى رجاحة فى العقل ، وإضاءة فى الفكر ، وتفهم حقائق الأمور ، والأخذ بأحسن الأعمال والعادات ، والتحلى بأكمل الأخلاق ، ويعود المتعلم التفكير العميق ، ويقوده إلى الابتكار والاختراع ، والنظر فى الكائنات والمخلوقات .

« أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (١) . »

وقد انتفع الغربيون بهذا النوع من التعليم ، فحاكوا الطبيعة ، وانتهجوا نهجها ، فنجحوا فى محاكاة الطيور فى طيرانها ، حتى أصبحنا نسافر بالطائرات من قارة إلى قارة ، بعد أن كنا نسافر بالإبل . ومهروا فى محاكاة السمك فى الغوص تحت الماء ، فاخترعوا الغواصات التى تسير تحت الماء ولا يراها أحد .

وبالعلم استخرجوا مافى الجبال من معادن ، ومافى الأرض من خيرات ومناجم ، ومافى البحار من ثروات ، وانتفعوا بها فى صناعاتهم التى لا نهاية لها .

فأصبحنا نستطيع أن نسافر بالقطار أو الطائرة أو الماخرة ، ونستطيع أن نتحدث مع أبنائنا أو بناتنا وهم فى أوروبة أو الولايات المتحدة بأمريكا ، ونحن فى الجمهورية العربية المتحدة . نتحدث معهم بصوت واضح كأنهم معنا يتكلمون . وفى استطاعتنا اليوم أن نسجل محاضرة من المحاضرات أو خطبة لعظيم من العظماء على شريط من الأشرطة لنسمعها فى أى وقت شئنا ، وفى أى مكان أردنا .

فضل العلم والعلماء :

قال تعالى : « إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ . (٢) »

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ماينفعنى ، وزدنى علما . والحمد لله على كل حال . »

---

(١) سورة الغاشية : ١٧–٢٠ . (٢) سورة فاطر : ٢٨ .

فالمصطفى يدعو الله أن ينفعه بما علّمه ، ويعلمه ماينفعه ، ويزيده علما فوق علمه ؛ فلا خير فى علم لا ينتفع به ، أو لا يمكن تنفيذه عمليا ، فالعلم بلا عمل كالشجرة بغير ثمر . ويدعوه أيضا أن يمنّ عليه بالزيادة فى العلم ؛ كى يفيض علمه على الناس جميعا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَمَن سَلَكَ طريقاً يَلْتَمِسُ (١) فيه علماً سهّلَ اللهُ لهُ طريقاً إلَى الجنَّة . » رواه مسلم . فالذى يترك بلده ، ويسافر لطلب العلم فى أى بلد آخر ييسّر الله له السبيل إلى جنة الخلد .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مَن خرجَ فى طلبِ العلمِ فهو فى سبيلِ اللهِ (٢) حتى يَرجعَ . »

وعن أبى الدَّرداء رضى الله عنه قال : سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَن سلكَ طريقاً يَبْتَغِى (٣) فيه (العلم) سهّلَ اللهُ له طريقاً إلى الجَنّة . وإن الملائكةَ لَتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ (٤) العلمِ رضاً بما صَنَعَ ، وإن العالِمَ لَيَستغفِرُ لَه مَن فى السمواتِ ومَن فى الأرضِ ، حتَّى الحيتَانُ فى الماءِ . وفَضلُ العالِم على العابدِ كفَضلِ القمرِ على سائرِ الكواكبِ (٥) . وإن العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياء (٦) . وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا ديناراً ولا دِرهماً (٧) ، إنّما ورّثُوا العِلمَ ، فمَن أخذَهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ (٨) . »

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَن سُئِل عن علمٍ فكَتَمَهُ (٩) أُلجِمَ يومَ القيامةِ بلِجامٍ من نارٍ . »

فالإسلام يحض على العلم والتعليم .

وقال عليه الصلاة والسلام : « إن اللهَ ومَلائكتَهُ وَأهلَ السَّمواتِ والأرضِ

---

(١) يطلب . (٢) فى طاعته . (٣) يطلب . (٤) الصالح التقى الذى لا يعصى الله .
(٥) لأن العالم لا ينتظم إلا بالعلم والعمل المثمر . (٦) فى علمهم وعملهم وكمالهم ، حتى صاروا من الراسخين فى العلم ، العاملين لإرضاء الله . (٧) مالا . (٨) بنصيب وافر وكثير .
(٩) لم يوضحه للسائل .

حَتَّى النملةَ فى جُحرِها ، وحتى الحوتَ لَيُصَلُّونَ [١] عَلَى مُعلِّمِى الناسِ الخيرَ . »

وفى هذا الحديث حثٌّ على إرشاد الناس إلى الخير والهدى والطريق المستقيم .

وقال المصطفى : « لا حسَدَ [٢] إلا فى اثْنَتَيْنِ : رَجلٌ آتَاهُ [٣] اللهُ مالاً ، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ [٤] فى الحقِّ ، ورجلٌ آتَاهُ اللهُ الحِكمَةَ [٥] فهو يَقْضِى بِهَا ويُعَلِّمُهَا . »

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « مَثَلُ ما بَعَثَنِى اللهُ به من الهُدَى [٦] والعلمِ [٧] كَمثَلِ غيْثٍ [٨] ، أصابَ أرضاً : فكانتْ مِنها طائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ الماء [٩] ، فَأَنْبَتَت الْكَلَأَ [١٠] ، والعُشْبَ الكثيرَ . وكانَ مِنها أجادِبُ [١١] أمْسَكَت الماءَ [١٢] ، فنفعَ اللهُ بِها الناسَ ، فَشَرِبُوا منها ، وسَقَوْا وزَرعوا ، وأصابَ طائفةً منها أخرَى إنَّما هِيَ قِيعَانٌ [١٣] : لا تُمْسِكُ ماء ، ولا تُنْبِتُ كَلَأً ، فذلِكَ مَثَلُ من فَقُهَ [١٤] فى دينِ اللهِ ، وَنَفَعَهُ ما بَعَثَنِى اللهُ بهِ ، فعَلِمَ وعلَّمَ [١٥] . وَمَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بِذلكَ رَأْساً ، ولم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الّذِى أُرسِلتُ به . » رواه البخارى ومسلم .

فوائد العلم فى نظر إخوان الصفا :

العلم « يكسب صاحبه عشر خصال محمودة : أولها الشرف وإن كان دنيًّا ، والعز وإن كان مَهينا [١٦] ، والغنى وإن كان فقيرا ، والقوة وإن كان ضعيفا ، والنبل وإن كان حقيرا ، والقرب وإن كان بعيدا ، والجود وإن كان بخيلا ،

---

(١) يدعون بالخير لهم .　(٢) الحسد : الغبطة ، وتمنى المثل .　(٣) أعطاه .
(٤) إنفاقه فى التقرب إلى الله .　(٥) العلم ، وإتقان الأمور .　(٦) الرشد .
(٧) العلم النافع .　(٨) مطر .　(٩) شربته .　(١٠) المرعى والنبات .
(١١) الجدب : ضد الخصب ، والأجادب : أراض لا تنبت الزرع .　(١٢) حفظته .
(١٣) جمع قاع ، وهو المستوى من الأرض .　(١٤) صار فقيهاً عالماً عاملا بدين الله .
(١٥) ينتفع بالعلم ، وينفع الناس به .　(١٦) حقيرا .

والحيـاء وإن كان صَلِفاً [١] ، والمهـابة وإن كان وضيعا ، والسلامـة وإن كان سفيها . »

فوائد العلم فى نظر النمرى القرطبي :

قال النمرى القرطبي : « اطلب العلم ؛ فإنه عون فى الدين ، ومذك للقريحة [٢] ، وصاحب لدى المحنة [٣] ، ومفيد للمجالس ، وجالب للمال . »

مآثر التربية الإسلامية :

إن التربية الإسلاميـة تمتاز بالقوة والعمق والإيمان ، والعمل عن عقيـدة ، ولهذا تركت أثرا واضحا فى تقدم الإنسانية ، والتربية الوجدانية ، والخلقية والعقلية . ولا يستطيع أحد أن ينـكر أن الثقافة الإغريقية القديمة قد وصلت إلى الغرب عن طريق الشرق والإسلام ، بعد أن ارتقت تلك الثقافة ، واتضحت وازدهرت على أيدى العلماء والفلاسفة من المسلمين .

وإن المثل الإسلامية السامية ، والمبادئ الخلقية الخالدة ، والطرق التربوية الـكاملة تعد أثراً من آثار التربية الإسلامية المثالية .

وقد اشتركت التربية الإسلامية اشتراكا فعليا فى تقدم التفـكير الإنسانى ، وتدعيم المثل العليا فى الدين والأخـلاق ، وتثبيت المبادئ الإنسانيـة ، والنظم التعاونيـة (الديمقراطية) ؛ فقد نادت بأهمية الإخاء والمساواة بين جميع المؤمنين فى البلاد الإسلامية المختلفة ، ولم تـكتف بالمطالبة بهما بين أبناء الوطن الواحـد . ولا ريب أن فى تقرير تلك المبادئ ثورة كبيرة على العهود القديمة قبل الإسلام ، وهى عهود الإغريق والفرس والرومان ، تلك العهود التى لم تنجح فى إقامة وحدة روحية ، على الرغم من قوتها وعظمتها ؛ لأنها لم تعمل على تأليف القلوب ، وإهمال الفروق بين الأجناس ، والبناء على أساس مبادئ الإخاء والمساواة .

(١) متـكبرا . (٢) العقل والقدرة على الاستنباط . (٣) الشدة .

وإلى المسلمين يرجع فضل السبق فى تحقيق تلك المبادئ الإنسانية العظيمة بوسائل عملية فعالة أهمها التربية الإسلامية .

قال ابن المعتز العباسى فى كتاب الآداب المخطوط بالمتحف البريطانى بلندن : « الجاهل صغير وإن كان شيخا ، والعالم كبير وإن كان حدثا . مامات من أحيا علما . مات خَزَنَةُ الأموال وهم أحياء ، وعاش خُزانُ العلمِ وهم أموات . »

الأمانة العلمية :

عن مسروقٍ قال : دخلْنا على عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : « يا أيُّها الناسُ مَن عَلِمَ شيئاً فلْيَقُلْ بِهِ ، وَمن لم يعلمْ فَلْيقلْ : اللهُ أعلم ؛ فإن من العلمِ أن يقولَ الرجلُ لِما لَا يَعلمُ : اللهُ أعلمُ .

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ (١) مِنْ أَجْرٍ ، وَمَا أَنَا مِنَ (٢) الْمُتَكَلِّفِينَ (٣) . »

أى لا أطلب منكم أجراً على التبليغ والدعوة والإرشاد ، وما أنا من المدّعين الذين يدّعون معرفةَ مالَا يعرفون .

أثر التربية الإسلامية فى النهوض بطرق التدريس :

لقد كان للتربية الإسلامية أثر كبير فى النهوض بطرق التدريس ؛ فعلى أيدى علماء الإسلام انتشرت طريقة المحاضرة ،وطريقة المناظرة فى التدريس ،وسهلت المواد الدراسية ؛ كى تلائم عقول الأطفال .

١ — وقد وضع ابن خلدون والعبدرى من فلاسفة الإسلام خطوات للمدرس ليتبعها فى المحاضرة ، وهى ترمى إلى أن يعرف المدرس مادة الدرس معرفة تامة ، حتى يستطيع أن يشرح الآراء المختلفة للطلاب فى المحاضرة ، ويبين لهم رأيه الخاص فى الموضوع

---

(١) على التبليغ . (٢) نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم التكلف عن نفسه إشارة إلى أن تركه محمود ، وفعله مذموم . (٣) سورة ص : ٨٦ .

المختلف فيه ، ثم يسمح لهم بالأسئلة والمناقشة كما يشاءون .

٢ ــ وتعد طريقة المناظرة أثراً هامًّا من آثار التربية الإسلامية . وكانت المناظرات منتشرة فى المعاهد الدراسية ؛ لأنها من أهم الوسائل للترويح النفسى ، وساعدت على انتشار الحرية فى إبداء الرأى والتفكير ، والحرية فى الخطابة ، وشحذ العقل ، وحضور البديهة ، وسرعة الخاطر ، والنشاط الذاتى . وفى القرون الوسطى تأثرت الجامعات الأوروبية بالأساليب الإسلامية فى المناظرة ، فأخذت تلك الجامعات بتلك الطريقة . وما زالت المناظرات حتى اليوم تعد ناحية من نواحى النشاط العقلى والاجتماعى فى المعاهد الإسلامية والشرقية والغربية .

٣ ــ وقد ترك المربون من المسلمين منذ أكثر من ألف سنة مبادئ نفيسة فى التربية نعدها اليوم من مبادئ التربية الحديثة ؛ فقد أرشدوا المعلم إلى تسهيل المادة الدراسية ؛ حتى تلائم عقول الأطفال ، تلك العقول التى لم تنضج ، وإلى البدء فى التعليم بالأمور المحسة المعلومة القريبة قبل الانتقال إلى الأمور المعنوية المجهولة البعيدة ، وهذا ما يعنيه علماء التربية اليوم من القواعد الأساسية للتدريس فى نصحهم بالانتقال من السهل إلى الصعب ، ومن المحس إلى المعقول ، ومن المعلوم إلى المجهول ، ومن البيئة القريبة إلى البعيدة ، ومن العالم الذى يعيش فيه الطفل إلى العالم الذى يبعد عنه .

كما نصح فلاسفة الإسلام بإعطاء قليل من المعلومات السهلة فى الدرس الواحد ، ومراعاة الفروق العقلية والميول الفردية بين الأطفال . ومع المطالبة بسهولة المادة ووضوحها نادوا بأنه يجب أن تلائم ميولهم ، وتتصل بحياتهم ، وتوضح لهم ما يشاهدونه فى بيئتهم .

العطف على الأبناء وتربيتهم :

سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ، مَن أبَرُّ ؟ فقال : « بِرَّ والديك » .

فقال الرجل : ليس لى والدان .

فقال : « بِرَّ ولَدَكَ ، كما أن لوالديك عليك حقًّا كذلك لوَلدِكَ عليك حق » .

حقوق الأبناء :

كما يُطالِب الإسلام الأبناء والبنات بالإحسان إلى الآباء والأمهات ، كذلك يطالب الوالدين بالعطف على أولادهما ، والتفكير فيهم ، وحسن تربيتهم ، فالمصطفى صلى الله عليه وسلم يقول : كما أن لوالديك عليك حَقًّا ، كذلك لولدك عليك حق .

وقال عليه الصلاة والسلام : « رحم الله والداً أعانَ ولده على بِرِّهِ » . أى لم يحمله على العقوق بسوء عمله ، وسوء معاملته .

انظر إلى حكمة المصطفى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « سَاوُوا بين أولادكم فى العطية » . فإن عدم المساواة فى معاملة الأبناء ، والتفرقة بينهم فى العطاء ، مما يؤدى إلى الكراهية والعداء بين الإخوة والأخوات . فالأطفال يحسون ويشعرون بالتفرقة ، وهذه التفرقة تولد المرارة فى النفوس . وواجب الآباء والأمهات أن يراعوا شعور أبنائهم وبناتهم ، فلايفرقوا بين أحد منهم فى أى أمر من الأمور . فكما تعطى هذا يجب أن تعطى ذاك ، بالتساوى ، وبدون تمييز .

ومن حقوق الأبناء على الآباء القيام بتعليمهم ، والعناية بتربيتهم ، وعدم الإهمال فى إرسالهم إلى المدرسة . ومن الخطأ أن يرسل الآباء أولادهم إلى المصنع وهم فى سن الطفولة . ففى هذه السن يجب أن يتعلموا ، ويرسلوا إلى المدرسة حتى لا يحرموا التعليم وهم أطفال . ومن الواجب على الآباء أن يقوموا بتربية أولادهم تربية تمكنهم من الاعتماد على أنفسهم فى الحياة . وإن الأب الذى يهمل تربية أبنائه رجل لا يعرف معنى الأبوة وواجباتها ، والبنوّة وحقوقها ؛ فقد أضاع حياة أولاده ، ولم يعرف حقوقهم ، وما يجب عليه نحوهم . فمثل ذلك الرجل يجب أن نجبره على تربية أبنائه تربية كاملة ، وأن يحاكم على إهماله فى تربيتهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من حق الولد على الوالد أن يحسن أدبه ، ويحسن اسمه » .

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك ، فشكا إليه بعض ولده .

فقال : هل دعوتَ عليه ؟

قال : نعم .

قال : أنت أفسدته .

فيجب أن يصبر الأب فى معاملة أولاده ، ولا يدعو عليهم ، فيُستجاب دعاؤه ، فتفسد أخلاقهم . ويستحب الرفق بالأبناء والبنات ، والعطف عليهم ، والتفاهم معهم بالحسنى على انفراد؛ حتى يشعروا بالعطف والشفقة ، وتثمر العظة والنصيحة .

وقد رأى الأقرعُ بن حابس النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، وهو يقبل ولده (حفيده) الحسن ، فقال : إن لى عشرة من الولد ما قبّلت واحدا منهم .

فقال : عليه الصلاة والسلام : « إن من لا يرحم لا يُرحم » .

وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً : اغسلى وجه أسامة (١) ، فجعلت أغسله وأنا أنِفَةٌ (٢) ، فضرب يدى ثم أخذه فغسل وجهه ، ثم قبّله ، ثم قال : قد أُحسِنَ بنا إذ لم يكن جارية .

وهذا مثل لرحمة الرسول وعطفه وشفقته وتواضعه .

وذات يوم تعثّر (٣) الحسن (وقيل : الحسين) والنبى صلى الله عليه وسلم على منبره ، فنزل فحمله .

وهذه رأفة من الرسول الكامل ليس بعدها رأفة .

وقال عبد الله بن شداد : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بالناس إذ جاءه

---

(١) هو أسامة بن زيد . (٢) مستنكفة ، مظهرة التضرر . (٣) أى زل ووقع .

الحسين[1] ، فركب عنقه وهو ساجد . فأطال السجود بالناس ، حتى ظنوا أنه قد حدث أمر[2] ، فلما قضى صلاته قالوا : قد أطلت السجود يا رسول الله ، حتى ظننا أنه قد حدث أمر .

فقال : إن ابنى قد ارتحلنى[3] ، فكرهت أن أعجله[4] ، حتى يقضى حاجته » .

فالرسول كان المثل الأسمى للرفق بالأطفال ، والعطف عليهم ، والحكمة فى معاملتهم . وقد أعطى أمته درسا ثمينا فى التربية والتعليم . وفى إطالة السجود قربٌ من الله تعالى ؛ فإن الإنسان أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجدا .

لا فائدة من العلم إذا لم يُصْحَبْ بالعمل :

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة ، وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات .

وقال الشاعر :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهما ... إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيها

أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا ... فالموبقات لعمرى أنت جانيها

تعيب دنيا وناساً راغبين لها ... وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : مررت بحجر بمكة ، مكتوب عليه : اقلبنى تعتبر . فقلبته ، فإذا عليه مكتوب : أنت بما تعلم لا تعمل ، فكيف تطلب علم ما لم تعلم ؟

ورُوى عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال : حدثنى عشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : كنا ندرس العلم فى مسجد قُباء[5] ، إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا ، فلن يأجُرَكُمُ اللهُ حتى تعملوا » .

---

(١) وفى رواية أخرى : الحسن . (٢) اختاره الله لجواره . (٣) ركب فوق عنقى .
(٤) أستحثه على النزول . (٥) قباء : ممدود ، موضع بالحجاز .

وقال عيسى عليه السلام : مثل الذى يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنَت فى السر ، فحَمَلت ، فظهَر حملها ، فافتضحت . فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه اللهُ تعالى يوم القيامة على رءوس الأشهاد .

وقال عمر رضى الله عنه : إذا زلّ العالم زَلّ بزلته عالَمٌ من الخلق .

ومعنى هذا أن زلة العالم ، لا تقف عنده ، فهناك كثير من الناس يحاكونه فى سلوكه الخاطئ ، فيزلون ، ويقعون فيما وقع فيه ، فزلة العالم الذى لا يعمل بما يعلم ، ويخالف قوله فعله — تعد إثما كبيرا ؛ لأن زلته تتعداه إلى غيره ، ولا تقتصر عليه وحده .

وإن العالم الذى لا يعمل بعلمه ، يسلبه الله ينابيع الحكمة ، ويطفئ مصباح الهدى من قلبه ، فهو حين تلقاه ، يخبرك بلسانه أنه يخشى الله ، والفجور ظاهر فى عمله ، والإثم واضح على وجهه . ولن ينتفع بعلمه أحد .

وقد ورد فى التوراة والإنجيل : لا تطلبوا علم ما لم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم .

وإننا نعتقد أن العلم الذى لا يعمل به صاحبهُ كشجرة غير مثمرة ، أو كأرض سبخة مالحة ، لا يمكن جعلها صالحة للزراعة ، مهما غمرتها بالمياه العذبة ، أو بمياه الأمطار ، ما دامت مغمورة بالملح ، غير قابلة للصفاء والعذوبة ، والتخلص من الملوحة . وإننا نرى أنه لا فائدة من العلم إذا لم يصحب بالعمل والإخلاص . وما الفائدة من أن تكون عالماً بالكهربا إذا لم تستطع إصلاح النور فى البيت حينما تطفأ المصابيح ، ويذهب النور ؟ وما فائدة علمك بالطب إذا كنت لا تستطيع إسعاف مريض أو تخفيف آلامه ؟

وإن العالم الذى لا يعمل بعلمه كالمريض الذى يصف الدواء لغيره ولا يمكنه أن يداوى نفسه ، وكالجائع الذى يصف الأطعمة اللذيذة ولا يجدها . وينطبق عليه قوله تعالى : « وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ . »

وقال الحسن : تعلموا ما شئتم أن تعلموا ، فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا . فإن السفهاء همتهم الرواية ، والعلماء همتهم الرعاية .

وقال مالكٌ رحمه الله : إن طلب العلم لحسن ، وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ، ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى ، فلا تؤثرن عليه شيئاً .

التربية الصالحة بالقدوة الحسنة :

قال سهل بن عبد الله التسترى[1] : كنت وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل ، فأنظر إلى صلاة خالى محمد بن سوار . فقال لى يوماً : ألا تذكر الله (الذى) خلقك ؟

فقلت : كيف أذكره ؟

قال : قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات ، من غير أن تحرك به لسانك : « الله معى . الله ناظرٌ إلىّ . الله شاهدى . »

فقلت ذلك ليالى ، ثم أعلمته ، فقال : قل فى كل ليلة سبع مرات . فقلت ذلك ، ثم أعلمته .

فقال : قل ذلك كل ليلة إحدى عشرة مرة .

فقلته ، فوقع فى قلبى حلاوته . فلما كان بعد سنة قال لى خالى : احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل القبر ، فإنه ينفعك فى الدنيا والآخرة .

فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لذلك حلاوة فى سِرِّى . ثم قال لى خالى يوماً : ياسهل ، من كان الله معه ، وناظراً إليه ، وشاهدَه ، أيعصيه ؟ إياك والمعصية .

فكنت أخلو بنفسى ، فبعثوا بى إلى المكتب ، واشترطوا على المعلم أنى أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع . فمضيت إلى الكتاب ، فتعلمت القرآن وحفظته ، وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين ، وكنت أصوم الدهر ، وقوتى من خبز الشعير اثنتى عشرة سنة .

ثم عزمت على أن أطوى ثلاث ليال ، ثم أفطر ليلة ، ثم خمساً ، ثم سبعاً ، ثم خمساً وعشرين ليلة ، فكنت على ذلك عشرين سنة ، وكنت أقوم الليل كله ، ما شاء الله تعالى .

---

(١) ارجع إلى كتاب الإحياء للغزالى ، جـ ٣ ، ص ٦٤ (بيان الطريق فى رياضة الصبيان) .

كتب إسلامية فى التربية والتعليم :

ويجب ألا ننسى ما ألفه علماء الإسلام من كتب فى التربية والتعليم ؛ لأنها أثر من الآثار الخالدة فى التربية الإسلامية ؛ فقد تركوا عدة كتب ، فيها موضوعات فى التربية ، مع موضوعات أخرى متنوعة ، دينية وخلقية واجتماعية وأدبية مثل :

كتاب المدخل للعبدرى ، والسياسة لابن سينا ، والمقدمة لابن خلدون ، وبعض مؤلفات الإمام الغزالى ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب جامع بيان العلم وفضله للنمرى القرطبى .

وهناك كتب ورسائل لا تذكر إلا موضوعات التربية نفسها ، مثل :

١ ــ تعليم المتعلم للزرنوجى .

٢ ــ أحكام المعلمين والمتعلمين لمحمد بن أبى زيد .

٣ ــ التربية عند العرب لخليل طوطح .

٤ ــ الإسلام والحضارة العربية لمحمد كرد على .

٥ ــ تهذيب الأخلاق لابن مسكويه .

الإسلام يدعو إلى التربية الاستقلالية

قال صلى الله عليه وسلم : « لا يكنْ أحدُكم إمَّعَة ، يقولُ أنَا مع الناس ، إن أحسَنوا أَحسنت ، وإنْ أساءوا أسَأْت ، ولكنْ وَطِّدُوا أنفُسَكم ، إن أحسن الناس أنْ تُحْسِنُوا ، وإن أساءوا أَلَّا تُسيئوا معهم » .

والإمعة هو الرجل الذى يتابع غيره فى رأيه ، ولا يثبت على رأى .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يأمرنا باستعمال عقولنا وتفكيرنا ، وتربيتنا تربية استقلالية ، فلا نحاكى الناس محاكاة عمياء ، إن أحسنوا حاكيناهم فى الإحسان ، وإن أساءوا أسأنا مثلهم ، بل نعتمد على أنفسنا فى تفكيرنا وأقوالنا وأفعالنا ، ونحسن إذا أحسنوا ، ولا نسىء مثلهم إذا أساءوا .

ومن الصفات الأساسية للنجاح فى الحياة الثقة بالنفس، والاعتماد عليها، ومتى وجدت الثقة بالنفس فمن السهل الاعتماد عليها فى كل عمل ممكن من الأعمال ، وفى التغلب على مشاق الحياة . والسبب فى كثرة الاعتماد على النفس أن الغريزة الاجتماعية قوية فى الجنس البشرى متأصلة فيه ، وأننا اعتدنا التفكير الجمعى لا التفكير الفردى الاستقلالى .

فينبغى أن نعود المتعلمين الاعتماد على أنفسهم ، والاستقلال فى تفكيرهم من غير اتكال على أحد ؛ كى يستطيعوا فى المستقبل أن يعيشوا معتمدين على أنفسهم .

ولا يراد بذلك أن يعتزل الإنسان العالم ، وينقطع عن الناس ، ويفكر فى نفسه فحسب ، فليس هذا من الإنسانية فى شىء ، بل إنه باعتزاله غيره يفقد كثيراً ، ولا يربح إلاقليلا . ولكننا نريد تعويد المتعلمين الاستقلال الشخصى، والتربية الاستقلالية ، والقدرة على القيام بأعباء الحياة من غير اتكال على غيرهم فى كل شىء ، حتى يمكنهم أن يقوموا بواجبهم نحو أنفسهم ، ونحو وطنهم . وكثيراً ما يحتاج الإنسان إلى معاونة صديقه ، ومساعدة رئيسه ، ومعونة خادمه ، فالتعاون ضرورى للمجتمع الذى تربط أفراده روابط وثيقة من المحبة والإخلاص .

والاعتماد على النفس أساس التربية الاستقلالية ، وتتطلب أن يكون لدينا شىء جوهرى يمكن الاعتماد عليه هو الثقة بالنفس ، والدقة فى العمل ، والتحقق منه ؛ حتى تكون أحكامنا صائبة ، وأقدامنا ثابتة، أما إذا انتفت الثقة بالنفس ، أو الدقة فى العمل، أو التثبت منه ، فالاعتماد على النفس حينئذ يكون عبثا ومن قبيل الأحلام .

وينبغى أن نسأل : هل قامت التربية وقام المربون حقًّا بواجبهم نحو تربية الأطفال تربية استقلالية ؟ هل قاموا بواجبهم وقد صرنا نفكر فيما فكر فيه غيرنا ، ونتكلم بماقاله سوانا ، ونفعل مثل من سبقنا ؟ إننا صرنا محاكين (مقلدين) فى أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا ، مهملين أنفسنا وشخصياتنا ؛ لأن التربية فى بيوتنا ومدارسنا تربية اتكالية ، لاتعرف معنى الثقة بالنفس ، والاعتماد على النفس فى التفكير والقول والعمل .

وقد نادى المربون والمصلحون بالتربية الاستقلالية ، وذكروا أن الغرض من التربية الحديثة هو التربية المستقلة ، ولكن كتب التربية فى واد ، والمدارس والجامعات فى واد آخر ، فبينما نقول : يجب أن يربى الفرد تربية استقلالية من كل الوجوه ، نجد أن الفرد مهمل من جميع الوجوه ، وأنه يصب فى قالب خاص ، ويطبع بطابع ينافى التربية الاستقلالية ، ويربى بطريقة تقتل نفسيته ، وتضعف مواهبه وشخصيته ، وتهمل ميوله وغرائزه وعقليته ، وأخلاقه وإرادته ، وبيئته وظروفه .

وإن تعويد المتعلم الاعتماد على نفسه فى كل عمل من الأعمال أمر ضرورى فى التربية الاستقلالية . ولن ينجح الإنسان فى أى عمل إلا إذا اعتمد على نفسه فى أداء ذلك العمل ، وانتفع بقواه الخاصة ، ووثق بقدرته على القيام بما يحتاج إليه ، من غير أن يلجأ إلى سواه إلا عند الحاجة والضرورة . وفى المثل : ماحك جلدك مثل ظفرك ، فتولَّ أنت جميع أمرك .

وإن الرجل الواثق بنفسه ثقة بعيدة عن الغرور والاستبداد ، الواثق بقوله وفعله — يستطيع أن يقف وينادى برأيه ، ويبرهن على سداده وصوابه . وليس من يستقل برأيه فى أمر من الأمور يكون مخطئاً دائماً ، بل قد يكون مصيباً فى رأيه ، وقد يسبق فى آرائه المجتمع الذى يعيش فيه بعشرات السنين ، كأمثال المصلحين ؛ فإنهم غالباً يكونون فى واد ، والمجتمع فى واد آخر . لا يقدر رأيهم إلا بعد مماتهم . وبالمصلحين الذين يثقون بأنفسهم ، وينادون بآرائهم يحيا المجتمع .

« إن الطفولة هى صانعة المستقبل ، ومن واجب الأجيال العاملة أن توفر لها كل ما يمكن لها من تحمل مسئولية القيادة بنجاح . ولن يستطيع الأطفال تحمل مسئولية القيادة بنجاح إلا إذا اعتادوا من الصغر الاعتماد على أنفسهم ، وربوا تربية وطنية استقلالية من الطفولة الأولى ، وقاموا بكل مايستطيعون القيام به فى البيت والمدرسة والمجتمع ، بدون أن يكونوا إمَّعات معتمدين على غيرهم ، متكلين على كل من يتصل بهم .

كيف نصل إلى التربية الاستقلالية ؟

ولكى نصل إلى التربية الاستقلالية يجب أن يعمل الطفل على أن يخدم نفسه بنفسه، ويستعمل مواهبه وقواه فى تدبير شئونه ، ولا يلجأ إلى غيره مادام قادر على القيام بعمله . ويجب أن يعد نفسه للنزول فى معترك الحياة؛ كى يخرج إلى المجتمع فى المستقبل رابط الجأش، قوى العزيمة ، ثابت القلب ، صادق الوطنية ، قوى الإيمان بالله وبنفسه ، قادر على أداء رسالته نحو نفسه ووطنه فى المستقبل ، وينجح فى حياته العملية .

وإذا مدحنا الثقة بالنفس فإننا لا نمدح الإفراط فيها ؛ لأنه قد يكون علامة على الضعف لا على القوة ، كما لا نمدح ضعف الثقة ؛ فإنه دليل على ضعف الإنسان . وإننا ننصح للمربين والمربيات ألا يكثروا من الأوامر والنواهى ؛ لأن الإكثار منها يميت شعور الطفل ، وقوة التفكير لديه ؛ كأن تقول له : تعال هنا ، اذهب هناك ، قف ، افعل هذا ، ولا تفعل ذاك ، وكأن تقوده فى كل عمل يريد أن يعمله ، ولا تترك له فرصة للتفكير ، وتستولى على كل إرادته وأفعاله ، وتجعله قاصرا يعتمد على غيره فى كل شأن من شئونه . ولا ريب أن هذا ضار بالطفل ومستقبله . وكيف يكون حينما يصير رجلا ، ويجد نفسه آلة فى يد غيره ، متعطل الفكر ، لا يستطيع الاعتماد على نفسه ، ولا يمكنه أن يدبر شأناً من الشئون إلا إذا وضع يده على كتف غيره ؟ ولا عجب ، فقد عطلنا ما وهب الله له من مواهب بكثرة تدخلنا فى أعماله ، وكثرة الأوامر والنواهى التى نمطرها عليه فى كل وقت ، لغير ضرورة أو مناسبة .

وينبغى ألا يألو المربى جهدا فى السير بالأطفال إلى التربية الاستقلالية ، إلى التربية الوطنية الحقة ، إلى الطريق المستقيم ، إلى الأمام ، إلى الرقى ، إلى العلا ، إلى تحمل مسئولية القيادة بنجاح ، إلى الكمال أو مايقرب من الكمال .

المعلم والمتعلم فى الإسلام

المعلم والتلميذ :

لقد عنى فلاسفة الإسلام بالكتابة عن العالم والمتعلم ، أو المعلم والتلميذ ، ومالهما من حقوق ، وماعليهما من واجبات، وكتبوا كثيرا عن الصفات التى يجب أن يتحلى بها كل منهما ، فقد كتب النمرى القرطبى فى كتابه : (جامع بيان العلم وفضله) عن « آداب العالم والمتعلم» وكذلك فعل الغزالى فى كتابيه : (فاتحة العلوم) و(إحياء علوم الدين) .وقد خص المعلم بالتقديس والتبجيل ، وجعله فى منزلة تلى منزلة الأنبياء . قال الرسول الكريم : « إن مداد العلماء لخير من دماء الشهداء . » فالعالم العامل خير من المتعبد الذى يصوم النهار ، ويقضى الليل فى التعبد والصلاة . وقد وصف الغزالى منزلة العلم والعمل فى قوله [1] :

« فمن علم وعمل بما علم فهو الذى يدعى عظيما فى ملكوت السماء ، فكأنه كالشمس تضىء لغيرها وهى مضيئة فى نفسها، وكالمسك الذى يطيب عبيره وهوطيب . ومن اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمرا عظيما ، وخطرا جسيما ، فليحفظ آدابه ووظائفه » .

وقد اعترف الشاعر المرحوم أحمد شوقى بفضل المعلم فقال :

قم للمعلم وَفِّهِ التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

فهو الأب الروحى للمتعلم، وهو الذى يقوم بتغذية النفس بالعلم ، وتهذيب الأخلاق وتقويمها ، فتبجيله تبجيل لأبنائنا ، وتقديره تقدير لهم ، به يحيون ، وبه ينهضون إذا أدى رسالته خير أداء .

وقد وصف أبو الدرداء للعلم والمتعلم بأنهما زميلان فى الخير ، ولا خير فيما عداهما . وفى العصور الوسطى كان الأستاذ فى معاهد الغرب بأوروبة يعامل بكل قسوة وشدة ، فكان يحلف لعميد الكلية بأداء فروض الطاعة له ، وتنفيذ النظام الذى تفرضه الجامعة عليه . ويعد غائبا ويعرض لغرامة محددة إذا لم يحضر محاضرته خمسة من الطلبة على الأقل .

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى جـ ١ ص ٥٢ .

وكان الطالب يكلف التبليغ عن أستاذه إذا غاب عن درسه بغير إذن ، في حين أن الأستاذ في المعاهد الإسلامية كان يتمتع في ذلك الوقت بكل رعاية وتقديس ، ويعامل بكل إجلال وتقدير ، وكانت له مكانة سامية ، وحرية مطلقة في التدريس ، واختيار المادة ، والوقت الذى يدرس فيه ، والعدد الذى يؤديه من المحاضرات .

الصفات التي يجب أن تتوافر في المعلم في التربية الإسلامية

١ ـ الزهد والتعليم ابتغاء مرضاة الله :

كان للمعلم منزلة سامية مقدسة ، وعليه واجبات تلائم مكانته ؛ فقد كان زاهداً كل الزهد ، يقوم بالتعليم ابتغاء مرضاة الله ، ولا ينتظر أجراً أو راتبا أو مكافأة مالية ، ولا يريد من مهنة التعليم سوى إرضاء الله ، ونشر العلم والتعليم . وكان الأساتذة يستعينون على المعيشة والحياة بنسخ الكتب وبيعها لمن يريدها ، ويكسبون عيشهم بهذه الوسيلة . وقد استمر علماء المسلمين عدة قرون وهم لا يقبلون أى أجر على تدريسهم ، ولكن بمضى الزمن أنشئت المدارس ، وحددت المرتبات للمعلمين ، فعارض هذا النظام كثير من العلماء ونقدوه ، ووقفوا ضده ؛ لزهدهم وورعهم . وفي اعتقادنا أن قبول المرتبات اليوم لا يتعارض مع إرضاء الله ، والزهد في الدنيا ؛ لأن العالم ـ مهما يكن زاهدا متقشفا ـ يحتاج إلى شيء من المال يستعين به على مطالب الحياة وتربية الأولاد .

٢ ـ طهارة المعلم :

يجب أن يكون المعلم طاهر الجسم والجوارح ، بعيدا عن الذنوب والآثام ، طاهر الروح ، بريئا من الكبر والرياء والحسد ، والعداوة والبغضاء ، وغيرها من الصفات الذميمة . قال الرسول الكريم : « هلاك أمتى رجلان : عالم فاجر ، وعابد جاهل . خير الخيار خيار العلماء ، وشر الأشرار شرار العلماء » .

٣ ـ الإخلاص في العمل :

إن إخلاص المدرس في عمله أكبر وسيلة لنجاحه في مهنته ، ونجاح تلاميذه . ومن

الإخلاص أن يعمل بما يقول ، وتتفق أعماله مع أقواله ، ولا يخجل من قول « لا أدرى » إذا كان لا يدرى . فالعالم حقا هو الذى يشعر على الدوام بحاجته إلى الاستزادة من العلم ، ويضع نفسه موضع تلاميذه فى البحث عن الحقيقة ، ويخلص لهم ، ويحافظ على أوقاتهم ، ولا مانع يمنع التعلم منهم ؛ لأنه يتحلى بالتواضع فى التربية الإسلامية ، ويكون حكيما حازما فيما يقول وما يفعل ، يلين فى غير ضعف ، ويشتد فى غير عنف .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظرُ إلى أجسامِكم ، ولا إلىَ صورِكم [1] ، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم . »

٤ ـ الحلم :

يجب على المدرس أن يكون حليما مع تلاميذه ، يستطيع أن يضبط نفسه ، ويكظم غيظه ، ويكون رحب الصدر ، كثير الصبر ، لا يغضب لأتفه الأسباب .

٥ ـ الهيبة والوقار :

لكى يكون العالم كاملا يجب أن يتصف بالهيبة والوقار ، ويكون ذا كرامة يربأ بنفسه عن الدنايا ، ويستنكف من القبيح ، ولا يصخب ولا يلغو ، حتى يكون مرفوع الرأس . موضع التبجيل والاحترام .

٦ ـ يجب أن يكون المدرس أبا قبل أن يكون مدرسا :

يجب أن يحب المعلم تلاميذه محبته لأبنائه ، ويفكر فيهم كما يفكر فى أولاده . وعلى هذا المبدأ الإسلامى تبنى التربية الحديثة اليوم ، ويجب أن يكون الولد الإلهى (وهو الطالب) أحب إلى المعلم من الولد الصلبى . وإن الأب الذى يضع أولاده فى قلبه أب عادى جدا ، ولكن الأب الذى يضع أبناء غيره فى قلبه يعد من الآباء الطاهرين المثاليين . وإن أولى التلاميذ بالعطف والشفقة أولئك الفقراء الذين يأتون من منازل حكم عليها بالشقاء ، لا يحبون أحدا لأنهم لم يشعروا بحب أحد . وهنا الفرصة أمام المدرس فى أن يعمل ، للوصول إلى قلوب هؤلاء البائسين ؛ لينقذ حياتهم ، وينجى أرواحهم من الموت والشقاء ، ويجتهد

(١) لا يثيبكم على الظاهر .

فى مساعدتهم ، وتسهيل الأمور فى سبيلهم ، بحيث يكون أبا شفيقا؛ يعطف عليهم ، ويقوى ضعيفهم ، ويشاركهم شعورهم .

٧ – يجب أن يكون عالما بطبائع الأطفال وميولهم، وعاداتهم وأذواقهم، وتفكيرهم؛ كى لا يضل فى تعليمهم . هذا ما ينادى به علماء التربية فى القرن العشرين . ففى التربية الإسلامية كان المدرس مطالبا بالعلم باستعدادات الأطفال وطبائعهم ، ومراعاتها فى أثناء التدريس لهم ، كى يختار لهم الموضوعات الملائمة التى تكون فى مستواهم العقلى . «ولا يرقيهم من الجلى إلى الدقيق، ومن الظاهر إلى الخفى دفعة وفى أول مرتبة، بل على قدر الاستعداد». فلا ينتقل من السهل إلى الصعب ، ومن الواضح إلى الخفى مرة واحدة، بل يتدرج معهم على قدر استعدادهم وإدراكهم وفهمهم .

٨ – يجب أن يتمكن المدرس من مادته، ويستمر فى البحث والاطلاع ؛ حتى لا يصير تعليمه سطحيا ، لا يسمن ولا يغنى من جوع . وقد كان للمعلم منزلة كبيرة فى المرحلة العالية من التعليم . وكان موضع ثقة وتقدير لدى الطلاب والآباء . ويختلف عن المعلم فى المرحلة الأولى كثيرا ، ولا يتمتع بالمنزلة التى كان زميله يحظى بها فى تعليم الكبار . فقد نظر بعض الكتاب إلى المعلم الأولى نظرة لا تبجيل فيها ولا احترام . فالجاحظ مثلا ينصح ألا تسترشد بمن يكثر الاختلاط بالأطفال والنساء ، فى حين أن كثيرين من العلماء المشهورين كانوا معلمى أطفال ، مثل الكميت[1] والضحاك بن مزاحم ، وعبد الله بن الحرث ، وأبى عبيد القاسم الذى ولى قضاء خراسان .

وقد عُير الحجاج بأنه معلم أطفال فى الطائف ، وكان اسمه وقتئذ كليبا ، فقال الشاعر فى ذمه مشيرا إلى أنه كان يأخذ الخبز على سبيل الأجر :

أينسى كليب زمان الهزال ... وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلكة ما ترى ... وآخر كالقمر الأزهر

---

(١) كان يعلم الأطفال فى مسجد الكوفة .

وفى المكتب الإسلامية إرشادات كثيرة خاصة بالمعلم الأولى ، نختار منها النصائح الآتية :

ألا يقسم الطعام مع الأطفال ، ولا يكتب إعلانات ويلصقها على باب الكتّاب ، ليجتذب التلاميذ إليه ؛ لأن مثل هذا العمل لا يصدر إلا عن السوقة من الناس، ولا يفرق بين الأغنياء والفقراء من التلاميذ ، ولا يستخدم الأطفال فى شئونه المنزلية ، وأن يعامل الجميع بروح العدل والإنصاف ، ويقوم بتعليم الأطفال بنفسه ، وإذا صعب عليه ذلك أمكنه أن يكلف بعض الكبار من الطلبة تعليم الصغار من التلاميذ . وهو نظام العرفاء فى التربية، وهو نظام يسمح بإشراك التلاميذ فى أن يعلم بعضهم بعضا ، ويملى بعضهم على بعض .

وقد لخص أبو شامة الشافعى فى كتابه : «مجموعات الرسائل » آداب معلم الصبيان فيما يلى :

« يبدأ بإصلاح نفسه ، فإن أعينهم إليه ناظرة ، وآذانهم إليه مصغية ، فما استحسنه فهو عندهم الحسن ، وما استقبحه فهو عندهم القبيح، ويلزم الصمت فى جلسته . . ويكون معظم تأديبه بالرغبة ، ولا يكثر الضرب والتعذيب . . ولا يمازح بين أيديهم أحدا . . ويقبح عندهم الغيبة ، ويوحش عندهم الكذب والنميمة، ولا يكثر الطلب من أهلهم».

وكلها توجيهات قيمة ، لا اعتراض عليها فى التربية الآن .

المؤدب أو المدرس الخاص .

المؤدب : هو مدرس خاص يقوم بتعليم طفل أو أكثر من أبناء العظماء والخلفاء ، وتأديبه وتثقيفه فى بيته أو قصره . ويشترك الأب مع المؤدب فى اختيار المواد التى يدرسها الابن ، ويستمر المتعلم فى دراسته حتى يصل إلى المستوى المنشود من التعليم . ولكى يشرف المؤدب على تلميذه من الأمراء إشرافا تاما كان يخصص له جناح فى قصر الأمير ليعيش فيه ، ويتناول طعامه وشرابه وينام فيه . وكان المؤدب يعطى تلميذه أربع ساعات أو أكثر كل يوم من وقته ، ويمكث معه عدة سنوات يقضيها فى تعليمه وتهذيبه .

وكان الآباء من الخلفاء يحترمون المؤدبين لأبنائهم ، ويعنون بهم عناية كبيرة

حتى كان لهم مركز أدبى كبير فى المجتمع . ولم يرفض هذه الوظيفة إلا قليل من الزاهدين لعزة أنفسهم ، وزهدهم فى المال ، كالخليل بن أحمد ، وعبد الله بن إدريس ، فإنهما كانا يفضلان التدريس للجماعة لا لأبناء الطبقة الخاصة .

وفى عصر الدولة الفاطمية ، أنشأ الفاطميون فى قصورهم مدارس خاصة ، لتعليم أبناء الولاة ، وسراة المسلمين ، وتربيتهم تربية تمكنهم من ملء المناصب الهامة فى الدولة .

حقوق الطلبة وواجباتهم فى التربية الإسلامية :

عنيت التربية الإسلامية بحقوق الأساتذة وواجباتهم ، كما عنيت بما للطلبة من حقوق ، وما عليهم من واجبات ، وما يجب أن يتمسكوا به من آداب . فمن حقوقهم : تيسير سبل التعلم لهم ، وإعطاؤهم كل فرصة فى أن يتعلموا من غير تفرقة بين الغنى والفقير منهم . وقد وصف (الرحالة ابن جبير) السبل التى يسرت للطلبة العلم والتعلم ، والمدارس العظيمة التى أنشئت لهم ، والأوقاف التى رصدت لهم وللمدرسين ، والقصور التى شيدت لسكناهم ، والربط التى أعدت وجهزت لهم ، وعدها كلها فخرا عظيما من مفاخر الإسلام والمسلمين . . . فمن أراد الفلاح فليرحل إلى بلاد المغرب ، ويتغرب فى طلب العلم ، فيجد كثيرا من المساعدات . ولا عجب ؛ فقد كان المسلمون ينظرون إلى طلاب العلم بعين الإجلال والتقدير ؛ لأنهم يسعون فى طلب أسمى شىء فى الوجود ، وهو العلم والمعرفة ، وكانوا يقولون إن من يسعى فى طلب العلم يسير فى طريق الجنة .

ومن الواجبات التى يجب أن يعمل بها كل طالب ، ويجعلها نصب عينيه دائما :

١ ـ قبل أن يقبل الطالب على العلم يجب أن يبدأ بتطهير قلبه من الرذيلة ؛ لأن التعلم والتعليم يعدان من العبادة ، ولا تصح العبادة إلا مع طهارة القلب ، والتحلى بالأخلاق الكريمة كالصدق والإخلاص ، والتقوى والتواضع ، والزهد والرضا ، والبعد عن الصفات الذميمة ، كالحقد والحسد ، والكراهية والكبرياء ، والغش والفخر والخيلاء .

٢ ـ أن يقصد من تعلمه تجميل روحه بالفضيلة ، والقرب من الله ، وليس الظهور بين

الناس ، والمباهاة والجاه .

٣ ـ أن يثابر على تحصيل العلم ، ويبعد عن الأهل والوطن ولا يتردد فى الرحيل إن استدعى الأمر الذهاب إلى أقاصى المعمورة للبحث عن أستاذ من الأساتذة .

٤ ـ ألا يكثر من تغيير مدرسيه ، بل يجب عليه أن يتريث قبل أن يقدم على التغيير .

٥ ـ أن يحترم أستاذه ويبجله ، ويوقره لله ، ويعمل على إرضائه بكل وسيلة من الوسائل .

٦ ـ ألا يضايق الأستاذ بكثرة الأسئلة ، ولا يعنته فى الجواب ، ولا يمشى أمامه ، ولا يجلس مكانه ، ولا يبدأ بالكلام حتى يؤذن له .

٧ ـ ألا يفشى لأستاذه سرًّا ، ولا يغتاب عنده أحدا ، ولا يطلبن عثرته ، وأن يقبل معذرته إن زل .

٨ ـ الجد والدأب فى الدرس ، ووصل الليل بالنهار فى إحراز المعرفة ، بتحصيل الأهم من العلوم .

٩ ـ أن تسود روح المحبة والمودة بين الطلبة ، حتى يروا كأنهم أبناء رجل واحد .

١٠ ـ أن يبدأ الطالب أستاذه بالسلام ، ويقلل بين يديه الكلام ، ولا يقول له : قال فلان خلاف ماقلت ، ولا يسأل جليسه فى مجلسه .

١١ ـ وأن يواظب على الدرس والتكرار فى أول الليل وآخره . «فإن ما بين المساء ووقت السحر مبارك» . وإن هذا يذكرنا بقول الشاعر :

يا طالب العلم باشر الورعا واترك له النوم واترك الشبعا

١٢ ـ أن يوطن النفس على التعلم إلى آخر العمر ، وألا يستهين بشىء من العلوم ، بل يجعل لكل واحد منها حظه الذى يستحقه ، ولا يحاكى ما سمعه من بعض أسلافه ، من الطعن فى بعض العلوم كالمنطق ، وعلوم الحكمة . . .

وأهم المبادئ التى قيلت فى التربية الإسلامية عن « المعلم والمتعلم » :

١ ـ الخلق الكامل أفضل من العلم :

لقد عد المسلمون الأخلاق الكاملة أفضل من العلم ، وجعلوها أساسا لنجاح المعلم والمتعلم على السواء ، فكما أن الوضوء يجب أن يسبق الصلاة كذلك ينبغى أن يبدأ المعلم والطالب بتطهير نفسيهما من الرذائل والنقائص؛ لأن العلم أيضا نوع من العبادة . ولاريب أن فى ذلك لب الحكمة ، ونهاية الرشد ، فكل تربية لاتؤسس على الخلق الكامل تعد تربية فاشلة، وكل مدنية لاتؤسس على الخير والفضيلة ، تعد مدنية خداعة زائفة كالسراب .

٢ ـ تقديس العلم والعلماء :

إن من أروع مبادئ التربية الإسلامية تقديس العلم والمعرفة، وتقديس العلماء والمعلمين، فالعلم كان مقدسا، والمعلمون كانوا مقدسين لدى الإسلام والمسلمين؛ لهذا أخلص المعلم والمتعلم الإخلاص كله فى الدراسة والبحث ، وثابرا عليهما ، فوجد بين المسلمين أفذاذ لا نظير لهم من العلماء والمتعلمين ، ولكن المغالاة فى هذا التقديس قد أدت إلى إضعاف روح النقد بينهم .

٣ ـ العناية التامة بتقوية الروابط الشخصية ، والألفة والمحبة بين العلماء والمتعلمين :

فالمعلم مطالب بالشفقة على المتعلمين ، ومعاملتهم كما يعامل الأب أبناءه ، والمتعلمون مطالبون بإرضاء أساتذتهم واحترامهم وتبجيلهم . وفى تقوية الرابطة والألفة والمحبة بين العلماء والمتعلمين دعم لأسس النجاح فى التربية والتعليم . فإن نجاح المربى يتوقف على غرس روح الثقة والمودة بينه وبين تلاميذه . فإذا أخلص المدرس لتلاميذه، وأحسوا بعطفه عليهم وحبه لهم كان العسير من المواد ميسرا ، والصعب سهلا . وقد ينفر الطالب من علم من العلوم لنفوره من مدرس ذلك العلم . وقد يحب المتعلم مادة من المواد ويتعلق بها كل التعلق لحبه لمدرس تلك المادة وتعلقه به .

ولقد نبه فلاسفة التربية الإسلامية إلى أثر حسن الصلة بين المدرس وتلاميذه فى

التربية والتعليم ، فعنوا كل العناية بهذا المبدأ ، ودرسوا ميول الطلاب، ومستواهم العقلى والعلمى ، وبحثوا عن خير السبل لإفادتهم والنهوض بهم ، واستعملوا فى تعليمهم الترغيب والتشويق ، لا الإرهاب والتخويف ، وشجعوا استعمال المدح و الثناء ، وتركوا التوبيخ والتأنيب ، فنجحوا كل النجاح فى أداء رسالتهم العلمية ، وكانت التربية الإسلامية تربية مثالية تتمثل فيها الناحية الإنسانية .

واجبات المعلم فى نظر الغزالى :

ولنذكر هنا الواجبات التى يجب على المعلم مراعاتها فى رأى الغزالى ، وهى :

١ ـ ألا يقصد بالتعليم جزاء ولا شكورا ، بل يقصد به وجه الله ، والتقرب إليه .

٢ ـ أن يشفق على المتعلمين ، ويجريهم مجرى بنيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده . » فيعاملهم المعلم كما يعامل أبناءه .

٣ ـ ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً ، بل ينتهز كل فرصة لنصحه وإرشاده .

٤ ـ أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق ، بطريق التعريض ما أمكن ، ولا يصرح، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فالغزالى ينصح بالزجر بالإشارة والتلميح لا التصريح ، إذا حدث من المتعلم ما ينافى الأخلاق ، مع مراعاة الرأفة والرحمة فى زجره .

٥ ـ أن يراعى مستوى الأطفال من الناحية العقلية ، ويخاطبهم على قدر عقولهم . ولا يلقى إليهم أشياء فوق مستوى إدراكهم ؛ حتى لا ينفروا من التعلم ، ويتخبطوا فيما يفهمون . وهذا خير مبدأ فى التربية الحديثة اليوم .

٦ ـ ألا يقبح فى نفس المتعلم علوم غيره ، بل ينبغى أن يوسع على المتعلم طريق التعلم فى غير علمه . ومعنى هذا أنه يجب ألا يتعصب لمادته .

٧ ـ ينبغى أن يلقى إلى المتعلم القاصر (الضعيف) الجلى اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه ؛ حتى لا تفتر رغبته ، ويضطرب عقله . ويقصد بهذا مراعاة مستوى الضعفاء من المتعلمين ، واختيار المادة السهلة الواضحة التى تناسبهم.

ويجب ألا يشعرهم بأنهم ضعفاء أو أغبياء ، حتى لا يؤثر فى نفوسهم تأثيراً سيئاً . فإن هذا النوع من الإيحاء مضر بهم .

٨ ـ أن يعمل المعلم بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله . قال الله تعالى : « أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ[1] ؟ » وقال: « كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ ٱللَّهِ أَنْ تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ[2] » وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً » . وقال أيضاً : « من ازداد علماً ولم يزدد هدى ، لم يزدد من الله إلا بعداً » .

الإسلام دين علم وعمل وخلق :

قال العارف بالله السيد / عبد الرحيم القناوى : « الدين الإسلامى دين علم وعمل وأخلاق . فمن ترك واحدة فقد ضلّ الطريق . »

ولا عجب فقد كان من كبار العلماء الأتقياء ، وكان يعمل بيده ليكسب معيشته . وحينما نزل بقنا مكث سنتين لا يلقى فيهما دروساً ، ولكنه بحث عن عمل ليأكل منه ، فاشتغل بتجارة الحبوب ، ثم بتجارة الأقمشة .

وكانت مدرسة السيد عبد الرحيم مدرسة علمية عملية خلقية . وكان يطلب ممن يريد الالتحاق بمدرسته أن يكون له عمل ، وأن يكون متزوجاً ليعصم نفسه عن النزوات الشيطانية .

الإسلام والعناية بالطفولة :

إن الطفولة هى صانعة المستقبل ، ومن واجب الأجيال العاملة أن توفر لها كل ما يمكن لها من تحمل مسئولية القيادة بنجاح .

حقًّا إن الطفولة صانعة المستقبل ، وعليها يتوقف مستقبل الوطن ؛ لأن طفل اليوم هو رجل الغد ، وأثر التربية اليوم يظهر فى الغد ، وما تزرعه اليوم تجنى ثماره غداً ، والوسيلة الوحدة لإصلاح الجيل المقبل وتربيته والنهوض به هى العناية بالطفولة فى الجيل

---

(١) سورة البقرة : ٤٤ (٢) سورة الصف : ٣

الحاضر ، فإذا عنينا بأطفال اليوم ، وتربيتهم تربية استقلالية صالحة فى البيت والمدرسة والملعب انتظرنا ثمرة طيبة ، وشعباً كاملا يستطيع أن يتحمل مسئولية القيادة بنجاح ، ويقود العالم فى المستقبل ، كما كان يقوده فى العصر الذهبى للإسلام .

الطفولة صانعة المستقبل :

حقاً إن الطفولة صانعة المستقبل ، وكما يكون الطفل يكون الرجل ، ومن أطفال اليوم يمكننا أن نكوّن رجال الغد والمستقبل. وعلى المربين من آباء وأمهات ، ومعلمين ومعلمات ، ونظار وناظرات أن يفكروا فى أبنائهم وبناتهم وتلاميذهم ؛ ليكوّنوا منهم قادة الأفكار والأعمال فى المستقبل ، ويوفروا لهم كل ما يمكن من الوسائل لتربيتهم تربية كاملة ، مع تعويدهم الاعتماد على النفس ، وتحمل التبعة (المسئولية) فى كل عمل يتولونه ، حتى ينجحوا فى حياتهم العلمية والعملية التى تنتظرهم ، ويقوموا بواجبهم نحو بلادهم ، ويتحملوا (مسئولية) القيادة بنجاح .

فى الطفولة تستطيع الأم والأب فى البيت أن يبثا فى نفوس أولادهما ما يشاءان من المبادئ الدينية والوطنية والخلقية والاجتماعية ، ويستطيع المعلمون والمعلمات فى المدرسة أن ينشروا فى المتعلمين والمتعلمات المثل العالية فى التربية ؛ لتكوين جيل من الشباب الكامل ، المؤمن بربه ، المتمسك بدينه ، المخلص لوطنه ، المنظم فى تفكيره ، القوى الشخصية ، النافذ الإرادة ، الصادق الوطنية ، السليم الجسم والعقل ، المحب للاطلاع ، المهذب الوجدان ، الجميل الذوق ، الذى يستطيع أن يعتمد على نفسه فى كسب عيشه ، ويعيش لغيره كما يعيش لنفسه ، ويحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويضحى بمصلحته الخاصة فى سبيل مصلحة المجتمع الذى ينتسب إليه ، ويجيد التعبير بقلمه ولسانه ، والعمل والإنتاج بيده وعقله ، ويؤمن بالله وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، ويتمسك بالحرية والوحدة والاتحاد والعدالة الاجتماعية ، والروح التعاونى ، والإخلاص فى العمل .

« لَأَن يُؤَدِّبَ الرجلُ ولدَه خيرٌ له من أن يتصدَّقَ بصاع » :

(حديث شريف)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَأَنْ يُؤَدِّبَ الرَّجُلُ وَلَدَهُ خيرٌ له مِنْ أَنْ يَتَصَدَّق بصاعٍ » .

وقال : « ما نَحَلَ[1] والدٌ ولدَه أفضلَ من أدبٍ حَسَنٍ » .

فالرسول الكريم يحثُّ على التربية الخلقية ، وهى المثل الأسمى فى التربية .

وقال عليه الصلاة والسلام : « اتقُوا اللهَ واعدلوا فى أولادكم . »

وهذا أمرٌ من الرسول بالعدالة فى معاملة الأطفال ، فلا يجوز أن يميز الوالدان طفلاً على آخر ؛ لأن الطفل يحس بهذا التمييز ، فتتولد الغيرة والحقد والكراهية بين الإخوة والأخوات ، بسبب تفضيل بعضهم على بعض . ولكى تستمر المحبة بين الأولاد يجب أن تكون هناك مساواة تامة فى معاملة الآباء والأمهات لهم .

أُمِرتُ أن أُخاطبَ الناسَ على قدرِ عقولهم :

(حديث شريف)

قال صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ . »

وهو قول يجب أن يكتب بقلم من النور على باب كل مدرسة ؛ حتى يخاطب المدرس تلاميذه على قدر عقولهم ، ويتكلم معهم بالأساليب التى يفهمونها ، فيفرق بين الأذكياء والأغبياء والمتوسطين من الأطفال عند شرح المسائل وتفهيمها لهم ، فالذكى يفهم بالإشارة ، والغبى يفهم الشىء بعد أن يكرر له عدة مرات ، وتستعمل معه كل الوسائل الحسية التى تقرب مسائل الدرس إلى ذهنه ، والمتوسط يفهم بعد أن تعاد له المسألة مرتين أو ثلاثاً .

وقد ورد فى الإنجيل فى الإصحاح الثالث عشر من رسالة (بولس) الأولى إلى أهل كورينثوس : « حينما كنت طفلا كنت أتكلم كطفل ، وكنت أفهم كطفل ، ولكن لما صرت رجلا أبطلت أمور الطفولة . » .

---

(١) أعطاه .

وهذا خير مثل وخير مبدأ للتربية الحديثة ، فلا تنتظر من الطفل أن يتكلم كرجل ، أو يفهم كرجل ، أو يفكر كرجل ، كما لا تنتظر من الرجل أن يكون طفلا فى كلامه وفهمه وتفكيره ، فيجب أن نفكر فى اللغة التى يفهمها الطفل ، والمادة التى يهضمها ، والطريقة التى تلائمه .

أهمية الطفل والطفولة فى التربية الحديثة :

ولا عجب ؛ فالتربية الحديثة فى القرن العشرين تضع الطفل فى المكان الأول من الأهمية فى التربية ، وهى مؤسسة على العلم بالطفل والطفولة . فالطفل يتأثر بالمثل الذى يراه ، وبالبيئة التى يعيش فيها ، وباللغة التى يسمعها ، وبالكتب التى يقرؤها بعد أن يتعلم القراءة والكتابة ؛ أى يتأثر بالقدوة والمحاكاة كل التأثر .

حقًّا إن الطفولة صانعة المستقبل ، ولكن مع الأسف الشديد قد أهملت الطرق الملائمة للطفولة كل الإهمال فى التربية والتعليم ، وصارت إلى حيث لا يهتم بها أحد ، فى الوقت الذى تنادى فيه التربية الحديثة بأن العناية بالطفولة هى النقطة الجوهرية والفكرة الثمينة للتربية الكاملة ، والتعليم الصالح . وإن الطفل يجب أن يكون المادة الأساسية للبحث والعمل . ولسوء الحظ قد أهملت الطفولة فى حجرة الدراسة . فالأطفال فى المدرسة يعاملون فى اعتقادنا كأنهم خلقوا لكتبهم المدرسية ، ولم تؤلف الكتب المدرسية لهم . فَقَبْلَ أن نُعِدَّ الكتاب المدرسى يجب أن نفكر فى الأطفال الذين يدرسونه ، وننظر إلى ميولهم وغرائزهم وعاداتهم ، ومستواهم ، ونعمل على أن تكون هذه المادة ملائمة لهؤلاء الأطفال . ويجب ألا ننسى أننا نكتب لأطفال لا لرجال . يجب أن يكون الكتاب صالحًا للأطفال ، فلا نكلفهم شيئًا فوق مستواهم ومستوى طفولتهم .

وقد تعجب إذا قلت لك إنه لا فرق بين المصورات الجغرافية التى تستعمل فى المدارس الابتدائية ، والإعدادية والمصورات التى تستعمل فى المدارس الثانوية والجامعة

فى قسم الجغرافيا بكلية الآداب . أليس هناك فرق بين الطفل والرجل ، أو بين التلميذ فى المدرسة الابتدائية والطالب فى الجامعة حتى نستعمل مصوراً جغرافيًا واحداً للاثنين ؟ هل مقدرة الطفل كمقدرة الرجل حتى يؤتى لهما بمصور واحد ؟ هل يتصور العقل أن مايصلح للرجل يصلح للطفل ؟ ادخل أى مدرسة إعدادية أو ثانوية ، وألق نظرة فى حجرة الدراسة بها ، تجد المصورات الجغرافية فى المدارس الإعدادية هى عينها فى الثانوية ، وهى نفسها فى كلية الآداب . لماذا ؟ لأننا نعتقد خطأ أن الطفل يستطيع أن يفعل مايفعله الرجل ، ويفهم مايفهمه ، ويرى مايراه ، ويشعر بما يشعر به ، ويحس بما يحس به ، فالطفل طفل ، والرجل رجل ، ومايناسب أحدهما لايناسب الآخر ، اللهم إلا إذا أردنا أن نغير الحقيقة ، ونعكس الطبيعة ، ونقلبها رأساً على عقب . ولقد ذكرنا ما ذكرنا من المصورات الجغرافية على سبيل المثل للخطأ فى فهم الطرق المناسبة لحال الطفولة .

وواجبنا اليوم أن نفكر فى الطفل والطفولة . وفى معاملة الأطفال يجب ألا نفكر فى أنفسنا أو فى معلوماتنا وأفكارنا ، بل يجب أن نفكر فى الطفل وما يعرفه ، وما يفكر فيه وفى بيئته . يجب ألا نفكر له بعقولنا ، بل بعقول الأطفال ؛ فعقل الطفل يخالف عقل الرجل ، ونظرات الطفل تختلف عن نظرات الرجل ، ولكن كثيراً ما ينسى المربى أنه يتكلم مع أطفال ، فيعطيهم من المادة أو الدواء ما لا يصلح لهم ، مما يجب أن يعطى للكبار ، لا للأطفال .

ونصيحتنا للمربى أن يسأل نفسه على الدوام : هل هذا فى مستوى التلاميذ ؛ حتى يعطى كل طفل الدواء أو الطعام الذى يناسبه ؟ فمقدار الدواء للكبار لا يصلح للصغار ، وطعام هؤلاء لا يناسب أولئك . وإذا أعطيناهم إياه أحدثنا لهم سوء هضم للمعلومات ، وآلمناهم من حيث لا نشعر . فعلى المربين أن يذكروا الطفل ، ويذكروه دائماً ، ولا يضحوا به بأى حال من الأحوال . وليعلموا أن الطفولة صانعة المستقبل ، وأن طفل اليوم هو رجل الغد .

الإسلام والعناية بالتربية الصحية

العناية بالصحة والعلاج فى الإسلام :

لقد شغل الناس منذ فجر حياتهم بمعرفة الوسائل التى تساعد فى مكافحة الأمراض ، وتقوية صحة الأبدان . ولذلك راعت الشرائع السماوية فى كل الواجبات والفرائض الدينية ما يحقق هذه الغاية . وكان علم الطب أقدم علم اشتغل به الإنسان . وكان الكهنة فى معابد المصريين القدماء هم رجال الدين ، ورجال الطب .

وإن السنة الشريفة مليئة بأحاديث الرسول التى تحث على العناية بالصحة ؛ لما لها من جليل الأثر فى الحياة . وقد عنى الإسلام كل العناية بالناحية الصحية ، وسلامة الأجسام والأبدان ؛ لتظل بمأمن من الأمراض والأسقام ، حتى لقد قال عليه الصلاة والسلام : « إن لبدنك عليك حقًّا » .

وقال صلوات الله عليه : « المؤمنُ القويُّ خيرٌ مِن المؤمن الضعيفِ » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « سافِرُوا تصِحوا » . وقد جاء فى أمثال قدماء اليونان : الصحةُ فى الهواء .

وقد بُنى الإسلامُ على النظافة ، فقال رسول الله : « الطهورُ شَطرُ[1] الإيمان » .

وقال : « النظافةُ من الإيمان » . « الإسلامُ نظيفٌ فتنظفُّوا ، فإنه لا يدخلُ الجَنَّةَ إلا نظيف » .

ولا ريب أن النظافةَ سبيلٌ إلى الصحة . والصحة تاجٌ على رءوس الأصحاء ، لا يراه إلا المرضَى .

وإننا نلمس العنايةَ الإسلاميةَ بالصحةِ الجسميةِ فى اتخاذِ الإسلام النظافةَ وسيلةً من وسائلِه فى محاربةِ المرضِ والقضاءِ عليه ؛ فالصلاةُ ـ وهى ملاكُ الدينِ ودعامتُه ـ سُداها

(١) نصف .

ولُحمتُها نظافة الجسمِ والثَّوْبِ والمكانِ .

والوضوء للصلاةِ كله نظافة وهو يؤخذ من قوله تعالى :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ[1] » .

فالمضمضة فى الوضوءِ سُنَّةٌ ، وفيها نظافةٌ للفمِ واللثةِ والأسنان . والاستنشاق سنةٌ ، وفيه نظافةٌ للأنفِ ، ووِقايةٌ من الزكامِ . وفى غسلِ الوجهِ والأيدى ومَسح الرَّأْسِ والأذنين[2] وغَسل الرِّجلين إلى الكعبين عدة مرات فى اليوم نظافةٌ وتطهيرٌ لهذه الأعضاء ، ووقايةٌ من الأمراض الجلديةِ التى تنشأُ عن الوساخة ، وتتسرَّبُ إلى الجسم عن طريقِ الجلدِ .

العناية بالتغذية فى الإسلام :

وفى التغذيةِ أمرَ اللهُ باختيار الأطعمةِ الصِّحيةِ ، وحرَّمَ الأغذيةَ الضارَّةَ بالصّحةِ للوقايةِ من الأمراض ، قال جلَّ شأنهُ :

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ، وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ[3] . إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ[4] » .

وفى النهى عن الانتحارِ ، وعما يُؤدِّى إلى هلاك الإنسان ، كاختلاط المرضى بأمراضٍ مُعدية يقول تعالى :

« وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ[5] » .

كى نُرَاعىَ صِحَّتنا ، ونَتَّقىَ ما يضرُّ الصحةَ كرداءةِ الغِذاء ، وفسادِ الهواء ، ورطوبةِ المسكنِ ، والجلوس فى التيَّاراتِ الهوائيَّة .

---

(١) سورة المائدة : ٦ . (٢) مسح الأذنين سنة . (٣) سورة البقرة : ١٧٢ ـ ١٧٣ .
(٤) أى ذبح على اسم غير الله . (٥) سورة البقرة : ١٩٥ .

الرضاعة الصحية فى الإسلام :

وفى المدة الصحية لرضاعة الطفل وفطامه قال عزّ وجلّ :

« وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أراد أنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ [١] » .

وقد أثبتَ الأطباء بالتجربة أن الرضاعةَ يجبُ أنْ تكونَ أكثرَ من سَنةٍ ، وأن الأفضلَ أنْ تكونَ سنتَين ؛ حتى يقوَى جسمُ الطِّفل وأسنانُه ، ولا يتعرضَ للإصابةِ بالأمراض المعَويةِ ، وأن الأم ينبغى أنْ تقومَ بإرضاعِ أطفالها ؛ لأن لبنها خيرُ غِذاء للطفل .

الصيام من الناحية الصحية :

وقد فرض الإسلامُ صيامَ شهر رمضان فى قوله تعالى :

« يَاأَيُّها الَّذين آمنوا كُتِبَ [٢] عليكمُ الصيامُ ، كمَا كُتِبَ عَلَى الَّذين مِن قبلِكُمْ لعَلَّكم تتَّقون » .

لأن الصيامَ من الناحيةِ الصحيةِ وقاية للصائم ، وهو مفيدٌ لمن كان مريضاً باضطرابِ الأمعاء ، أو البولِ السُّكَّرى ، أو التهابِ المفاصلِ أو الكُلَى ، أو ضَغطِ الدمِ .

لماذا حرمَ الإسلام الخمر ؟

للرعايةِ الصحيةِ نهى الإسلامُ عن شُربِ الخمر ؛ لأنه يُضْعِفُ القلبَ ، ويُؤدِّى إلى تصلُّبِ الشرايين ، ويؤثرُ تأثيراً مُضرّا فى الكبدِ والكلى والأعصاب، ويُبعدُ الإنسان عن الشعور والإدراك .

قال تعالى : « يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا [٣] » .

---

(١) سورة البقرة : ٢٣٣ .　(٢) فرض .　(٣) سورة البقرة ٢١٩ .

والنفعُ محصورٌ فى أنَّ الخمرَ يسبِّبُ قليلاً من الانتعاشِ الوهمى المبنى على التخيل والوهم ، ثم يزولُ بفقد التفكيرِ السليم ، وفقد التصرُّفِ الكاملِ ، ويضرُّ الصحةَ ضرراً بالغا .

الصحة الوقائية فى الإسلام :

والصحة الوقائية التى ينادى بها الأطباء اليومَ فى قولهم :

« الوقاية خيرٌ من العلاج » ليست من مبتكراتِ القرنِ العشرين ، بل هى دعوةٌ إسلامية خالصةٌ ؛ فقد تحدث النبىُّ صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال :

« نحنُ قومٌ لا نأْكل حتّى نجوع ، وإذا أكلْنا لا نَشبعُ » .

وقال : « ما ملأ ابنُ آدم وعاء شرًّا من بَطْنِه . بحسبِ ابنِ آدمَ لقيماتٌ يُقِمْنَ صُلبَه ، فإنْ كانَ لا محالةَ فاعلاً ، فثلثٌ لطَعامِه ، وثُلثٌ لشرابِه ، وثلثٌ لنفَسِه » .

وذلك لينبه العقول والأذهان إلى ما فى إدخالِ الطعام على الطعامِ من ضررٍ بصحة الإنسان ، فيحذرَه ويخشاه .

وحتى عزلِ المرضى — خوف انتشارِ المرض وتَفَشِّيه — قد فطن إليه المسلمون فى صدر الإسلام .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فِرَّ من المجذومِ كما تفرُّ من الأسد » .

وقد زار أمير المؤمنين عمرُ بن الخطابِ — رضى الله عنه — الشام ، وكان وباء الطاعونِ يفتكُ بأهلِها وبمن وفدَ إليها من جنودِ المسلمين . فلما رأى سيدُنا عمرُ أن هؤلاء الجنودَ ينزلون فى مكانٍ منخفض بجوار دمشقَ ، بالقرب من مُستنقع ، أمرَهم بالرحيل عنه ، لأنه غيرُ صحِّىّ ، إلى حيثُ ضُرِبت لهم الخيامُ فوق تلٍّ مرتفعٍ بجوار المدينةِ . وقد سأله أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ ، وكان يتولى قيادةَ الجيش : أَنفرُّ من قضاءِ اللهِ ؟

فأجابه عمرُ المفكر العظيم : نعم ، نفرٌّ من قضاء الله إلى قضاء الله » .

وبهذه الأسلحة فكرَ الإسلامُ فى الرعاية الصحيةِ ، ومحاربةِ المرضِ ، فهل لنا أن نحذوَ حذوَهُ ، ونسيرَ على نهجه ، فنكسب الأجسام قوةً ومَناعةً نقهرُ بهما عادياتِ الأمراض والأسقام ؟

وقال الرسول الكريم : « نفسُك مَطيتُك فارفُق بها » . أى كن رفيقاً بنفسِك ، ولا تحملْها ما لا تستطيع ، وعالجها إذا مَرِضت ، وأعطها قسطاً من الرَّاحةِ إذا تعبت ، حتَّى تعودَ إليها قوَّتُها وصحتُها ونشاطها .

وقد حث الرسول على العلاج بقوله : « إنَّ اللهَ أنزل الداء والدواء ، وجعل لكلِّ داء دواء » . وقوله : « ما أنزلَ اللهُ داءً إلا أنزل له شفاءً » .

وقال صلى الله عليه وسلم فى رده على من يُهملون علاج أنفسِهم ، محتجِّين بالقضاء والقدر : « الدَّواء من القدَر ، وقد ينفع بإذن الله » .

وفى ذلك تنبيه لنا بالعناية بصحتِنا ، وبالتداوى ، وكثيرا ما ينفع الدواء ويكون سبباً فى الشفاء بإذن الله وإرادته ، ولا يتعارضُ مع أحكام القدَرِ التى لا يعرفها إلا الله . فيجب ألا نهمل صحتَنا ، ونعرِّضها للمرض ، متعلِّلين بالقضاء والقدر .

الوقاية الصحية :

قال تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ[1] » .

عن أسامة بن زيد رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذَا سَمِعتُمُ الطاعونَ بأرضٍ فلا تدخُلوها . وإذا وقَعَ بأرضٍ وأنتم فيها فلا تخرجوا منها » .

رواه البخارى ومسلم

(١) سورة البقرة : ١٩٥

آراء بعض فلاسفة الإسلام فى تربية الطفل ومعاملته

كيف نعامل الطفل ؟

إننا نقتبس هنا شيئاً من كلام العرب وفلاسفة الإسلام ، كى يمكننا أن نعرف كيف كان المسلمون يقدرون الأطفال ، وكيف كانوا يعاملونهم ، ويهذبونهم ويربونهم .

دخل الأحنف بن قيس على معاوية بن أبى سفيان ، ويزيد بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجابا به . فقال : يا أبا بحر ، ماتقول فى الولد [١] ؟

ففهم ما أراد ، فقال : يا أميرالمؤمنين ، هم عماد ظهورنا ، وثمر قلوبنا ، وقرة أعيننا . بهم نصول على أعدائنا . وهم الخلف منا لمن بعدنا ، فكن لهم أرضا ذليلة ، وسماء ظليلة . إن سألوك فأعطهم ، وإن استعتبوك [٢] فأعتبهم . لا تمنعهم رفدك [٣] فيملوا قربك ، ويكرهوا حياتك ، ويستبطئوا وفاتك .

فقال : لله درك يا أبا بحر ! هم كما وصفت .

وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده :

ولنذكر هنا جزءا من وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده ؛ لنعرف الأغراض التى كان يرمى إليها من تربيتهم : « علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة ، فإنهم أسوأ الناس رعة [٤] ، وأقلهم أدبا ، وجنبهم الحشم [٥] ؛ فإنهم لهم مفسدة . . . وأطعمهم اللحم يقْووا . وعلمهم الشعر يمجُدوا . وينجدوا [٦] . ومرهم أن يستاكوا عرْضا ، ويمصوا الماء مصا ، ولا يعبوه عبا ، وإذا احتجت إلى أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك فى ستر ؛ لا يعلم به أحد من الفاشية فيهونوا عليه » .

فعبد الملك ينصح المؤدب لأولاده بأن يعود أبناءه الصدق ، ويعنى بالناحية الخلقية عنايته بالقرآن الكريم ، وحفظه وفهمه ، ويبعدهم عن السافلين الساقطين من الناس ،

(١) الولد : جمع ولد . (٢) إن استرضوك فأرضهم . (٣) الرفد : العطاء والصلة .
(٤) أقلهم ورعا . (٥) الخدم . (٦) يرتفعوا .

كى لا يحاكوهم فى أقوالهم البذيئة ، وأفعالهم الذميمة ، ولا يتشبهوا بهم فى قلة ورعهم ، وسوء أدبهم . ويجنبهم الحشم والخدم ؛ فإنهم مفسدون لأخلاقهم وآدابهم . وعليه أن يعتنى بإعطائهم اللحوم، والاهتمام بتغذيتهم ؛ كى تقوى أبدانهم ، ولا تضعف أجسامهم، ويعلمهم الشعر وأوزانه وقوافيه ، حتى يتذوقوا مافيه من الجمال ، ويصيروا من العظماء ، ويرتفعوا فى مراكزهم فى الحياة . ولا تهمل العناية بأسنانهم ، وتنظيفها بالسواك ؛ لأنها موصلة إلى المعدة ، والمعدة تتأثر بما يصل إليها من طعام وشراب . وعودهم أحسن العادات الصحية عند شرب الماء . وإذا أردت أن توبخهم أو تؤدبهم أو تعاقبهم فاجتهد أن يكون ذلك كله سرا ، لا يعلم به أحد ممن يفشون الأسرار ، ويذيعونها ؛ كى تحافظ على مركزهم ومنزلتهم ، ولا يحتقرهم أحد .

وفى هذه الوصية لم يفكر عبد الملك بن مروان فى التربية العلمية والدينية ، والأدبية وحدها ، ولكنه فكر أيضا فى التربية الخلقية والجسمية واللسانية ، والتربية الصحية ، والتربية الاجتماعية .

وصية عتبة بن أبى سفيان [1] لمؤدب ولده وهو عبد الصمد :

وقال عتبة بن أبى سفيان لمؤدب ولده : « ليكن أولَ إصلاحِك لولدى إصلاحُك لنفسك ؛ فإن عيونَهم معقودةٌ بك ، فالحسنُ عندهم ماصَنعت ، والقبيحُ عندهم ماتَركت. علِّمهم كتابَ الله ، ولا تمِلَّهم [2] فيه فيتركوه ، ولا تتركْهم منه فيهجُروه . رَوِّهمْ من الحديث أشرفَه ، ومن الشعر أعفَّه ، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يُحكموه ؛ فإن ازدحام الكلام فى السَّمع مَشغلةٌ للفهم ، وعلمهم سنن الحكماء ، وجنِّبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفاية منك . وفى رواية أخرى :

---

(١) ولاه أخوه معاوية بن أبى سفيان مصر بعد وفاة عمرو بن العاص . وأقام عتبة واليا على مصر سنة واحدة ، وشهرا واحدا . (توفى سنة ٤٤ هـ) .

(٢) مَلَّ الشىء ومن الشىء : سَئِمه . وأَمَلَّهُ : أسْأَمَهُ .

« وعلمهم سير الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يَعجَل بالدواء حتى يعرف الداء[١] . »

فهو ينصح لمؤدب أولاده بإصلاح نفسه أولاً ؛ ليكون قدوة حسنة لهم ، فإنه فى نظرهم مثلهم العالى ، ينظرون إليه بعيونهم ، ويحاكونه فى أقواله وأفعاله ، يستحسنون مايفعل ، ويستقبحون مايترك ، وعليه أن يعلمهم كتاب الله ، ليهتدوا بهديه ، ويستضيئوا بنوره . واحذر أن تصل السآمة والملل إلى قلوبهم فيتركوه ، وشجعهم على فهمه وحفظه ، والانتفاع به ، ولا تتركهم منه فيتركوه ويهجروه . وكما تعنى بالقرآن الكريم يجب أن تعنى برواية الحديث الشريف . واختر لهم من الشعر العربى أعفه ، وأبعده عن الغزل والهجاء ؛ كى لا يتأثروا بما يدرسون وما يقرءون . ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يجيدوا العلم الأول ويتقنوه ؛ فإن إتقان المادة يسهل على المتعلم تذكرها . وكثرة المواد الدراسية فى المناهج تشغل الطالب عن الفهم . وعلمهم طرق الحكماء فى حياتهم وأعمالهم وتصرفاتهم ، حتى يقتدوا بها . وأبعدهم عن محادثة النساء ، خوفا عليهم من الفتنة والوقوع فى الضلال ، ولا تتكل على عذر منى لك ، فقد اتكلت على كفايتك ، ووثقت بإخلاصك وأمانتك . وكن لهم كالطبيب الماهر الذى يشخص المرض ، ويعرف كنهه أولاً ، ثم يعمل على معالجته . وهى نصيحة ثمينة يجب أن ينتفع بها كل مؤدب أو معلم ، يتطلب أن يكون مثلا عاليا فى الأخلاق ، ماهرا فى التدريس ، يشجع طلبته على حفظ القرآن ، ودراسة الحديث ، ويرغبهم فيهما ، ويختار لهم من الشعر أعفه وأحسنه ، بحيث يجيدون كل مادة ، ويقتدون بالحكماء فى حياتهم ، ويبتعدون عن النساء ، ويتفرغون للعلم والدراسة .

[illegible]ة هشام بن عبد الملك لمؤدب ابنه :

قال هشام بن عبد الملك لسليمان الكلبى مؤدب ابنه : « إن ابنى هذا هو جلدة [illegible]

[illegible]

ما بين عينى . وقد وليتك تأديبه ، فعليك بتقوى الله ، وأد الأمانة . وأول ما أوصيك به أن تأخذه بكتاب الله ، ثم روه من الشعر أحسنه ، ثم تخلل به فى أحياء العرب ، فخذ من صالح شعرهم ، وبَصِّرْه طَرفا من الحلال والحرام ، والخطب والمغازى » .

فهشام يقول لمؤدب ولده : إن ابنى أعز شىء لدى ، وقد تركت لك تعليمه وتهذيبه . وقد وصاه بتقوى الله ، وأداء الأمانة ، فإن لصلاح المعلم أثرا فى نفس المتعلم ، والرجل الصالح ينتفع بعلمه وتقواه . وأول وصية يوصى بها هشام العناية بالقرآن الكريم وحفظه ودراسته ، ثم رواية أحسن الشعر ، حتى يكسب ابنه ذوقا فى الشعر ، يمكنه من أن يقدر مافيه من روعة الأسلوب ، وجمال الخيال ، وصواب الفكرة ، ثم الرحيل معه ، والانتقال بين أحياء العرب ؛ ليروى عنهم أحسن الشعر ، ويتلقى منهم أجمله ، وتفهيمه ما أحله الله ، وماحرمه ؛ حتى يكون بصيرا بدينه ، ويعرف حلاله من حرامه ، فيفعل الأول ، ويجتنب الثانى . وشجعه على دراسة خطب الخطباء وحفظها ، والانتفاع بما فيها من حكم رائعة ، وآراء سديدة ، ونصائح ثمينة ، وأساليب بليغة ، ومعرفة مغزى كل خطبة ، وما يرمى إليه الخطيب من خطبته .

الإسلام والبحث العلمى :

لقد كان علماء الإسلام يسافرون الأيام والليالى والشهور ، ويحتملون الكثير من متاعب السفر بالدواب ، ومشاق المواصلات للتحقق من حديث شريف ، أو مسألة علمية أو فقهية . ولا عجب ؛ فقد كانوا متعلقين بطلب العلم كل التعلق . وقد وهب كثير منهم حياته للبحث العلمى والعقلى والدينى ، وأفنوا حياتهم كلها فى القراءة والدرس والتحصيل ، وجاهدوا فى سبيل العلم جهاداً خالصا لله ، وفى سبيل الله ، لم يفكروا فى [illegible] ولم يفكروا فى مال ، ولم يفكروا فى درجة مالية بسبب حصولهم على درجة علمية [illegible] من يطلع على ما كتب من مجلدات فى التفسير والحديث والفقه للأئمة الأ[illegible] الشافعى ومالك وأبى حنيفة وابن حنبل — يشعر بمقدار ما قام به المفسرون [illegible]

والفقهاء والعلماء من مجهود لا يقدر فى سبيل الوصول إلى الحقيقة فى الدين والعلم والتشريع .

وقد قيل إن أبا أيوب الأنصارى سافر من المدينة المنورة إلى مصر ليرى عقبة بن نافع ويسأله عن حديث من أحاديث الرسول ، ويتحقق من نصه ، ثم رجع فى الحال إلى المدينة .

وقد قال الرئيس الطبيب العالم النفسانى ابن سينا : « لازمت العلمَ ، وكنت كلما أتحير فى مسألة أتردد على الجامع وأصلى ، وأبتهل إلى مبدع الكون حتى ينفتح لى المنغلق ، ويتيسر المتعسر ، وأرجع بالليل إلى دارى ، وأضع السراج بين يدى ، وأشتغل بالقراءة والكتابة ، وإذا أخذنى النوم أحلم بالمسائل عينها حتى إن كثيرا منها اتضحت لى وجوهه فى المنام . ولم أزل كذلك حتى استحكمت لى جميع العلوم . »

وكثيرا مارحل ابن خلدون وأبو بكر بن العربى وياقوت الحموى فى سبيل طلب العلم والبحث وراء الحقائق الاجتماعية والتاريخية والجغرافية والأدبية والعلمية والفلسفية .

وقد تعجب إذا عرفت أن ثلاثة إخوة من أسرة إسلامية واحدة قد أظهروا نبوغا لا نظير له فى علوم مختلفة ، فنصر الدين بن الأثير عرف بالأدب ، ومن كتبه : « المثل السائر » .

وأخوه محمد مجد الدين بن الأثير اشتهر بالحديث ، ومن كتبه : « النهاية فى غريب الحديث » و « جامع الأصول فى أحاديث الرسول . »

وعلى عز الدين بن الأثير صاحب كتاب « الكامل فى التاريخ . »

قال صلى الله عليه وسلم : . . ومن سلك طريقا يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقا إلى الجنة ، وما اجتمع قومٌ فى بيت من بيوت الله يتلون كتابَ الله ، ويتدارسُونه بينهم إلا نَزَلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده . ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . »

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفضل العالم العامل بعلمه الذى يعلم الناس الخير — على العابد .

الإسلام يشجع على البحث العلمى والتفكير العقلى :

إن الإسلام يشجع على البحث العلمى ، والتفكير العقلى ، والنظر إلى العالم وما فيه بعين فاحصة ، وملاحظة ما يرى فيه من التغيرات الطبيعية ، والتفكير فى خالق هذا الكون ، وما فيه من السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والإبل وكيف خلقها ، والسماء وكيف رفعها بغير أعمدة ، والجبال وكيف نصبها وثبتها وجعلها راسخة لا تميل ، والأرض وكيف بسطها ؛ ليسعى الإنسان فيها ويبحث عن رزقه ، ويعد هذا النوع من التفكير عبادة لا نظير لها . عَن على رضى الله عنه قال صلى الله عليه وسلم : لا عبادة كالتفكير .

انظر إلى تلك الآيات الكريمة ، تجد فيها حثًّا قويًّا على التفكير . قال الله تعالى : « إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ [1] . » وأصحاب العقول المفكرة ، وهى دلائل واضحة على وجود الخالق القادر جل جلاله ، وعلى جمال صنعه ، وكمال علمه ، وعظمة حكمته . وفى هذه الآية قال المصطفى صلى الله عليه وسلم : « ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها . »

وقال عز وجل : « أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ [2] . »

وقال عز من قائل : « إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ، أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ [3] وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ . » أى تتفكروا فى خلق السموات والأرض ، وعظمة الخالق جلت

(١) سورة آل عمران : ١٩٠ . (٢) سورة الغاشية : ١٧ — ٢١ .
(٣) اثنين اثنين ، وواحدا واحدا .

قدرته ؛ كى تدركوا أن الخالق هو الله وحده ،وأن محمدا رسوله أرجح العالم عقلا، وأحدّ الناس ذهنا ، وأكثرهم حلما .

وقال تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا[1] . »

وقال عز شأنه : « الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ، وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا، سُبْحَانَكَ[2] . »

قياما وقعودا : المراد يتذكرون الله سبحانه دائما فى كل أعمالهم .

المتعلمون فى نظر أبى نصر الفارابى :

قال أبو نصر الفارابى[3] فى رسالته فى السياسة بعد ذكر المتعلمين ووجوب مراعاة استعدادهم :

« منهم أولو الطبائع الرديئة يقصدون تعلم العلوم ليستعملوها فى الشرور ، فينبغى للمرء أن يحملهم على تهذيب الأخلاق ، ولا يعلمهم شيئا من العلوم التى إذا عرفوها استعملوها فيما لا يجب . ومنهم البلداء الذين لا يرجى ذكاؤهم وبراعتهم ، فينبغى أن يحثهم على ما هو أعود عليهم . ومنهم المتعلمون ذوو الأخلاق الطاهرة ، والطبائع الجيدة ، فيجب ألا يدخر عنهم شيئا مما عنده من العلوم . »

فالفارابى ينصح بتهذيب الأشرار ، والعناية بهم من جهة التربية الخلقية ، وحث البلداء على العمل والاجتهاد والمثابرة ، ومنح ذوى الأخلاق الكريمة أكبر قسط من العلوم والمعارف ، بحيث يعطى كل تلميذ على حسب مستواه .

---

(١) فيروا أحوال أبناء الدنيا ، وضعفهم بعد قوتهم ، فلا يغتروا بالدنيا وما فيها ، ويغفلوا — عن طاعة المنعم جل وعلا . — سورة محمد : ١٠ . (٢) سورة آل عمران : ١٩١ . (٣) هو أبو نصر الفارابى ، ولد بمدينة فاراب من بلاد الترك ، سنة ٢٦٠ هـ و ٩٤٩ م ، وتوفى بدمشق سنة ٣٣٩ هـ . وكان أبوه فارسى الأصل . والفارابى من أشهر فلاسفة الإسلام ، له مؤلفات كثيرة كتبها فى رسائل قصيرة فى الفلسفة والتربية وعلم النفس والمنطق ، والموسيقا ، والعلوم الرياضية ، والحكمة .

وله رسالة السياسة . وقد نشرتها مجلة الشرق الكاثوليكية فى سنتها الرابعة ، بدار الكتب ، رقم ١١٤ مجلات .

وذكر فى رسالته : « فيا ينبغى أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » أن يبدأ بعلم إصلاح الأخلاق ، وذلك أن من لم يصلح أخلاق نفسه لا يمكنه أن يتعلم علما صحيحا ، والشاهد على ذلك أفلاطون فى قوله : « إن من لم يكن نقيا زكيا فلا يدنو من نقى زكى . »

ويرى الفارابى أن إصلاح الأخلاق لا يكون بالقول فقط ، بل بالأفعال أيضا . وبعد إصلاح النفس الشهوانية يجب إصلاح النفس الناطقة ، بمعنى أنه يجب أن نعنى بالأخلاق العملية ، قبل أن نعنى بالأخلاق النظرية . وقد أجاد الفارابى فى ذلك أيما إجادة ، وإن رأيه يتفق مع آراء فلاسفة الأخلاق، وعلماء التربية فى القرن العشرين .

آراء ابن سينا فى مراعاة الميول الفطرية عند اختيار المهنة :

وقد طالب ابن سينا [1] بمراعاة ميول الصبى واستعداداته الفطرية ، وقدراته الطبعية، عند إرشاده إلى المهنة التى يختارها فى مستقبل حياته لخدمة بلاده حيث قال :

« ليس كل صناعة يرومها الصبى ممكنة له مؤاتية ، ولكن ما شاكل طبعه وناسبه . وإنه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة ما كان أحد غفلا من الأدب ، وعاريا من صناعة ، وإذاً لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب ، وأرفع الصناعات . . . وربما نافر طباع الإنسان جميع الآداب والصناعات ، فلم يعلق منها بشىء . . . ولذلك ينبغى لمدبر الصبى إذا رام اختيار صناعة أن يزن أولاً طبع الصبى ، ويسبر قريحته ، ويختبر ذكاءه . فيختار له الصناعات بحسب ذلك » .

وهى نصيحة ثمينة لابن سينا ، ينصح فيها المربين ، من الآباء والمعلمين ، الذين يرومون اختيار صناعة من الصناعات لصبى من الصبيان ، أن يزنوا طبع الصبى أو ميله ويعرفوه، ويختبروا قريحته وعقله وذكاءه ؛ حتى يختاروا له من الصناعات ما يناسب ميله وعقله . وهذا رأى من أثمن الآراء فى التربية الحديثة . فهو يرى أن من الواجب البحث عما يناسب ميول الصبى وطباعه وغرائزه ، ومراعاتها فى اختيار ما يرغب التخصص به فى

(١) فى كتاب السياسة له ، وابن سينا : طبيب عربى، وفيلسوف إسلامى، وعالم نفسانى (٣٧٠هـ – ٤٢٨هـ).

المستقبل . فإذا أحب الدراسة العقلية أو العلمية أرشد إليها ، وأعطى الفرصة فى دراسة ما يريد ، وإذا رغب فى الناحية العملية شجع عليها ، وإذا كان يميل إلى الدراسة الأدبية وجه إليها . وهذا ما ننادى به اليوم فى عالم التربية .

فمن كان يميل بطبيعته إلى العلوم الرياضية لا يمكنه أن يفوق فى الدراسة الأدبية ، وليس من السهل أن يظهر المتعلم الفوق والنبوغ والمهارة فى كل مادة يدرسها ، ولكنه يستطيع أن يفوق وينبغ ويكون ماهراً فى المواد التى يحبها ويميل إلى دراستها ، أما المواد التى يكرهها وينفر منها فمن المحال أن يتفوق فيها ، فكل متعلم ميسر لما خلق له . وهذا ما يريده ابن سينا بقوله : « وربما نافر طباع الإنسان جميع الآداب والصناعات ، فلم يعلق منها بشىء . » ولو كان من السهل أن يحقق المتعلم كل ما ينبغى لكان أديباً أو عالماً أو رياضيًّا ، أو طبيباً كما أراد ، ولكن ميول الشخص وذكاءه وعقليته هى التى تتحكم فى فوزه أو خيبته ، وتؤثر فى نجاحه أو إخفاقه .

ابن سينا يعالج المرضى بالتحليل النفسى :

وقد كان لابن سينا صيت ذائع فى علاج المرضى بطريقة التحليل النفسى التى ينادى بها علماء النفس فى القرن العشرين . ومما يؤثر عنه : أن رجلا أصيب (بالماليخوليا) قد أخذ منه المرض كل مأخذ . حتى وصلت به الحال إلى أنه كان يعتقد أنه قد أصبح بقرة . وقد امتنع عن الطعام والشراب مع بنى الإنسان ، وأصبح يقلد الأبقار فى خوارها . ويحب تعهد أمكنتها ، والأكل معها ، وما زال كذلك حتى خارت قواه ، وضعف جسمه .

فعرضه ذووه على الأطباء ، فعجزوا عن علاجه ، وكان ابن سينا — إذ ذاك مشهوراً بمهارته فى التطبيب النفسى ، وعلاج مرضى العقول ، فلم يكن هناك مفر من استدعائه لمعالجة هذا المريض . فلما حضر أمر بإحضار المريض أمامه . فلما مَثل بين يديه ، قال له ابن سينا : ما بالك ؟ وما الذى حلّ بك ؟

فأجابه : لم يحل بى شىء سوى أننى أصبحت بقرة ؛ آكل ما تأكل البقر ، وأفعل ما تفعل .

فقال له ابن سينا : إذن نذبحك .

فقال : افعل ما تشاء .

فأمر ابن سينا بأن يقيد المريض بحبل ، ويلقى على الأرض . ويؤتى بسكين حاد . فلما أتى إليه بالسكين أخذه وأهوى على المريض . متظاهراً بأنه يريد ذبحه . فلما قرب من نحره والسكين فى يده ، قال له : ما بال هذه البقرة هزيلة ؟ إنها لا تصلح للذبح .

قال المريض : نعم ، إنها تصلح للذبح فاذبح .

قال ابن سينا : لا ، لن أذبحها حتى تمتلئ لحما وشحما .

فقال المريض : وما ذا أفعل حتى أصير سميناً ؟

فأجابه : تأكل (أكلا صحيا) ، وتشرب كما يأكل الناس ويشربون .

فقال المريض : أو تذبحنى إن فعلت ذلك وأصبحت سمينا ؟

فقال ابن سينا : نعم . ثم أخذ على نفسه العهود والمواثيق أن يفعل كما أمر ، وأخذ يأكل ويشرب فى حال عادية ، فعادت إليه صحته الطبعية ، وقوى جسمه ، فارتد إليه عقله ، وذهب عنه المرض .

ثم زاره ابن سينا بعد ذلك ، فلما رآه سليم الجسم والعقل ، قال : ما بال هذه البقرة قد سمنت ؟

فأجاب : نعم ، وقد أصبحت عاقلة .

وقد روى أنه عرض على ابن سينا أحد الأمراء ، وقد أعيا الأطباء أمره . فلما رآه وخاطبه فى شأن مرضه تبين له أن مرضه هو الحب . ولم يشأ المريض أن يبوح باسم محبوبته . ولما علم ابن سينا أن شفاء المريض متوقف على معرفة محبوبته ، وإزالة ما عنده من وجدانات وعواطف كامنة مرتبطة بها ، أخذ على عاتقه أن يعرف اسمها بأى وسيلة . فأمر بإحضار أكبر سكان المدينة سنا . فلما حضر قال له : أتعرف شوارع هذه المدينة وسكانها ؟ قال : نعم ، فأمره بأن يذكر أسماء الشوارع شارعا شارعا ، وهو قابض على

يد المريض ؛ ليتحقق من مقدار سرعة نبضه . فلما ذكر الرجل اسم أحد الشوارع أسرع نبض المريض . فأمر الرجل أن يذكر أسماء الشوارع المتفرعة من هذا الشارع ، فلما أتى إلى اسم أحدها ازدادت سرعة النبض ثانية . فأمر الرجل أن يقص عليه أسماء البيوت الواقعة فى هذا الشارع الصغير ، فلاحظ ابن سينا ازدياد نبضه عند ذكر أحد البيوت ، فقال له : أخبرنى عن أسماء سكان هـذا البيت من الفتيات . فلما أتى اسم المحبوبة أسرع النبض .

فالتفت ابن سينا إلى المريض ، وقال له : أليست هذه محبوبتك ؟

فأجابه : نعم . وبالبحث علم أنها ابنة عمه ، وأن الشاب كان يحبها حبا جما ، ولم يجرؤ أن يذيع سره خوفا من أهله . ولـكنهم لما علموا أن شفاءه فى التزوج بها زفوها إليه ، فبرأ من مرضه ، وعاد إلى حالته الطبعية .

كيف نعامل التلاميذ فى نظر الغزالى ؟

وقال الغزالى(١) فى كتاب الإحياء (ج ٣ . ص ٥٣) من (كتاب رياضة النفس وتهذيب الأخلاق) ، مشيرا فى معاملة الأطفال إلى مراعاة أحوالهم وسنهم ، وأمزجتهم ومقدرتهم : « وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم ، كذلك المربى لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلـكهم ، وأمات قلوبهم . وإنما ينبغى أن ينظر فى مرض المريد وفى حاله وسنه ، ومزاجه ، وما تحتمله نفسه من الرياضة ، ويبنى على ذلك رياضته » .

وهذا ما ينادى به علماء النفس والتربية اليوم ؛ من مراعاة مستوى الأطفال ومقدرتهم ، وميولهم وأمزجتهم . وفى صفحتى ٦٢ و ٦٣ من الجزء الثالث يقول : « اعلم أن الطريق فى رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها . والصبى أمانة عند

---

(١) هو قدوة المربين ، وحجة المسلمين ، ولد سنة ٤٥٠ هـ . وتوفى سنة ٥٠٥ هـ . وفى كتابه : « إحياء علوم الدين » كثير من الآراء السديدة فى التربية والتعليم .

والديه . . . فإن عوِّد الخير وعلِّمه نشأ عليه . . . وإن عوِّد الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك . . . (وإذا أخطأ[1]) فإنه (ينبغى أن يعاتب سرا) . ويقال له : ... إياك وأن تعود بعد ذلك لمثل هذا . . . ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين ؛ فإنه يهون عليه سماع الملامة ، وركوب القبائح ، ويسقط وقع الكلام من قلبه . وليكن الأب حافظا هيبة الكلام معه ، فلا يوبخه إلا أحيانا . . . (وينبغى أن) يعود فى بعض النهار المشى والحركة والرياضة ؛ حتى لا يغلب عليه الكسل . . . وينبغى أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتّاب أن يلعب لعباً جميلا يستريح إليه من تعب المكتب ، بحيث لا يتعب فى اللعب . وينبغى أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه ، وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبى » .

فالغزالى يرى أن تربية الأطفال من أهم الأمور ، وأن الصبى خلق قابلا للخير والشر جميعاً ، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين . قال صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . وهو الرأى السائد بين علماء النفس والأخلاق . وينصح لنا بمعاتبته سرا إذا أخطأ ، وعدم الإكثار من العتاب ؛ كى يكون له أثر فى قلبه ، وألا نوبخه إلا أحيانا . ويرشدنا إلى تعويده المشى والحركة والرياضة البدنية ، واللعب الحر الخفيف الذى لا يؤدى إلى التعب ، وتعويده إطاعة مربيه ، وكل من هو أكبر منه سنا . وهذه كلها تعد أهم مبادئ التربية الحديثة التى ننادى بها الآن .

كيف نؤدب الطفل فى نظر ابن خلدون ؟

وقال ابن خلدون[2] فى المقدمة ، صفحة ٦١٩ : (فصل فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم) : « وذلك أن إرهاف الحد فى التعليم مضر بالمتعلم ، ولا سيما فى أصاغر الولد ؛

---

(١) ما بين قوسين زيادات (لمؤلف روح الإسلام) .

(٢) هو كاتب قدير ، ومؤرخ كبير ، ولد سنة ٧٣٢ هـ ، وتوفى سنة ٨٠٨ هـ . وقد ذكر فى مقدمته كثيرا من الآراء السديدة فى التربية والتعليم .

لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره ؛ خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقا ... فينبغى للمعلم فى متعلمه ، والوالد فى ولده ألا يستبدوا عليهم فى التأديب . . . » .

وهو بهذا ينادى بأن الشدة والظلم والاستبداد فى معاملة الأطفال تضرهم كل الضرر ، وتؤدى إلى حزنهم ، وكسلهم ، وتحملهم على الكذب والخبث ، والمكر والخداع ، والتظاهر بغير ما فى الضمير ؛ حتى تصير عادة وخلقاً لهم . فينبغى أن نستعمل الحكمة والحزم ، والعطف والشفقة فى تربية الأطفال وتأديبهم .

عبد الرحمن بن الجوزى ومراعاة الاستعداد الفطرى لدى المتعلم :

وقد عنى عبد الرحمن بن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧ هـ) كل العناية بتوضيح أهمية الاستعدادات الفطرية التى لدى الصبى ومراعاتها فى تربيته وتعليمه ، حيث قال : « إن الرياضة لا تصلح إلا فى نجيب ، والكودن[1] لا تنفعه الرياضة . والسبع — وإن ربى صغيرا — لا يترك الافتراس » . ومعنى هذا أن للذكاء والغباوة أثرا كبيرا فى نجاح المتعلم أو إخفاقه فى الناحية العلمية ، وأن النجيب الذكى يصلح للرياضة ، ويستطيع أن يدرسها ، ويفوق فى دراستها ، وأن الكودن — وهو البليد الغبى — لا تنفعه الرياضة ، ولا يمكنه أن ينجح فى المواد التى تحتاج إلى نجابة وذكاء ، ولا يستطيع أن يفوق فيها . والسبع مفترس بفطرته ، ولن تحوله التربية من حيوان مفترس إلى حيوان مستأنس أليف ، هادئ وديع لا يضر أحدا ؛ لأن الطبع يغلب التطبع . قال الشاعر العربى :

إذا ما المرء لم يولد لبيبا ‏ ‏ ‏ ‏ فليس بنافع قدم الولاده

(١) الكودن : الفرس الهجين والبغل والفيل والبرذون .

وهو يقصد بهذا أن الإنسان إذا لم يولد ذكيا ، فإن قدم الولادة أى كبر السن لن ينفعه ، ولن يؤثر فيه . وإذا رزق أحد الأثرياء طفلا فى منتهى الغباوة فلن يستطيع بثروته أن يحوله من غبى جدا إلى ذكى أو فائق الذكاء . فالذكاء وراثى ، وهو هبة فطرية من الله ، بها يستطيع الإنسان أن يحل ما يعترضه من المشكلات فى الحياة . فالذكى ذكى بفطرته ، والغبى غبى بطبيعته . والذكى وهو طفل ذكى وهو رجل ، والغبى فى طفولته غبى فى رجولته . هذا مانراه .

رأى الزرنوجى فى التعليم :

وقد أوصى الزرنوجى فى كتابه : « تعليم المتعلم » ألا يختار الطالب وحده المادة التى يريد أن يتخصص بدراستها ، بل يشترك معه المدرس بما أوتى من خبرة وتجربة فى اختيار ما يلائمه من العلوم ، وليس لدينا ما يمنع من أن يختار الطالب المواد التى يميل إليها ، مسترشدا برأى أستاذه فى الاختيار ، بشرط ألا تهمل ميول الطالب من الناحية العلمية .

وهذه الآراء كلها ثمينة ، تدل على عظمة ـ فلاسفة الإسلام ، وما كان لديهم من أفكار ناضجة فى تربية الطفل ونفسيته ، والوراثة ، والاستعدادات الفطرية ، والميول الطبعية ، فى وقت كانت العقول فى أوروبة مغلقة ، والآراء فجة .

وفى الختام أسأل الله الهداية والتوفيق .

كلمة تقـــدير
للأستاذ الـكبير الشيخ محمد أبو زهرة
عن كتاب « روح الإسلام[1] »

١ ـ هذا كتاب أخرجه للناس الأستاذ محمـد عطية الإبراشى ، مبيناً فيه مبادئ الإسلام ، المتعلقة بالعلاقات الاجتماعية بين النـاس ، وتنقية القلوب ، وتربية الضمائر ، وإقامة مجتمع سليم يقوم على دعائم من المودة والرحمة والـكرامة الإنسانية ، والمساواة العادلة التى تقوم على أساس من القسط ، والميزان المستقيم .

وإن الأستاذ الإبراشى قد تهيأ له من الأسباب ما يجعله من أقدر الناس على القيام بعبء العمل فى مثل هذا الـكتاب الذى أخرجه ، فهو قد ابتدأ حياته الأولى بدراسة إسلامية خالصة ، حتى بلغ فى هذه الدراسة شأواً نال به إجازة دار العلوم ، ثم سافر من بعد ذلك إلى انجلترا ليتمم دراسته ، فأتم فيها الدراسة فى علوم النفس والتربيـة ، وعاد مسلماً كما ذهب ، لم ينل إيمانه شك أو حيرة ، ولم يزغ قلبه كما زاغت قلوب بعض القلة ، ممن هجروا ماضيهم إلى غير حاضر أو مستقبل ، بل كانوا حائرين بائرين ، لا يملأ قلوبهم إيمان ، ولا يوثق عرا الأخلاق فيهم قومية رابطة ولا تدين حاكم .

وقد عالج نفوس الجماعات بالدراسات النفسية والخلقية المستمرة بين التلاميذ ، وسائر الشباب والمجتمعات ، كما اطلع على كل ما كتب الأوربيون فى الإسلام أو على الـكثير منه ، وانتهى من اطلاعه إلى أن وجد التعصب يلقى غشاوة على الحقائق ، ويضع حواجز بين الحق وبين المثقفين فى الشعوب الأوروبيـة والأمريكية وغيرها ، وهو فى كل ما يقرأ ويبحث ، ويدرس ويفحص ، يتلمس جوهر الإسلام وروحه مما كتب فى العربية ، وما اشتمل عليه الينبوعان الصافيان من كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وينتهى من دراسته إلى أن يقول صادقاً : « لو كلفت أن أختار الدين الذى أومن

---

(١) الطبعة الأولى .

به إيماناً ثابتاً عن عقيدة راسخة فى القلب ـ ما اخترت غير الإسلام ديناً؛ لأنه دين الفطرة السليمة ، والطبيعة السمحة ، دين العقل والمنطق ، دين الدنيا والآخرة ، دين الحق والسلام ، دين (الديمقراطية) والعدالة الاجتماعية ، دين التضامن والتعاون والتكافل الاجتماعى ، دين الحرية والإخاء والمساواة ، دين العطف والرحمة الإنسانية ، دين الصفح والعفو عند المقدرة . . . . » .

٢ ـ وبذلك الصوت القوى الذى جلجل فى نفسه ، وبتلك الدراسات العميقة كتب كتابه (روح الإسلام) ، وقد اتجه فى هذه الدراسة إلى عرض الحقائق الإسلامية ، ومعانيها ، وحكمها وغاياتها ومراميها ، من غير أن يتعرض لشكلها إلا قليلا ، وإنه كان يقرن بالإسلام فى رجاله وأعمالهم وأخلاقهم التى اقتبسوها من أخلاق محمد صلى الله تعالى عليه وسلم.

وقد ابتدأ الكلام فى الفصل الأول بعنوان روح الإسلام ، فذكر السماحة والإخلاص والرحمة والتعاطف التى اتصف بها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ودعا إليها ، ويذكر ما كان بين الصحابة رضى الله عنهم من إخلاص وإيثار ، ورغبة فى إقامة الحق ونصرته ، ويرى أن أصدق ما يتمثل فيه روح الإسلام قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « أوصانى ربى بتسع ، أوصيكم بها ، أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية ، والعدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمنى ، وأعطى من حرمنى ، وأصل من قطعنى ، وأن يكون صمتى فكراً ، ونطقى ذكراً ، ونظرى عبراً » .

ولقد بين فى هذا الفصل أن الإسلام يتجه إلى الإخاء والمساواة والحرية ، ونفذها بحق وصدق وعمل ، وسبق الأوروبيين الذين تنادوا بها بأكثر من أحد عشر قرناً ، وإن لم يتجاوز النداء حناجرهم ، ولم يصل قلوبهم .

ويسترسل الكاتب الكريم فى بيان ما كان من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أفعال فى تكريم الإنسانية عامة من غير تخصيص بلون ، أو جنس ، أو لغة ، أو إقليم ، وكيف حارب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم العصبية ليقتلع العنصرية من جذورها ، فيقول عليه السلام : « ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من

قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » . . . ويستمر فى استقراءاته لآيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم التى تدل على التعاون الإنسانى العام ، ويثبت أن الإخاء والمساواة والحرية والتعاون والكرامة الإنسانية كلها معان نفسية .

ويقرر فى نهاية ما استنبطه من آثار وآيات وأحاديث : « أن الإخلاص فى القول والعمل والسر والعلانية عماد كل نجاح فى كل أمر دينى أو دنيوى » .

ويتأدى به البحث فى اتجاهه إلى أن روح الإسلام تتطلب العناية التامة من الراعى لرعيته ، لا فى الأمور الكلية ، بل فى الأمور الجزئية ، ويثبت أنه من تعرف الأحداث الجزئية يستطيع أن يقرر المبادئ العامة الصالحة ، لأن المبادئ العامة يجب أن تكون قريبة من نفوس الرعية ، ومثله كمثل الطبيب يعالج أسقام أجزاء الجسم ليسلم كله ، ويذكر فى ذلك ما كان من عمر بن الخطاب فى عسسه بالليل ، وتتبعه أحوال الرعية جزئيها وكليها .

وفى الجملة كان فى هذا الفصل من كتابه يتعرف روح الإسلام من أهله ، ومن القوامين عليه ، ومن وصايا النبى عليه السلام ، وأحكام القرآن الكريم ، ويبين ما يراه فى نثير من القول قد يكون جماله فى أنه جواهر منثورة لها بريق فى انتثارها ، كما أن لها جمالا فى انتظامها ، وإن كنا نميل إلى أن يتجمع الجمال فى عقد منظوم .

٣ — فى الفصل الثانى يتجه إلى أول مظهر للروح الإسلامية ، وهو الأخلاق الكاملة التى دعا إليها ، فيبين ما دعا إليه الإسلام من تهذيب للأخلاق الشخصية ، وتنظيم للسلوك الإنسانى العام ، فيبين ما حرمه من مساوئ الأخلاق من كذب وخيانة ونفاق وغش .

ثم يتجه إلى بيان الفضائل الإيجابية التى تكون مجتمعاً فاضلا فى كل عناصره ، فيبين ما دعا إليه من فضائل فى علاقة آحاد الأسرة بعضهم ببعض ، ويبين الفضائل فى

علاقة الأبناء بآبائهم ، والأقارب بعضهم مع بعض، والتبعات الملقاة على كل آحاد الأسرة فى التضافر بينهم .

ولا يضن على القرطاس بما يجب على الآباء والذين يتولون أمور النشء وهو لدن من تربيتهم على الأخلاق الفاضلة ، ويبين فى هـذا المقام أن التربية يجب أن تقوم على تربية الخلق ، وتقوية الإرادة ، ووضع شكائم نفسية تضبط الشباب ، والعود أخضر . ويقول الـكاتب فى ذلك : « إن الغرض الجزئى والـكلى من التربية والتعليم يمكن أن يلخص فى كلمة واحـدة هى الفضيلة ، بإيجاد حياة طاهرة مقدسة ملؤها الإخلاص . وإن التربية الحديثة توجب علينا أن نذكر دائماً أننا لسنا فى حاجة إلى العلم فحسب ، ولـكنا فى حاجة إلى كثير من الأخلاق الفاضلة » .

ويسترسل فى بيان صلة الفضيلة بالتربية مستشهداً بأقوال علماء الغرب الذين عالجوا النفوس ، ولـكنه لا يستشهد بأقوال أولئك العلماء على أنها البناء الذى تقوم عليـه فـكرته ، بل يذكرها مبيناً سبق القرآن والسنة والمبادئ الإسلاميـة فى ذلك سبقاً بعيداً .

ويضرب الأمثال الـكثيرة مما أثر عن النبى صلى الله تعالى عليـه وسلم من صفات وسجايا ، ومعاملة تسير على قانون خلقى مستقيم لا عوج فيه ، ولا اضطراب ، ويردد فى ذلك أقوال النبى عليه السلام فى الأخلاق الفاضلة والدعوة إلى التمسك بها ، ويعتمد على القرآن الـكريم فى كل مايورد من أدلة .

٤ ـ وينتقل من الأخلاق التى دعا إليهـا الإسلام لتنظيم العلاقات بين الآحاد ، ولتربية الضمير وتهذيب الوجـدان ، لأن ذلك هو الأساس للترابط الاجتماعى الوثيق القائم على أساس من المودة والفضيلة إلى الـكلام فى علاقات الأمم ، فيبين أن الأساس فى علاقة الأمم والشعوب هو السلام وليس الحرب والخصام ، ولقد أخذ ذلك من حياة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلاقته مع مخالفيه ودعوته لهم بالتى هى أحسن من غـير

مشاحة ولا شحناء ، بل بصبر على الأذى ، ومصابرة لهم ، وفى سبيل ذلك وضع الإسلام المبادئ العامة لاستقرار السلم فى الأرض بالدعوة إليه ، وإقامة العدالة التى لا يمكن أن يستقر سلم إلا إذا أقيم على دعامتها ، ثم يبين الدعامة الثانية للسلم ، وهى الوفاء بالعهود العادلة التى أخذت اختياراً ولم تؤخذ اضطراراً ، وخصوصاً عهود الأقوياء للضعفاء ، وكان حقًّا عليه أن يبين فى هذا المقام مادعا إليه الإسلام من نصرة الضعفاء من الأمم والشعوب، ويستدل على ذلك بما قاله النبى عليه السلام فى هذا المقام من مثل قوله عليه السلام : « أبقونى فى ضعفائكم ، إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم . » ومن مثل تأييد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لحلف الفضول الذى عقد قبل بعثه عليه السلام ، وفيه تعاهدت طائفة من فضلاء قريش : « ليأخذن للضعيف من القوى ما بل بحر صوفه ، وما رسا ثبير وحراء ، » أى ما بقى الزمان .

ولقد بين فى هذا الفصل (الرابع) أن الإسلام لم تقم دعوته على السيف ، بل على الحجة وعلى الرفق بالضعيف، ويسوق الأدلة التاريخية القاطعة فى هذا المقام ، ولا يضن على القرطاس بالبيان ، أثابه الله تعالى .

ويتكلم فى ذلك على الأخلاق النبيلة فى الحروب التى كان يضطر إليها المسلمون اضطراراً ، ولا يدخلون فيها اختياراً ، ثم يتكلم عن التسامح فى أعقاب الحروب التى ينتصر فيها المسلمون ، إذ يقولون : رحمة بالمغلوب ، ولا يقولون : ويل للمغلوب .

٥ ـ وفى الفصل الخامس يتكلم عن الحرية فى الإسلام ، فيتكلم عن الحرية الشخصية ، بحماية النفس ، وحماية المسكن ، وحماية العقيدة ، وحماية الفكر ، والدعوة إلى التفكير المستقيم ، وحرية إبداء الرأى بالقول ، وحرية التعلم ، وهو فى إثبات تلك القضايا يغترف من معين لا ينضب ، وهو معين الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح رضى الله تبارك وتعالى عنهم .

وفى هذا الباب يتكلم عن الرق فى الإسلام ، ودعوة النبى عليه السلام إلى العطف

بالرقيق ويسترسل فى الكلام فى الرق ، فيأتى بتاريخ الرقيق ، ووجوده فى كل الأمم قبل الإسلام ، وإقرار كل الشرائع له من غير استنكار مع الاتساع فى أسبابه ، ويبين أن الإسلام لم يبتدئه ، ولكنه جاء فوجده ، فضيق من أسبابه ، وخفف من معاملة الأرقاء ، وأعطاهم حقوقاً إنسانية كبيرة ، وفتح لهم باب العتق على مصراعيه ، واعتبره تكفيراً لكثير من الذنوب ، وجعله فى ذاته قربة من القربات ، وساق فى ذلك الأحاديث ، والآيات الواردة فى هذا الموضوع ، وبين أنه يمنع ضرب الأرقاء إلا لمعصية الله أى عقوبة لذنب ارتكبه فى جنبه ، لا لمخالفة له ، ويروى فى ذلك قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « اضرب عبدك إذا عصى الله ، واعف عنه إذا عصاك » . ويبين أثر أوامر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وهدايته فى أصحابه ، ويروى فى ذلك قول على كرم الله وجهه : « إنى لأخجل من نفسى إذا استعبدت رجلا يقول الله ربى » .

٦ ــ ويتكلم فى الفصل السادس عن الديمقراطية فى الإسلام ، فيتكلم عن المشاورة فى الإسلام ، ويسوق فى ذلك الآيات الموجبة لها التى تجعلها دعامة الحكم الصالح الذى لا يرهق الشعوب من أمرها عسراً ، ويبين أن الإسلام لا يقر الحكم بالوراثة ، ثم يسوق الأخبار عن النبى صلى الله تعالى وسلم ، وعن صحابته فى أخذهم بالشورى ، والنزول عند حكمها فى إدارة شئون الدولة ، وتنظيم أساليب الحكم ، بل فى إدارة الحروب .

ويشير إلى أن أساس الديمقراطية رفع منزلة الضعفاء ، وتقدير آرائهم وتفكيرهم ، وتشجيعهم على القول والعمل .

ويبين الشورى فى اختيار نظام الحكم ، أى فى أصله ، ويسوق أخبار الصحابة من بعد النبى عليه السلام ، وتأسيهم به فى عملهم من بعده .

٧ ــ وقد تكلم من بعد ذلك فى الفصل السابع عن العدالة فى الإسلام ، وفى هذا الفصل يتكلم عن حال العالم فى حكم الأكاسرة وملوك الروم ، ويتكلم بعد هذا على العدالة فى الإسلام ، بإعطاء كل ذى حق حقه ، ويتعرض ــ من غير إيغال ــ للعدالة فى

المعاملات ، ويبين أن تحريم الربا من قبيل العدالة فى المعاملة ، ويذكر أمر القرآن والسنة بالعدالة مع الولى والعدو على سواء ، ويذكر من سيرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأعماله مايدل على شدة إيمانه بالعدل ، وحث المسلمين قولا وعملا عليه ، ويبين فضل العدالة من الحاكم ، فيروى قول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : « لعمل الإمام العادل فى رعيته يوماً واحداً أفضل من عبادة العابد فى أهله مائة عام أو خمسين عاماً » ، كما يروى الآثار المروية عن مغبة ظلم الحاكم الظالم ، فيروى مثلا قوله عليه السلام : « أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه » ، ويروى أخبار الصديق وأخبار عمر ، ويعقد لكل خليفة من الراشدين جزءاً من هذا الفصل يبين فيه عدله ، ويروى فيه كلامه .

٨ — ويتكلم فى الفصل الثامن عن المساواة ، ويوازن فى هذا بين ماجاء به الإسلام ، وماجاءت به الثورة الفرنسية ، ويبين أنه لا سيد ولا مسود فى الإسلام ، وأنه لا تفاوت إلا بالعمل الصالح ، وأن الحقوق والواجبات متساوية ، ويبين أن الغرور هو الذى يوسوس لبعض الناس بالتعالى على غيرهم ، والتواضع هو الذى يذهب بالغرور ، ويحقق المساواة النفسية الصادقة ، وأن التواضع يؤدى إلى كمال التعاون وإلى كمال المؤاخاة ، وإلى كمال التصافى ، ولذلك كان حث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على التواضع ، ونهيه عن الغرور ، فإن مداخل الشيطان إلى نفوس الآحاد والجماعات تكون منه .

ويبين المساواة فى تطبيق القوانين ، كما يبين أن المساواة أساس الديمقراطية ، وإنه يبين أن المساواة لا تقتصر على التعامل مع المسلمين، بل تشمل غير المسلمين الذى يعيشون مع المسلمين ، لهم مالهم ، وعليهم ماعليهم .

ويسوق فى باب المساواة المعاملة الخاصة بالخدم والرقيق ، ويذكر فى ذلك الأخبار الكثيرة الواردة فى هذا المقام ، غير مكتف بالأمثلة ، بل كان يحاول الاستيعاب .

٩ — ويتكلم من بعد ذلك فى فصول الكتاب الأخيرة على التعاون فى الإسلام ،

فيتكلم على التعاون على البر والتقوى ، ويكرر الكلام فى عناية الحكام بشئون الرعية ، وعلى الأخوة الحق التى تربط المسلمين ، وأن التعاون مظهرها ، ثم يتكلم على حقوق الفقراء وعلى الضعفاء .

ويتكلم فى الفصل العاشر على التكافل الاجتماعى ، وكيف كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، ويتكلم عن الإحسان وتنظيمه ، وعلى غرس الروح الإنسانية فى الشعوب ، ويكرر القول فيما بين الأغنياء والفقراء ، ويتكلم عن العمل فى الإسلام ، وفضله وثمراته .

١٠ ـ ويختم الكتاب بفصل قيم فى التربية الإسلامية ، ويذكر فيه تحريض النبى صلى الله تعالى عليه وسلم على التعلم ، وحثه عليه ، ويبين الغاية من التعلم فى الإسلام ، وأثر العلم والتهذيب فى الجماعات الإسلامية .

ويطرق موضوعاً هو من أخص أهل الخبرة فيه ، وهو طرق التربية عامة ، وفى الإسلام خاصة ، ويخوض فى ذلك خوض العارف المتمكن ، ويذكر أوصاف المتعلم فى الإسلام ، وخواص المعلم المنتج ، ومايجب أن يتحلى به من صفات ، ثم يتكلم عن حقوق المتعلمين وواجباتهم ، ويخوض فى مبادئ التربية الإسلامية مبيناً مناحيها واتجاهها ، وما وصل إليه المفكرون فى الإسلام قبل علماء التربية الحديثة ، ويذكر فى ذلك حرص الإسلام على العناية بتربية الأجيال، حتى ليقرر أن الإسلام فيه: إن التربية للأبناء خير من الصدقة للفقراء .

ويبين فى هذا الفصل دراسات المسلمين للنفوس ، ويشرح ما سبق به ابن سينا من طرق العلاج للنفس، ويشير فيما يكتب إلى كبار المربين فى الإسلام كابن خلدون ، والغزالى وابن الجوزى .

١١ ـ والكتاب فيه ثروة مثرية من الأحاديث للوجهة المربية ، ففيه قبسة نبوية نورانية تهدى أولى الأبصار ، ويبين عناية الإسلام بالمجتمع آحاداً وجماعات وشعوباً ، وهو فيما

يكتب يستظل بظل القرآن ، ويهتدى بهدى النبي كاشفاً عن الجواهر المكنونة ، فيكشفها للناس ذات بريق مضىء .

والكتاب مكتوب بعبارات جزلة واضحة نيرة ، تعد من الكتابات بالفصحى التى لا تخالطها عجمة قط ، وهى نقية لا يشوبها خطأ فى نحو أو تسطير ، ومستقيمة فى منهاجها لا اعوجاج فيها ، فهى مثل للكتابة العلمية بالفصحى من غير توعر ، ولا مجافاة للمأنوس من الألفاظ والأساليب .

ونقول فى ختام تعليقنا على ذلك الكتاب القيم إنه جدير بأن يقرأه كل مثقف .

وفق الله العاملين لخير الإسلام ، ورفعة شأنه ، وبيانه للناس ؟

محمد أبو زهرة

المراجع العربية

(١) القرآن الكريم .
(٢) صحيح البخارى ومسلم .
(٣) العهد القديم .
(٤) العهد الجديد .
(٥) سيرة سيدنا محمد رسول الله المعروفة بسيرة ابن هشام لأبى محمد عبد الملك بن هشام .
(٦) السيرة النبوية لأستاذى الجليل المرحوم الشيخ محمد فخر الدين .
(٧) جامع البيان فى تفسير القرآن ، لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى .
(٨) الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد .
(٩) الملل والنحل لابن حزم .
(١٠) البداية والنهاية فى التاريخ ، لابن كثير الدمشقى .
(١١) تاريخ ابن خلدون .
(١٢) طبقات الأطباء ، لابن أبى أصيبعة .
(١٣) تاريخ الأمم الإسلامية للمرحوم الشيخ محمد الخضرى .
(١٤) محمد المثل الكامل للمرحوم التقى محمد أحمد جاد المولى .
(١٥) حياة محمد للمرحوم الدكتور محمد حسين هيكل .
(١٦) فجر الإسلام للمرحوم الأستاذ أحمد أمين .
(١٧) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للعالم الهندى السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى.
(١٨) المسلمون والإسلام للمرحوم الإمام الشيخ محمد عبده تحقيق المرحوم الأستاذ طاهر الطناحى
(١٩) عيون الأثر فى المغازى والشمائل والسير ، لأبى الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى .

المراجع الأجنبية

1 — The Spirit of Islam, by Sayed Amir Ali.
2 — The Preaching of Islam, by Thomas Arnold.
3 — Arabia before Mohammad, by O'leary.
4 — Life of Mohomet, by Washington Irving.
5 — Mohammad, by Margaliouth.
6 — Encyclopaedia Britannica, Article Mahomet.
7 — Life of Mohammad, by Sir William Muir.
8 — Heroes and Hero Worship, by Thomas Carlyle.
9 — Arabic Thought. by O'leary.
10 — History of Philosophy in Islam. by Boer.
11 — A Literary History of Persia,by Edward G.Browne.
12 — A Literary History of the Arabs, by A. Nicholson.
13 — The History of the Arabs, by P. Hitti.
14 — Arabic Literature, by H. Gibb.

فهرس الكتاب

الفصل الأول ـ روح الإسلام

الفصل الرابع ـ السلام روح الإسلام

الفصل الخامس ـ التسامح روح الإسلام

الفصل السادس ـ الإسلام يدعو إلى الحرية

الفصل العاشر ـ الإسلام دين المساواة

الفصل الثالث عشر ــ هذا هو الإحسان فى الإسلام

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٤	١١	لَحْمْ	لَحْمَ
٧٧	١٦	مَشَّاءٌ	مَشَّاء
٨٣	١٩	عباده	عباد
١٠٢	٧	أ كِنَّةً	أ . كِنَّةً
١٢٤	٨	فَأْجِرُهُ	فَأَجِرُهُ
١٣١	٢٠	بِالْأُذُنِ	بِالْأُذُنِ
١٣٨	٢٠	كُلِ	كُلٌّ
٢٠٦	١٤	جا ِ لُكَ	جاعِلُكَ
٣٥٦	٣،٥	قادر	قادراً

كتب للمؤلف

(١) روح الإسلام ، بمكتبة عيسى البابى الحلبى بسيدنا الحسين ، بالقاهرة .

(٢) عظمة الإسلام جـ ١ بمكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد بالقاهرة .

(٣) عظمة الإسلام جـ ٢ « « « ١٦٥ « « «

(٤) عظمة الرسول محمـــد صلى الله عليه وسلم ، بالشركة القومية للتوزيع ، ودار الـكاتب العربى بالقاهرة .

(٥) التربيةالإسلامية وفلاسفتها ، بمكتبة عيسى البابى الحلبى بسيدنا الحسين بالقاهرة .

(٦) روح التربية والتعليم « « « « «

(٧) الاتجاهات الحديثة فى التربية « « « « «

(٨) الطرق الخاصة فى التربية لتدريس اللغة العربية والدين .
بمكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة .

(٩) الطفولة صانعة المستقبل ، أو كيف نربى أطفالنا ؟
بمكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة .

(١٠) العلم شعار الثورة الثقافية ، بمكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة .

(١١) أصول التربية المثالية فى إميل لجان جاك روسو ، بدار الـكاتب العربى بالقاهرة .

(١٢) جان جاك روسو ، وآراؤه فى الإصلاح الاجتماعى « « « «

(١٣) علم النفس التربوى ، فى ثلاثة أجزاء ، بالاشتراك « « « «

(١٤) الشخصية ، الطبعة التاسعة بدار المعارف ، بشارع كورنيش النيل (مسبيرو) «

(١٥) أصول التربية وقواعد التدريس ، بمكتبة مصر بالفجالة «

(١٦) لغة العرب وكيف ننهض بها ، بمكتبة النهضة المصرية ، بشارع عدلى «

(١٧) التربية والحياة . (نفد) .

(١٨) علم النفس للجميع (تحت الطبع) .

(١٩) مشكلة التعليم الأولى بمصر (نفد) .

(٢٠) من وحى الثورة . بدار الكاتب العربى ، بالقاهرة .

(٢١) قصص إنسانية لشارلز دكنز (تحت الطبع) بدار الكاتب العربى ، بالقاهرة .

(٢٢) المفصل فى اللغة السريانية وآدابها ، طبعة وزارة التربية (نفد) .

(٢٣) الأساس فى اللغة العبرية ، بالاشتراك « « « «

(٢٤) الآداب الساميّة (نفد) .

(٢٥) أبطال الشرق ، بلجنة البيان العربى بشارع أمين سامى بالمنيرة ، بالقاهرة .

(٢٦) مشكلاتنا الاجتماعية « « « « « « « «

(٢٧) قصص العظماء بدار المعارف «

(٢٨) قصص فى البطولة والوطنية « « «

(٢٩) أروع القصص لشارلز دكنز « « «

(٣٠) قصص من الحياة « « « « «

(٣١) المكتبة الحديثة للأطفال ، ٦٠ كتاباً « « «

(٣٢) المكتبة الخضراء ٨ كتب « « «

(٣٣) مكتبة الطفل ، ١٠٠ كتاب ، بمكتبة مصر ، بشارع كامل صدقى «

(٣٤) المكتبة الذهبية من أدب الأطفال ١٥ كتاباً ، بمكتبة الأنجلو المصرية «

(٣٥) مكتبة التلميذ ، ١٠ كتب ، بمكتبة النهضة المصرية «

(٣٦) نظام التربية والتعليم بانجلترا (نفد) .

(٣٧) الموجز فى الطرق التربوية لتدريس اللغة القومية ، بالاشتراك .

(٣٨) أحسن القصص ، فى ثلاثة أجزاء ، بالاشتراك (نفد)

(٣٩) أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامى :

سيبويه ، وابن سينا ، وياقوت الحموى ، بالاشتراك .

(٤٠) أعلام الثقافة العربية ونوابغ الفكر الإسلامى :

الجاحظ ، ابن الهيثم ، الفارابى ، ابن خلدون . بالاشتراك

(٤١) أعلام الثقافة العربية ، ونوابغ الفكر الإسلامى :

جابر بن حيان ، القاضى الجرجانى ، أبو الريحان البيرونى ، بالاشتراك .

(٤٢) البطولة المصرية فى سيناء وبور سعيد ، بالاشتراك بمكتبة مصر بالفجالة بالقاهرة .

(٤٣) أبطالنا الفدائيون » » » » » » »

(٤٤) قصص علمية مبسطة للأطفال » » » »

(٤٥) المكتبة الزرقاء للأطفال : ٦٠ كتاباً » » » »

(٤٦) قصص دينية للأطفال : قصة المصطفى صلى الله عليه وسلم » » »

(٤٧) » » » » : قصة عمر بن الخطاب : ثلاثة أجزاء » » »

(٤٨) سلسلة العظماء : خالد بن الوليد ، مكتبة الأنجلو المصرية »

(٤٩) سلسلة العظماء : صلاح الدين الأيوبى » » » »

(٥٠) محمد فريد .

(٥١) كتب مدرسية متنوعة ، بدار المعارف (مسبيرو) القاهرة .

رقم الإيداع

٢٠٠٣/١١٨٤٣

I-S-B-N 977-01-8622-8

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة
نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ
على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام
الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية
والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر
المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع
والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى
مسيرتها الحضارية.



التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ٤ جنيهاً